إيلبير أورتايلي
İLBER ORTAYLI

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

الغازي مصطفى كمال
أتاتورك
ATATÜRK

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الغازي مصطفى كمال

أتاتورك

ATATÜRK

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

الغازي مصطفى كمال
أتاتورك
ATATÜRK

إيلبير أورتايلي

ILBER ORTAYLI

ترجمة

مجد الدين صالح

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرّحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل التركي
Gazi Mustafa Kemal ATATÜRK
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Kronik Kitap
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © Kronik Kitap 2018 Istanbul Turkey www.kronikkitap.com
All rights reserved
Arabic Copyright © 2018 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2019 م – 1440 ه
ردمك 978-614-02-3646-2
جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb
facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدالر العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف (1-961+) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف (786233 (1-961+

المحتويات

الإهداء 7

المقدِّمة 9

1– الجيل الذي أحيا الإمبراطورية 17

جيل ثمانينات القرن التَّاسع عشر 19

2– أراد دائما أن يكون عسكريا 39

التَّعليم العسكري 41

3– سنوات الحرب العالمية الأولى 99

ما قبل الحرب العالمية 101

4– قائد الاستقلال الوطني 147

ما قبل النضال الوطني 149

5– الطَّريق إلى الجمهورية 231

ملاحظاتٌ حول إلغاء السَّلطنة... 233

6– عهد الثَّورات (التغييرات) 289

نظرة عامة على الثَّورات (التغييرات) 291

7– رئيس الجمهورية 379

الرجل الواحد 381

8– الرجل العظيم: أتاتورك 411

الصِّفات الشَّخصية لأتاتورك 413

إلى ابنتي تونا

وحفيدي دينيز علي

وأصدقائهما

مع أمنياتي لهم بالحياة في وطنٍ سعيدٍ

وأن يكونوا فخورين به.

مُقَدِّمَة

تحيي تركيا في العام 2018 الذكرى الثَّمانين لرحيل القائد الكبير مصطفى كمال أتاتورك. ويمكننا تناول تأثير ذكرى وفاته كما لو أنَّه فيلسوفٌ أو فيزيائيٌّ وضع نظاما لم يتغير مع مرور الزَّمن. ولكن بالنِّسبة لرجال الدَّولة والسِّياسيين فإن حالة الخلود وحالة الشَّوق لهم ليستا غالبا موضع بحثٍ. بينما لو كنَّا سنتحدث عن رسَّامٍ أو موسيقيٍّ لتوجَّب علينا استخدام مصطلحات كمصطلحات نيتشه[1] في الحديث عن فن ديونيسيا. ويمكننا كمثالٍ تبني التعابير التي قالها السِّياسي الشَّهير إدوارد هيريو[2] عن بيتهوفن والتي لا تتبدل، إذ أجاب هيريو عن سؤال: "ما هو الأكثر وميضا من أشعة النُّجوم؟" قائلا: "السِّيمفونية التَّاسعة لبيتهوفن"[3]. ومن المؤكد أنَّ التقييم بهذا الشكل سيكون صعبا عندما يتعلق بقائدٍ كبيرٍ في القرن العشرين. ولكن وسط كل ذلك هناك استثناءٌ لشخصيةٍ واحدةٍ على المستوى المحليِّ وعلى المستوى العالميِّ.

إذا نظرنا مثلا إلى روسيا فإنَّ القيصر والشَّخصيات الكبيرة في الجيش الأبيض مثل أنطون دينيكين[4] ورانغل[5] وألكسندر كيرينسكي[6] لم يستطيعوا الوقوف في وجه الزَّمن لفترةٍ طويلةٍ. لأنَّ الرأسمالية التي أرادوا هدمها هي التي وضعت لاحقا الشُّروط للعالم، بينما تراجعت إلى الوراء نظريتهم الاشتراكية التي ابتدعوها.

وكذلك فإنَّ وعود الألف عام التي بشَّر بها الرايخ الألماني، والذي أوصل الألمان إلى الموت، ذهبت إلى مزبلة التاريخ بعد عشر سنواتٍ فقط.

أمَّا الذي بقي فقط فهو مؤسس الجمهورية التُّركية والماريشال الأخير لتركيا، والذي ما زال يحافظ على مكانةٍ ممتازةٍ بين الماريشالات الأتراك.

وما زال الشَّعب التُّركيُّ يعود إلى عصر مصطفى كمال أتاتورك ويستذكره كلما أصبح النِّظام السِّياسي في تركيا ضعيفا.

والسُّؤال: كيف يمكننا الحديث عن الغازي مصطفى كمال أتاتورك في ضوء هذه التَّطورات؟

فهو القائد العام الذي غير تاريخ تركيا ومجتمعها، بغض النَّظر عن أي اعتبار، والذي ستبقى آثار أعماله في مجال الحقوق والثَّقافة دون تغيير.

وحتى التَّبدلات التي طرأت على النظام الأساسي مع مرور الزمان لم تكن إلاّ ضمن الإطار الذي وضعه هو لها. وبالتَّالي فإنَّه لا يمكن لتركيا أن تعود كما كانت قبله.

إنَّ الأكثر أهمية هو فكر تقييم الماضي والتَّعايش معه، وهو ما يعني تحمل الإرث الممتد إلى القرن العشرين.

فهناك العديد من التَّغيرات تحصل خلال فترةٍ قصيرةٍ، ولكن يتبين بعد مدةٍ أنَّ أغلبها لا يستمر، لأنَّه من غير الممكن تحقيق الثَّورة داخل شعبٍ في فترةٍ قصيرةٍ. أمَّا عندما يُفتَح الباب ولا يُغلَق ثانية فيمكننا أن نقول عندها إنَّ هنالك ثورة.

وقد أدخل الغازي مصطفى كمال أتاتورك تركيا بمرحلة تطورٍ من خلال الأمور التي فعلها وأيضا من خلال الأمور التي لم يتمكن من فعلها.

إنَّ إحدى النُّقاط المهمَّة التي يجب الوقوف عندها هي الشَّعب والدَّولة، فقد كانا خلال تلك الفترة سببا للحرب العالمية، بينما عاشت تركيا بعد عام 1920 بسلامٍ، وتمَّت كلُّ التَّطورات في تلك المرحلة الآمنة في ظل الدستور.

وفي ذلك الوقت لم يكن الجميع قادرين على فهم وتقييم هذه الأمور، وحتى اليوم ماتزال تلك مشكلة فعلية، إلاَّ أنَّ العالم الذي توجد فيه هذه المشكلة لم يتمكن من تنظيمها بعد، فما زالت الأسئلة والتناقضات في حالة تضادٍ كبيرةٍ ومستمرة.

وبالرغم من أنَّ آمالنا كانت وردية في ستينات القرن الماضي إلا أنَّها سرعان ما تحوَّلت إلى جحيمٍ أحمر، وأصبحنا نعيش في عصرٍ لا يوجد فيه أملٌ. وهنا يأتي أتاتورك على رأس قائمة

الأسماء التي يتعلق بها الأتراك في زمنٍ كهذا الزَّمن.

إنَّ التَّاريخ لا يخضع للقوانين، فالتَّحليل والتَّوصيف المستخدمَين في النظرية التاريخية يمكن وصفهما بالحذرين مقارنة بباقي العلوم الاجتماعية.

فتلك الأساليب القطعية كعلم الآثار والحفريات تُعتبر غير قابلةٍ للشَّك، لأنَّها كانت تستخدم مصادر علم السِّياسة والكتابات القديمة وقطع النُّقود القديمة في التأريخ للوقائع. أما عندما يقوم المؤرخون بتكوين الوقائع فإنهم يربطونها عادة بشخصية الأدباء.

ولكن ينبغي عدم نسيان، أنه حين نقيِّم الأحداث الاجتماعية فإن نظرة الإنسان تلعب دورا يوازي التوضيح المقدَّم من القواعد والأحداث وقوانين الطبيعة.

وأذكر أنَّنا كنَّا نتجوَّل في القطار بغرب الأناضول أثناء مرحلة الدِّراسة الثَّانوية، وكنَّا في شهر أيلول من كلِّ عامٍ نركب عربة القطار ذاتها التي كان يركبها القادة في الحرب العالميَّة الأولى وحروب الاستقلال والبلقان، إذ كان شهر أيلول شهر نزهة القادة. وقد تمكَّنتُ من إيجاد فرصةٍ للاستمتاع بذلك كله، رغم أنَّ غالبية الذين كنت أستمع لهم كانوا لا يتوقفون عن الشَّكوى.

وكان من الواضح وجود توترٍ بين الأتراك الذين يقرؤون والأتراك الذين لا يقرؤون، لأنَّني عندما كنت أسأل بعضهم: "لماذا ذهبتم إلى الحرب؟"، كانوا يجيبون: "أرادت الدَّولة أن نذهب فذهبنا".

ومن هنا يمكننا فهم تخلي الغازي مصطفى كمال أتاتورك عن مكانته المريحة ووضعه الجيد في إسطنبول، واستغنائه عن حياة الوزارة والألقاب والتَّوجُّه إلى الأناضول من أجل الدَّولة. هذا هو الإخلاص والاحترام لمفهوم الدولة الذي تجتمع حوله كل طبقات الشَّعب التُّركي.

لقد تعلَّمنا بالتأكيد منذ الصِّغر تاريخ الجمهورية وتاريخ تركيا خطوة خطوة، بأساليب تربويَّة متقدِّمة على أيدي الأساتذة القادمين من أكاديمية مصطفى نجاتي. وكان جيلنا يتعلم تاريخ حرب الاستقلال ويدرس تفاصيلها أكثر مما يفعل طلاب الجامعة حاليا.

وأشير هنا إلى أنَّ الجدال حول الكمالية بدأ في ستينات القرن الماضي مع دخول تيارات جديدةٍ إلى تركيا. واليوم تقوم البلاد بتقييمٍ واقعيٍّ لهذا الموضوع.

كما أشير إلى عدم صوابية الفكرة القائلة إنَّ جميع التوجهات التي تقابل الكمالية مرتبطةٌ بالتِّيار الإسلامي. فقد كان لي الشَّرف بالتَّعرف إلى أشخاص من النُّخبة الإسلامية في العالم الحديث مثل فضل الرحمن بالولايات المتحدة، والبروفيسور الجزائري محمد أركون من خلال المؤتمرات والمحاضرات التي حضرناها سويا في باريس. فالعالم الإسلامي لا يتكون فقط من الأناس أصحاب الرؤى الضَّيقة والاحتكارية بل أيضا من أناسٍ يحملون آراء قريبة من الفكر الكمالي.

اسم كتابنا هو الغازي[7] مصطفى كمال أتاتورك...

وكلمة غازي نطلقها على السَّلاطين ورجال الدولة الكبار، ويُمنح هذا اللقب تحديدا للقادة الذين قادوا الجيش في ساحة القتال وعادوا إما منتصرين أو انسحبوا في نهاية الحرب للحفاظ على شرفهم العسكري، مثل الغازي حسان باشا والغازي خسرف باشا والغازي عثمان باشا. ويمكننا القول بأن الغازي أيضا هو الذي يحارب من أجل إنقاذ شرف الجيش والدَّولة والشَّعب، مثل السُّلطان سليمان والسُّلطان محمد الثَّالث والسُّلطان مراد الرَّابع الذين حاربوا بأنفسهم في ساحات المعارك.

و لكنَّ هذا اللقب تمَّ منحه ولأول مرة لرئيس مجلس الشَّعب المكون من المعارضين والمؤيدين، والذي كان أيضا القائد العام بعد الانتصار في حربه بسكاريا.

وهكذا حصل مصطفى كمال كقائدٍ على لقب الزَّعيم بقرار المؤتمر، بالإضافة إلى حصوله على اللقب التَّقليدي للإسلام، فدخل العالم الحديث برتبة الماريشال ولقب الغازي. وباستخدام تعابير القدماء فهذا هو "وجدان الأمة".

وحتى اليوم هناك أشخاصٌ يستخدمون عبارات مثل "أتاتورك هو المؤسس" و"أتاتورك هو رجل الدَّولة الأعظم في القرن العشرين". ورغم أنَّ هذه العبارات صحيحةٌ بالتَّأكيد فإنَّه توجد شعارات مهمةٌ أخرى لا نستخدمها مع الأسف.

أولا: أتاتورك هو ماريشال تركيا. فهو ماريشال عظيمٌ لأنَّه عرف كيف يقدِّر الماريشالات الآخرين، وهو ماريشال عظيمٌ لأنَّه عرف كيف ينتقل للحياة المدنيَّة، وهذان الأمران هما من أهم خصائصه. والرِّجال العظماء والمبدعون هم فقط من يستطيعون تحقيق هذه النَّقلات.

ثانيا: أتاتورك منظِّم، فهو نجح في المجالين العسكريّ والسِّياسيّ. والمؤشر على أنَّه رجل دولةٍ عظيمٌ هو قدرته على القيام بثورةٍ حقيقيةٍ بنظام الحكم حيث حوَّله من نظام حكم الشَّخص الواحد إلى جمهوريةٍ، واستطاع إلى جانب تحقيق هذه الثَّورة أن يحقق ثورات أخرى. فقد كان قادرا على العودة إلى المقطورة القديمة حتى بعد إعلانه الجمهورية، ولكنه لم يفعل ذلك. ولهذا نستطيع القول بأنه "الباشا الغازي" و"الغازي مصطفى كمال أتاتورك" و"وباشانا الغازي".

لا يمكننا أن نجد في كل بلد قائدا يساهم في تبديل مجرى التاريخ ويضع نفسه في مواجهة الخطر من أجل بلده. وإذا كان لدى الأتراك في كل عصرٍ قائد دولةٍ عظيمٌ وماريشالٌ عظيمٌ، وهذا من الأمور التي تُغني تركيا، فإنَّ من النَّادر أن يأتي شخصٌ بمثل دهاء أتاتورك وقدرته الشَّاملة على الحُكم.

***

سقط الكثير من شهدائنا الضُّباط والاحتياط والشَّباب في سنوات الحرب العالمية الأولى، وأكمل الباقون حياتهم من أجل تركيا الجديدة، وكان يخالجهم شعوران تجاه العالم الخارجي: الأول شعورٌ بالاستياء والثَّاني شعورٌ بالفخر. وقد جمعتهم هذه الحالة الرُّوحية حول عدَّة مواضيع، فلم يمضوا أوقاتهم بالحديث عن نظريات الدِّكتاتورية ونظام الحزب الواحد، بل على العكس انتظموا كجيشٍ من المتطوعين تحت أوامر وتعديلات ذلك النِّظام وتلك الحكومة. ومثلما سوف ترون في هذا الكتاب فإن هنالك بعض الأمور لن يكون من السَّهل توضيحها كما نعتقد. ومن هذه الأمور حملة التَّعبئة من أجل التَّعليم، وفي هذا السِّياق فإنَّ أتاتورك مجددٌ حقيقيٌّ في تاريخ تركيا، فهو رجلٌ قام بإصلاحات جذريةٍ وحقيقية. لأنَّه رغم كونه ماريشالا فقد قام بتقليص ميزانية ومخصصات الجيش وحوَّلها لخدمة المعارف والصَّحة مما أجبر على حلِّ مشكلة التَّعليم بسرعةٍ كبيرةٍ.

والسؤال المطروح كيف استطاع هؤلاء الناس، رجالا كانوا أم نساء، أن يذهبوا بحماسةٍ ليعملوا في المناطق النَّائية والمحرومة؟

وكيف أمكن للناس أن يعملوا بجدٍّ للتَّعامل مع بعض الأوبئة في تركيا، دون أن يكون لديهم آلياتٌ مثل دعم مؤسسة الصَّحة العالمية، ودون توفُّر متطلبات العلاج كالسولفاميد والبنسلين؟ والحديث هنا عن جيشٍ من العاملين في مجال الصَّحة. وهذا الجيش لا يمكن الاعتقاد بأنَّه يعمل من أجل معاشٍ، أو أنَّه مجبورٌ على العمل.

لقد جاء هذا البعث من نسل الشَّباب الذين ساروا خلف الغازي في حرب الاستقلال.

وبالرغم من الاعتقاد بأن روح وميراث هذه الفترة قد انتهيا بعد فترة الأحزاب المتعددة في تركيا والثَّورات ومرحلة الكوادر المشكَّلة على عجلٍ، إلا أن فترة الخمسة عشر عاما تلك ما زالت تقف كنموذجٍ في أذهان العالم حتى يومنا هذا.

إنَّ أتاتورك هو الرَّجل الذي تحتاجه هذه الأمَّة. وعندما تمرُّ الأمَّة بأيِّ مشكلةٍ فهي تستذكره، لأنَّه شخصيةٌ لا تُنسى، وهو شخصيةٌ سياسيةٌ مهمةٌ للغاية ومخلَّدةٌ لا تتآكل مع الزَّمن، وبالتَّالي لا يمكن التفكير بالتَّاريخ بدون أتاتورك. وهذا الأمر سيبدو أكثر وضوحا مع مرور الزمن، فالتَّاريخ ينبغي تشكيله حول أتاتورك، وهو ما سوف يكون الوضع عليه في المستقبل.

إنَّ هذا العمل ليس لمناقشة وبحث تفاصيل السِّيرة الذَّاتية لأتاتورك. بل لأنَّ ميراث وأرشيف الدَّولة التُّركية خلال القرن العشرين لم تتمَّ المحافظة عليهما بالشَّكل المطلوب، بل لم تتمَّ المحافظة عليهما نهائيا، لذلك نسعى في هذا الكتاب إلى رسم لوحة بانورامية لتلك المرحلة. وسأكون مسرورا إذا استطعتُ أن أخلق مساحة نقاشٍ معمَّق في هذا الموضوع.

وأخيرا أتقدَّم بالشُّكر إلى الأصدقاء من دار نشر كرونيك: آدم كوتشال وجان أويار وعزيزي علي بيركتاي على دعمهم لي وإعادة قراءة النَّص وإضافة بعض التعديلات.

إيلبير أورتايلي

جامعة غالطه ساراي،

كانون الأول/ديسمبر 2017

1

الجيل الذي أحيا الإمبراطورية

جيل ثمانينات القرن التَّاسع عشر

عندما نكتب التَّاريخ يجب أن نتحدث عن انهيار الإمبراطورية العثمانية بالتوازي مع الحديث عن تأسيس الجمهورية التُّركية. ويبدو هذا الرأي منطقيا من وجهة نظري كمؤرخٍ وحقوقيٍّ، فعلى الرغم من أن الاسم قد تغيَّر، إلا أنَّ الدولة استمرَّت. كما أنَّ العلاقة بين الجمهورية والإمبراطورية العثمانية ليست عبارة عن علاقة خلفٍ وسلفٍ فقط، فنحن نتحدث عن انهيار أو بتعبيرٍ أدق عن تفتت إمبراطوريةٍ. والكوادر التي أحيت الدولة استمرت بتأسيس الجمهورية بمبادئ لاشكَّ أنَّها غير مرتبطةٍ بحكمٍ ملكيٍّ مطلقٍ، وليست متعاطفة مع أنظمة الحكم الشَّرقية المستبدَّة، وحتى المحافظون داخل تلك الكوادر كانوا يخلصون لقادتهم إخلاصا يمكن مقارنته فقط مع الأنظمة الملكية ببريطانيا والدول الإسكندنافية في ذلك الوقت. وكان مفهوم أعضاء تلك الكوادر للنظام الحقوقيِّ وللدولة مفهوما متقدِّما، وفي الحقيقة فإنَّ القيادات العسكريَّة في الإمبراطورية العثمانية، ومنذ إعادة تشكيل التنظيمات العسكريَّة بعد إلغاء التقليديَّة منها عام 1826، أصبحت مثل نظيراتها في أوروبا والعالم مهتمة بالعلوم والتقنيَّة، وبالتَّالي كانت مشكَّلة من مجموعات فكريَّةٍ وسلوكيَّةٍ تدرك ضرورات العالم الحديث.

وكان جيل ثمانينات القرن الثَّامن عشر، باستثناء جيلٍ بادر إلى حركاتٍ خرقاء في المدارس الحربيَّة والبحريَّة العثمانية، هو الجيل الذي عمل على إحياء الإمبراطورية وحارب على الجبهات من أجلها، وفوق ذلك تابع حركات العصيان التي ظهرت في الفترة الأخيرة والتي كانت تحمل غالبا صبغة سياسية، كما كان هو الجيل الذي نضج تحت الضَّغط وتبلور خلال الحرب العالمية الأولى التي قام في أعقابها بتأسيس الجمهورية. وكان هذا الجيل أي جيل مصطفى كمال يمثِّل عسكر الدَّولة الذين مروا بمرحلة الإصلاحات في أواخر القرن التَّاسع عشر.

وكانت تلك هي المرَّة الأولى في الشَّرق التي تقوم فيها دولةٌ مسلمةٌ بتغيير نفسها وجيشها وتقنيتها، فعلى الرغم من أن الإصلاحات المصرية في القرن التَّاسع عشر كانت مثيرة للانتباه إلا أنها لم تكن إصلاحات وتغيُّرات كافية لتأسيس مجتمعٍ وطنيٍ والاندماج مع الأنظمة الحقوقية في العالم. ويبدو أنه خلال فترة الإصلاحات العثمانية والمعروفة باسم فترة التَّنظيمات اقتدت الدَّولة العثمانية بمصر الخديوية، لكنها تقدَّمت عنها في مجال تحويل النِّظام الحقوقيِ إلى النِّظام اللاتيني، كما أنَّ الإصلاحات في الجيش كانت متجذِّرة في الدَّولة العثمانية، فإلى جانب إعطاء الأولويَّة للغة التُّركية وإيلاء الأهميَّة للتتريك في الجيش، كان تدريب العاملين فيه يعادل ويتزامن مع التَّدريبات المعطاة لنفس الفئة من الجيش في الدول الغربيَّة. وكانت إدارة الإمبراطورية والجيش ذات طابع تركيٍ، وهي خصوصيةٌ لا يمكن ملاحظتها عند محمد علي باشا والي مصر، بينما كان مصطفى كمال باشا وفوزي باشا وأنور باشا من زمرة الإدارة ذات الطَّابع التُّركي. مع أنَّ هؤلاء تعرَّفوا إلى العالم في الثَّلاثين من أعمارهم، إذ خدموا في سوريا والحجاز ثم ذهبوا إلى دول البلقان. ورغم أنَّ الإمبراطورية العثمانية كانت في عهد الانهيار إلا أنَّها كانت تشهد تغييرا، وفي محيط كهذا كان لابد من ظهور قادةٍ كبار دون إعطاء المجال للصُّدفة في ذلك التَّغيير، لأنَّ هذه المجموعة قامت بإجراء موازنةٍ بين الحكم المطلق والجمهورية القادمة لتتفوق الجمهورية في النِّهاية.

دول البلقان

لا يزال الوضع في البلقان غير باعثٍ على الطُّمأنينة في النَّفس حتى اليوم. وخلال مرحلة شبابي كانت البلقان هي المنطقة التي استحوذت على انتباهي بشكلٍ مكثَّفٍ لمدة عشرين إلى خمسةٍ وعشرين عاما، باعتبار أنَّ الإمبراطورية العثمانية نشأت وتطورت هناك. لذلك كانت مناطق البلقان بالنِّسبة لي هي العالم الذي كنت أجمع فيه الكتب وأتجول فيه بحقائب مليئةٍ، رغم تزامن ذلك مع صعوبات العهد الاشتراكي وصعوباتي الماديَّة الأشد. وبلاد البلقان ليست متجانسة عرقيا، إذ توجد في كلِّ بلدٍ أعراقٌ مختلفةٌ، وكلٌّ فئةٍ تخاصم الأخرى، ورغم ذلك تعيش معها وتستند إليها لأنَّ العادات ونمط الحياة متشابهان جدا، وبالتَّالي يمكن الحديث عن هويةٍ موحدةٍ للبلقان.

كانت البلقان، التي بقيت تضجُّ بالحكم التركيِّ لمدة خمسة قرون، تشهد صعودا للفكر القومي في بداية القرن العشرين إلى جانب التَّوتر السِّياسي السَّائد، وفي تلك الفترة تشكَّل عالم أتاتورك. وقد

تأثر مصطفى كمال بالمحيط الجغرافيِّ الذي عاش فيه، كما أحبَّ شعوب البلقان وعرف مشربهم ومأكلهم وعاداتهم. ولأنَّه ينحدر من سيلانيك فقد كان مهتما باللغات الموجودة في تلك البقعة الجغرافيَّة. ونذكر هنا أنَّ سيلانيك كانت منطقة مزدحمة وملونَّة الأعراق، وتمتلك علاقاتٍ واسعة مع العالم الخارجيِّ وخاصَّة مع أوروبا.

ولا شكَّ أنَّ أتاتورك قد تأثَّر بذلك المحيط القومي المتفرِّد والمتوتر، ولم يكن من الوارد أصلا عدم تأثُّره بهكذا محيط، فالنموُّ في مثل هذا الجوِّ الصَّلب يسرِّع من تطوُّر ذكاء الإنسان ونضجه.

كان الشَّاب مصطفى كمال أحد ضبَّاط هذه الإمبراطورية، وكما سنرى في الكتاب فقد أسس "جمعية الوطن"[8] في سورية، وبعد ذلك بعامٍ قدم إلى مقدونيا، ومنها سارع إلى الدِّفاع عن طرابلس الغرب كمتطوعٍ، وفي هذه الأثناء انفجرت حرب البلقان فعاد إلى هناك. وهذا التَّجوال ترك أثرا عليه بالتَّأكيد.

وربَّما يتعذر على أيِّ ثلاثيني في وقتنا الحالي فهم كيف يمكن لضابطٍ في البلقان أن ينضج هذا النضج حين وصل إلى الثَّلاثين من عمره. وقد يكون الحال مشابها في الإمبراطوريات الأخرى، لكنَّ الأتراك، أبناء الإمبراطورية العثمانية، كانوا أكثر من عاش المأساة وبحثوا عن مخرجٍ لها، لذلك يجب معرفة هذا الجيل التُّركي والإصغاء إليه.

لقد واتتني الفرصة بحكم عمري أن أتحدَّث وأستمع إلى من عاشر هذا الجيل، فخلال ستينات القرن الماضي كان الذين شهدوا الحرب العالميَّة الأولى ما زالوا على قيد الحياة، وكنتُ أتحدَّث وأستمع إليهم في رحلات القطار الطَّويلة. وكان هؤلاء واعين وناضجين لدرجةٍ تجعلك تشعر بأن الاستماع إليهم دون مقاطعةٍ واجبٌ عليك، ولا يعود سبب ذلك إلى كونهم متقدمين في السِّن فقط، بل لأنَّهم أصحاب منطق ويتفوهون بالحقيقة. لقد كانوا رجال الفواجع والانهيارات الكبرى لكنَّهم كانوا في الوقت ذاته رجال مراحل البناء الكبرى. ومن المؤكَّد أنَّ القادة سوف ينمون بشكلٍ مختلفٍ ضمن هذه الشُّروط، فهؤلاء كان لهم موقفٌ واضحٌ، ورغم صغر سنِّهم فإنَّهم لم يكونوا أرواحا خاملة. وإذا كان في حياتنا السِّياسية اليوم أناسٌ لا ينضجون أبدا فإنَّ هذا الانسداد السِّياسي لم يكن موجودا بين رجال ذلك الجيل. ويمكن هنا الاطِّلاع على سيرة عدنان مندريس[9] أحد صف الضُّباط الاحتياط الشَّباب في ذلك الوقت من خلال قراءة مؤلف السَّيد شوكت ثريا[10]، كما ينبغي الاطِّلاع على حياة

جمال بايار، رغم النَّظرة السَّلبية السَّائدة تجاهه، فهو يملك نضج تلك الفترة. ومن الأسماء الأخرى التي عاشت في الفترة ذاتها عصمت باشا[11] والذي على غرار جلال بايار[12] ليس محلَّ إعجابٍ لكنَّ انضباطه ومنظومته الفكريَّة جديران بالملاحظة. ومن بين هؤلاء جميعا فإنَّ أتاتورك له مكان مختلفٌ تماما دون أيِّ شكٍّ.

تاريخ ولادة مصطفى كمال

هناك من يقول إنه ولد في العام 1877م وهناك من يقول إنه ولد في العام 1880م إلا أننا نقبل العام 1881م كتاريخٍ لولادة مصطفى كمال، أمَّا يوم وشهر ميلاده فلم يكونا مدوَّنَين في سجلاتنا القديمة حتى وقتٍ قريبٍ. ومن المعروف أن الدولة بدأت بمتابعة حركة سجلات نفوسه بعد خمسينات القرن الماضي، لكنَّ إدارات النُّفوس التي ذهبَت ضحية للحرائق صعبَت من مهمة الأبحاث التَّاريخيَّة. ولم تكن إدارات النفوس حتى فترةٍ قريبةٍ تسجِّل على البطاقة سوى سنة الميلاد فقط دون اليوم والشَّهر، لذلك عمد أتاتورك إلى اختيار تاريخ ميلاده بنفسه، وهو التَّاسع عشر من شهر أيَّار/ مايو، وهو اليوم الذي خرج فيه إلى ولاية سامسون. أمَّا عام الميلاد فإنَّنا نقبل العام 1881م لقربه من تاريخ تخرُّج أقرانه. فقد كان مصطفى كمال من الجيل الذي أعاد إحياء الإمبراطورية العثمانية المنهارة بصورةٍ أخرى.

كان اسمه عند الولادة مصطفى، واسم كمال كان أحد الإضافات المنتشرة في البيروقراطيَّة العثمانية لتفريق الأسماء المتشابهة، ومن الأمثلة على ذلك نذكر أنَّ العديد من الشَّباب المرشحين للصفوف العلميَّة والإداريَّة كانوا يحملون اسم أحمد لذلك كان من المألوف مشاهدة الإضافات مثل جودت ومدحت في المؤسسات المختلفة. وكما نعلم فإنَّ اسم مصطفى كمال أُطلق أيام المرحلة المتوسطة من قبل أحد أساتذته الذين أحبوه، عندما قال له: "نحن الاثنان مصطفى، فكن أنت كمال"، حيث يُستخدَم اسم كمال للدلالة على الوعي والنضج. ولن نستغرب أيضا وجود عددٍ كبيرٍ من الطُّلاب الذين يحملون اسم مصطفى في الصَّف نفسه.

شجرة عائلته

يقول البعض إنَّه في الأصل من قونية (ولاية كارامان) ويقول البعض الآخر إنَّ أجداده قد هاجروا من منطقة آيدن، لكننا لا نستطيع معرفة الشَّخص الذي أرسله أو المنطقة التي أرسِل منها إلى ديار الروم، والحال نفسه بالنسبة إلى المهاجرين الذين قدموا إلى تركيا بتبادل المواطنين مع

اليونان، لأنه بعكس المسيحيين ليس لدينا مؤسسةٌ تقوم بتسجيل الولادات، وهذا ما تقوم به الكنيسة بعد التعميد. وكان الزواج والموت أيضا من الأمور التي لا تُسجل، وإلى وقتٍ قريبٍ لم يكن يُعلن حتى عن الموت. وهذا النوع من السجلات لم يكن موجود عند اليهود أيضا، لأنهم كانوا يعيشون منعزلين في حي خاص بهم (الغيتو).

وعلى سبيل المثال يمكن معرفة مكان شهادة النبالة لعائلةٍ مجريةٍ مرموقةٍ أو معرفة القلعة التي تختبئ فيها، لأن الوثائق التي تعطي بعض الحقوق يجب الاحتفاظ بها كسندٍ. أما عندنا فإنَّ أحدهم قد يتزوج من ابنة أحد الباشاوات وقد تموت الفتاة قبل أن تلد طفلا منه، وعندها يأخذ الرجل شجرة العائلة بأكملها ويتزوج من أخرى في مكانٍ آخر مدعيا بأنَّه من سلالة هذا الباشا.

وكان من الشَّائع أن يحمل بعضهم أسماء عائلات على أنَّها من طرف الرَّجل رغم أنها تنحدر من طرف المرأة. ونذكر مثلا أنَّه حدث بعض الجدل حول شجرة عائلة فؤاد كوبرولو، فقد قال علي أميري أفندي إنَّ والده من عائلة قبللي زاده أما اسم كوبرولو زاده فهو من طرف الأم. وأدى هذا الادعاء إلى إغضاب السَّيد فؤاد كثيرا، كما أنَّه أمرٌ أورده فرانز بابينغر في كتابه على أنَّه عيبٌ. ولا شك أن هذا الوضع مصدره عدم التَّوافق بين فكر بابينغر الألماني وفكر المجتمع التُّركي.

بالنتيجة ليست لدينا سجلاتٌ صحيحةٌ، ولا يمكن للكثيرين في تركيا أن يبرزوا شجرة عائلتهم، ومع ذلك فإنَّ أجداد أتاتورك من طرف الأب والأم معروفون بالاسم لبضعة أجيال، وهو في الأصل من قرية تركية موجودة حاليا في مقدونيا وتسمى كوجاجيك.

أتاتورك وعائلته

أصبحت بعض الكلمات الخرقاء، التي تكررت في زوايا المقاهي لسنوات، تُقال علنا منذ وقتٍ قريبٍ، مثل عبارة "فلانٌ كان أبوه وأمه يعملان كذا، وهو كان كذا" التي لا ينبغي أن تُقال بحقِّ أحدٍ. وبصرف النظر عن كل شيء فإنَّ أول رؤساء الجمهورية التركية وقائد حرب الاستقلال – وهو اللقب الذي يزعج بعض الناس بشكلٍ أساسيٍّ – ورئيس البرلمان التُّركي ومؤسس تركيا الجديدة قد استُهدفت عائلته مباشرة مع الأسف من قبل بعض الأطراف، كما وردت تعليقاتٌ مبالغٌ فيها عن العلاقة التي جمعت أتاتورك برفاقه في السِّلاح.

وليس من العسير فهم هذه الافتراءات العمياء، إذا أدركنا أسباب ذلك التي تعود إلى قلة الإدراك لذلك العصر، وعدم قدرتنا من التَّمكن في إيصال التَّعليم إلى البلدات الصَّغيرة، والصُّعوبة التي واجهناها في العثور على تعليقٍ يعكس الحقائق للمتعلمين، بالإضافة إلى انعكاس الإدارة القائمة على القيل والقال عن تاريخ معينٍ. ويمكن فهم هذا عند مراجعة السِّيرة الذاتية للأشخاص المعنيين حتى عندما تتعرض للتشويه والإنقاص. فعلى سبيل المثال يمكن ملاحظة عدم الجدية في تدقيق الحياة الأكاديمية للأستاذة عفت إنان في التَّعليقات المذكورة، كما أن عادة متابعة السِّيرة الذَّاتية غير موجودةٍ أصلا لدى العديدين عندنا، فالغالب هو الحديث عن أيِّ شخصٍ من خلال الشَّائعات سواء كان الأمر مقالة في صحيفةٍ أو كتابا موسوعيا.

ونورد هنا مثالا عندما نُشرت عبارةٌ ذات يومٍ في إحدى الصُّحف عن البروفيسور صفوت رضا ألبار تفيد بأنَّ "والده رضا باشا كان معروفا بعداوته لأتاتورك"، وكانت تلك الصَّحيفة تخاصم رئيس الجامعة صفوت رضا. إلاَّ أنَّ السُّؤال هو ماذا كان يعني استهداف والده؟ وفوق ذلك فقد استُشهد حسن رضا باشا أحد القادة الثَّلاثة الأبطال في حرب البلقان وهو يدافع عن شقودرة (الواقعة في ألبانيا حاليا)، وقد رُفع إلى مرتبة قائد لواء للمرة الثَّانية في اليوم الذي استشهد فيه، لكن خطاب التَّرقية وميداليته وسيفه لم يصلوا إليه، ونظرا لفارق الرتبة فإنَّه لم يلتقِ الغازي مصطفى كمال باشا (أتاتورك) أبدا، كما أن معرفته له عن بعد هي في محل شكٍّ.

وفي موسوعةٍ أخرى قيل عن جد ناظم حكمت مصطفى جمال الدين باشا الذي سقط شهيدا في معركة الدفاع عن الجبل الأسود، وهو أحد إصلاحيي عهد التَّنظيمات، والمعروف في أوساط الأرستقراطية البولونية بلقب الكونت قنسطنطين بورزيكي، بأنه يهوديٌّ بولونيٌّ. وبالطَّبع فإنَّ هذا الحكم المسبق يمتزج مع عدم المعرفة.

وفي حادثةٍ أسوأ زعم البعض بأنَّ أتاتورك جعل وكيل الدَّاخلية شكري كايا يكتب رسالة إلى عصمت إينونو ممهورة بخاتم مجلس الشَّعب يقول فيها: "أتاتورك سوف يقتلك وانا أحميك"، ولكن عند التَّدقيق يتبين أنَّ الخاتم لا علاقة له بشكل الرمز في ذلك الوقت، ويمكن للجميع ملاحظة أنَّ الرِّسالة مكتوبةٌ على الحاسوب، ولا شكَّ أنَّها وثيقةٌ مزورةٌ.

وهناك من يعمل أيضا على المواجهة بين كاظم كارا بكر باشا ومشير تركيا الغازي مصطفى كمال أتاتورك. وفي الواقع لا أهتم بمعرفة من يقف وراء هذه الجهود، ولكن هناك بالتَّأكيد

خلف هذه الجهود تطلعاتٌ يحاول أصحابها رفع أصواتهم من خلال إدعاءاتٍ كهذه.

وفي الوقت الحاضر تظهر تصنيفات مغلوطةٌ وكاذبةٌ حول أتاتورك ووالدته السَّيدة زبيدة.

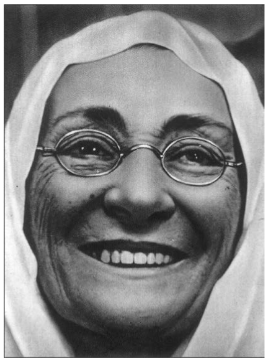

وإذا ما تبادر إلى ذهنكم السؤال حول الأساس الذي يستند إليه هذا التلفيق والذي يمتد لخمسين سنة، أجيبكم أنَّها مشكلةٌ ناجمةٌ عن التَّسجيل المتأخر للنفوس في تركيا وعدم الحماية الكافية للسجلات الموجودة، حتى أنَّ بعض السِّجلات تكون أحيانا نتيجة حرق أرشيف سجلات النُّفوس في البلدة. وبالطَّبع تختلف طبيعة مستنداتنا اليوم.

السَّيدة زبيدة والدة
مصطفى كمال التي أحبها كثيرا

ورغم أنَّ سجلات التَّعميد والزَّواج والموت لاتزال موجودة في أيِّ كنيسة ضمن قريةٍ صغيرةٍ في أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية، إلاَّ أنَّ مثيلاتها لا يمكن مشاهدتها في الشَّرق، ليس فقط عند المسلمين ولكن أيضا في الكنيسة الأرثوذوكسية حيث توجد بعض الحالات المشابهة.

لذلك كان الأتراك يأتمنون سلالاتهم ونسبهم إلى ذاكرة سكان المدينة والحي، وبالأساس إلى أبناء سلالتهم. والعلاقة مع الأقارب وأبناء البلد هي سجل عائلتنا وسند هويتنا التَّاريخية. كما أن حوادث مثل حرب البلقان والاحتلال الروسي وما جرى فيها من فقدان للولايات وتشتت النَّاس في الأرجاء أضعف السِّجلات الاجتماعية. بالإضافة إلى الهجرات التي حدثت نحو الأناضول من رقعةٍ جغرافيةٍ واسعةٍ ممتدةٍ من القرم إلى القفقاس. أما الاستفادة من الفواجع التي حلت بكلِّ عائلةٍ وبالقادمين من الدِّيار الرومية فهي صنيعة بعض المقاتلين وسياسيي البلدات والمؤرخين الهواة.

وبالتَّالي فإنَّه يجب على المؤرخين والذين يُدرِّسون التَّاريخ الدفاع عن وجهائنا التَّاريخيين الذي لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. وأنا لست ممن يعتقدون أنَّ الحرب الكلامية التي يشنها بعض السَّاسة الهواة على قادة حرب الاستقلال لا تنبع من فضولهم التَّاريخي أو ثقلهم الأيديولوجي بل

توجد دوافع أخرى خلف ذلك. وهذه الحرب الكلامية على وجهاء ومؤسسات التَّاريخ التُّركي وظهور قوميات تخريبية ليست أمرا خاصا بنا بل يمكن رؤيته في المجتمعات الأخرى.

بيت أتاتورك

لقد أصبحَت طفولة مصطفى الصَّغير وتعليمه من المواضيع التي يتم بحثها في الآونة الأخيرة. ومن الثَّابت أنه ولد في ملحق البناء الذي كانت عائلته تسكن فيه والذي يتبع للقنصلية التُّركية حاليا ويستخدم كمتحفٍ، وهو نفس البيت الذي استأجره حين كان في الجيش المنتشر في الدِّيار الرُّومية[13]. أما هذا القصر الصَّغير فقد كانت ملكيته لأحد التُّجار البلغار المنتمي إلى طبقةٍ مهمةٍ.

ومن الأمور الجميلة في السنوات الأخيرة أنَّ السياح الأتراك يبدون اهتماما جديا بذلك البيت.

المدينة التي عجنت جوهره: سيلانيك

يعود أصل اسم مدينة سيلانيك، وهي ثاني أكبر المدن اليونانية اليوم، إلى ثيسالونيك شقيقة الاسكندر المقدوني الكبير. وقد فتح القائد البحري العثماني حمزة المدينة عام 1430م، وهناك جامعٌ يحمل اسمه ولكنه أشبه بالخرابة حاليا.

وبعد 482 عاما من حكم العثمانيين لها سلمها تحسين باشا لليونانيين في العام 1912م خلال حرب اليونان دون أن يطلق رصاصة واحدة.

مصطفى كمال مع والدته السَّيدة زبيدة وشقيقته السَّيدة مقبولة

في ثمانينيات القرن التَّاسع عشر كانت سيلانيك مدينة متعددة الأجناس، لذلك نلاحظ أنَّ لقب عائلة مصطفى كمال ينحدر من البلغارية والرومية. وقد أتقن اللغة الفارسية تماما وقليلا من العربية. ومن المعروف أن الأطفال ذوي الأصول الرومية يتحدثون غالبا الرومية أو البلغارية أو يفهمون هاتين اللغتين على الأقل.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّه كان على معرفةٍ باللغة الألمانية والفرنسية، كما هو حال جميع أركان ذلك العهد، لأن الأدبيات والمصطلحات العسكرية كانت تستند إلى هاتين اللغتين، بينما استخدمت اللغة الإنكليزية في البحرية، وبالمحصلة كان الضابط العثماني رجلا مثقفا. ولم تكن هذه الحياة التعليمية الرفيعة والمتطورة خاصة بالطَّبقات العليا فقط. وفي الحقيقة كان هناك تغيرٌ غريبٌ، وانتظرت الطبقات العليا فترة التنظيمات وحتى فترة "المشروطية"[14] لتواكب هذا التَّغير، فدخول أمراء الفترة الأخيرة إلى مدرسةٍ مرموقةٍ مثل غلطة سراي وتعلم اللغة الفرنسية كان تغيرا خاصا بعهدٍ متأخرٍ. وفجأة أصبح الأمراء المولودون في ثمانينات وتسعينات القرن التاسع عشر يتمكنون من الالتحاق بتلك المدارس، فتابع بعضهم دراسته في المدرسة العسكرية في بوتسدام نتيجة علاقتنا مع ألمانيا. ومنهم على سبيل المثال عمر فاروق أفندي الذي كان حفيد السُّلطان عبد العزيز وابن الخليفة الأخير وزوج السُّلطانة صبيحة وصهر آخر السَّلاطين.

وكان جميع المنتسبين إلى هذا التَّعليم يحصلون على فرصٍ متساويةٍ سواء كانوا قادمين من الطَّبقات العليا أو من طبقات الشَّعب المتواضعة، وبتعبيرٍ آخر لم يكن هذا التَّعليم يستهدف تطعيم تركيبٍ بآخر، بل كان تعليما متاحا للجميع حتى أنَّ بعض المتعلمين كانوا من غير المسلمين.

عرفت الإمبراطورية في تلك الفترة (فترة ما بعد التَّنظيمات) نسبة لافتة تمثلت في أنَّ ثلث سكان الإمبراطورية كانوا من غير المسلمين، وأثناء التَّسجيل في مدارس مثل غلطة سراي كانت هذه النسبة تؤخذ بعين الاعتبار، فقد كانت هناك مقاعد للطلاب الروم والأرمن واليهود يتم تخصيصها وفقا لعدد الطلاب المتقدمين.

كان عمر فاروق أفندي مثلا يدرس في ثانوية غلطة سراي جنبا إلى جنبٍ مع أوهانيس أرشاروني الذي سيصبح بطريرك الكنيسة الأرمنية. وكان يمكن رؤية أبناء الجماعة اليهودية وأبناء الباشوات والمترفين إلى جانب أبناء الفقراء.

أما في ما يتعلق بالطريقة الأخرى التي كانت متاحة وهي الالتحاق بالتَّعليم العسكري مباشرة فكانت النِّسب مختلفة وخاصة في الصُّفوف الحربية (لكنَّ الاختلاف لم يكن كبيرا، فقد كان يوجد في صفوف الضباط عددٌ قليلٌ من غير المسلمين).

وكانت الخاصية الأخرى التي تميزت بها سيلانيك هي انفتاحها على أوروبا تجاريا وفكريا من خلال الميناء وسكة الحديد الموجودة فيها. لذلك كان لولادة الغازي مصطفى كمال ونضجه في مدينة مثل سيلانيك الأثر الكبير في نظرته إلى الدنيا والأحداث، وحتى في شخصيته. ولو كان قد ولد وترعرع في إحدى قرى الأناضول البعيدة لكان يمكن أن يسلك طريقا آخر ويمتهن شيئا آخر تماما، لعدم امتلاكه الإمكانات التي توفرها سيلانيك.

من المعلوم أن مصطفى الصغير تم إرساله إلى مدرسة الحي بإيحاءٍ من والدته، وهنا لابد من الوقوف عند موضوع ادعاءات بعض المعارضين للنَّظام الكمالي والتي تفيد بأنَّه كان من جماعة يهوديةٍ بدعيةٍ (غير أرثوذكسية) من يهود الدونمة في سيلانيك. وقد كانت سيلانيك مدينة مزدحمة لدرجة أنها كانت حاضرة لجميع يهود شرق البحر الأبيض المتوسط، نظرا لوفرة وجود اليهود الأرثوذكس فيها، وكذلك وفرة الأشخاص المنسوبين إلى المجموعة المسماة "العودة" خاصة بعد حادثة الحاخام "ساباتاي سيفي"[15] في العام 1660م، وإن كنا لا نعرف عددهم على وجه الدِّقة.

وكان الجيش اليوناني أثناء هزيمة البلقان عام 1912م قد قام باحتلال المدينة متجاوزا حتى حلفاءه البلغار قبل غيرهم، وهاجم الأحياء اليهودية وارتكب فيها المجازر، (ويمكن متابعة هذا الموضوع في كتابات العلماء والمفكرين اليهود أكثر من غيرهم)، وكان الهدف تحويل المدينة إلى مدينةٍ يونانيةٍ. ولكن لابدَّ من القول إنَّ المدينة بقيت متعددة الأجناس، لذلك كان الشَّخص الذي يترعرع هناك يعلم عددا من اللغات، ويتعرف إلى عددٍ من الأعراق وفوق ذلك كان يمكن أن يحصل على معرفةٍ قد تكون من الأصدقاء أو من الأعداء. وفي جميع الأحوال كان يترعرع بصفته ابنا للعالَم العثماني المتعدد الأجناس، وهذا ينطبق على أفراد جميع الأديان والمجموعات.

توجد نقطتان تفندان هذه الادعاءات بحق مصطفى كمال، النقطة الأولى هي أنَّ هذه الأسطورة كانت مجرد رأيٍ وضعه الأصوليون وليس له أدنى سندٍ، وقد يقبل "أتباع ساباتاي" مثل هذه المقولة أيضا، لكنَّها غير صحيحة لأنَّه لم تكن توجد له علاقةٌ بأيِّ جماعةٍ من المدينة، وكما نعلم فإنَّ والده ووالدته هما من عائلةٍ ذات جذورٍ ريفيةٍ.

والنُّقطة الثانية هي أنَّ المدرسة التي أرسله إليها والدته تُظهر عدم وجود مثل هذا الجوِّ في المنزل، لأنَّه لا يمكن لأيِّ جماعةٍ أن تضع طفلا في التَّعليم الأساسي عند باب جماعةٍ أخرى، وهذا الأمر كان موجودا في إسطنبول وبعض المدن الكبيرة بشكل استثنائي. ولا ننسى أيضا الموقف الدِّيني الذي كان يأتي أولا، فلم يكن أحدٌ يضع طفلا في الخامسة أو السَّادسة من عمره في نظامٍ تعليميٍّ لا علاقة له بتاريخ عائلته. ورغم أنَّ مدرسة شمسي أفندي التي ارتادها أتاتورك في تعليمه النِّظامي، وكذلك رئيس المعلمين شمسي أفندي كانا يتبعان مذهب ساباتاي، لكنَّ هذه المدرسة كانت في الحقيقة تُدرِّس الرياضيات والقراءة بشكلٍ جيدٍ، ولهذا السبب تم ترجيح تلك المدرسة، وكانت تلك رغبة والده.

لقد ساد التَّفكير العقلاني لديه في هذه المرحلة العمرية، وفي النهاية يجب عدم نسيان أنَّه كان مكرسا لحياة الثكنات. ومن الواضح أن مصطفى كمال كان طيلة حياته العسكرية من الأشخاص المنفتحين على العالم الحديث والذين لا يقدمون المعتقدات الدِّينية ولا يتصرفون أيضا بحساسيةٍ تجاه الطقوس الدِّينية، فمثلما يوجد أشخاصٌ يصلون ويصومون يوجد بالمقابل أشخاصٌ يتصرفون بما لا يتسق مع ذلك.

في مذكراته بعنوان ذكرى يلدز يقول مشتاق ماياكون[16]، الذي عمل موظفا في "قصر السُّلطان" بعد أن أنهى دراسته في كلية الحقوق بدرجة جيد، إنَّ قصر يلدز كان من الأماكن التي يُفطر فيه علنا خلال شهر رمضان. وفي الحقيقة لم تكن علاقة فوج الحراس والطبقة العسكرية جيدة مع الصَّوم، ولم يكن هناك من داعٍ لمواجهة المشاكل في هذه القضية فالقصر والسُّلطان كانا على علمٍ بذلك وكانا يغضان النظر، لأنَّ الظُّروف المعيشية تطلبت حرية الحركة لطبقة الأركان والقادة.

حول جذور العائلة

توجد القليل من المجتمعات التي تولي أهمية لحسبها ونسبها مثل المجتمع العثماني، ولكن مع الأسف لا يمكن الحديث عن تسجيلٍ جديٍّ لتلك الأنساب. وبالمقابل توجد حقيقةٌ ثابتةٌ أنَّه من غير الممكن تقريبا عدم تثبيت نسب أي قرويٍّ من إحدى القرى الفرنسية والألمانية والنمساوية. وأريد التأكيد هنا على أنه "من غير الممكن عدم تثبيت" وليس "تثبيت".

وشخصيا، تملكني الفضول حول نسبي فقمت بالبحث في كنيسة القرية التي قضيت فيها طفولتي المبكرة، وأثناء بحثي وجدت دفاتر المعمودية بحالتها المثالية، بحيث يمكن لأي قرويٍّ في

ذلك الريف الواقع عند سفح الجبل أن يستخرج شجرة عائلته حتى خمسة قرون، وتلك واقعةٌ واحدةٌ من وقائع كثيرةٍ.

وبالتوجه نحو العالم الأرثوذكسي الشَّرقي نلاحظ الفرق، ففي القرية الأمية من الصَّعب أن يحتفظ الراهب بدفتر التعميد أو القران، وحتى الوثائق التي يتم الاحتفاظ بها لا يتم وضعها في مخابئ جيدة. وكذلك فإنَّ شجرة النَّسب للحكام ولأسياد الاقتصاد لا يمكن أن تكون صحيحة دائما في الشَّرق لعدم وجود مؤسسات تسجل الأنساب كتلك التي في الغرب. بالإضافة إلى أن مثل هذه الأنساب لا تكون تحت حفظ كاتب العدل كما هو الحال في الغرب. ومن الوارد وقوع بعض الأخطاء حتى في سجلات الأوقاف والجمعيات، بل إنَّ سلسلة النَّسب لا يمكن متابعتها بسهولة دائما حتى في عائلات العلماء المعروفة بأنَّها الأفضل في التَّسجيل.

كان الناس يعتمدون على الانطباع والمعلومة المباشرة عوضا عن التسجيل، فأفراد المجتمع يشاهدون واقعة الزواج ثم يشاهدون الأولاد ويعرفونهم، وعلى هذا الأساس يعيشون ويصبحون أقرباء. وفي حال تغير المكان كانت تحدث مشاكل كبيرة، وهو ما كان عليه حال المواطنين العثمانيين في الديار الرومية، فقد تمكن النَّاس من الاستمرار بالاعتماد على ذاكرتهم لمدةٍ معينةٍ، ولكن بعد أن غيروا أماكنهم بدأت القضية تتغير أيضا. ولذلك فإنَّ شجرة نسب مصطفى كمال التي وصلت إلينا تعتمد أيضا مثلها مثل شجرة جميع الذين سكنوا في الأراضي الرومية على الطرائق التَّقليدية أي المتعلقة بالأقرباء والمعارف وبعض السِّجلات المكتوبة.

ومن المؤكد أنَّه لا يمكن لأحدٍ في مجتمعنا أن يستخرج سجلا عائليا مصدقا من كاتب العدل، وهذا الأمر خاصٌّ بفئةٍ محدودةٍ من البشر، وتأتي السُّلالة العثمانية في مقدمة هذه الفئة، ويقال إنَّ الأمر ينطبق حتى على بعض أعضاء لوردات البيروقراطية في العالم. أما نسب أطفال النِّساء في السُّلالة (أي الدَّم العثماني القادم عن طريق النِّساء) فهو غير معروفٍ ويبقى موضع نقاشٍ.

وبخصوص أتاتورك فالقول الغالب هو أنَّه من سادات قونية، وأيُّ آراءٍ أخرى يمكن تفنيدها في موضعٍ ما. لذلك من الضروري معرفة أن التَّعامل مع هذه المسألة يتم بهذا الشَّكل. فبعض النَّاس في تركيا يختلقون الأساطير ويكونون سببا للانحراف عن الحقيقة، وذلك ناتجٌ عن نظام التَّسجيل عندنا، وعن السِّجل التَّاريخي والمعلومات الموجودة عن السُّكان. والمسألة المهمة هي أنَّ معرفة الناس في هذا الموضوع تعتمد على المحيط والثَّقافة اللغوية والذاكرة الاجتماعية.

تُعتَبر السَّيدة زبيدة الوالدة نموذجا للمرأة التُّركية التي تعيش في الديار الروميَّة. امرأةٌ مولعةٌ بولدها، وذات نزعةٍ دينيةٍ أيضا، لذلك كانت مؤثرة دائما في الحياة الروحيَّة لابنها. ولكن بالنِّسبة إلى ولدٍ يرتاد مدرسة داخلية فإنَّ الانقطاع عن المنزل أمرٌ واقعٌ. إذ كان الأطفال يذهبون إلى مدرسةٍ داخليةٍ بعد سن الحادية عشرة، وهو أمرٌ منتشرٌ في التعليم الغربي وتعود جذوره إلى إسبرطة في اليونان القديمة، أي أنَّ الطِّفل كان ينفصل عن العش وينمو داخل المجتمع، وهو ما يُحدث انقطاعا بينه وبين البيت (العائلة). وبعد ذلك تتحول العلاقة إلى اشتياقٍ ثم إلى عادةٍ ثم في النهاية إلى علاقةٍ رسميَّةٍ، ولا تعود بعدها النظرة إلى الآخر نظرة شوقٍ، فذلك الصبيُّ يتجاوز كونه حبيب أمِّه. ولأنَّ الفتاة تتزوج مبكرا فان العلاقة تنقطع أيضا بين عالمها الجديد وعالمها القديم. وهذا ما هو عليه الحال في العالم أجمع، إلاَّ أنَّ الوضع عندنا هو العكس. ومقارنة مع الحقب القديمة لم يكن الرَّجل في مجتمع وتاريخ تركيا الحديث ينفصل عن البيت (العائلة) قبل سنٍّ متأخرةٍ، ويمكننا ملاحظة التَّأثيرات النَّاجمة عن ذلك. فالرجل الذي لا يستطيع الاعتماد على نفسه، والمرأة التي لا تستطيع الاعتماد على نفسها لا يمكن لأحدهما أن يكون عضوا فعَّالا في المجتمع. أقول ذلك في سياق المجتمع العقلاني والنَّشط.

لنأخذ إسبرطة في اليونان القديمة مثالا على ذلك من خلال نموذج التَّعليم في مدارس الأديرة، ولنأخذ أيضا حالة إخضاع الطِّفل إلى التَّدريب العسكري في سن مبكرة في إيران القديمة وفي الإمبراطوريات الهندية وفي آسيا الوسطى، أو انتشال الأطفال، الذين سيصبحون حرفيين، من بيوتهم في سنٍ مبكرةٍ لينضجوا في جوِّ حياة المصنع ومحيطه حيث يتعلمون الحرفة، وذلك في بلاد البحر الأبيض المتوسِّط.

لقد فقد مصطفى كمال، مثله مثل الجميع في البيروقراطية العثمانية وخاصة العسكر، العلاقة التي تجعله حبيب أمه في البيت، وأصبح عضوا في مجتمعٍ منتظمٍ. ولكنَّه بعد أن ترك سلانيك تكيَّف خلال مرحلة الكلية الحربية مع حياة العاصمة. ولم يكن مصطفى كمال أجنبيا في الدَّير الذي درس فيه الثانويَّة والذي يُسمَّى اليوم بيتولا، نظرا لوجوده في مدينة بلقانيةٍ أوروبيةٍ. فقد كانت مدينته سيلانيك مثل إزمير وبايروت من مدن الإمبراطورية العثمانية الكبيرة القريبة من إسطنبول، لكن صفة المدينة الكبيرة كانت تنطبق على سيلانيك أكثر، إذ كانت مختلفة عن إزمير وبايروت من

ناحية السُّكان والعلاقات اليوميَّة مع أوروبا والصِّناعة والعمل النقابي ومحافل الماسونية التي كانت موجودة فيها. وبعد انفصالها عن الإمبراطورية كانت المكان الذي انفجرت فيه الحركة الاشتراكيَّة نتيجة الفقر الذي حل بسكانها والمهاجرين إليها بالتَّبادل (أي وفقا للاتفاقية التي وقعت بين اليونان وتركيا القاضية بتبادل السُّكان). وننوه بأهمية تلك الأمور، لأنَّ الإنسان الذي ينمو في بيئة كهذه سوف يكون مختلفا لا محالة.

وبالعودة إلى والدي أتاتورك فقد انحدرا من التُّركمان الرَّحالة (البدو) الذين استوطنوا البلقان، واستمر نسلهم من جهة عمِّ والده. وحتى حين كان أتاتورك رئيسا للجمهوريَّة فإنَّه شهد على قران اثنين من أبناء العم الأكبر.

وعندما تزوج السَّيد علي رضا (والد أتاتورك) السَّيدة زبيدة (والدة أتاتورك) كان عمره واحدا وثلاثين عاما، بينما كان عمرها أربعة عشر عاما، حيث كانت الفتيات يتزوجن في ذلك الوقت بعمر أربعة عشر أو خمسة عشر عاما.

كان مصطفى كمال الولد الرَّابع للأسرة، وكانت له أختٌ وأخوَان أكبر منه ولكنهم ماتوا في سنٍ مبكرة، أما الشَّقيقتان اللتان ولدتا بعده فلم يبقَ منهما على قيد الحياة سوى أخته مقبولة.

قدم السَّيد علي رضا إلى سيلانيك من كوجاجيك وهي قريةٌ في مقدونيا، وكان يعمل موظف جمارك في مكانٍ ناءٍ وفي ظروف سيئة، فرحل إلى سيلانيك من أجل عائلته، حيث بدأ يعمل بتجارة الخشب.

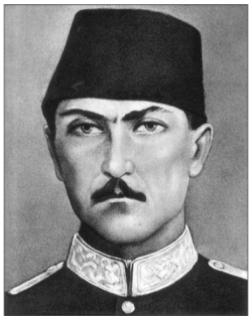

والد مصطفى كمال السَّيد علي رضا أفندي والذي كان يعمل موظفا للجمارك في سيلانيك

كان مثقَّفا وذا فكرٍ مستنيرٍ، وأراد أن يحصل مصطفى على تعليمٍ جيدٍ، لأنَّ القراءة والتَّعليم ضروريان كي يصبح الإنسان عظيما" كما كان يقول. وبالرغم من رغبته أن يتعلم مصطفى القراءة والكتابة بسرعةٍ، إلاَّ أنَّه بالنَّظر إلى ظروف وتقاليد التَّعليم في تلك الفترة فقد كان عدد الطُّلاب الذين يتعلمون القراءة خلال سنةٍ واحدةٍ قليلا، لأن القراءة كانت صعبة نتيجة اعتماد التَّعليم على الأحرف العربيَّة التي لم تكن مناسبة للأحرف الصوتيَّة

في اللغة التُّركية، لذلك كان يجب اختيار مدرسةٍ تملك معلمين ذوي كفاءةٍ.

كان مسلمو الإمبراطورية الروسية يتعلمون أيضا القراءة بسرعةٍ في المدارس التي أسسها السَّيد إسماعيل، وهو من تتار القرم، حيث كانت طريقة التعليم السَّائدة تدعى "الأسلوب الجديد". وخلال 20 عاما تمَّ افتتاح 5000 مدرسةٍ إسلاميةٍ في الإمبراطورية الرُّوسية تعتمد هذا الأسلوب نتيجة عدم كفاءة المدارس التقليدية، وهو الأمر الذي أدى إلى ارتفاع نسبة القراءة والكتابة. وتجاوزت نسبة القراء والكتابة هذه المرَّة نسبة التحاق الشَّعب الرُّوسي بالمدارس، وكان مستوى التَّعليم في المرحلة الثانوية لدى الشَّعب الرُّوسي عاليا.

وينبغي التَّذكير هنا أن أنجح المدارس في مجال التَّعليم التِّقني والتِّجاري بالمرحلة الثَّانوية في الإمبراطورية الرُّوسية كانت المدارس الألمانية، والتي كان اليهود والمسلمون يفضلون الذَّهاب إليها.

كان السَّيد علي رضا في الثَّانية والأربعين من عمره حين وُلِد مصطفى، أي أنَّ عمر مصطفى كمال كان ست أو سبع سنوات حين توفي والده عام 1886م. وهكذا أصبح مصطفى الصَّغير يتيما في سن مبكرةٍ...

2

أراد دائما أن يكون عسكريا

التَّعليم العسكري

حين نقرأ مذكرات الطفولة للغازي مصطفى كمال نرى أنَّه أراد دائما أن يكون عسكريا، حتى أنه دخل امتحان المدرسة العسكرية، ونجح فيه، دون عِلم والدته التي لم تكن تريد أن ينفصل ابنها عنها. وفي محاولةٍ لإقناع والدته أظهر لها السَّيف الذي تركه والده أمانة له، وأخبرها أنَّه يريد أن يصبح عسكريا تنفيذا لوصية والده. وقد لعبت كفاءة التَّعليم العالية في المدارس العسكرية في ذلك العهد دورا في قراره هذا بالطَّبع.

ومن المعلوم أيضا أنَّه حين كان صغيرا كان يحتذي بابن جيرانه طالب المدرسة المتوسِّطة العسكرية، وكان يطمح أن يصبح مثل الضُّباط الذين يراهم في السُّوق.

ورغم ارتياده المدرسة المتوسِّطة العامة لفترةٍ قصيرةٍ، فقد انتقل إلى مدرسة سيلانيك المتوسِّطة العسكرية بعد أن نجح في امتحانها. وكان طالبا نشيطا لذلك أُطلق عليه اسم "كمال" من قِبل أحد أساتذته الذين أحبُّوه وهو النقيب "مصطفى صبري" القادم من سكوبي عاصمة مقدونيا.

كان مستوى التَّعليم في المدرسة العسكرية ممتازا، والأهم من ذلك أنَّه كان منتظما. وكان تعليم اللغة أولويَّة، بالإضافة إلى العناية الزَّائدة بالجغرافيا والرِّياضيات، ولا أقول التَّاريخ بل الجغرافيا والرِّياضيات. وقد أدرك أتاتورك أهميَّة الجغرافيا في معركة تشَناق قلعة، وفي كلِّ مكانٍ آخر، فالجغرافيا والرِّياضيات من المواد التي لا يمكن تجاوزها خلال تعليم الأركان العسكرية.

وفي الحقيقة كان مصطفى كمال ضمن سلاح المشاة، لكنَّ صفَّ المدفعية كان الأهم وكان صفًّا ذا امتيازات خاصَّة. كما أنَّ مدرسة المدفعيَّة كانت اختصاصا هندسيا، ومنذ القرن الثَّامن عشر كان الضُّباط المدفعيين مهندسين. وكان خريجو مدارس القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر يسيرون

على درب التَّقدُّم، إذ جعلت منهم معرفتهم باللغات الأجنبيَّة والجغرافيا والرياضيات والفيزياء موظفين عسكريين قادرين على مواجهة الأجانب عندما كانوا يسافرون خارج البلاد.

أمَّا ضبَّاط الأركان فكان يجب عليهم دراسة الفروع الأخرى دون النَّظر إلى التَّخصص الذي هم فيه. ولا يعني ذلك أنَّ بين الموظفين العامين العاملين في الخارجية من لا يتكلم لغة أجنبية، فالذين يعملون بوزارة الخارجية تم توظيفهم نتيجة معرفتهم للغة أجنبية، وليسوا مجرَّد أشخاصٍ تعلَّموا في أيِّ مكان. إذ لا يتعلَّم أحدٌ اللغة أثناء دراسته العلوم الدُّبلوماسيَّة، بل كان على الطَّالب الذي يرغب في دخول ذلك الفرع أن يتعلَّم اللغة أولا وكان عليه أن يجتاز الامتحان. أمَّا الذين يملكون معرفة مسبقة باللغة الأجنبية فكانوا يدرسون في المدرسة الحربيَّة ومدرسة الأركان الحربية. وتلك المدرسة كانت مهمة، لذلك لا يمكن التَّقليل من شأن دور التَّعليم العسكري في حياة
مصطفى كمال.

كيف كان كطالب؟

كان التأدُّب هو المهم خلال تلك الفترة في مجال التَّعليم العسكري، مثله مثل جميع المجالات في أنحاء أوروبا. وفي حال طرحتم سؤالا فسوف تتم الإجابة عليه، وإن كان سؤالكم سخيفا سيُقابَل بالضحك عليه، وسوف تتعرضون للسُّخرية، ليس فقط من الأستاذ، بل من أصدقائكم في الصَّف أيضا، وحينها سوف تتخلون عن عادة السُّؤال. ولكن إذا طرحتم أسئلة جدية فإنَّ ذلك سيترك أثرا إيجابيا عند الأستاذ، وخاصة إذا كنتم تجيبون على الأسئلة التي يسألها. لأنَّ الأساس في التَّعليم التَّقليدي هو السُّؤال، والأستاذ يطرح الأسئلة باستمرار، وعندما تبادرون بالإجابة فهذا يعني أنَّكم طلابٌ مجدون وجديرون بالمحبَّة والاحترام. وقد كان مصطفى كمال من الذين يطرحون أسئلة جديَّة كما هو معروف.

ضابط الأركان العثماني

كان ضباط الأركان العثمانيون أصحاب معرفةٍ في العديد من المواضيع. وعندما ألغيت بعض التَّشكيلات العسكرية مثل العساكر الميدانيين وعساكر الولاية عام 1826 بقيت الدولة العليَّة (أو الدولة الكبيرة وهو اسمٌ يُطلق على الإمبراطورية العثمانية من باب التَّعظيم) دون جيشٍ لمدة 20 عاما، وتمَّ العمل على تشكيل قطعات رديفةٍ للقطعات الملغية، ولكنَّ هذا الوضع انتهى أخيرا مع حرب القرم. ويجب التَّذكير هنا أنَّنا ندين كثيرا في مجال التَّجهيزات الفنيَّة إلى القوَّات المساندة

والعناصر غير العسكرية (أي الفنيين)، ومنها القوَّات المجرية وقوات المملكة البولندية التي التجأت إلينا هربا من مجازر القوات الرُّوسية والنمساوية المشتركة، وكذلك إلى ضباطهم مثل رئيس جمهورية المجر "الويوش كوشوت"[17] والجنرال "بم"[18] أو مراد باشا، وأيضا كونستانتي بورزيغكي[19] (مصطفى جلال الدين باشا الذي استشهد في الجبل الأسود) والذين كان لهم دورٌ كبيرٌ في التَّدريب والتعليم. وهذه المعلومات ليست مجرد بعض التَّفرعات لتاريخنا.

وعند إعادة تأسيس الجيش من جديد تمَّ تأسيس مدرسة الأركان الحربية، وهذا النَّوع من المدارس كان قد تأسس قبل 3 أو 5 سنوات في البلدان التي لديها جيش بريٌّ قويٌّ، مثل بروسيا والنّمسا وروسيا وفرنسا. ونتيجة إنشاء هذه المدرسة ظهرت إلى الوجود وبشكل تلقائي طبقةٌ راقيةٌ من العسكر، لأنَّ الذي يتخرج منها لا يصبح عسكريا فقط بل يمتلك نوعا آخر من الموهبة والمعرفة. وأنا على يقينٍ أن هؤلاء هم الوحيدون الذين يملكون المعرفة والقدرة على العودة إلى الفهارس، والبحث في القوائم، وإدراك الكلمات عند التَّمعُّن في اللغة. أمَّا فروع التَّعليم الأخرى فلم تكن تساعد في ذلك. لقد كانوا إلى جانب اهتمامهم باللغة يفهمون الجداول الخوارزميَّة رغم أنهم لم يكونوا علماء رياضيَّات، وعلى سبيل المثال كان أتاتورك يعرفها.

كان أتاتورك رجلا ذا طبع عصبيّ، وقد يصبح خشنا في أوقاتٍ معينةٍ. لكنَّ ضباط الأركان لم يكونوا يتحدثون علانية، فالإهانات اللفظية كانت مدروسة جدا ولم تشبه أبدا الأسلوب السياسي والبيروقراطي الذي نعرفه، وإن تمَّ توجيه الإهانة أحيانا بروح الدعابة الثَّقيلة. إلاَّ أنَّ ذلك لا يمكن أن يقاس مثلا بعقاب شاه إيران رضا بهلوي المتمثل بتسيير البيروقراطية بالعصا.

ويمكن مشاهدة هذه الحالة في يومنا هذا حيث خسرت البيروقراطية الأسلوب، وكما كان يوجد فارقٌ شاسعٌ بين أيِّ بيروقراطيٍّ في أنقرة وأيِّ ضابط أركان في ذلك الوقت، فإنَّ الفارق موجودٌ الآن أيضا.

كان أتاتورك رجلا تقنيا ولم تكن له علاقةٌ بعلم اللغة ولا بالعلوم الإنسانية، لكنه أسس كلية الآداب التَّابعة لجامعة إسطنبول وكلية اللغة والتَّاريخ والجغرافية في أنقرة والتي هي أقدم من جامعة أنقرة نفسها. والتساؤل المطروح هنا: لماذا تؤسس فروعا تُدرِّس اللغة السومرية والهندية والهيتيتية؟ والإجابة هي أنَّه أدرك أنَّ علينا فهم تاريخ العالم كي نفهم التَّاريخ التُّركي. وتلك الفكرة تُظهِر مفهومه للبناء والتَّأسيس.

إنَّ تركيا مجتمعٌ عسكري، شئنا ذلك أم أبينا، لذلك يبدو مشروع نزع السِّلاح (تحييد العسكر) أمرا لا معنى له ويجب التَّفكير به مليا، فهو مرتبطٌ بالتَّاريخ والجغرافية والحضارة. وبصرف النظر عمَّا يقال فإنَّ القادة والإداريين الأتراك وكلٌّ من ينطبق عليهم هذا الوصف قد خرجوا من صفوف العسكر. فالسَّيد مصطفى كمال أو مصطفى كمال أتاتورك ثم مصطفى كمال باشا كانا من هيئة الأركان، والمعمار سنان كان عسكريا أيضا، وكذلك الجغرافيون ورسامو الخرائط والرسامون، والموسيقيون الذين أدخلوا الموسيقى الغربية سواء في هذا العصر أم في القرن السَّادس عشر خرجوا من صفوف العسكر، وحتى علوم الطب الحديث والبيطرة والهندسة ظهرت في الجيش ضمن إصلاحات القرن الثامن عشر. إذ كان التَّعليم العسكري (الأركان) في القرن التَّاسع العشر يهدف إلى نقل الجيوش نحو مرحلة الاندماج مع العلوم الإنسانية والتقنية والتاريخ والجغرافية، ويجهِّز لذلك فئة من المحاربين المثقفين وذوي المعرفة، وتلك كانت العلامة الفارقة الكبرى في القرن التَّاسع عشر.

بعد إلغاء الإنكشارية أو العساكر المأجورين في الدولة العثمانية وأثناء تأسيس الجيش الحديث، تم إضافة عناصر مثل الموسيقيين والجراحين والبيطريين والصيادلة والكيميائيين إلى تدريب الأركان والقيادة لتكون هذه العناصر ضم تشكيلات الجيش، وقد بدأنا في ذلك بالتَّزامن مع الدول العربية. ويمكن رؤية تأثيرات هذا الانتقال خلال الحرب العثمانية الروسية (1877–1978) والحرب العالمية الأولى. إذ يمكن ملاحظة الفعالية في الدفاع أثناء الحرب العثمانية الروسية بفضل الدَّور الواسع للأركان في الجيش، فقد استُخدِمت الأسلحة بشكلٍ فعَّالٍ وهذا ما يقوله المؤرخون الروس أيضا وليس ما نقوله نحن فقط. وفي الطَّرف المقابل كانت الهندسة متقدمة أيضا وكان هناك قادةٌ ناجحون صعَّبوا المهمة علينا من أمثال الجنرال توتليبن، لذلك تمَّ فيما بعد إعطاء الأهمية من جديد لفروع الهندسة في جيشنا.

قبل الحرب العالميَّة الأولى كانت بعض الدول الكبرى المتعددة الأجناس مثل إنكلترا وألمانيا متقدمة صناعيا، بينما كانت هناك دولٌ أخرى تمتلك صناعة قليلة التطور. وكانت روسيا أيضا متخلفة في الصِّناعة مثل الدولة العثمانية تقريبا، ولكن كانت هناك دولٌ في وضعٍ أحسن منا. والعنصر المشترك في تلك الدول هو كونها متعددة الأجناس. أمَّا في روسيا والنِّمسا والدولة العثمانية على وجه الخصوص فكان النِّظام المتعدد الأجناس يسبب مشكلة. ونظرا للتركيبة الداخلية لهذه الدول فإنَّ الذين تلقوا تعليما جيدا من طبقة الأركان العسكرية (الطَّبقة العليا) كانوا ذوي فكرٍ

خاصٍّ بهم (أيديولوجيا) وكانوا على تماسٍ مع السياسة. فالانتماء إلى وطنهم الذي يعيشون فيه والجيش الذي يقودونه لم يسمحا لهم بالخلاص من هذه المشكلة. وعلى سبيل المثال يمكن رؤية الكثير من التَّنافر في جيوش النّمسا والمجر. ورغم أنَّ هذا النِّزاع العرقي لم يكن كبيرا في الجيش العثماني إلاَّ أنَّه يمكن الحديث عن توترٍ خفيٍّ.

كانت هناك رغبةٌ في إرسال عساكر من الأناضول إلى البلاد العربية بعد أن ازدادت أعداد العرب في الجيش هناك، وكان وجود طائفةٍ تركيةٍ من الأناضول أمرا واجبا نظرا لحساسية الجيش في هذا الموضوع.

كانت الدول المتحاربة في معظمها ذات بنيةٍ زراعيةٍ، فحتى في فرنسا كانت نسبة سكان القرى تتجاوز الخمسين بالمائة، ولكنَّ إنكلترا وألمانيا لم تكونا على تلك الصُّورة. أما من ناحية التجهيزات فقد اختلفت تلك الدُّول عن بعضها كثيرا، إلاَّ أنَّ الميزة المشتركة لديها جميعا كانت التكافؤ في مقدرات وعلوم الأركان ومستوى الضُّباط، بينما كان قادة الدَّولة العثمانية أكثر تفوقا نتيجة خوضهم معارك أكثر.

بدأ أتاتورك حياته العسكرية بممارسة السياسة وإخماد حركات التمرد. ونظرا لأنَّه كان من الصعب إخماد تمرد العشائر في الصحراء السورية مثلا، فقد كان على العساكر أن يتعلموا الدبلوماسية. وعلى سبيل المثال يجب دراسة أداء عصمت باشا في اليمن، فالاتفاق الذي أنجزه مع الإمام يحيى وعشائره المنتفضة عندما كان قائدا وواليا يعتبر مثالا للدبلوماسية.

حين بدأت الحرب العالمية الأولى كان هؤلاء القادة قد أمضوا ثلاث سنوات في الحرب بطرابلس الغرب والبلقان لذلك كانوا يعرفون الطبيعة الجغرافية بشكلٍ جيدٍ. وفي هذا المجال كانت صفة القائد هي التي تتقدم، فقد فهم هؤلاء القادة ماهية الحياة خلال وقت قصيرٍ، وهكذا كانوا شبابا وفي ذات الوقت قادة متقدمين في العمر.

وحين ننظر إلى سيرهم الذَّاتية، يمكن القول عن أنور باشا[20] بأنَّه قليل الخبرة، ويمكن التساؤل عن إمكانياته ليصبح القائد العام لجيوش الإمبراطورية. ولكن من جهةٍ أخرى فإنَّ أصحاب رتبة عقيد أو مقدَّم من هؤلاء كانوا ذوي خبرةٍ حربيةٍ تفوق جنرالات الجيوش الكبرى. فهل كان لدى أي ضابطٍ نمساويٍّ برتبة جنرال حتى أيُّ تجربةٍ في العام 1914؟ وبالمقابل كان لدى الروس تجربةٌ

حربيةٌ، بل إنَّ بعضهم أصيبوا في الحرب الروسية اليابانية وأتوا بعدها للمشاركة في الحرب العالمية. كما كان لدى الروس تركيبةٌ أخرى، فبعضهم أرستقراطيون عاشوا الحرب الروسية اليابانية ثم انضموا إلى الجيش الأحمر مثل القائد إيغناتييف. أما تجربة ألكسي بروسليلوف[21] فكانت في غالبها تجربة شخصٍ قادمٍ من عامَّة الشعب، وهذا ما سنتطرق إليه تحت عنوانٍ آخر. ومن ناحية أخرى لم تكن ألمانيا تعلم الكثير عن الحروب، باستثناء التَّعليم الجيد والنَّظرية الجيدة. ولنتذكر أنَّ الصدفة لعبت دورا في انتصار تانينبرغ الكبير في روسيا. وكما سنتحدث في فصلٍ لاحقٍ فإنَّ الألمان توقفوا على أبواب فرنسا ولم يتجاوز الجنود الألمان جبهة مارن.

ولإكمال هذه الصُّورة ينبغي التَّوضيح أن عصمت باشا كان ضابطا معروفا بالجيش وكان مدير الشُّعبة الثَّالثة لهيئة الأركان العامة. ويمكن أن نلاحظ معالجة تلك المسألة في تقريرٍ كتبه لأنور باشا أي لنائب القائد العام حيث قال: "لا يمكن التحالف مع هؤلاء (يقصد الألمان) فالتوقف في مارن يظهر ضعفهم". ولرؤية التجربة الواسعة

مصطفى كمال باشا في عام 1902عندما أنهى المدرسة الحربية .وأُلحق بمدرسة الأركان الحربية لأنه كان ضابطا متفوقا

لعصمت باشا يجب النظر إلى ما فعله، فهو لم يكن موجودا في طرابلس الغرب لكنَّه كان موجودا في اليمن يخوض معركة موازية هناك، وكان يعرف ما هي حرب البلقان فقد كان في نفس الوقت ضابط المقر.

كان هؤلاء الضباط يعرفون الكثير من اللغات، فعلى سبيل المثال كان أنور باشا يعرف أربع لغات، ولم يكن نور الدين باشا ضابط أركان لكنه كان يعرف عددا من اللغات وهو بطل معركة كوت العمارة الرئيسي.

كانت هناك منافسةٌ ضد العالم الخارجي بين الأشخاص الذين لديهم تلك المعرفة اللغوية. فلم يكن مصطفى كمال باشا ورفاقه وعلى رأسهم أسعد باشا وأمثاله يحبون الألمان، ولم يكونوا يعتبرون قدرة الجيش الألماني سببا كافيا لتأييد الألمان. وبنظر هؤلاء العساكر فالجيش الفرنسي جيشٌ ديمقراطيٌّ، ولديهم دليلٌ على ذلك.

كانت رؤيتهم للعالم تختلف من أي موظفٍ مدنيّ، لذلك كان من الطبيعي أن يخرج القائد من بينهم. وقد كانت لديهم وجهات نظرٍ متعددة الاتجاهات. فعلى سبيل المثال لم يكن ممكنا في بلغاريا للشخص الذي يُعَّين ملحقا عسكريا أن يرى ويفهم الكثير، لكنَّ مصطفى كمال كان يفهم ما حوله. وهنا أذكر أنَّ صديقي وسفيرنا السابق إلى الجبل الأسود "بيرغن كيشه أوغلو" قام بالاطلاع على تقرير مصطفى كمال عن البلقان، وقال: لم أقرأ تقريرا رائعا مثله، لأنَّ مصطفى كمال ينظر إلى ستنيي وبوخارست وإلى الجبل الأسود ورومانيا والعالم بشكلٍ مختلفٍ، وهو بالأساس جزءٌ من تلك المنطقة.

سنوات ماناستر

كانت ماناستر إلى جانب سيلانيك من أهم مدن مقدونيا في ذلك الوقت (تتبع سيلانيك لليونان حاليا). ويوجد حتى الآن في مدينة بيتولا بمقدونيا مبنى الإعدادية العسكرية، ويُستَعمل الطَّابق العلوي من البناء كمتحفٍ لأتاتورك. ويعيش اليوم في ماناستر السلافيون إلى جانب الأتراك والألبان، ويُشكِّل الأتراك نسبة قليلة من السُّكان.

لقد تأسسَت الحياة الفكرية لمصطفى كمال في ماناستر حيث بدأ تعليمه في آذار عام 1896م. وهناك علَّمه عمر ناجي[22]، الذي سيصبح فيما بعد أحد الخطباء المشهورين للاتحاديين، الأدب والشّعر. كما كان من بين أساتذته الذين أثَّروا فيه الضَّابط محمد توفيق من خلال حبّه للتَّاريخ والفكر القومي المعاصر، والوطنيون من أمثال نامق كمال ومحمد أمين يورداكول، والشُّعراء القوميون، حيث كانت أفكار الحريَّة المتأثرة بالثَّورة الفرنسية مستوطنة في الأذهان. وكانت القومية السّلافية المقدونية والنزعة الفرنسية هي المسيطرة في بيتولا (ماناستر).

سنواته كطالبٍ في إسطنبول

قدِم مصطفى كمال إلى إسطنبول من سيلانيك بالسَّفينة عام 1899م، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها حاضرة الدَّولة. ولم يتجاوز عمره الثَّامنة عشرة آنذاك، فدرس في المدرسة الحربية البرية ثم في الأكاديمية الحربية. وسنرى لاحقا أنَّ عددا من الضُّباط الذين كانوا معه في سيلانيك، سواء كانوا متقدمين عليه أم متأخرين عنه، أصبحوا شخصيات تاريخية فيما بعد.

عهد القوميات

كانت الدولة العثمانية إمبراطورية تحوي في ربوعها العديد من القوميات. لكنَّ إرجاع انقسام الإمبراطورية، اعتبارا من القرن الثَّامن عشر، إلى الفكر القومي للثَّورة الفرنسية الكبرى سبب غير كافٍ، لأنَّ القومية المؤثِّرة في

مصفى كمال، في العام1905 م أنهى دراسته في الأكاديمية الحربية وأصبح برتبة نقيب ركن

انقسام الإمبراطورية كانت من إنتاج شعوب البلقان منذ القرن الخامس عشر. وبعبارةٍ أخرى فإنَّ أوجه الاختلاف بين قوميَّة البلقان والقومية التي نادت بها الثَّورة الفرنسية أكثر من أوجه الشبه. فالمبادئ التي نادت بها الثَّورة الفرنسية وهي "المساواة والأخوة والحرية" كانت تهدف للارتقاء بالشَّعب الموجود على جميع الأراضي الفرنسية ويتحدَّث اللغة الفرنسية (أي المواطنين الأحرار الذين ليس لهم امتيازات قانونية مقارنة ببعضهم البعض) إلى مرتبة مواطنين. وقد كانت الثَّورة الفرنسية ضد الملكية والكنيسة، أما قومية البلقان فكانت الكنيسة سببا في اندلاعها. وكانت قوميات البلقان، حالها كحال جميع الحركات القومية في أوروبا الشَّرقية، تعني أيضا

الاستقلال والحرية. وفي النِّهاية وجدت القومية الاستقلالية للشُّعوب الأخرى هوية لها لدى أهم عناصر الدولة العثمانية وهم الأتراك، وفتحت الطَّريق لتطوُّر التّيار المؤمن بالقومية التُّركية. ومنذ القدم كانت القومية السلافية موجودة في أوساط الطَّبقة العليا في البلقان، تماما مثل القومية البلغارية في بلغاريا. لذلك فإنَّ المبالغة في إبراز الدور الروسي عند المؤرخين الروس والأتراك في حصول الأقوام البلقانية على استقلالها هو أمرٌ غير صحيح. فعلى سبيل المثال كانت بلغاريا قادرة على نيل استقلالها بعد فترة لو لم تحصل عليها من خلال كفاحها في حرب عامي 1877م و1878م. أما اليونان التي حصلت على استقلالها بفضل القوى الخارجيَّة قبل أن تنضج بشكلٍ كاملٍ، فبقيت تحت الوصاية الخارجيَّة لفترةٍ طويلةٍ. وتعود ولادة القومية السلافية في البلقان إلى ما قبل الثورة الفرنسية، ويتوافق تاريخها مع التاريخ الذي فقدوا فيه استقلالهم.

من المعلوم أنَّ كريانيتش[23] وغوندولتش[24] أبرزا القومية السلافية (النَّهضة السلافية ظهرت في دوبروفنيك) على طريقة ميكافيللي[25] الذي أراد تتوحد جميع الإمارات الإيطالية تحت إمرة شخص قوي. وقد أراد كريانيتش ذلك الاتحاد بمساعدة ملك بولونيا في القرن الخامس عشر وغوندولتش أراد ذلك بمساعدة القيصر الروسي في القرن السَّابع عشر. وكان السّلافيون يعيشون خارج الإمبراطورية العثمانية أيضا، إذا كان لهم وجودٌ كبيرٌ في النّمسا.

وقد نمَت القومية في أوروبا الشرقية بشكل مستمرٍ في مواجهة الحكم الأجنبي. وحتى بعد وصول الفكر الماركسي إلى تلك المنطقة فإنَّ القومية لم تختفِ. فعلى سبيل المثال كانت القومية في يوغسلافيا السابقة تستند إلى فكرة تيتو التي تقول "بإمكان الجميع أن يكونوا قوميين ولكنَّ عليهم ألاَّ ينسوا بأنهم يوغسلافيون".

وبالعودة إلى القومية اليونانيَّة في الأراضي العثمانية فإنَّ رئيس وزراء النّمسا لم يقدِّم لها الدَّعم، لأنَّ حركة كهذه كان يمكن أن تؤثِّر على الحركات القومية في إمبراطوريته (النمسا) أيضا، لذلك وقف إلى جانب الدولة العثمانية ضد التمرد اليوناني. وفي المقابل كانت روسيا تقف إلى جانب اليونان. ونظرا لذلك فإنَّ اليونان وقفت منذ تأسيسها إلى جانب الدول التي ساعدتها في موقعة نافارين. بل تمَّ حتى استيراد ملكٍ من بافاريا (الأمير أوتو) ليعتلي سدة الحكم. وعوض تأسيسها لعلاقات جيدةٍ مع جيرانها توجَّهت اليونان إلى الغرب، وما زالت إلى الآن تتغذى فكريا من الغرب. ولا تزال هذه الفكرة مترسخة من وجهة نظر عالمية.

تأسست رومانيا وبلغاريا إثر الحرب الروسية العثمانية بين العامين 1877م و1878م. وباستثناء الثوريين البلقان فإنَّ العناصر المعتدلة أرادت نموجا يشبه النموذج النمساوي – المجري (تاجين) في بلغاريا ومن ثم في البلاد العربية. ومن أبرز المدافعين عن هذه الفكرة "الجمعية الثورية السرية"، وتاليا رئيس الوزراء ستيفان ستامبولوف[26] في بلغاريا والقحطانيون[27] في البلاد العربيَّة. فقد عرض ستيفان ستامبولوف على السُّلطان عبدالحميد أن يكون سلطان العثمانيين وقيصر البلغار وبذلك يكون على رأس الدولتين. بعد مؤتمر برلين كان اختيار أميرٍ لإمارة بلغاريا يتم بالتعيين مثل رئيس الوزراء، وكان منصب رئيس الوزراء يعادل منصب المختار، لذلك كان ستامبولوف يدعى "رئيس المدراء" نتيجة صيغة الحكم شبه الذَّاتي والأقرب للتبعية، وكانت سياسته تميل إلى الغرب أكثر منها إلى روسيا.

وأثناء توسعها خلال القرن الخامس عشر ضمَّت الإمبراطورية العناصر اليونانية تحت جناحيها، بينما أُتبع جميع السلافيين إلى البطريركية الرومية. وهنا كانت تظهر مشكلة المساواة في الإمبراطورية.

كان الروم أصحاب امتيازات داخل الإمبراطورية، وكان البلغار يتعرَّضون للظلم من البطريركيَّة الرومية. وقد قام الرَّاهب البلغاري في دير هلندر في جبل أثوس بكتابة التَّاريخ البلغاري لأوَّل مرة في القرن الثَّامن عشر. وكان كتابه بمثابة بيانٍ وطنيٍّ. ولاحقا وخلال القرن التَّاسع عشر كانت القومية البلغاريَّة في تصاعد، وتضع في حساباتها التَّخلص من سلطة الرُّوم. وإنَّ تأسيس الكنيسة البلغاريَّة الكاثوليكية يوافق هذا التَّاريخ.

كان تأسيس علاقةٍ مع الكنيسة الكاثوليكية الرومية أمرا صعبا بالنِّسبة إلى الكلدانيين والسِّريان في العهد البيزنطي، وكذلك بالنِّسبة إلى الأرمن في عهد الدولة العثمانية. ولم يكن هناك رابطٌ بين هذه الكنيسة وبين روما في الشؤون الإدارية والمالية، وكان الرابط الوحيد روحانيا، كما أن العبادة كانت تتم باللغات المحليَّة وليس باللاتينية. وقد شكَّل هذا الوضع عامل جذبٍ لبعض البلغار، فأرادوا مع الزَّمن تأسيس كنيستهم الكاثوليكية الخاصَّة والانفصال عن الكنيسة الأرثوذكسية، وذلك لأسباب قوميَّة وليست دينيَّة، في حين لعبت الكنيسة دورا فعَّالا في استقلال السلافيين البلقان. وبهذا حصل البلغار على استقلالهم الوطني والكنسي، وكانت كنيستهم تتبع عقائديا للبطريركية (الأكسرخية) الأرثوذكسية لكنها تشكَّلت بمعزلٍ عن البطريركيَّة الرومية الواقعة في منطقة فنار بإسطنبول، والتي كانت رافضة لهذا التَّحوُّل، فعلى الرغم من أنَّها كانت تعترف باستقلال كنائس أرثوذكسية أخرى في البلقان فإنَّها لم تعترف بالكنيسة البلغاريَّة إلى العام 1945م.

تكونَّت في القرن الثَّامن عشر في البلقان طبقةٌ بورجوازيةٌ وطنيةٌ، وكان الوضع الاقتصادي بالبلقان في ظلِّ الدولة العثمانية في ارتقاءٍ منذ القرن الخامس عشر. أضف إلى ذلك عوامل أخرى أسست لهذا الارتقاء هي تأمين المواد الخام للصناعات الروسية والنمساوية المتطورة، ونشوء المزارع القروية الغنية، وبيع المنتجات التي دخلت بطرق غير قانونيةٍ. وفي نهاية القرن الثَّامن عشر تم حل النقابات الحرفية والتجارية وتطورت حركة القروض المالية.

وفي مجال التَّعليم فإنَّ المعارف العلمانية كانت تسجِّل تطورات في القرن التَّاسع عشر بالتَّرافق مع ضعف مستوى التَّعليم في الكنيسة. وكانت القومية في البلقان حركة علمانية في الأساس

رغم الدور المهم للمؤسسات الدينية.

وكانت تلك الحالة سمة واضحة في القومية العربية أيضا، ويعود هذا إلى وجود الفروقات الدينية والمذهبية لشعوب الدولة العثمانية حتى عندما تكون لغتهم واحدة. فعلى سبيل المثال، كانت هناك مجموعةٌ مسلمةٌ بين البلغار تسمى البوماك، وفي ألبانيا كانت توجد مجموعةٌ كبيرةٌ من الأرثوذكس والكاثوليك إلى جانب المسلمين، وحتى هؤلاء المسيحيين ظهرت بينهم فروقاتٌ مذهبيةٌ لوجود الأرمن بينهم. كذلك وجدت الفروقات المذهبيَّة بين العرب رغم كونهم مسلمين، إضافة إلى وجود مجموعاتٍ مختلفةٍ من المسيحيين.

وقد ظهرت الحركة القومية العربية في أواخر القرن التَّاسع عشر، وكانت تكتسب المزيد من القوة مع ازدياد مركزية الإمبراطورية. ويمكن ملاحظة حجم التأثير الغربي على القومية العربية من خلال القوميين العرب الأوائل الذين كانوا مسيحيين أو أشخاصا متأثرين بالغرب المسيحي. وقبل ذلك لم تكن القومية العربية قوية ومنتشرة مثل القومية في البلقان. كما أنَّ العرب عندما استوطنوا الأراضي العربية الحالية عمدوا إلى تعريب غير العرب الذي كانوا يعيشون في على تلك الأراضي، وهؤلاء بقي بعضهم مسيحيا. ورغم وحدة اللغة في البلاد العربية فإنَّه لا توجد وحدةٌ في الدين، فالإسلام هو الدِّين السَّائد ولكن يوجد ضمنه العديد من المذاهب.

إنَّ الصِّفة الأساسية التي تميِّز الحركات القومية في الإمبراطورية العثمانية عن الحركات الحالية هو وجود تواريخ محددةٍ لنشوء هذه الدول. إذ تمكَّنت تلك القوميات من تأسيس مجتمع سياسيٍّ ومؤسسات مع مرور الزَّمن. فقد كانت هناك دولة صربيةٌ وبلغاريا قيصرية عبر التَّاريخ، وكانت هناك ثقافةٌ سياسيةٌ وتاريخ. وبالتَّالي فإنَّهم مختلفون عن قارة إفريقيا اليوم وحتى عن بعض الشُّعوب في الدول الآسيوية.

القومية التُّركية في الإمبراطورية العثمانية

في القرن التَّاسع عشر كانت هناك في أوروبا ثلاث إمبراطوريات متعددة الأعراق هي: الإمبراطورية النمساوية المجرية، وروسيا القيصرية، والإمبراطورية العثمانية. وكانت الأراضي الخاضعة لسيطرة هذه الإمبراطوريات تضمُّ دون استثناء شعوبا ذات تاريخ مهم. فمثلا عندما كان الروس يحكمون البولنديين كان لا يغيب عن بال البولنديين أنَّهم حكموا الروس قبل مائتي عام، وهذا

هو الحال بالنسبة لجميع الإمبراطوريات المذكورة، فقد كان لديهم شعورٌ من الرومانسية التَّاريخية. وبطبيعة الحال فقد أظهرت القومية هنا بعض الاتجاهات:

1- ظهرت في روسيا النزعة القومية التُّركية، وعمليا دعمت الإمبراطورية النمساوية المجرية هذه النزعة التي كان مركزها بودابست وجامعة إيتوفوس لوراند.

2- تطوَّرت النزعة القومية السلافية في النمسا، وكان مركزها جامعة فيينا من ناحية الحركية الطُّلابية، أما النزعة العلمية للقومية السلافية فقد تطورت في جامعة براغ.

3- في الإمبراطورية العثمانية كانت هناك السلافية لكنها اختفت بعد مؤتمر برلين وظهرت الحركية الإسلامية.

لم تكن النَّزعة القومية التُّركية، من وجهة نظر ضيا غوك ألب والاتحاد والترقي، قومية تهدف إلى وحدةٍ سياسيةٍ، ولم يكن هناك تنظيمٌ سياسيٌّ صرفٌ. (استمر هذا الوضع حتى حرب البلقان، وما بعد الحرب حيث فقدت الإمبراطورية أراضي واسعة فظهرت الحاجة لتنظيمٍ سياسيٍّ وأصبحت الحركة الطورانية بمثابة برنامجٍ سياسيٍّ فيما بعد). وإلى هنا لا يمكن الحديث عن برنامجٍ سياسيٍّ بل عن قوميةٍ تركيةٍ ثقافيةٍ.

وللمرَّة الأولى طبع إسماعيل التتاري (وهو من تتار القرم) صحيفة بعد أن أصلح ونقَّح التُّركية العثمانية. وانتشرت هذه الصحيفة في أوساط جميع الذين يتكلمون التُّركية في روسيا، وبدأت بذلك حركة الكتابة والقراءة. وكان هؤلاء الأشخاص التقدميون يكافحون الحكم القيصري والثيوقراطي (حكم رجال الدِّين)، لكنَّهم واجهوا زعماء مناطقهم المحلية قبل أن يواجهوا القيصرية لأنَّهم كانوا أشخاصا دستوريين واشتراكيين وعلمانيين.

وقد ظهرَت النزعة التُّركية في الدولة العثمانية بداية في الآداب، إذ كتب مصطفى جلال الدين البولندي الأصل ومن لاجئي 1849م أول مؤلَّفٍ ذي نزعةٍ قوميةٍ تركية بعنوان "الأتراك قديما وحديثا" بالفرنسية، ويعتبر هذا المؤلَّف هو الأساس في القومية التُّركية الحديثة، من ناحية النَّظر للقومية التُّركية اعتمادا على العرق.

وقد قام الألباني شمس الدين سامي[28] بكتابة أول موسوعةٍ تركيةٍ بعنوان "قاموس العالم". بينما لا توجد حدود للقوميَّة بالنسبة لأحمد وفيق باشا من ناحية اللغة.

لكن من المثير للجدل أن القومية التُّركية كانت بضاعة بالنِّسبة إلى علي سوافي، فقد كان شخصا غريب الأطوار، لا يمكن معرفة أين يكون إسلاميا وأين يكون تركيا، وأين يكون شرقيا وأين يكون غربيا، ومع ذلك كان أول

صوتٍ يطالب بتغيير وتنقيح الحروف. وفي الواقع كان موضوع إصلاح الحروف العربية مثارا منذ عهد التَّنظيمات (الكاتب وخبير اللغة الأذربيجاني ميرزا فتح علي أهونزاده)[29]، وحتى أكثر المحافظين توقع على الأقل إصلاحا.

ينبغي علينا هنا أن نتطرق لموضوعٍ آخر، إذ لا أعتقد أنَّه كان جيلا دخل فجأة مرحلة السُّقوط، وبدأ يسأل ماذا كنَّا وكيف

مصطفى كمال حين كان موجودا في دمشق، وكان سيؤسس مع أصدقائه جمعية سرية باسم «الوطن والحرية» عام1906 م

أصبحنا؟ وقد عرفتُ – بحكم عمري – لاجئي ومهاجري روسيا، الذين كان سقوط الإمبراطورية مشكلة بالنِّسبة إليهم، وغرقا لروسيا العظيمة. والذين حين كانوا يُسألون من أغرقها كانوا يجيبون بأنهم الشُّيوعيون، ولم يكونوا يريدون بالطَّبع مناقشة سبب ظهور الشُّيوعيين. وكان بعضهم يتَّهم راسبوتين والأمير يوسوبوف. وقد استمعت حتى سنٍّ متقدمةٍ من عمري إلى مثل تلك النقاشات غير المنطقية، ولكن لم أسمع مَن يقول منهم إنَّ تلك الإمبراطورية الكبيرة كان ستسقط وتنهار. حتى إنَّني رأيت بعض القوميين الأتراك الذين أبدوا انزعاجهم من الشُّيوعية بعد أن كانوا يفعلون المستحيل لإسقاط القيصر، بل بدأ بعضهم يقول: "ليتنا لم نُسقطه".

تقبَّل شعب الإمبراطورية العثمانية الموضوع بسرعةٍ ولم يظهر أيُّ حزبٍ ملكيٍّ. وتكيف السِّياسيون مع الحياة السِّياسية الجديدة، وقد يكون هذا الوضع نتيجة تصفية الهزيمة. وبعبارةٍ أخرى

تم تصفية الهزيمة الأولى وإعطاء الأمل من جديد للشعب بالنُّهوض.

الاتحاد والتَّرقي

بدأ عهد المديح للاتحاديين من جديد في هذه الأيام، لكن التَّاريخ ليس شيئا نرميه بالتهم ونحاسبه. فمقابل المديح هناك في تركيا أناسٌ مريضو العقل يشتمون الاتحاديين صباح مساء. إلاَّ أنَّه ينبغي التَّذكير بأنَّ المبالغة أسلوبٌ خطيرٌ، فقد كان للاتحاديين طريقتهم الخاصة في حب الوطن وامتلكوا قدرا من الشَّجاعة، كما كانوا يعرفون التَّنظيم بدرجةٍ جيدةٍ وكانوا منسقين فيما بينهم ومترابطين، لكنَّهم لم يكونوا على نفس الدرجة بالنسبة إلى المبادئ. فعلى سبيل المثال كان جمال باشا يحب السَّلطنة والمظاهر كثيرا، أما أنور باشا فلم يكن بعيدا عن التَّرف لكونه متزوجا من سلطانة. إلاَّ أنَّ طلعت باشا كان مختلفا، فحين كان وزيرا (صدرا أعظم) قدَّم لزوجته مكنسة كهديةٍ، ولم يكن يسكن في قصر الوزارة (الصدر الأعظم) لأنَّه كان بحسب تفكيره مُكلفا جدا بل كان يستأجر مكانا قريبا من الباب العالي.

كان الاتحاديون منظمين، فقد حدَّثوا الجيش وكانوا سببا في تقدم تركيا. لكنَّهم ارتكبوا أخطاء جسيمة ولم يكن لديهم الإيمان القوي المتوقع. وبالطَّبع فإنَّنا كشعب لا ننتظر إيمانا قويا من رجل الدولة، بل تكفي معرفته للحقيقة. فعلى سبيل المثال لا يجب لرجل الدولة أن يصاب بالرُّعب ويقول "إن لم ندخل الحرب فسوف يأكلوننا".

كان على الاتحاديين أن ينتظروا، وأن يردوا بالمثل إذا تعرضوا للهجوم، فقد قاموا بتحديث الجيش. ولم يكن الانحياز إلى أحد الأطراف ذا معنى، كما لم يكن هناك داعٍ للتحالف مع قوةٍ ضعيفةٍ مثل ألمانيا. وعندما دخلنا الحرب إلى جانب الألمان، كان الضباط العقلاء يقولون في كل مكان إنَّ التَّحالف لن ينجح. وكما ذكرنا سابقا فقد قال عصمت إنونو في تقريره إنه لا يمكن الثقة بألمانيا بعد توقفها على جبهة مارن. ولم يكن لانتصار الألمان على الروس في تانينبرغ معنى حيث لم يكن الجيش الروسي جيشا مجهزا. وفي ذلك الوقت أيضا كان لدى روسيا قيادة سيئة كما كان الحال في الحرب العالمية الثَّانية، فقد ذهبوا إلى الحرب ببندقيةٍ واحدةٍ لكل ثلاثة جنود. وحين تكون القيادة على هذا النحو فالهزيمة في تانينبرغ لم تكن مستغربَة. ولا يمكن بالتَّأكيد التقليل من هايندنبرغ، لكنَّ نقل الجنود من الشَّرق إلى الغرب في جبهة مارن لم يكن موفقا.

وباختصار أدخلت ألمانيا الإمبراطورية العثمانية الحرب بغرض إلهاء إنكلترا، فمما لا شك فيه أنَّ ألمانيا والنمسا كانتا تعرفان الجيش العثماني، أما فرنسا وإنكلترا فقد قللتا من شأننا إثر هزيمة البلقان 1912م – 1913م. وكما هو معلوم فإنَّ أسباب هزيمة البلقان كانت سياسية. إذ كان أركان القيادة متخاصمون فيما بينهم. وكانت حكومة كامل باشا السَّابقة حكومة عادية، فمثلا كان ناظم باشا[30] من مجموعة خلاص كار[31] وكان معارضا للاتحاديين ومع الأسف اتخذ قرارات سياسية لا عسكرية. لقد تردد الاتحاديون خشية من انتصارات تُسجَّل لحكومة كامل باشا في حرب البلقان، فوجدت الدسائس طريقا بينهم. وهذا ما حدث عند الاستيلاء على ميدلي على سبيل المثال، فعلى الرغم من أن السيد رؤوف كان ضابطا بحريا وطنيا إلاَّ أنَّ التَّشدد الحزبي الذي يمحو كل أشكال التَّعاون والعقلانية قد وقف في طريقه أيضا.

وفي الشَّمال أخذ شخص غير مجهزٍ مثل أفيروف مع الأسف الجزر اليونانية، ولم يكن ينبغي السَّماح بحدوث ذلك ولكن الروح الوطنية فُقدت هناك. وهناك مثالٌ آخر على ذلك فقد عينوا شخصا مثل تحسين باشا لا يملك تاريخا ولا سجلا جيدا في السَّابق لقيادة الفيلق في سيلانيك، وكانت سيلانيك أكبر مدن الدولة العثمانية في أوروبا وتقع في وسط سهلٍ منيعٍ، ويُقال إنَّ سبب تعيين تحسين باشا هو تعرضه للظلم من السُّلطان عبد الحميد أي أنه كان من المنكوبين، وساد اعتقادٌ أن عبد الحميد ينفي دائما الأشخاص الجيدين، في حين نفى عبدالحميد عديمي الأخلاق وعديمي النَّفع مثل الأشخاص الذين يدعون للحرية. ومع الأسف سلَّم تحسين باشا المدينة لليونانيين دون أن يقاوم مع الفيلق الضخم الذي لديه. ويقال في سيرته إنَّه أنفق النُّقود التي جمعها في نيس.

ورغم أنَّ استخدام مثل هؤلاء الأشخاص كان أمرا واقعا، إلاَّ أنَّه يوجد شيءٌ من المبالغة. إذ لم يقبل محمود شوكت باشا الوظيفة التي مُنحت له بحجة عدم إعجابه بالجبهة التي تم تعيينه فيها. ومن المعروف أنَّ هذا الرَّفض يُعتبر أمرا جللا، ويوجب إعدام المعترض بالرَّصاص، لكنهم عينوا محمود شوكت باشا وزيرا (صدرا أعظم) بعد الانقلاب.

كانت تلك الأمور علامات على التَّعصب الحزبي وقد دخلت في الحياة الإدارية بشكلٍ ثقيلٍ، مع العلم أنَّ العصبية الحزبية والتَّحزب لم يكونا موجودين سابقا بل كانت هناك روابط مثل الزَّمالة ورفقة الطريق. وهكذا جعل التَّعصب الحزبي من مفهوم "كيفما كان ليكن منَّا" مفهوما سائدا في الحياة التُّركية. أما في أوروبا التي كانت تملك تحزبا منظما وانتماء أكثر مما لدينا فإنَّه بدأ بالانحسار

ولم يعد يظهر في العديد من المجالات، وكان النَّاس يأخذون الكفاءة بعين الاعتبار ولو قليلا. حيث لم يكونوا يعينون مثلا أيَّ شخصٍ من الحزب الاشتراكي مديرا عاما بل كانوا ينظرون إلى الصِّفات الأخرى. وكان الوضع في السويد وألمانيا أكثر جدية. بينما يقال عندنا: "ليكن المسؤول واحدا منا ". ويمكنكم ملاحظة ذلك في الحياة الحزبية التي تمارسونها لدى جميع الأحزاب، وعند جميع أصحاب الرَّأي.

لقد دخلت هذه العقلية كمرضٍ لا يمكن تجنبه، وترجع جذوره إلى تصرفات الاتحاديين وتوجهاتهم. ونجد أنَّه من الصَّعب تجاوز هذه العقلية لأن تربية المجتمع التُّركي تعتمد نوعا ما على نموذج الاتحاديين مع الأسف.

إلى جانب هذه الخصائص يعتبر فكر الاتحاديين نقلة طارئة، وهم أنفسهم كانوا مجموعة، لم يسبق لها مثيل في الشرق. فقد كان الاتحاديون سببا في تجاهل الشُّمولية وبعض الأمراض في تركيا الجديدة، لذلك بدأت الجمهورية بإقصاء العناصر الاتحادية. فالفكر المنغلق والسِّري لم يكن مرغوبا. ويبقى موضوع اعتبار كادر الجمهورية الجديدة من الاتحاديين موضوعا مثيرا للجدل، لكنَّنا سنناقش هذه المسألة في الفصول القادمة.

دعونا نلقِ نظرة هنا على العلاقة بين مصطفى كمال وأعضاء الاتحاد والترقي. لقد كان مصطفى كمال رجلا خشنا يقول ما يفكر به حتى ولو كان الذي أمامه القيصر ويلهم (آخر الأباطرة الألمان). ونظرا لامتلاكه شخصية صلبة لم يكن معجبا بأسلوب الاتحاد والترقي، فأسلوبه البليغ كان يمكِّنه من استخدام معرفته والمناقشة بشكلٍ جيدٍ. ولذلك كان أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد والترقي والمقربون من أنور باشا (المدنيون والعسكريون منهم) ينفرون من مصطفى كمال كثيرا، ولم يكن بإمكانهم عمل شيءٍ لأنَّه كان عسكريا جيدا للغاية. ومن الواضح أنَّ أنور باشا لم يكن ليقبل مشاركة الحكم مع أحدٍ، وكان الشيء ذاته موجودا عند مصطفى كمال بالتَّأكيد.

لقد كان أتاتورك يقظا بحيث أنهى مسألة المتشددين الاتحاديين في قضية الاغتيال بإزمير عام 1926م، إذ تمت في تلك القضية محاكمة أشخاص غير متورطين يماثل عددهم عدد الأشخاص المتورطين، وحكم على بعضٍ منهم بالإعدام من أمثال السَّيد جاويد.

وبالعودة إلى العام 1814م فقد تأسست في أوديسا جمعية تحت اسم (جمعية الصَّداقة) من البلقان، وكانت جمعية سرية تضم نسبة كبيرة من التُّجار والمثقفين اليونانيين في روسيا وميناء البحر الأسود. وما زال دفتر حساب هذه الجمعية موجودا، وأسماء الذين تبرعوا أو دفعوا رسوما أو مستحقات مدونةٌ في الدفتر. بينما لم تمتلك الاتحاد والترقي دفترا كهذا، وبالطَّبع لم تكن الجمعية تعمل من دون مال، فالجميع كان يضع ما في جيوبه من نقود. وكان الانتماء إلى عضوية الجمعية يتم بمجرد أداء القسم، ولكنَّ الأعضاء لم يكونوا يصرحون بشيءٍ، والأغرب من ذلك أنَّهم كانوا يستمرون بعلاقاتهم مع أشخاصٍ يقال إنَّهم خانوهم. حيث بقي وزير الداخلية علي كمال مثلا رغم انفصاله عن الجمعية – بزعم اصطدامه مع الاتحاديين – يحظى بالدَّعم من قِبل أعضاء الجمعية، وحين عوقب بالإعدام دون محاكمةٍ – وكان لديه الكثير من الأقرباء لكنَّهم لم يظهروا في الأوقات الصعبة – طرقت المسكينة زوجته، والتي هي ابنة زكي باشا، باب حسين جاهد يالتشين، لأنَّ رفقة الحزب شيءٌ مختلفٌ وأصدقاء الحزب يتمسكون ببعضهم البعض حتى الموت. وكان نفس الشَّخص قد خرج من محكمة الاستقلال وتم إنقاذه بصعوبةٍ، وعندما أُعدم السَّيد جاهد بحجة قضية اغتيال إزمير، أخذ ابنه إلى جانبه ورباه وأعطاه نسبه (شعار يالتشين). ويبدو من الصعب فهم هذا التكاتف فهو شيء آخر. كان لديهم شعار فيه قسم الوحدة. الكل يناقش في الحزب بحرية، لكن لا يخرج شيء يُحكى هناك إلى الخارج. كان بينهم شرطة السلطان لكن لم يخرجوا الكلام خارجا، القرارات والترتيبات التي تتخذ هناك لا يمكن لأحد أن يخونها.

اتحادية مصطفى كمال

كان أتاتورك مثل جميع الضباط الشَّباب اتحاديا، لكنه انفضَّ عنهم وتركهم مبكرا ليكتسب فكرا نقديا تجاه الحركة. ولم يتفق مع أنور باشا الذي لم يكن يحبه، وهو بدوره كان يرى في أنور باشا تهديدا. وفي الحقيقة كان الاثنان يحملان فكرين مختلفين. فلم يكن أنور باشا معجبا بمصطفى كمال، ونظرا لموقعه كان يراه شخصا طموحا غير مرغوب فيه. وبالنسبة إلى مصطفى كمال فإنَّه بغض النظر عن عاطفته تجاه أنور باشا كان يراه تهديدا.

الضابط مصطفى كمال باشا، الثَّامن من اليمين في الصف الأوسط،
في مقر الجيش الثَّالث بسيلانيك مع ضباط المقر

وتحوَّل الادعاء بالانتماء إلى الاتحاديين فيما بعد إلى مصطلحٍ سلبيٍّ استعمل على وجه الخصوص في فترة الصلح (الهدنة بعد الحرب العالمية الأولى) من قبل المحيطين بفريد صهر السُّلطان (دامات فريد)، في حملتهم لتشويه سمعة الحركة الوطنية لمصطفى كمال بنظر الشَّعب. واتخذت تلك الحملة شكل فتوى على يد أشخاص من أمثال مصطفى صبري ودوري زاده (كان شيخ الإسلام حينها).

كان أتاتورك يكره الجوانب السَّلبية للاتحاديين. وعندما كان شابا ورغم أنَّه كان اتحاديا محلفا فقد تنحى جانبا بعد مغامرة جيش الحركة (الجيش الذي أرسله الاتحاديون من سيلانيك لإخماد تمرد الحادي والثَّلاثين من آذار/مارس عام 1909م) وبعد ترفيعه إلى رتبة رائدٍ. كما أصبح يكره الحزبية، وكان بعض أصدقائه على شاكلته. وقد اتبع هذه الطَّريقة في حزب الشَّعب أيضا. فعلى سبيل المثال حين جاء إلى إيدن، كان هناك شابٌّ معارضٌ "رئيس الفرقة الحرة" الذي يقال بأنَّه كان مؤثرا جدا. والمقصود هو السَّيد عدنان حيث لم يكن يُعرف بعدنان مندريس آنذاك. وقد غضب أتاتورك من المقولات المنتشرة، ودعا السَّيد عدنان الذي قام بالعرض بوضوحٍ، فهو لم يكن شخصا فارغا إذ كان ضابط احتياط أثناء خدمته العسكرية كما أنَّه نال ميدالية الإستقلال ودرس في المدرسة الأمريكية. وأخذ السَّيد عدنان يشرح أحوال المنطقة، ووضع الفلاح، والإهمال وموقف

البيروقراطية، فتغيرت حينها ملامح أتاتورك وطلب كل ذلك منه على شكل لائحةٍ. وفي الفترة اللاحقة قام بتعيينه كمبعوثٍ (نائب) عن آيدن.

كانت ذهنيته تلك ذهنية قائدٍ، لكنَّ القادة على هذه الشَّاكلة كانوا قليلين في المجتمع التُّركي.

مفهوم مصطفى كمال باشا للعسكرية

كان مصطفى كمال باشا عسكريا منضبطا نشيطا يحب عمله. وننقل هنا واقعة شرحها أتاتورك عام 1937م لعفت إنان:

حدث انقلاب الحرية في الدولة العثمانية عام 1908م وفي صيف ذلك العام كان مصطفى كمال ضابطا يخدم في سيلانيك. وكان المارشال الألماني كولمار فون دير غولتز والذي كان يعرف بلقب غولتز باشا موجودا في خدمة الجيش العثماني لسنواتٍ طويلةٍ وقد توفي في جبهة العراق فيما بعد، وجاء هذا العسكري المهم إلى سيلانيك ليشرف على تدريبات حامية الجيش التُّركية في مقدونيا. وفي تلك الأيام كان مصطفى ضمن لجنة الأركان للجيش الثالث وكان مشغولا بتجهيز خطط التَّدريبات قرب سيلانيك لعرضها على المارشال. وقد أراد أن يخبر قادته الآخرين بذلك فاستغربوا من جرأته، وقالوا: "إنَّ غولتز قادمٌ إلى هنا لا ليأخذ منَّا درسا بل ليعطينا درسا"، لكن مصطفى كمال رد عليهم بقوله: "الاستفادة من عسكريٍّ كبيرٍ مثل غولتز شيءٌ مهمٌّ، لكنَّ الأهم هو الأركان الحربية، وهيئة القيادة التُّركية يجب أن تُظهر كيفية الدِّفاع عن المواطنين مستقبلا، إضافة إلى أن الماريشال سوف يكون مرهقاَ حين يأتي، وبرأيي من غير المناسب تحميله المزيد من الأعباء". إلاَّ أنَّ الذين رأوا في حركة مصطفى كمال أمرا غير صائب لم يغيروا رأيهم رغم ما قاله. وعندها ذهب مصطفى كمال نحو الأمام أبعد من ذلك قائلا: "ليس من العيب أن أعرض خطتي على الماريشال بل العكس صحيح، وإن لم يُعجب الماريشال بخطتي أو لم تلائم فكره، فإنَّ القرار له لتنفيذ ما يريد. ولكن من غير المناسب أن نترك لديه الاعتقاد بأنَّ هيئة القيادة للجيش التُّركي لم تتخذ تدبيرا أو لم تفكر بشيءٍ للدفاع عن كامل مقدونيا، فذلك لا يليق بالأتراك والجيش التُّركي".

وعندما جاء الماريشال إلى سيلانيك أقام في فندق سبلنديد بالاس، وفي ليلة ذلك اليوم دعا مصطفى كمال للقائه. وقد وجد مصطفى كمال أمارات مبشرة على وجه رئيس الأركان الحربية الذي استقبله في ممرات الفندق، وأثناء دخوله إلى الصَّالون الذي يوجد فيه المارشال أخبره بأنَّ الماريشال معجبٌ كثيرا بخطته، ولكنَّه احتاج إلى بعض التَّوضيحات من صاحب الخطة لذلك دعاه

للقائه. وهكذا دخل مصطفى كمال إلى الغرفة وشرح الخطَّة للماريشال، وبعد أن تبادلوا الأفكار اتُخذ القرار بتطبيق خطة مصطفى كمال. وبدأت في اليوم الثَّاني المناورات في حوض نهر فاردار، حتى أنَّ غولتز باشا أخذ مصطفى كمال إلى جانبه وطلب منه المساعدة لأنه لا يعرف الأراضي هناك، وبعد الانتهاء من المناورات جرت مناقشتها.

عبد الحميد الثَّاني

وُلد أتاتورك عام 1881م، أي أنَّ أول 28 سنة من عمره انقضت تحت إدارة عبد الحميد. لذلك يجب البحث بعمقٍ في إفادات كبار الدولة ومؤسس الجمهورية كمال أتاتورك عن السُّلطان عبد الحميد. وعلى عكس الاعتقاد السَّائد لا توجد الكثير من الأمور السَّلبية والسَّيئة، فقد بحثوا في أسباب أفعال عبدالحميد أو ما كان مجبورا على فعله أو ما لم يستطع فعله، ويتوجب علينا الوقوف عند ذلك.

إذا من هو عبد الحميد الذي أثَّر على قدر جيلٍ كبيرٍ ومن بينهم مصطفى كمال؟ لقد توفي عبدالحميد في العاشر من شباط/فبراير عام 1918م بمنفاه في قصر بيلاربي بعمر السَّادسة والسَّبعين، بعد سبع سنواتٍ من الحرب التي خاضتها تركيا وفقدت فيها الأراضية التقليدية للإمبراطورية.

وكان وفدٍ مكلفٍ من المجلس العمومي قد أبلغه بوضعه الجديد (أي المنفى) في أواسط شهر نيسان/أبريل عام 1909م. واعتبارا من تلك اللحظة كان السُّلطان (الهاكان) السابق سيمضي بقية عمره في قصر آلاتيني (وهو ثريٌّ يهوديٌّ) خارج مدينة سيلانيك. وبعد ثلاث سنواتٍ أُجبر على ترك سيلانيك التي كانت أول خسارةٍ مهمة في حرب البلقان، وكان مقر إقامته الجديد هو قصر بيلاربي على البوسفور. وهكذا كان السُّلطان قد ولد في قصر طوب كابي وعاش في قصر يلدز وسكن قليلا في قصر بيلاربي بالطبع.

ونذكر هنا أنَّ السُّلطان عبد الحميد كان هو الذي صنع مفروشات قاعة الطعام في القصر لوالده عبد المجيد والتي كانت تحفة في النجارة.

وسرعان ما تم استبدال القادة الموجودين في موقع المسؤولية في قصر بيلاربي. لأن أركان الاتحاد والترقي كانوا يرون خلال الحرب العالمية الأولى أنَّه من المفيد الاستماع إليه نظرا لمعرفته الواسعة واستراتيجياته الدبلوماسية. لكن السُّلطان السَّابق كان متعبا ومريضا، فقد اضطر إلى إدارة

الإمبراطورية لمدة 33 عاما (كان في الرابعة والثلاثين حين استلم الحكم عام 1876م) في أكثر أزمنتها اضطرابا، دون أن يكون إلى جانبه كبار رجالات الدولة كما هو الحال في عهد التَّنظيمات، إذ كانت الإدارة في يده بشكلٍ مطلقٍ. وانتقلت سيادة الباب العالي من يد الحكومة إلى قصر يلدز.

وكان الموظفون في كتابة التقارير (مركز الكتابة في قصر مابين) يعملون على مدار أربع وعشرين ساعة بالتَّناوب، لأنَّ التَّقارير الواردة من المراكز الخارجية ومن السُّفراء وكذلك البرقيات القادمة من الولايات جميعها كانت تمر من هناك.

في هذا الجو كانت فيه إدارة الرَّجل الواحد هي السَّائدة لدرجة أنَّ رجل الدولة الكبير التُّونسي خير الدين باشا لم يتحمل هذه المركزية واستقال، من منطلق "أعطِ لقيصر ما لقيصر"، فنشأ في هذا الوسط موظفون ذوو قيمةٍ. فقد رفع السُّلطان من مستوى التعليم المدني، وعيَّن المتخرجين منه في الوظائف الإدارية (كتابة التَّقارير للسُّلطان وتحليلها مثلا)، ولم يكن هناك ضغطٌ على هؤلاء الموظفين، حتى إنَّ بعضهم لم يكن مضطرا لتقديم تقريرٍ يوميّ. بل إنَّهم كانوا بعيدين عن الشُّرطة السِّرية ويتكلمون بحريةٍ، وفقا لما يورده مشتاق ما يكون في مذكراته.

لكنَّ البيروقراطية توسعت وازدادت بشكلٍ متضاربٍ في الإمبراطورية خلال ذلك العهد، وكان واضحا أن البيروقراطية مقيدةٌ في نفس الوقت. وعلى الرغم من كل شيء لم يكن حجم ومجال تلك البيروقراطية يقارن بمثيلتها في روسيا ناهيك عن أوروبا الغربية والوسطى. ومن بين إمبراطوريات القرن التَّاسع عشر كانت روسيا والإمبراطورية العثمانية مثالا على نظام الحكم الأوتوقراطي (حكم الشخص الواحد) التقليدي. ففي روسيا كان هناك 12 موظفا لكل 12 ألف نسمة. وكان الوضع في الدولة العثمانية قريبا من ذلك، وإن لم يكن هناك إحصاءٌ دقيقٌ. وبالمقابل فإنَّ هذه النِّسبة كانت في دول أوروبا الغربية أكثر بأربع أو خمس مرات مقارنة بذلك. ومن الطبيعي أنَّ قلة عدد الموظفين تعني قلة الرواتب المدفوعة الأمر الذي كان له تأثيرٌ واسعٌ في انتشار الرشوة.

عندما كان في منصب ولي العهد الثاني ذهب مع عمه السُّلطان عبدالعزيز خان وولي العهد شقيقه مراد أفندي في أسفار طويلةٍ إلى عواصم دولٍ تتبع للإمبراطورية مثل مصر (الخديوية) ومنها إلى فرنسا وإنكلترا وألمانيا والنّمسا والمجر. وكانت تلك هي الرِّحلة الخارجية الأولى للسُّلطان العثماني، وبالتأكيد رأى الكثير فيها فقد تعرف عن قربٍ إلى رجال الدَّولة الذين كانوا أعضاء في

الوفد، كما التقى ولو بشكلٍ قصيرٍ بأعضاء السُّلالات الحاكمة في الدول التي ذهب إليها. وبعدها لم يخرج في أيِّ رحلةٍ داخليةٍ أو خارجيةٍ.

وحين انتهت حياته المليئة بالاضطرابات دُفن إلى جانب جده السُّلطان محمود خان الثَّاني، وكان نعشه قد نُقل في موكبٍ جنائزيٍّ من رصيف ميناء بيلاربي إلى داخل السُّور مارا عبر طريق الدِّيوان. وكانت الجنازة رسمية حضر فيها الوزراء والسُّفراء الأجانب، وشهدَت ازدحاما كبيرا، وبدا الشَّعب حزينا ويائسا، فقد يكون من المحتمل أنَّ المشاكل التي جلبتها الحرب الطَّويلة (الحرب العالمية الأولى) زادت من نسبة الاحترام تجاه السلطان، لذلك وجدت في الجنازة مجالا للتعبير عن الامتعاض. فكانت النِّساء تبكي في نوافذ الأبنية قائلة: "يا سلطاننا الذي جلبت لنا الرَّفاه، أين تتركنا وتذهب؟".

وفي الواقع شهدت أراضي الأناضول خلال 33 سنة من الحكم إنشاء السِّكك الحديدية والمدارس والمشافي، كما تطورت الزِّراعة، ولكن من النَّاحية الأخرى كانت هناك رقابةٌ وضغطٌ سياسيٌّ. ورغم أنَّ الإعدامات السِّياسية لم تُطبق كما هو الحال في روسيا المعاصرة ولكن الشُّعور بالضغط الأوتوقراطي كان واضحا.

كان السُّلطان شخصية غريبة، وكان مغرما بالدبلوماسية ويثابر على تعلمها، وكانت مناورته السِّياسية موضع تقديرٍ في العالم الخارجي. كما تعلم المناورات البنكية ومناورات البورصة في شبابه، وبعد حكم سلفه السُّلطان عبدالعزيز أعلن وقف دفع الديون والإفلاس المالي، ولكن كانت "الديون العمومية" هي المؤسسة التي أظلمت حياته حاله حال الجميع.

تعامل عبد الحميد مع روسيا بشكلٍ جيدٍ، فالقيصر الروسي أليكسندر الثَّالث كان مثله غير راغبٍ بالحرب. إذ لم تكن روسيا دولة قادرة على التَّوسع من خلال الحرب بل من خلال التعليم والصِّناعة. بينما أدار علاقاته مع دول أوروبا الغربية من خلال ألعابه الدبلوماسية.

لكنَّه كان متعبا بشكلٍ جديٍّ، فمن الطبيعي أن تُتعب إدارةٌ على هذه الشَّاكلة صاحبها في بداية القرن العشرين. وبعد العام 1905م استمر بحكمه كسلطانٍ متعبٍ، لذلك يمكن إرجاع قرار العمل بالدُّستور من جديدٍ عام 1908م وعدم تدخله الفعال بأحداث الحادي والثَّلاثين من آذار/مارس، إلى كونه منهكا.

لم يكن عبد الحميد قادرا على منع الحرب الرُّوسية التُّركية، وقد خرج منتصرا من الحرب مع اليونان عام 1897م. لذلك ظهرت فكرة تفيد بأن التَّراجع العثماني توقف في عهد عبد الحميد.

وكان محبوه من الأوساط المحافظة في أوروبا أكثر من محبيه في الداخل، وهذا الوضع لم يكن وضعا غريبا، لأنَّه كان حاكما يسعى للمحافظة على الوضع القائم بعد أن فقد العالم توازنه، كما أن سياسته لاقت تقديرا في الرُّبع الأخير من القرن التَّاسع عشر.

النقيب (قائد فيلق) مصطفى كمال، تم ترفيعه إلى هذه الرُّتبة عام1907 م، دمشق، حزيران/يونيو عام1907 م

وبالتأكيد يجب القول إنَّ عهد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كان عهد الحداثة وإعادة هيكلة البيروقراطية، ولكن في نفس الوقت يمكن الحديث عن تشكل النظام الشموليّ، وظهور النِّظام البوليسي، والأسوأ من ذلك هو عدم الثِّقة بمبادرات الشَّعب في ظل هذا النظام.

كانت هذه العملية إعادة هيكلة خطيرة في تركيا، فالدولة التي تملك المعرفة بآلية عملها لم يكن ينبغي أن تصل لتلك المرحلة، ولكن في حالتنا ظهرت عمليات

هيكلية أخرى. لذلك كان عبد الحميد سلطانا متعبا، وكأنه تقبل أحداث 1909م بعد أن أظهر بعضا من عدم الاهتمام اعتبارا من العام 1908م.

ولكن يجب القول إنَّه من الغريب أن تكون علاقته مع شعب الأناضول ومع عرب الشَّرق الأوسط جيدة، وأن يكون عرب الشَّرق الأوسط يحبونه كثيرا.

ويبقى أنَّ المؤسسة التي لا يمكن العفو عنها من ذلك العهد المثير في تاريخ تركيا هي مؤسسة الرقابة، فبسببها بقي الجيل الذي سيقود تركيا بعد ذلك العهد دون معرفةٍ وبسيط التَّفكير.

إلحاق البوسنة والهرسك

كانت البوسنة منطقة استثنائية بالنسبة للدَّولة العثمانية، إذ كان المجتمع البوسني في البلقان مجتمعا مسلما يُقدم نفسه كمجتمعٍ عثمانيٍّ. ومن ناحية الجذور العرقيَّة فإنَّ البوسنيين والصرب والكروات هم من العرق السّلافي، والفرق بين الشُّعوب الثَّلاثة هو الدين. وقد دخل البوسنيون إلى

الإسلام حين فتح السلطان محمد الفاتح البوسنة عام 1463م، وكانوا حينها مسيحيين لا راعي لكنيستهم ولا تراتبية بينهم. ولأنَّهم دخلوا الإسلام طوعا فإنَّهم تغيروا عاطفيا أيضا، وهكذا يمكن القول إنَّ البوسنيين أصبحوا بمثابة أتراكٍ في البلقان. ولا يزال يُقال حتى اليوم عن أيِّ شخصٍ يصبح مسلما في البلقان بأنَّه أصبح تركيا. وبالطَّبع فإنَّ سكان مناطق البوسنة لم يكونوا يقتصرون على المسلمين فقط، وهو الوضع القائم حاليا أيضا.

كانت منطقة البوسنة ومركزها سراييفو مصدرا مهما للموارد البشرية بالنسبة للدَّولة العثمانية. وكذلك الأمر بالنسبة لكوسوفو ذات الغالبية الألبانية وأيضا مقدونيا حيث يتركز الثِّقل السُّكاني للألبان والأتراك. وما زال البوسنيون حتى اليوم يعتبرون السُّلطان محمد الفاتح جدا لهم، وهناك محبةٌ دافئةٌ تجاه تركيا يعرفها من يذهب إلى البوسنة.

لقد دخلت البوسنة ضمن الإدارة التُّركية عام 1463م وفقدناها عام 1878م ورغم ذلك استمر النُّفوذ العثماني هناك، لكن وفي عام 1908م أُلحقت البوسنة بالإمبراطورية المجرية النّمساوية.

وفي إطار هذا الموضوع تكونت لدى البعض من أعضاء الحكومة في ذلك العهد، مثل وزير الخارجية في حكومة النمسا/المجر كونت أهرينثال، اعتقاداتٌ واهمة بأنَّه يمكن إلحاق البوسنة والهرسك. وكانت القوات النّمساوية موجودة هناك كقوة احتلال وحاولت فرض إدارة احتلال. ولكنَّ بعد القبول بقرار الإلحاق تشكلت إشارات استفهام لدى الدولة العثمانية وروسيا ولدى دول أخرى أيضا باعتبار هذا الإلحاق احتلالا. ورغم التَّنبيهات التي وردت لحكومة النّمسا المجر إلا أنها لم تصغِ إلى تلك التَّنبيهات، وبالنِّهاية اشتعل فتيل الحرب إثر اغتيالٍ وقع هناك.

الشَّخصية التَّاريخية الاستثنائية: أنور باشا

نعرف بدقةٍ تاريخ ميلاد أنور باشا وهو 23 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1881. ونعرف أنَّه سقط شهيدا في عمر الحادية والأربعين يوم الرابع من آب/أغسطس عام 1922م أثناء محاولته شق حصار الجيش الأحمر في مكان يعرف اليوم باسم جيغان في طاجيكستان.

أصبح أنور باشا القائد العام لجيوش الإمبراطورية في سنٍّ مبكرة، وتستند أكثر الانتقادات التي توجه إليه إلى تلك الواقعة، حيث يقال بأنَّ استلامه ذلك الموقع في سنٍّ مبكرةٍ وعدم امتلاكه

التَّجربة الكافية جعل من وقوع المصيبة أمرا سهلا. فقد كان برتبة فريقٍ أول ولم يكن لديه الوقت لكافي ليصل إلى رتبة مشير.

اتفق أنور باشا مع الشَّيخ السنوسي ضد الإيطاليين في طرابلس الغرب، وتمكن من حشد عشرين ألف شخصٍ حينها، وكان معه ضباطٌ شبابٌ أمثال مصطفى كمال والسَّيد جامي والسَّيد فتحي. وعندما لم يصله الدَّعم المالي مباشرة من المركز قام بسكِّ النقود باسمه وأصبح حاكما للمنطقة. ووقف في وجه الإيطاليين الذين عجزوا عن الدُّخول من جهة السَّاحل. وحين تم استدعاؤه بعد سنةٍ مع الضُّباط الآخرين – الذين كانوا متطوعين – إلى إسطنبول إثر اندلاع حرب البلقان فإنَّ الدِّفاع عن طرابلس الغرب لم يتوقف، واستمر الضُّباط الذين أخذوا أمكنتهم بالدفاع ضد الإيطاليين لمدةٍ طويلةٍ.

وفي هذه الفترة تم ترفيع أنور باشا إلى رتبة مقدم. وبعد هزيمة البلقان قام بإسقاط حكومة كامل باشا. وقد استفاد أنور باشا من حالة عدم الاتفاق بين دول البلقان التي أدت إلى حرب البلقان الثَّانية وتمكن من استرداد أدرنة التي كانت قد سقطت بيد البلغار في الثاني والعشرين من تموز/ يوليو عام 1913م. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من تلك السَّنة تم ترفيعه إلى رتبة عقيد. وخلال مدةٍ لا تتجاوز الشَّهر أصبح جنرالا، حيث كان الانقلاب فاعلا في نظام التَّرفيع بالجيش. ورغم استحقاقه لذلك المقام إلا أن أنور باشا شغل موقعه بصفته سياسيا. وحين وصل إلى رتبة عميد أصبح وزيرا للحربية في حكومة الاتحاد والترقي. وخلال ذلك العام تزوج من السُّلطانة ناجية وهي ابنة الشَّاه زاده سليمان أفندي أي حفيدة السلطان عبدالمجيد، ليصبح بذلك صهر القصر.

كان في الجيش العثماني في تلك الفترة عددٌ كبيرٌ من الضُّباط يوازون الضُّباط في الجيوش الأوروبية من حيث الكفاءة، وكانوا على مستوى عالٍ ليس فقط من حيث المعرفة العسكرية بل ومن حيث المعرفة العامة وأسلوب الحياة والتَّجربة.

وكان أنور باشا يعرف اللغة الفرنسية مثله مثل جميع ضباط الأركان، كما أنه تعلم اللغة الألمانية جيدا حين عُيِّن في الملحقية العسكرية ببرلين عام 1909م، وكان يعرف مسبقا الرُّوسية والفارسية.

وبالإضافة لذلك كان ضابطا رساما وصاحب قلم قوي. وقد عززت حياته في برلين وبوتسدام من إعجابه وثقته بالقوة العسكرية الألمانية، وهو إعجابٌ واندماجٌ أبداه تقريبا جميع الذين تلقوا التَّعليم الألماني. ومن المعروف في هذا السِّياق أن الأمير عمر أفندي – ابن عبدالمجيد الخليفة الأخير – كان من المعجبين بالألمان وقد كوفئ من قبل النِّظام الألماني كصديقٍ وضابطٍ حارب على جبهة مارن. لكنَّ الميدالية التي مُنحت له كانت ذات دلالةٍ تتجاوز مجرد النَّجاح في معركةٍ، إذ كانت وسام الصَّقر الأحمر الذي يدل على بطولةٍ كبيرةٍ، وقد جرى تقديمها مع التَّقدير من قبل الإمبراطور الألماني.

ورغم أهداف الحرب العالمية الأولى، ومخطط تقسيم الإمبراطورية المعروف، والنِّية السَّيئة لدول التَّحالف فإنَّ الدبلوماسية لم تتعرض لأيِّ اختبارٍ تقريبا، وكان الجانب الدبلوماسي أصلا هو الأضعف في الحكومات الدُّستورية (التي أتت بعد 1908م) مقارنة بعهد السُّلطان عبدالحميد. وإضافة إلى ذلك فإنَّ وجود خيارات مثل حماية التَّوازن بين الدول الكبرى، وتأخير الدخول إلى الحرب رغم القول إنه لم يكن بالإمكان تجنبها، ورفض دول التحالف، والحيلة التي قام وزير البحرية البريطاني اللورد تشرشل في قضية السفينة (المدمرة)، قد عجَّل مع الأسف من دخول ثلاثي الاتحاد والترقي (أنور، طلعت، جمال) في الحرب إلى جانب ألمانيا.

ولم تكن الجيوش جاهزة، فقامت لأول مرةٍ تركيا بجمع أكثر من مليون عسكري. وفي تلك الفترة حدث تهجيرٌ للأرمن نتيجة المشاكل الداخلية والتمرد الأرمني في شرق الأناضول وتشجيع الحليف الألماني. ورغم دخول تركيا إلى الحرب العالمية دون أن تكون جاهزة، إلاَّ أن مجموعة الضباط الذين تلقوا تعليما جيدا، وأتقنوا طريقة التَّعامل مع طبيعة الأرض من خلال المعارك التي خاضوها سابقا في الصَّحراء العربية وجبال البلقان، ونضجوا في حرب البلقان وطرابلس الغرب اللتين أسفرتا عن نتائج فارقةٍ، استطاعوا أن يستمروا في الحرب وأن ينهوها بنجاحٍ لم يكن متوقعا. وهذا الوضع أدهش بريطانيا التي لم تكن ترى الجيش التُّركي ذا قيمةٍ ليكون حليفا. وبالمقابل أدركت القيادات التُّركية خلال الحرب أنَّ ألمانيا وقياداتها لم تكن حليفا جديرا بالثِّقة.

وكان نائب القائد العام صاحب خططٍ شجاعةٍ، ولكن لا يمكن القول إنَّ هذه الخطط كلها تم إعدادها على نفس الدَّرجة من الحكمة والمعرفة. ونذكر هنا أن بعض القادة في الجيش كانوا يطلبون الدخول في الحرب متأخرا أو حتى عدم الدخول فيها. بينما كان قادة آخرون من أمثال أسعد باشا

ومصطفى كمال وعصمت إينونو وكاظم كارابكر وفوزي باشا، والذين سيكونون في الكادر القيادي لحرب الاستقلال، معارضين لألمانيا، لذلك زاد التَّوتر بينهم وبين أنور باشا يوما بعد يوم. ويمكن ملاحظة ذلك بعد فاجعة ساري قامش. ولكنَّهم جميعهم نفذوا ما تقتضيه وظيفتهم في الحرب، وبالمقابل كان أنور باشا يعلم مدى الحاجة إلى هؤلاء الضباط. وفي الحقيقة فإنَّ التَّوتر الذي لم يخرج إلى العلن استمر بين القادة بعد العام 1915م. وكان من حالات التوتر تلك إعاقة أنور باشا لوضع اسم مصطفى كمال على غلاف "مجموعة الحرب"، وأيضا حالة أخرى لم يتم التَّطرق إليها كثيرا تمثلت في تحجيم أنور باشا للأمير من السلالة المالكة عثمان فؤاد أفندي الذي كان عسكريا جيدا، وقد تكون وراء ذلك فكرةٌ صحيحةٌ هي عدم رغبته في أن يسمح له بالوصول إلى مراكز عليا، أو قد يكون السبب استراتيجية خاصة به.

كان أنور باشا شخصا متقلب المزاج مثيرا للجدل، وفي نفس الوقت كان شخصا نشيطا وواسع المعرفة. ولو أنه كان في جيش ذي إمكانيات أكبر، ولو أنَّه لم يرتقِ إلى ذلك الموقع فجأة وبقي جنرالا شابا، لكان من الممكن أن يحقق الكثير، لكنَّ ذلك الاحتمال انتهى هناك.

ولاحقا بدأت المجموعة الثَّانية حرب الاستقلال بين العامين 1919م – 1922م وأدارت الحرب بحذرٍ مستفيدة من تجربة الحرب العالمية الأولى. ومقابل فواجع مثل ساري كامش وجبهة قناة السويس فقد تمكنت انتصارات مثل تشَناق قلعة وكوت العمارة من رفع العزائم. أما القدس فتم تسليمها مع اقتراب احتفالات أعياد الميلاد عام 1917م، وكان السبب في تسليمها الحيلة التي لجأت إليها هيئة الأركان الألمانية عن طريق التَّرويج لزعم أنَّ المقدسات الدينية المشتركة هناك قد تتعرض للتَّخريب نتيجة قصفها من قبل الجنرال الإنكليزي أللنبي. لكنَّ الجبهات المحيطة بالقدس طال أمد معاركها لشهورٍ، نتيجة الدِّفاع العبقري للضباط الشَّباب ومقاومة الجنود على جبهات فلسطين، وهو أمرٌ لم يتم التَّعريف به بكفاية حتى اليوم.

وهكذا كان التَّراجع من ناحية والانتصارات في إيران والقفقاس من ناحيةٍ أخرى، سببا في إنهاك الأتراك، العنصر الأصلي لتركيا الإمبراطورية، ولكن في نفس الوقت برزت دولةٌ تتجهز للمستقبل. ورغم الجو الاستسلامي واليأس الذي ظهر في العديد من الأماكن، فإنَّ ضباط الجيش الشَّباب استطاعوا أن يستمروا في حرب المقاومة ووفقوا بالحصول على بعض الدَّعم من البيروقراطية.

وقد غادر قادة الاتحاد والترقي وعلى رأسهم أنور باشا البلاد، ومبررهم أنَّ رجال الدَّولة الجدد حول السُّلطان الجديد محمد وحيد الدين السَّادس لن يعاملوهم معاملة عادلة. وكما هي العادة فإنَّ الأعذار جاهزة دائما في السياسة وفيها نسبةٌ من الحقيقة. وكان رؤساء حكومة الهدنة أمثال توفيق باشا وعلي رضا باشا كانوا ينظرون إلى مجموعة الأناضول نظرة من يريد لها الخير، ولكن كان هناك من ينظر إليها عكس ذلك مثل فريد باشا (صهر القصر). والحق يُقال إن حكومة الأناضول لم تصادق على عمل أنور باشا في الأراضي الروسية المسلمة والذي حقق نجاحا جزئيا، وقد كانت على صوابٍ في موقفها هذا.

وفي آسيا الوسطى اكتسب أنور باشا دعم الأتراك بالإضافة إلى الطاجيك الذين لا ينتمون إلى العرق التُّركي، وذلك حين لمست قدماه روسيا وتركستان كصهرٍ للخليفة وقائدٍ عامٍّ للجيوش. وكانت كلُّ الحركات إلى جانب أنور باشا حتى آخر لحظة بمن فيهم حركة البسمجي[32]. حتى أنَّ اسم أنور كان أكثر الأسماء شيوعا بين حديثي الولادة منذ أن بدأ النِّضال في روسيا عام 1918م. ورغم انتصار السوفييت فان قبره بقي وجهة للسكان المحليين لفترةٍ طويلةٍ.

وفي المحصلة كان أنور باشا منذ عام 1908م وخلال أربعة عشر عاما من الشخصيات التي تصدَّرت التَّاريخ التُّركي. ولا يمكننا بالطَّبع تقييم تلك الفترة في وقتٍ محدودٍ، لذلك يمكن العودة إلى كتابات شوكت سوربيا عن أنور باشا إلى جانب أبحاثٍ جديدةٍ قام بها مؤرخون من أمثال مراد برداكجي ونوزاد كوسا أوغلو.

ويبقى تاريخ تركيا القريب حافلا بالتعقيدات التراجيدية، ومن بينها موضوع أنور باشا.

هل تأثر بأفكار ضيا غوك آلب؟

أقف شخصيا مع الطَّرف الذي يجادل في مقدار تأثير ضيا غوك آلب على الفكر العلماني في تركيا، وهذا السُّؤال لا يمكن برأيي الإجابة عنه بشكل خاطفٍ. لأن الفكر العلماني لم يبدأ بالسيد ضيا، بل يمتد إلى ما قبله ويستمر إلى ما بعده. واشتهر كثيرا أثناء فترة المشروطية الثَّانية.

وقد تكون المصطلحات التي استخدَمها والمواقف التي اتَّخذها صحيحة وقد تكون منحرفة، لكنه لاقى الإعجاب من قبل المتنورين الأتراك التقليديين. ولم يكن يخلق الكثير من المشاكل، فكان مؤثرا، ونشطا على المستوى السِّياسي، وكان ضمن المركز الشَّعبي. واعتُبر رجلا مهما بالنِّسبة لفئةٍ

معينةٍ لذلك أُعجب به أتاتورك واستقبله بعطفٍ. أما النقطة الأهم فهي وفاة ضيا غوك آلب مبكرا، أي أنَّه لم يشهد النِّظام الجمهوري. وبالتَّالي ليس من الصواب تضخيم دور السَّيد ضيا في انقلاباتنا تلك.

تجربته الحربية الأولى: طرابلس الغرب

لقد واجهنا إيطاليا في الحرب العالمية الأولى، كما واجهناها في حرب الاستقلال لأنَّها كانت ضمن القوات المحتلة، لكن مواجهتنا الأولى في القرن العشرين كانت فوق آخر أراضينا بشمال أفريقيا أي طرابلس الغرب. فقد هاجمت إيطاليا عام 1911م سنجق (مقاطعة، ولاية) طرابلس الغرب التي تقع ضمن الأراضي الليبية اليوم، كما هاجمت سنجق بنغازي الذي كان يُعرَف بالسَّنجق المستقل والذي كان يتبع المركز مباشرة. وتشير مذكرةٌ تعود إلى تاريخ 29 سبتمبر/أيلول 1911م إلى أنَّ هذه الحرب ستبدأ لأسباب محددة. وهكذا أخذ الجنود الإيطاليون يتدفقون بكلِّ الصُّنوف بما فيهم سلاح البحرية إلى أراضي طرابلس الغرب في الرابع من أكتوبر/تشرين الأول عام 1911م دون أن يواجهوا بردٍّ واضحٍ أو بمحاولةٍ للدخول في مفاوضات. ونقول تدفقوا لأنه توجد هنا مشكلةٌ كبيرةٌ، فحين يُكتب التَّاريخ عادة يتم التَّطرق إلى المشاكل، وإلى الطرف المعدوم من العثمانيين والأتراك، ولا يتم الأخذ بالحسبان أن إيطاليا لم تكن دولة استعمارية متطورة. فحتى العام 1911م كانت إيطاليا الدولة الأكثر تأخرا عن اللحاق بدول أوروبا القوية.

وبالطَّبع لا يمكن التَّفكير بأوروبا دون إيطاليا، فهي بمثابة الأم لأوروبا نظرا لحضارتها وثقافتها وبعض مؤسساتها. ورغم ذلك فإنَّ إيطاليا تعيش إلى اليوم مشاكل بارزة. إذ بينما يُعتبر شمال إيطاليا منطقة مزدهرة بصناعتها وتجارتها وثقافتها المتقدمة، وهي منطقة تسود فيها الأرستقراطية، فإنَّ الجنوب عبارةٌ عن منطقةٍ زراعيةٍ ذات تركيبةٍ إقطاعيةٍ وغير مندمجةٍ مع الوطن. وكما نعلم فهناك منظمات محليةٌ تعيش في صقلية مثل المافيا وملاك الأراضي وحتى الكنيسة. ومن ناحية أخرى فإنَّ الاتحاد الإيطالي قد تحقق قبل الاتحاد الألماني. لكنَّ الغريب هنا هو اتحاد النِّظام الملكي المغرور في أكثر المناطق الإيطالية تطورا، والقوة الصناعية فيها "بيمونتني – لومبارديا" (كانوا حلفائنا في حرب القرم) مع ممثل الجنوب "غاريبالدي" ومعطفه الأحمر. والتَّعاون النَّاجم عن هذه القوة الجمهورية مع النِّظام الملكي ألغى البابوية، أي أنَّ الفاتيكان لم يكن يعتمد على النِّظام الذي أتى به هذان الاثنان، حتى أنَّ البابا انسحب وترك أراضي الفاتيكان إلى كاتدرائية سان بيترو دي لاتيراني في روما. وقد استمرَّ هذا الانعزال البابوي حتى اتفاقية لاتيران

في عشرينيات القرن الماضي، والتي أحيا موسوليني بموجبها البابوية واعترف بها من جديدٍ ضمن كيانٍ صغيرٍ لكنَّه ذو نفوذٍ دوليٍّ.

قائد أركان أدرنة المقدم مصطفى كمال مع أصدقائه،
وعلى يساره علي تشتين كايا عام 1912م

توحدَّت إيطاليا نتيجة تعاونٍ نادرٍ بين زعيمين هما جوزيبي غاريبالدي والكونت كافور حيث اقتصر تعاونهما على كسر السَّيطرة السِّياسية والجغرافية للبابوية.

عانت إيطاليا من مشاكل لا حدود لها، وكان من الضَّروري ترحيل بعض السُّكان المتزايدة أعدادهم، ولكن لم تكن هناك مستعمرةٌ مناسبةٌ لاستيعابهم. وقد سبق لقسمٍ من الشَّعب الإيطالي أن هاجر إلى جزر البحر المتوسط وبخاصة جزر تركيا العثمانية. لذلك نجد اليوم أنَّ العديد من الأبنية في منطقة بيرا بإسطنبول والكثير من الدور الفاخرة في إزمير بناها الصُّناع الإيطاليون.

تحتل إيطاليا مكانا مهما في حياة تركيا الحديثة، فقد التجأ إلينا الفارون من الحرب التي شنَّتها المجر مع بولندا ضد روسيا والنّمسا عام 1849م، وتمَّ وضعهم تحت حماية السُّلطان عبد المجيد. وإلى جانب ذلك الرابط يمكن الحديث عن دور إيطاليا في حرب القرم. ورغم هذا فإنَّ إيطاليا خاصمت تركيا لتؤسس سلطتها الاستعمارية. وكان من المثير للجدل أن تخسر إيطاليا الجزائر

وتونس لصالح فرنسا. وينحصر الاهتمام تجاه الجزائر اليوم فقط من خلال أوبرا "الفتاة الإيطالية في الجزائر"[33]، ولأنَّ مصر كانت تحت الاحتلال الإنكليزي فلم يتبقَ لإيطاليا سوى طرابلس الغرب.

تبرز أهمية ليبيا على الإمبراطورية الرومانية نتيجة موقعها الاستراتيجي. فهي أولا البوابة المفتوحة نحو داخل إفريقيا، بل إنَّها منفتحة حاليا على تشاد ونيجيريا أيضا. أي أنَّها في موقع يتضمن كذلك الإتجار بالبشر مع إفريقيا نوعا ما. وثانيا تضمُّ قوة مقاتلة مثل الطَّوارق.

كانت مدن الواحات الموجودة في ليبيا مثل الكفرة وغدامس محطة مرور القوافل التجاريَّة بين إفريقيا والساحل. وقد فُتحت ليبيا – التي كانت تُعرف تاريخيا في العالم العربي باسم طرابلس الغرب – في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه بعد أن تمَّ فتح مصر، أي في القرن السَّابع الميلادي. ودخلت ليبيا إلى الإسلام على يد فاتح إفريقيا عقبة بن نافع الذي تابع الفتوحات إلى الجزائر وتونس، ثم استمرت الفتوحات إلى الأندلس في بداية القرن الثَّامن الميلادي. وكانت تلك الأراضي تتبع إلى روما قبل الفتوحات العربيَّة، وجريا على وقائع التاريخ فإنَّ الدول التي كانت تحكم مصر كانت تحكم شمال إفريقيا، وهكذا حازت تلك الدول السِّيادة على ليبيا، حيث لم تكن هناك دولةٌ مستقلةٌ تدعى طرابلس الغرب.

وبالتالي فإنَّ الفتوحات العثمانية ضمت أيضا بعد مصر كلاًّ من الجزائر والجزائر الغربية. ونجد اليوم في الجزائر أنَّ أبناء الطبقة الراقية من عائلة "كلو أوغولاري" هم من القادمين من الأناضول الذين كانوا من الإنكشاريين، ثم اندمجوا بالمجتمع من خلال الزَّواج. وهؤلاء الأناضوليون يوجدون حاليا في الجزائر وتونس (ولكنَّني لم أجد أمثلة كثيرة مثل الأخوة أورهان ودوغان كول أوغلو ليبيا).

ورغم أنَّ مساحة السَّيطرة العثمانية كانت تتمدد من ناحيةٍ، إلاَّ أنَّ الإدارة كانت رخوة من ناحيةٍ أخرى. أضف إلى ذلك أنَّ التَّحكم بالموارد والمصادر الاستراتيجية لم يكن يسيرا، لأنَّ الكثافة السُّكانية كانت قليلة فوق رقعةٍ جغرافيةٍ واسعةٍ، ما جعل الإدارة ضعيفة في ولاية طرابلس الغرب وفي سنجق بنغازي المجاور لها. ولا شكَّ أن العنصر الثَّاني الهام والذي لم يؤخذ بالحسبان هم السنوسيون. ومن المعروف أنَّ التيجانية في الجزائر والسنوسية في ليبيا كانتا من الطُّرق الصُّوفية في شمال إفريقيا. وبداية لم يكن السنوسيون مؤثرين في مراكز أخرى من تركيا العثمانية لكن

شهبندر زاده أحمد حلمي القادم من فليبة (أو بالبلغارية بلوفديف وهي ثاني أكبر المدن البلغارية بعد العاصمة) اتبع السنوسيين. وكان من أفكاره أنَّ: "قراءة القرآن وتفسيره وظيفة كل مسلمٍ، وعليه فإنَّ وظيفته الاجتهاد أيضا". وذلك كان منهجا تجديديا وإسهاما من السنوسيين الذين احتلوا أهمية في الإسلام المتجدد.

ذهب إلى طرابلس الغرب كمتطوعٍ

هاجمَت جميع فرق الجيش الإيطالي تلك الولاية، وخلال شهر تمكن الجيش من احتلال الساحل كاملا من طرابلس الغرب في الغرب إلى بنغازي في الشَّرق. لكنَّه لم يتمكن من التَّقدم نحو الداخل لأكثر من كيلو متر واحد أو اثنين. وبدا واضحا أنَّ إيطاليا لم تكن قوة استعمارية قوية، ولم تكن جاهزة. فقد احتلَّ الإيطاليون قسما من الصومال لكنَّهم انهزموا شرَّ هزيمةٍ في الحبشة (إثيوبيا حاليا).

مصطفى كمال أيام الكفاح الوطني باللباس المحلي لطرابس الغرب المهدى إليه من قبل الشيخ السنوسي، 1920م

كانت طرابلس الغرب تضمُّ فزان التي تُعتبر في الحقيقة مكانا للنفي، حتى إنَّ كلمة "فزان" كانت تُستعمل كتعبيرٍ مرادفٍ للنفي في لغتنا. وكان المنفيون إلى هناك أي زمرة الشباب الأتراك في عهد عبدالحميد الثاني يعيشون هناك دون ضغطٍ كبيرٍ. يتطرق المؤرخ التُّركي المعروف يلماز أوزتونا إلى الموضوع: "كان قائد الموقع في طرابلس الغرب رجب باشا يراقب هؤلاء المنفيين، أو يتظاهر بذلك، فيتبعهم ثم يسمح لهم بعد فترةٍ بالهرب ويتوسط للإعفاء عنهم. لذلك كان محبوبا، وعينه الاتحاديون وزيرا للحربية في فترة المشروطية الثانية (الدُّستور). وهناك مثالٌ آخر أيضا فالسَّيدة زينب زوجة عضو ديوان طرابلس الغرب، كتبت إلى الملكة فكتوريا والإمبراطور الألماني كايزر ويلهم حين نفي زوجها قائلة: "احموا زوجي وسامحوه

(أي اجعلوا السُّلطان يسامحه)". واذا ما نظرنا إلى طرابلس الغرب أي إلى منطقة فزان يلاحظ أنها كانت رايتنا التي في الجنوب. وقد اشتهر منفى فزان كثيرا في أدبيات الحرية عندنا، كما

لو أنها سيبيريا روسيا.

حسنا، من قاوم الإيطاليين إذا؟ يتم إلقاء المسؤولية ظاهريا على كاهل إبراهيم حقي باشا الذي كان في حالة كبيرةٍ من اللامبالاة وعدم الاهتمام، وقد سبق له أن شغل منصب السَّفير لدى روما ومنصب الصَّدر الأعظم.

كان أستاذا استثنائيا في مجال حقوق الإدارة والدول، ويُستفاد من كتاباته حتى اليوم، لكنَّه لم يكن جيدا كرجل دولة، وقد امتلك الصِّدق الكافي للاعتراف بذلك. فهو لم يأخذ التَّحركات الإيطالية بجدية، ورغم أنَّ الحجم العسكري للقوة الإيطالية لم يكن بالقدر الذي يؤخذ على محمل الجد، لكنَّ التَّحركات الإيطالية فوق الأراضي العثمانية كانت جدية. ولأنَّ نشوب الحرب كان غير متوقعٍ فقد تمَّ نقل الفرق العسكرية التي كانت هناك إلى اليمن، ولم تبقَ سوى قوات الدَّرك أو الشُّرطة. وبالتَّالي كان اليمن صندوقنا الفارغ ومشكلتنا.

يوضح المؤرخون الأتراك أنَّ إيطاليا هاجمت تركيا عندما كانت في حالة غفلةٍ. فنُقلت آخر الفرق العسكرية في إفريقيا إلى اليمن بذريعة أنَّه لن تحدث حربٌ هناك. وهكذا لم يجد القائد ونائب الوالي السَّيد نشأت إلى جانبه سوى الضُّباط الشَّباب. فالضباط من أمثال أور باشا ومصطفى كمال (أتاتورك) والسَّيد نوري وفتحي أوكيار، أُرسلوا كضباط متطوعين وليس بشكلٍ رسميّ. وعلى سبيل المثال ذهب مصطفى كمال إلى هناك عبر مصر بهويةٍ مزورةٍ تحت اسم "الصَّحفي شريف".

ولأول مرة في العالم استخدمت إيطاليا في هذه الحرب الطائرات ذات الجناحين، لكنَّها أُسقطت من قبل القوات المدافعة التي استعملت حتى بعضها للاستكشاف.

وتمَّ وقف زحف الإيطاليين من قبل السُّكان المحليين المتعلقين بالخلافة بإخلاصٍ، والذين وقفوا صفا واحدا ولم يخضعوا إلاَّ لتدريبٍ سريعٍ. واستمرَّت المقاومة بقوة الطَّوارق والبدو إلى جانب بعض الضُّباط من الرتب الصَّغيرة من المستوطنين القادمين من الأناضول من أمثال "كول أغلو".

وأورد هنا ملاحظة حول التَّنظيم، فالضَّابط التُّركي يتَّصف بالتنظيم، ويبادر إلى القيام بالتَّنظيم أينما حلَّ.

وفي تلك الفترة كان التلغراف يُستخدَم بشكلٍ واسعٍ، وكنَّا أكثر من استعمل وطوَّر نظام التلغراف منذ أربعينيات القرن التَّاسع عشر. ومقابل استخدامنا للتلغراف كان الروس يستخدمون الهاتف. ولا يمكن إنكار دور التلغراف، إذ يمكننا من خلاله الوصول إلى القصر، لكنَّ الذخيرة والتموين والطعام أمورٌ لا تأتي من تلقاء نفسها.

وقد ذهب هؤلاء الضباط إلى طرابلس الغرب بصفة المتطوعين، وكان عدد الذين ذهبوا محددا، فالوحدة العسكرية التي كانت هناك كان حجمها صغيرا مما لم يسمح لها بالمحافظة على تلك الولاية الكبيرة. وهكذا رصَّ المتطوعون كل الصُّفوف وأسسوا نظاما للدفاع. وبالنتيجة لم تستطع إيطاليا التقدم لكيلومتر واحد إلى الداخل. وهذا أمرٌ مثيرٌ للجدل، فعلى سبيل المثال ذهب نفس التَّنظيم إلى الحبشة (أي الصومال حاليا) وقاموا بالشيء ذاته هناك أيضا. ورغم أنَّنا هُزمنا في الحرب العالمية الأولى إلا أن أولئك الضباط كانوا ما يزالون يقومون بتنظيم العناصر في أفغانستان.

حين لم تنجح إيطاليا أمام عددٍ قليلٍ من الضباط الشباب وأمام مقاومة السُّكان المحليين، نزلت إلى جزر بحر إيجة الجنوبي. وفي تلك الأثناء بدأت حرب البلقان وتمَّ توقيع اتفاقية "أوشي" مع إيطاليا. وانتهت مع الأسف السَّيطرة على شمال إفريقيا والتي دامت لمدة 360 عاما مع هذه الاتفاقية الموقعة في سويسرا، وخسرنا آخر أراضينا في شمال إفريقيا. فأُخليت طرابلس الغرب، لكننا أرسلنا موظفا برتبة وزير كنائبٍ للسُّلطان. وكانت الاتفاقية تقتضي خضوع الأوقاف وشؤون الحقوق الدينية للمراقبة، كما تقتضي أن يتمَّ تعيين موظفي الديانة من قبل دار شيخ الإسلام وهي مؤسسة شرعية في إسطنبول، بالإضافة إلى أن إيطاليا كانت ستدفع 90 ألف قطعة ذهبية كتعويضاتٍ عن الحرب مع إلغاء الامتيازات المعطاة لها.

واستمرَّ القادة المتطوعون بالذهاب إلى ليبيا. وننقل هنا معلومة يوردها يلماز أوزتونا توضِّح أنَّ أحد ضباط السُّلالة العثمانية الشَّباب وهو الأمير عثمان فؤاد أفندي تولى القيادة برتبة جنرال واستمرَّ بالمقاومة. وكما قلنا سابقا

قوات مصطفى كمال كانت من البدو وكانوا تابعين له، 1912 م

فإنَّه مع خسارة طرابلس الغرب خرجت من أيدينا آخر ولاية عثمانية في شمال إفريقيا، وبقيت خلافةٌ عثمانيةٌ رمزيةٌ. لكنَّ الحرب ضد الإيطاليين أظهرت مهارة القادة الأتراك في التنظيم والقتال، وأظهرت أن سكان ليبيا مثلهم مثل سكان إفريقيا الآخرين محاربون فعالون.

كما أن الحرب في ليبيا كانت بمثابة تدريب لمصطفى كمال، استفاد منها لاحقا في تنظيم السُّكان المحليين وحركة القتال ضد القوات المحتلة أثناء النِّضال الوطني.

هناك نقطةٌ أخرى مثيرةٌ للاهتمام: استمرَّت الحرب في ليبيا لمدة عشرين عاما دون انقطاع. لكن يبدو اليوم أنَّ الدولتين قد نسيتا التاريخ قليلا.

لا داعي للمبالغة في التَّعاون التُّركي الليبي، لكنَّ حذفه بهذه الطريقة لا داعي له أيضا. فذلك دليلٌ على الوجه السَّاذج في كتابة التَّاريخ العربي التُّركي.

قبل حرب البلقان

أدَّت السياسات الخاطئة وعدم استعمال الدبلوماسية أثناء حروب البلقان مع الأسف إلى اتحاد دول البلقان لأول وآخر مرة ضد الإمبراطورية. يدَّعي بعض أنصار السُّلطان عبدالحميد بأنه كان سيوقِع بين الطرفين ويحرق اليونانيين بالبلغار ويفرق بينهم، حتى أنَّهم ألَّفوا طرائف حول ذلك. حيث يروى أنَّه حين ترك عبدالحميد سيلانيك، التي كان منفيا فيها، قال: "يا للعجب، لم يستطيعوا

جعلهم يحرقون أديرتهم وأبنيتهم". ولاشك أن سياسة عبدالحميد في البلقان لم تكن بهذا القدر من البساطة. ولكن مع الأسف لم يستطع الاتحاديون في الواقع أن يصبحوا قوة تعرف الدبلوماسية وتستخدمها في السياسة. ونذكر هنا مقولة وزير خارجيتنا في ذلك الوقت: "أنا واثقٌ من البلقان ثقتي بإيماني" التي كانت خطيرة جدا. ورغم المعلومات الاستخبارية حول هجومٍ وشيكٍ للقوات المتحالفة فإنَّه لم يُعط أيُّ اعتبارٍ لذلك، بل تمَّ تسريح مجموعةٍ من الجنود في الجيش. وقد تكون لوزير الخارجية هذا أسبابه التي تجعله واثقا من نفسه. ولكنَّ غفلة الحكومة، وعدم معرفتها بالأساليب الدبلوماسية، وعدم عمل الاستخبارات بشكلٍ فعالٍ أثناء الهجوم الإيطالي على طرابلس الغرب، كلها تكررَّت في البلقان. ومع الأسف كان إهمال الأسطول العسكري ضعفا آخر. وما زال الكثيرون يكررون حتى اليوم بيت الشعر نفسه: "الخائن عبد الحميد أنهى الأسطول لخوفه من الانقلاب". ولكن يجب البحث عن تفسيرٍ واقعيٍّ، فهل كانت شروط الاحتفاظ بذلك الأسطول موجودة؟

وفي الحقيقة فإنَّ الأسطول الضخم الذي أسسه السلطان عبدالعزيز – كان ثالث أسطولٍ في العالم – لم يستطع أن يوائم التغيرات التكنولوجية، حيث تغيرت كثيرا تكنولوجيا السُّفن الحربية بين ثلاثينيات القرن التَّاسع عشر وثلاثينيات القرن العشرين، بل أخذت تتغير خلال أوقاتٍ قليلةٍ قبل الحرب العالمية الأولى.

لم يكن الطَّيران موجودا في ذلك الوقت لذلك كانت المعرفة التِّقنية كلها في البِحار. حتى أنَّه خرج الكثير من الطيارين الجيدين عندنا من بين البحارة. وفي مقابل تأسيس الأسطول، تحوَّل الخصم بعد فترةٍ إلى البخار تماما، بل استعمل النَّفط بدل الفحم لتسيير الأسطول خلال الحرب العالمية الأولى. كما ظهرت طوربيدات جديدةٌ خلال مدةٍ قصيرةٍ، بينما لم يكن لدينا أسطولٌ قويٌّ لا في حرب البلقان ولا في الحرب العالمية الأولى.

وإذا ما نظرنا إلى المشهد العام، فأعتقد أنَّ الجانب الضَّعيف لدى الاتحاديين تمثَّل في تقليلهم من دور الدبلوماسية وعدم استعمالهم لها. وقد يكون خليل منتشه[34] أكثر الرِّجال ضعفا في حكومة الاتحاديين، ويبدو أنَّه لم يكن يفهم عمله أبدا، وأنَّ معرفته بالدبلوماسية كانت نظرية فقط، ولم يكن أبدا في وضع يسمح له بقيادة دبلوماسية الإمبراطورية.

حصل الأتراك مثلهم مثل جميع الشُّعوب التي كانت تحت سيادة الإمبراطورية على القومية ووصلوا إلى تلك الغاية في النهاية. لأنَّ العاطفة الوطنية والفكر الوطني كانا يتطوران بين المحكومين في الإمبراطورية. وداخل هذا التَّطور المفتوح كانت الفيدرالية هي النِّظام المطلوب.

وكان مفهوم الشَّعب التُّركي حول الوطنية متقدما، كما اتخذ تعليم التَّاريخ هذا الاتجاه. وإن كان وصول النَّاس إلى الإدراك الوطني (القومي) من خلال التَّاريخ لا يحدث بسهولةٍ.

ضابط الأركان مصطفى كمال يعود إلى الوطن بعد بداية حرب البلقان،1912

ولم يكن هذا اللاوعي وعدم الانسجام حكرا على الأتراك، فإذا ألقيتم نظرة على تاريخ الألمان النّمساويين وفكرهم ستجدون نفس الشيء. إذ كانت الألمانية النّمساوية واثقة من نفسها، وكانت أقل فهما لمشاكل الشُّعوب الأخرى، لكنها لم تكن تعارض أن تنال تلك الشُّعوب موقعا في الحياة، وقد تكون الإمبراطورية الروسية استثناء في هذا الموضوع. لكن هذا هو معناه أن تكون شعب للإمبراطورية. إلا أن خسارة الأراضي المستمرة منذ القرن التَّاسع عشر، بما فيها الأراضي الخاصة بالأتراك والمسلمين، أعطت الشعور القومي للأتراك. ويمكن ملاحظة هذا في حرب البلقان.

ولعل حروب البلقان من أكثر صفحات تاريخنا ألما، فقد عاشت الإمبراطورية هناك انسحابا حزينا وحتى مخجلا، وبالأحرى خسرت وطنا. على سبيل المثال خسر أتاتورك موطنه في البلقان. كان في جبهة طرابلس الغرب

في تلك الأثناء وعندما عاد من درنة إلى إسطنبول، عاتب أصدقاءه العساكر من سيلانيك قائلا والدمعة في عينيه: "كيف سلمتم سيلانيك موطننا الجميل إلى العدو وجئتم إلى هنا؟". وكان حينها قد بدأ الخدمة على جبهة تراكيا غرب إسطنبول، وصرح بأنه لم يغفر لتحسين باشا تسليم سيلانيك بسهولة.

مصطفى كمال والسَّيد أنور - على يسار مصطفى كمال - في درنة برفقة وفد الهلال الأحمر. وفيالصُّورة الدكتور إبراهيم تالي بك (أون غوران) على يمين مصطفى كمال، والشَّخص في المقدمة علىاليمين هو السَّيد نوري جونكر، 1912 م

لم يتحمل مصطفى كمال خسارة البلقان، حتى أنَّه كتب في ملاحظاته عن البلقان وأماكن أخرى من خلال الكتب ما معناه "ستعود لنا مرة أخرى". وكانت شمال اليونان وتراكيا الغربية وجنوب بلغاريا ومقدونيا من الأماكن التي ينظر إليها على أنَّها الوطن الأم في الدِّيار الرُّومية وليست فقط جزءا من الإمبراطورية، ولم يكن للتُّركي أن يتحمل خسارتها. ولكنَّ الأتراك من ناحيةٍ أخرى لم يخلقوا مثل هذه الذَّاكرة أو لم يستطيعوا أن يخلقوها، فرغم أنَّنا نسمع حاليا بعضا من الجيل الجديد يقول: "نحن من سيلانيك أيضا "، إلاَّ أنَّه حين يُسأل: "من أين من سيلانيك؟" يجيب: "جدتي كانت تتحدث عن مكان ما فيها"، مع العلم أنَّ ذهابهم إلى ذلك المكان أمرٌ متاحٌ.

ومع الأسف لا يعرف هذا الجيل مناطق البلقان، وحتى أحفاد الذين هاجروا من تلك المنطقة لا يعرفونها. وكما أوضحنا أعلاه فإنَّ الذين استشهد أجدادهم هناك أو الذين هاجروا تحت ظروفٍ صعبة هم كذلك لا يعرفون ولا يهتمون أيضا. وأعتقد أنَّ توصيف هذه الحالة هو الجهل واللامبالاة تجاه الوعي والشُّعور التاريخي، أكثر من كونها نسيانا للماضي.

في أحد أيام ربيع عام 1914م كان أحد الضباط العثمانيين الشَّباب يجلس مع زمرة زاده شاكر بيك المبعوث التُّركي إلى سوبرانيا في أحد مقاهي صوفيا الفخمة، وكان المكان والموسيقى والخدمة رائعة. وفجأة دخل قروي واتجه إلى طاولةٍ متاحةٍ بين الزبائن الذين يلبسون لباسا فخما وجلس هناك. استغرب الجمع الجالس هذا الشَّخص الغريب الذي يلبس ثيابا رثَّة، وامتعض الخدم فلم يستجيبوا له حين نادى عليهم، وحين أصرَّ القروي، قيل له بأنه لن تتمَّ خدمته وإنَّ هذا المكان ليس لمن يلبسون ثيابا رثة كالتي عليه، ويجب عليه أن يترك المكان. ردَّ القروي بلهجةٍ غاضبةٍ: "بلغاريا تأكل مما أزرعه وأحصده، وتحتمي بسلاحي. وأنا استطيع أنا أجلس في المكان الذي أريده طالما أدفع المال، وأنتم سوف تخدمونني". وقد تمت الاستجابة لطلبات القروي بعد إصراره.

شاهد الضابط الشَّاب تلك الحادثة باهتمام وقال لجليسه: "أتمنى يا شاكر أن أرى في يوم من الأيام قروينا أيضا هكذا، واثقين من أنفسهم ويعرفون كيف يطالبون بحقهم". هذا الشَّاب كان مصطفى كمال والذي كان ضابطا في الملحقية العسكرية للإمبراطورية العثمانية في صوفيا.

قدم مصطفى كمال إلى صوفيا في أواخر تشرين الأول/أكتوبر عام 1913م، وكان من دوافع تعيينه في صوفيا العلاقة الفاترة بينه وبين عديمي المسؤولية من زعماء الإدارة في الاتحاد والتَّرقي، وتأتي في مقدمة أسباب تلك العلاقة الفاترة معارضته لتدخُّل الجيش بالسِّياسة ونفوذ الوفد الألماني العسكري في الجيش العثماني. ولما كان صديقه المقرب علي فتحي أوكيار سفيرا في صوفيا فقد كان يرغب أن يرى مصطفى كمال إلى جانبه.

بعد وصوله بفترةٍ قصيرةٍ أصبح من الوجوه السِّياسية والثَّقافية التي لا غنى عنها في العاصمة البلغارية، وأسس بشكلٍ خاصٍّ علاقة مع القادة البلغار الذين اصطدم بهم في حرب البلقان. وقد شكلت بلغاريا بالنِّسبة لمصطفى كمال مختبرا تكونت فيه العديد من مشاريعه المستقبلية، حيث عاين عن قربٍ أمثلة الحداثة الثَّقافية والسِّياسية والاجتماعية. ولكننا نعلم أنَّ هذه الوظيفة (أي خدمته كضابطٍ في الملحقية العسكرية) التي امتدت لأكثر من عامٍ كانت إبعادا إلى ما وراء السِّتار لمصطفى كمال مع صديقه علي فتحي من قبل الاتحاديين.

كانت تلك الخدمة في بلغاريا تشمل رقعة جغرافية واسعة، وكانت صوفيا مركز تلك الجغرافية التي شملت أيضا بوخارست، بالإضافة إلى أنَّ "ستنيي" في الجبل الأسود كانت بعهدته. وقد منحه ذلك فرصة لمعرفة الحياة العسكرية والسِّياسية لمجتمع البلقان. كما أن مصطفى كمال

أصبح خبيرا جيدا في شؤون البلقان، فقد ولد وذهب إلى المدرسة في سلانيك وأمضى جزءا من حياته يخدم هناك. ومن الواضح أنَّ هذه الخبرة لا علاقة لها بالهدوء والحيادية المعروفين عن الملحق العسكري وعن الدبلوماسيين.

لم يعين رئيس الوزراء النمساوي الأمير ميترنيخ النمساوي والمؤرخ الشَّهير للدولة العثمانية والدبلوماسي جوزيف هامر كدبلوماسي له تفويض إلى تركيا، والحجة معرفته لهذه البلاد أكثر مما يجب. ولاشكَّ أن معرفة مصطفى كمال امتدت جذورها إلى الماضي. وهو قد لا يكون دبلوماسيا من مدرسة ميترنيخ، لكنَّ حرب البلقان ساعدت في توسيع معرفته بالعالم خلال فترةٍ قصيرةٍ من حياته.

سكن مصطفى كمال بمجرد وصوله إلى صوفيا في فندق سبلنديد بالاس بشارع دوندوكوف وبقي هناك سبعة أشهر، وانتقل بعدها إلى البناء رقم 17 في شارع فيرديناند. وقد أصبح من خلال لباسه الأنيق وذكائه ووسامته شخصية مرموقة في عاصمة البلغار، فأسس علاقات زمالةٍ وصداقةٍ مع ضباطٍ ذوي رتبٍ عاليةٍ في الجيش البلغاري. وكان الضُّباط البلغار في ذلك الوقت معجبين بأدبيات ومعرفة مصطفى كمال العسكرية. ونذكر هنا أنَّ كتابه بعنوان "حديث بين الضابط والقائد" المنشور عام 1918م قد كتبه في صوفيا. وخلال تلك الفترة تعرف إلى وزير الحربية الجنرال كوفاتشيف، الذي كان يعلم مدى معرفة وإمكانات الضَّابط الشَّاب العسكرية. وكذلك تعرف إلى ابنة الجنرال ديميترينا في أحد تلك اللقاءات.

كما أسس صداقة مقربة مع المبعوثين الأتراك إلى المجلس البلغاري في سوبرانيا من أمثال شاكر زمرة والسَّيد جلال برين من غوتسه دلتشو (مدينة في بلغاريا) والسَّيد طلعت من شومن (مدينة بلغارية). وكان ضابط الملحقية العسكرية الشَّاب يتابع أصلا الحياة السِّياسية البلغارية، فلم يكن هناك دبلوماسيٌّ شاهد اجتماعات سوبرانيا مثله.

كانت بلغاريا في ذلك الوقت تعيش تغييرا سياسيا وثقافيا واقتصاديا، وقد أثَّرت تلك البلاد على برامج وفكر الزعيم المستقبلي (مصطفى كمال). ورغم أنَّ بلغاريا لم تكن بلدا من بلاد أوروبا

الغربية، ورغم أنَّ صوفيا لم تكن إحدى عواصم أوروبا الغربية، لكنها كانت أكثر مدن البلقان انفتاحا واندماجا مع أوروبا.

مصطفى كمال، جذب الانتباه بثياب الإنكشاريين في حفلة بصوفيا أثناء خدمته في الملحق العسكري،1914 م

وفي الواقع لم يكن العديد من المثقفين العثمانيين الذين عاشوا فترة في دول أوروبا الغربية في ذلك العهد وراقبوا تلك الدول يفهمون الحياة جيدا، لذلك كانوا ينفرون منها. إذ كان لدى المتنورين العثمانيين في ذلك العهد موقفٌ خائفٌ وعدائيٌّ تجاه الأجانب في دول أوروبا الغربية. وبالمقابل فإنَّ مصطفى كمال، الذي رأى الحداثة والاختلاف الثقافي في بلغاريا التي كانت تحت الحكم العثماني لفترة طويلة، فهم مرة أخرى أنَّ النُّفور والمشاعر الأجنبية للمتنورين العثمانيين ليست في محلها.

كانت تلك المرحلة امتدادا لمرحلة سيلانيك، وكانت السَّلبيات والمشاكل المحتملة للحداثة إلى جانب النَّتائج الإيجابية وحماية الوجود الوطني تتصاعد في بلغاريا آنذاك. ويُعتبر الوضع الاقتصادي والسِّياسي لبلغاريا في العقد الثَّاني من القرن العشرين أحد الأمثلة الفعالة على تشكيل سياستها الشَّعبوية لاحقا.

وبحسب إحصائيات السَّنوات الحالية فإنَّه يوجد في بلغاريا حوالي 200 ألف قروي لا يملك أرضا أو يملك القليل منها، وبالمقابل فإنَّ عدد الفلاحين في الطبقة الوسطى يزيد على 200 ألف، وكانت هذه الفئة تدعم حزب الفلاحين بشكل خاص. ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أنَّ عدد الآلات المستعملة في الزراعة عام 1912م زاد بمقدار 24 مرة على عدد الآلات المستعملة في العام 1890م، كما تضاعف حجم الطَّبقة العاملة في الزراعة ثلاث مراتٍ في تلك الفترة، حيث أخذت بلغاريا تنتقل بسرعةٍ إلى نظامٍ رأسماليّ في مجال الزِّراعة.

وكان التَّطور في إنشاء السِّكك الحديدية ملحوظا، فاقترب طول السِّكك الحديدية الموجودة من الوصول إلى مقدار ثلاثة أضعاف ميراث الدولة العثمانية من السِّكك الحديدية.

وبحسب المعلومات التي قدمتها زميلتنا في المهنة المؤرخة البلغارية "ماريا سفيتنا تودوروفا" فإنَّ بلغاريا كانت تقوم بأولى طفراتها الصِّناعية في تلك الفترة. واللافت أنَّ حرب البلقان لم توقف هذا التَّطور بل زادت من حدته نوعا ما، وأصبح التغيير الاجتماعي في بلغاريا في ذلك الوقت من ناحية التَّحول إلى المكننة والعمالة المأجورة واضحا جدا. ودخلت الحياة السِّياسية البلغارية في فترة عدم استقرار نتيجة العوامل الداخلية وليس الخارجية، فلم يعد بالإمكان تشكيل حكومات قويةٍ بمشاركة الأحزاب الكبيرة والصغيرة في سوبرانيا (المجلس المحلي). حتى أنَّه تم تغيير 13 حكومة عبر الأعوام من 1894م إلى 1911م.

وقد زادت الضريبة الجمركية 25 بالمئة مع القوانين التي جرى سنُّها خلال الفترة من 1894م وحتى 1897م، كما اتُخذت تدابير مثل تطبيق سياسة الحماية الاقتصادية والإعفاء الضريبي لتنمية الاقتصاد الوطني، وكذلك تخفيض الأسعار في السكك الحديدية والطُّرق البحرية التَّابعة للدَّولة، وإعطاء الأولوية للمنتجات المحلية في مشتريات الدَّولة. إلاّ أن الاستثمارات التي استُهدفت بهذه الوسائل أدت إلى زيادة الدَّين الخارجي.

وجد مصطفى كمال في حال هذه الدولة تشابها مع بلادنا ألا وهو الدَّين الخارجي والضغط السياسي للرأسمال الأجنبي. حيث أصبح البلغار تحت التحكم الأجنبي عام 1902م نتيجة ازدياد الديون الخارجية غير المدفوعة. فعلى سبيل المثال، تمَّت مصادرة ضريبة التبغ المصدر الرئيسي للدخل. وكان الفارق مع الإمبراطورية العثمانية هو سيطرة الحلف الألماني النمساوي كقوةٍ خارجيةٍ في الاقتصاد البلغاري.

في العام 1909م ازدادت نسبة رأس المال الأجنبي بمقدار 30 بالمئة من إجمالي الاستثمارات بينما انخفض رأس المال البلغاري بنسبة 15 بالمئة. ونتيجة للتطورات السياسية والأجواء التَّنافسية عزز الحزب الاشتراكي وحزب الفلاحين (ستامبوليسكي) عام 1904م من قوتيهما. وأصبح الأخير مرشحا قويا للحكم عام 1911م بعد أن ازدادت أصواته بنسبة 20 بالمئة. وفي العام 1911م دخل 17 تركيا إلى المجلس البلغاري (سوبرانيه). ووفقا لملاحظات ألبرت غرازياني فإنَّ الحزب الحاكم رادوسلافوف كان مع علاقةٍ جيدةٍ مع المبعوثين الأتراك نتيجة ضعفه العددي في المجلس. وكان حزب رادوسلافوف يتبع سياسة تميل إلى ألمانيا وضد المجموعات التي تميل إلى روسيا.

كان مصطفى كمال يصطدم بالمجتمع التُّركي البلغاري نتيجة أفكاره المتقدمة، كما هو الحال في مسالة ارتداء القبعة. ومع ذلك، وبسبب التَّقدم الذي أحرزه التعليم التُّركي في بلغاريا في هذه السنوات، فقد رأى زعيم المستقبل أن الناس قادرون على التَّحديث وسوف يحققون ذلك.

كانت بلغاريا هي المكان الذي تعقب فيه الزعيم المستقبلي لتركيا نشوء المؤسسات الثقافية للعالم الحديث وفهم مشاكل التغير الثقافي.

وقد ذهب أتاتورك إلى الأوبرا خلال أول أيامه في صوفيا، وكانت أوبرا صوفيا هي الأشهر في البلقان بالإضافة إلى أوبرا بوخارست، وبعد مشاهدته للأوبرا في ذلك اليوم قال لمرافقه عضو مجلس الشَّعب البلغاري (سوبرانيه) شاكر زمره بك: "لقد فهمت الآن سبب انتصارهم في حرب البلقان". فالأوبرا عملٌ مرتبٌ ومنظمٌ، وهي شراكة جميع الفنون بتعبير فاغنر. ومن المهم دراسة أثر هذه الحادثة في قيام رئيس الجمهورية أتاتورك بعرض أوبرا "أوزسوي" عند حضور شاه إيران إلى تركيا.

كما تباحث أثناء وجوده في سيلانيك مع العالم المتخصص في الشؤون التُّركية البلغاري إيفان مانالاوف حول مشكلة تطبيق الأحرف اللاتينية. ومن المعروف أنه استعمل الأحرف اللاتينية حين كان يكتب من بلغاريا إلى المدام كورين في إسطنبول.

لقد نضجت أفكار مصطفى كمال التي كانت تنادي بتحديث وطنه وتأسيس نظام جماهيري في تلك السنوات. حيث أجرى في أيار/مايو من العام 1914م محادثة مثيرة للاهتمام مع أحد

المواطنين البلغار (غرازياني) أثناء رحلةٍ إلى جبل لولين، وقام لاحقا بتنفيذ البرنامج الذي تضمنته تلك المحادثة في الجمهورية التُّركية. وكان مما قاله لغرازياني: "الشَّعب التُّركي لديه ميزات استثنائية ولكنَّهم مع الأسف يتركونه في الجهل والظَّلام... النَّاس عطشى للعلوم التَّطبيقية الحديثة، والنِّظام لا يسمح للدَّولة والشَّعب بالعمل في أي جبهةٍ اقتصاديةٍ... في سبيل أن تتنفس تركيا وتتقدم وكي تكون هناك مظاهر للحرية، يجب قبل كلِّ شيءٍ رفع معنويات الشَّعب التُّركي وإنقاذه من العصبية، والعمل على اكتسابه قدرة فعالة... كما يجب تخليص الشَّعب من أيدي الدَّراويش الجهال، وأن يحل محلهم علماءٌ من أصحاب التَّحصيل العلميِّ الجيد... وخلاصة الموضوع فإنَّ الشَّعب يحتاج إلى أمورٍ وانقلابات كثيرةٍ، ويجب أن يتخلص الشَّعب والمجتمع من طريقة التَّفكير الشَّرقية، وحتى يرى الشَّعب التُّركي الحقيقة ويتمكن من فهمها فإنَّه بحاجةٍ إلى إصلاحات كبيرةٍ".

وأثناء الكفاح الوطني أسس مصطفى كمال، الذي عرف صوفيا وبلغاريا جيدا خلال فترة خدمته الدُّبلوماسية القصيرة، علاقاتٍ جيدة مع بلغاريا. وكانت بلغاريا من الدول المهزومة في الحرب العالمية الأولى أيضا، وقامت بموجب البنود القاسية لاتفاقية "نيولي" بتخفيض كمية السِّلاح وعدد الجنود بنسبةٍ كبيرةٍ. كما نصَّت المعاهدة على أن لا تدخل بلغاريا في اتفاق مع القوى المعادية لدول التَّحالف ولا تساند تلك القوى. وقد دعم حزب الفلاحين بعد وصوله للحكم في أيار عام 1920م الكفاح الوطني الذي بدأ في الأناضول عام 1920م رغم قلة الإمكانات والشُّروط القاسية، ولم يتردد مصطفى كمال (أتاتورك) في تأسيس علاقاتٍ جيدةٍ مع ذلك الحزب وخاصة في حل مسألة تراكيا. ورغم مراقبة دول التَّحالف للعلاقات السياسية الخارجية لبلغاريا (كان يوجد في صوفيا ممثلٌ لدول التحالف) فإنَّ حكومة الأناضول وحكومة حزب الفلاحين (ستامبوليسكي) قاموا بتبادل الممثلين سرا. وفي أيار عام 1921م أرسل حزب الفلاحين مبعوثا من غروزكزف إلى أنقرة. وكان أتاتورك قد قال للمبعوث "أكتشوفا" بأنَّ نموذج كتائب القوات الوطنية مشابه للكتائب المقدونية. كما وعد البلغار السَّيد "جواد عباس"، الذي وصل سرا إلى صوفيا في شباط عام 1921م لحل مسألة تراكيا، بالدَّعم رغم البنود القاسية لاتفاقية نيولي. وقد شمل الدعم حماية قوات تراكيا الوطنية إذا التجأوا إلى بلغاريا دون سلاحٍ، إلى جانب نقل الأسلحة المهربة من مستودعات الأسلحة إلى الأناضول. وبالفعل تمَّ الوفاء بتلك الوعود خاصة بعد هزيمة قوات جعفر الطَّيار باشا. ونذكِّر هنا أيضا باتفاق السَّيد جواد عباس بخصوص تشكيل لجنة احتلال تراكيا مع بروتوفيروف وتودور أليكسندروف.

ومن الواضح أن نجاح الكفاح الوطني وتأسيس تركيا الجديدة قد خلق أملا جديدا في بلغاريا. فقد أعلن حزب الفلاحين بالذَّات نجاح الشَّعب التُّركي في طرد المحتل والحصول على سلامٍ مشرفٍ، كما أعلن أنَّ البلغار سوف يغيرون كذلك شروط اتفاقية نيولي.

3

سنوات الحرب العالمية الأولى

ما قبل الحرب العالمية

بعد كارثة حرب البلقان، بدأَت عملية إعادة تنظيم الجيش. وتمَّ الاعتماد أكثر على الضُّباط الشَّباب، فالقادة الشَّباب الأقوياء في الحرب العالمية الثَّانية ظهروا كلهم في هذه الفترة. كما أُعطيت الأهمية للتجهيزات، بالإضافة إلى التُّركيز على تدريب وتعليم الجيش. ويمكن رؤية ذلك من خلال بعض التقارير الإنكليزية ومن خلال تقارير المستشارين الألمان، والملحق العسكري النّمساوي من أمثال بوميانكوسكي. وهكذا ازدادت قوة الجيش التُّركي بشكلٍ كبيرٍ في السَّنتين اللتين أعقبتا حرب البلقان. ومع ذلك فإنَّ الحكومة لم تستعمل فن الدبلوماسية بشكل كافٍ، وقد أثار تحالف الإنكليز مع الرُّوس دهشة الأتراك رغم أنَّ الدولة العثمانية لم تكن أكثر الدول تحفظا تجاه الحرب.

في تلك الأثناء كان الألمان مترددين كثيرا قبل الحرب العالمية الأولى، لأنه لم يكن بين دول حلف المحور، الذي كنَّا جزءا منه، دولة واجهت وقاومت الإنكليز وحاربتهم لفترةٍ طويلةٍ. وأصلا كان بعض الدبلوماسيين الألمان مثل السَّفير وانغينهيم، وعناصر في الجيش، وخاصة أركان الأسطول الألماني، ضد دخول تركيا إلى تحالف دول المحور، وكانوا يقولون: "لقد أظهرَت حرب البلقان أنَّه لم تبقَ نزعةٌ قتاليةٌ لدى لأتراك، بصرف النَّظر عن مزاياهم القديمة. وبالتَّالي لا يمكننا القيام بتحالفٍ مع هؤلاء". والمبرر هو أنَّ الحليف الضَّعيف في الحرب أكثر خطرا من العدو، أي أنَّه كارثةٌ. لذلك كانت فقط بعض المجموعات العسكرية الألمانية والنّمساوية، التي تعرف الجيش التُّركي جيدا ومعجبة بالضَّباط والجنود الأتراك، تدعم التَّحالف مع تركيا في هذا الوضع. وهذه المجموعات أقنعت إمبراطور ألمانيا كايزر بأنه يمكن التَّحالف مع الأتراك، وكانوا على حقٍ بالتَّأكيد. فقد كان التَّحالف مع الأتراك بالنِّسبة لألمانيا مكسبا كبيرا، إذ قام جيشنا بإشغال الإمبراطورية البريطانية في الشَّرق. أما في أوروبا فلم يقاتل الإنكليز ببطولةٍ مثل الفرنسيين ضد

الألمان لكنَّ أسطولهم لم يسمح لألمانيا بأن ترمش عينها، لأنَّ الكادر القيادي للأسطول الألماني لم يكن يُقارَن مع بريطانيا. وفوق ذلك فإنَّ دخول الولايات المتحدة إلى الحرب أدَّى إلى نهاية ألمانيا.

وبالمقابل، إذا نظرنا إلى طرفنا فإنَّنا نرى أنَّ الاتحاديين كانوا خائفين قبل الحرب العالمية الأولى، وفي الحقيقة كانت لديهم الفرصة كي يبقوا على الحياد. وكان مصطفى كمال وعصمت إينونو وكاظم كارا بكر – الذين لم يكونوا جنرالات حينئذٍ – وأسعد باشا وفوزي باشا يعلمون ذلك. وكانت هناك مجموعة من الضباط الذين عرفوا الأمر جيدا وكرهوه ولا يرغبون به أبدا، أو يقولون: "لنبقَ خارج الحرب" أو "لندخلَ متأخرين". أمَّا الآخرون فكانوا يشعرون بضرورة الدُّخول إلى الحرب بسرعة لاعتقادهم أنَّ روسيا ستدخل إسطنبول يوما ما.

وكان أنور باشا وطلعت باشا على وجه الخصوص يفكرون بهذا النحو. ورغم كونه عسكريا جيدا فإنَّ أنور باشا لم يكن خبيرا استراتيجيا أو قائدا كبيرا أو ماريشالا قادرا على إدارة جيوش الإمبراطورية. وفوق ذلك لم تكن رتبته عالية. وإن كنَّا لا ننكر أنَّه حارب في طرابلس الغرب وحقق نجاحا، واستردَّ أدرنة وطارد المتمردين في مقدونيا، وأنَّه كان وراء انتصاراتٍ كثيرةٍ، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّه قادرٌ على إدارة أكبر معركةٍ بتاريخ الإمبراطورية بنجاحٍ.

وبالمحصلة لم يتم تأمين المؤونة للجيش، ولم يتم ترتيب الإقامة بشكلٍ مقبولٍ، ولم يكن هناك تنظيمٌ جيدٌ لحوالي مليون عسكري، بالإضافة إلى عدم وجود سكة حديدية لنقلهم في الشِّتاء. وهكذا دخل هذا الجيش الحرب وكان يجب نقله إلى ساري قامش في الشِّتاء، فذهب الجنود متجمدين دون أن يُجهَّز لهم حتى اللباس الشِّتوي. وأقول في هذا الخصوص إنَّ هناك من يكتب تاريخا ملفقا على أنهم تجمدوا جميعا، فهواة المؤرخين يحبون المبالغة. ولكن لم يتجمد كامل الجيش بالتَّأكيد، لأنَّ هناك خسائر في الجيش الرُّوسي تبلغ ما بين 18–19 ألف عسكري، فكيف يمكن لجيشٍ متجمدٍ أن يفعل ذلك؟ وهذا لا ينفي أنَّ عددا كثيرا من الجنود قد هلك من البرد. وبالتَّالي يصح القول: "إنَّ الجنرال شتاء قضى على ذلك الجيش". فالتحضير السيئ جدا لشتاء الشَّرق يمكن أن يضرَّ المحاربين في المعركة أكثر من العدو نفسه.

الحرب العالمية الأولى سببٌ للحرب العالمية الثَّانية

بدأت الحرب العالمية التي أدَّت إلى اضطراب العالم في آب/أغسطس عام 1914م. ويُقال إنَّ المتهم هو ألمانيا بسبب الخشية من موقفها ونموها. وبعد 25 عاما أي في شهر أيلول/سبتمبر عام

1939م بدأت نفس الدولة (ألمانيا) الحرب العالمية الثانية، وهذه المرة بعدوانٍ واضحٍ. ففي المرة الأولى كان الأمر هجوما محقا لدولة تريد أن تأخذ مكانها تحت الشمس، وفقا لوصف الإمبراطور الألماني كايزر والدائرة المحيطة به، وقد خافت أوروبا من ذلك. وفي حين كانت الدول الأوروبية الكبرى وروسيا تواجه ذلك بنهجٍ سياسيٍّ فإنَّ الإمبراطورية العثمانية كانت تعتبر الدعم الشَّرقي لذلك النهج. أمَّا حقيقة مشاركة اليابان في الحرب فلا يمكن مقارنتها بدورها في الحرب العالمية الثَّانية.

كانت الحرب العالمية الأولى بالأساس حربا أوروبية. ولكن للمرة الأولى، كان الشَّعب خلف الجبهات يعاني من صعوبات كبيرةٍ، وبالمقابل فإنَّ تلك الصُّعوبات ساهمت مع القحط في الأحداث التي غيرت العالم، فالعالم وأوروبا سوف يتغيران بعد الحرب.

ولنتذكر أنَّه في أوروبا ما قبل الحرب، كانت النَّاس في هذه المنطقة الغنية من العالم – والتي تبهر القارات الأخرى – يعيشون في عوالم مختلفة، وينطبق ذلك حتى على سكان المدن الكبيرة. فسكان القصور والأبنية الفخمة والثَّرية في لندن وباريس وبرلين وفيينا شكَّلوا النظام العالمي الجديد، وأسسوا ما يقال عنه حضارة، بينما كانت الجماعات التي تعيش في الأحياء المحيطة بباريس ولندن والمجاورة لفيينا وبودابست، تعيش في ما يعرف باسم "ثكنات الإيجار"، وإلى جانب ذلك كانت الأبنية في حالة بؤسٍ شديدٍ. وبلغ الفقر درجة جعلت حتى الحذاء ترفا بالنسبة لشابٍّ بالغٍ. ولكن حين أُجبرَت تلك الجماعات على حمل السلاح، فقد أُعطيت لها الأحذية.

ولأنَّ الأسلحة كانت غالية، فإنَّه لم يكن ممكنا دفع تلك المصاريف بالأوراق النَّقدية التي كانت تُطبع مقابل احتياطات الذَّهب. وهكذا خلقت الحرب العالمية الأولى سياسة مالية تؤدي إلى التَّضخم، واستمر هذا الوضع إلى ما بعد الحرب.

ويُلاحظ أنَّه عند اندلاع الحرب خلقت الحركة الشَّعبية انقساما وتوترا جديدا بين الأحزاب والمجموعات التي تؤيد سياسة الحرب والمجموعات التي تعارض الحرب. فالطَّبقات التي تمثل العالم القديم لم يعد لديها الحق في استبعاد هذا النوع الجديد من الوطنيين الذين اتهموهم من قبل بالخيانة. ولم يعد بإمكان أحد أن ينعت الحركات النِّسائية وطلباتهن بشعار الجنون كالسَّابق. فقد تحمَّل الجميع الإنتاج خلال الحرب، وتسببت الحرب بعودة المنظرين في الخنادق إلى المجتمع بفكرٍ دنيويٍّ جديدٍ.

تحولت أوروبا في شهري آب وتموز/أغسطس ويونيو من العام 1914م إلى برميل بارود، بعد اغتيال فرانز فيرديناد ولي عهد الإمبراطورية النّمساوية المجرية أثناء رحلة تفقدية في سراييفو عاصمة البوسنة. وظهرت أطماع الإمبراطورية النّمساوية في البلقان كما ظهرت معها الإدارة في البوسنة والهرسك. ورغم أنَّ صربيا كانت ستحاكم وتعاقب قاتل الأمير فيرديناند لكن النّمسا كانت ترفض قائلة: "نحن لا نثق بذلك، فأنتم لا تملكون نظام الدَّولة القادر على تحقيق العدالة، وأنتم نفسكم إرهابيون".

وقد اعتُبر هذا التدخل بصربيا على أنَّه عدم اعتراف باستقلال الدولة، وفضح نية الهجوم لدى النّمسا. وفي هذا الوضع اختارت روسيا حماية سيادة من تعتبره أخا أصغر لها وهو صربيا.

أعلنت النّمسا/المجر الحرب على صربيا في بداية شهر آب/أغسطس، وبدورهم أعلن الرُّوس الحرب على النّمسا لحماية إخوتهم الصرب. وتعالت صرخات الأركان العامة الرُّوس القائلة: "سنعود بالنصر إلى بيوتنا في عيد الميلاد"، ولكنَّ هذه الأصوات لم تلقَ من يفهمها إلا وزير المالية الكونت سيرغي فيت الذي كان يقول: "هذه الحرب ستكبر، ولن يبقى عرش ولا تاج ولا نظام ولا أخلاق" لكن جهوده ذهبت عبثا في اتقاء الحرب.

كما أنَّ ألمانيا أعلنت الحرب على روسيا لتقف إلى جانب حليفتها النّمسا – المجر. ولم تكن إيطاليا التي وقعت اتفاق تحالفٍ مع ألمانيا جاهزة للحرب لذلك انزوت جانبا. فيما اختارت فرنسا الوقوف إلى جانب روسيا وأعلنت الحرب على ألمانيا. وعندما قامت ألمانيا باحتلال بلجيكا لتسحق فرنسا، أعلنت بريطانيا الحليف الأبدي لبلجيكا دخولها الحرب.

كان الاستقطاب قد بدأ منذ فترةٍ سابقةٍ وأخذ تضارب المصالح الأوروبية الاقتصادية والسِّياسية يظهر إلى العلن. ووسط ذلك كانت روسيا وفرنسا وإنكلترا في حالة تحالفٍ، وقامت بعد اجتماع ريفال بوضع بند تقسيم الإمبراطورية العثمانية على جدول الأعمال. وقد أدى الشعور بالحسرة من تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى إيقاظ الحكومة التُّركية الشَّابة بصورةٍ مرتبكةٍ وقلقةٍ، فرجحت كفة وجهة النَّظر الدَّاعية إلى دخول الحرب من أجل إنقاذ الإمبراطورية من التَّقسيم. ورغم جهود الاتحاديين من أجل الدخول في تحالف مع الحلف الفرنسي الإنكليزي إلا أنَّ روسيا كانت هي الخيار في الغرب.

وكانت كارثة حرب البلقان قد خلقت لدى الدول التي لا تعرف الجيش التُّركي عن قرب نوعا من اللامبالاة نحوه. وارتفعت الأصوات التي تقول: "لا خير في هذا الجيش وهذه الدولة". وبالمقابل لم تكن ألمانيا تتبنى نفس الرأي فقد كانت تعرف جيدا الجيش التُّركي والقوات البرية وعمليات التَّحديث وسلسلة القيادة في ذلك الجيش. وكما ذكرنا سابقا فإنَّ السَّفير الألماني في إسطنبول البارون فون وينغنهيم[35] والبحرية الألمانية كانوا معارضين للأتراك. ولكنَّ الملحق العسكري للنمسا/المجر فون بوميانكوسكي والذي يعرف تركيبة الجيش التُّركي جيدا، إضافة إلى بعض المستشارين الألمان أثروا على الإمبراطور الألماني كايزر لصالح الأتراك ورعوا سياسة ألمانيا في اكتساب الأتراك إلى جانبهم ضد الرُّوس، فتحالفوا مع الإمبراطورية العثمانية وكانت تلك بداية النِّهاية.

وفي الواقع كانت تطوراتٌ مثل عدم وصول البوارج التي كُلفت إنكلترا بصناعتها ومصادرة الأموال التي دُفعت مسبقا واجتماع ريفال، كلها عوامل تخيط شباك القدر. وربما كان الأتراك الشَّباب على حقٍ في البداية، ولكن لم يكن هناك كادرٌ في الحكومة وبخاصةٍ من الدبلوماسيين قادرين على تطبيق سياسة الثِّقة بالنَّفس التي تُبقي الإمبراطورية خارج الحرب الكبرى، وتقود إلى القرار الصَّائب.

وفي خضم هذه الفوضى، صمدت الدولة العثمانية المتحالفة مع ألمانيا إلى شهر تشرين الأول/أكتوبر. وكان هذا الاستعجال هو بداية أوهام السِّياسيين الأتراك في جدوى التَّحالف مع أوروبا ولكنَّه لم يكن الأخير. وكانت الإدارة التُّركية قد افتقدت روح وكفاءة عهد التَّنظيمات.

وبالحديث عن الخسائر فقد خسرت الإمبراطورية البريطانية في هذه الحرب 900 ألف شخصٍ، وهو عددٌ لم تفقده حتى في الحرب العالمية الثَّانية لاحقا. كما عاد 250 ألف شخص إلى الحياة المدنية بإصاباتٍ دائمةٍ. ولكنَّ المشكلة الرئيسية تمثلت في وجود 200 ألف شخصٍ كانوا ضحية مشاكل نفسيةٍ، أبقتها بعض عائلاتهم سرا بينما تكدس آخرون أمام المشافي التي لم تمكن جاهزة لاستقبال مثل هذه الحالات. وفي الحقيقة لا يمكن مقارنة خسائر الإمبراطورية العثمانية، التي لم نعرفها نحن الأتراك ولا دول أوروبا الغربية بشكلٍ عام بعد الحرب العالمية الأولى، مع خسائر الآخرين وذلك من جهة النجاحات والإخفاقات خلال الحرب، ومن جهة المشاكل التي أعقبت الحرب، إلاَّ أنَّ تركيا ستكون أكثر الدول عرضة للتغيير.

في الساعة الحادية عشر صباح يوم الحادي عشرة من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1918م أنهت فرنسا المدمَّرة الحرب العالمية الأولى فعليا كمنتصرٍ في الحرب، من خلال توقيعها للهدنة مع ألمانيا في غابة كومبيين.

وفي الواقع فإنَّ محاولة الانتقام من ألمانيا على حرب العام 1870م من خلال بنود اتفاقيات السَّلام في فيرساي كانت من الأسباب التي ساعدت على قيام الحرب العالمية الثانيَّة.

ونعود إلى بعض التَّفاصيل، حيث كان الماريشال الفرنسي فورشِه ينتظر في عربة القطار بغابة كومبيين القيادة العسكرية الألمانية ليملي عليها شروط وقف إطلاق النار، (وكان الماريشال الفرنسي فورشِه من بين الذين ترقوا إلى رتبة ماريشال خلال هذه الحرب الطَّويلة مثل زميله بيتان).

ومن المؤكد أنَّ المنتصرين في الحرب كانوا منهكين بقدر المهزومين، وكانت القومية والكراهية القومية في ذروتها. وسادت النَّظرة إلى الدولة العثمانية وألمانيا والنّمسا على أنَّهم المسؤولون عن جميع الأخطاء.

وكانت الإمبراطورية العثمانية طلبت قبل 12 يوما، في الثَّلاثين من تشرين الأول/أكتوبر، الصُّلح بعد أن تراجعت إلى حدود حلب والموصل. كما كان أحد حلفائها الأوروبيين أي النّمسا/ المجر قد انتهى بالفعل منذ مدةٍ.

وكانت العلاقة مع المعسكر الألماني/النّمساوي قد انقطعت مع انسحاب بلغاريا من الحرب، فأصبح الوضع باعثا على الأسى، حيث كان الجيش التُّركي خلال الحرب العالمية الأولى الطَّويلة هو القوة الوحيدة التي حاربت على جبهاتٍ واسعةٍ وأكبر من إمكاناته. وفي الحقيقة كان الدُّخول إلى الحرب العالمية الأولى بداية أخطاء غير قابلةٍ للحل، وكان في النِّهاية سبب الانهيار وسط هذه الحالة المعقدة. ومن أجل الخروج من حالة الانهيار هذه لم يختر الشعب التُّركي الفوضى أو حربا عالمية أخرى بل اختار الكفاح الوطني. فبدأ احتلال دول التَّحالف للأراضي التُّركية يتزعزع بعد سنةٍ من الهدنة في منطقة مارش التي كانت تحتلها فرنسا. وكانت قيادات الجيش المقاومة تنظم شبكات المقاومة السِّياسية والإدارية.

لقد جلبت الحرب الكبيرة النِّهاية للإمبراطورية، ولن نرثي ذلك اليوم فالإمبراطوريات تنشأ لتُهدم. والإمبراطورية التُّركية كانت أيضا ستنهار آجلا أم عاجلا لأن الشُّعوب التي تحت إرادتها

كانت ستضطر لترك هذه المملكة. وقد أدى عدم أهلية الحكومة إلى فقدان الضباط الاحتياطيين الشَّباب لدرجةٍ أفرغت صفوف المدارس، وإلى خسارة الحدادين والفلاحين في الجبهات مما خنق الاقتصاد بصورةٍ جعلته غير قادرٍ على النُّهوض لعشرات السِّنين. وهكذا تسببت الحكومة بالقضاء على الإمبراطورية التُّركية بشكلٍ مبكرٍ وبثمنٍ كبيرٍ من خلال سياساتها عديمة البصيرة وقراراتها المفاجئة. كما أدت هذه السِّياسات في الوقت ذاته إلى تدمير الحدود الوطنية.

ولا ينبغي أن ننسى أنَّ حدود "الميثاق الوطني" كانت تضم الأراضي التي كانت بيد الجيش حين أُعلنت الهدنة، لكننا لم نستطع الحصول على بعض هذه الأراضي في النِّهاية. فعلى سبيل المثال لم تنضم هاتاي إلى الوطن الأم إلاَّ في العام 1939م نتيجة السِّياسات اللاحقة والاستفادة من توازن القوى.

و لم تكن المشاكل التي سببتها الحرب العالمية متعلقة بتركيا فقط بل خسرت الأطراف التي خرجت بعنوان المنتصر من الحرب العالمية الأولى. وبالمحصلة تغير العالم وكان عليه المرور ببعض التَّجارب الأليمة.

وهكذا سقطت عروشٌ وتيجانٌ وليس الإمبراطورية العثمانية فقط، إذ أنَّ حكم هابسبورغ في إمبراطورية النّمسا/المجر وسلالة رومانوف في روسيا وأيضا الإمبراطور الألماني الذي حافظ على وجوده إلى ذلك اليوم رغم ضعف التقليد، كل هؤلاء أصبحوا تاريخا.

كانت الحرب تسبب هبوب رياح الدَّمار، وحتى المنتصرون كانوا منهكين. لكن المنتصرين المنهكين استهدفوا وسائل أخرى، فقد وضعوا اتفاقيات صعبة وغير عادلة لتعوض خسائرهم المادية والمعنوية. وتمَّ ذلك حينها من خلال اتفاقيات منفصلة في ضواحي باريس.

في الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر هُزمت ألمانيا، ورغم ذلك واعتبارا من يوم وقف اطلاق النار، بدأت الدَّوائر المحيطة بصناع القرار في ألمانيا بنشر ادعاءات تقول: "إنَّ الجيش لم يهزم في الحقيقة، لكن الهزيمة كانت بسبب عدم كفاءة السياسيين في برلين". وقد أُضيفت إلى هذه الفوضى بعد فترةٍ ادعاءات تقول إنَّ هذه الكارثة كانت بترتيب اليهود والشيوعيين. إذ كانت الجيوش الألمانية ثملة بانتصار تانينبرغ في البداية ضد الجيوش الرُّوسية التي لم تكن جاهزة ولم تكن مدربة. ولم يكن الألمان يريدون الاعتراف بتفوق البريطانيين والفرنسيين والذين كانوا يدافعون عن بلدهم

في مارن وفيردون. وفي المستقبل القريب فان السِّياسيين الألمان الذين سيفجرون الحرب العالمية الثَّانية جروا جميع الشَّعب إلى مغامرة خطرة تحت عنوان "نظافة الداخل قبل كل شيء".

وقد اضطرب المجتمع الألماني في الأيام الأخيرة من الحرب. وكانت الكراهية ضد سلالة هوهينزوليرن لم تبلغ أبدا مقدار الكراهية ضد الحكم المطلق في النّمسا وضد إنكلترا.

لم يكن جيشنا خصما سهلا لدول التَّحالف

نحن نكتب التاريخ ونطلق أحكاما بالجملة، ولكنَّ الحرب العالمية الأولى كانت في الحقيقة حربا قام فيها صف القادة بأشياء عظيمةٍ يجب الوقوف عندها. رغم أنَّ دخولنا إلى الحرب العالمية الأولى لم يكن له داعٍ، أو أننا دخلنا مبكرا، مما تسبب في اختيارنا الطرف الخطأ. وقد أصبح مؤرخو الحروب الجدد يكتبون يوما بعد يوم بمعرفةٍ عن أهمية الدَّور الذي لعبه الجيش التُّركي أي جيش الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، وأخذت تظهر أسماء قادةٍ لم نكن نعرفهم.

لقد أدَّت الحرب العالمية الأولى إلى تغييراتٍ استثنائيةٍ وكبيرةٍ في حياة الإمبراطورية البريطانية وأتباعها، ولأول مرةٍ اضطرت بريطانيا أن تخوض حربا طويلة لمدة أربع سنوات. ولكنَّها لم تمنح ثقلها لحليفتها فرنسا في هذه الحرب. وللمعترضين أطرح السُّؤال: أين تم ذلك؟ في غاليبولو؟ أم في قناة السويس ثم في جبهة فلسطين؟ في العراق وفي كوت العمارة؟

وفي نهاية السَّنوات الأربع كان الجيش البريطاني والشَّعب البريطاني متعبين، وكان السِّياسيون الإنكليز قد خضعوا لاختباراتٍ صعبةٍ، وبعضهم مثل تشرشل نفسه لم يجتز هذه الاختبارات بعلاماتٍ جيدةٍ. ودخل الاقتصاد البريطاني في أزمةٍ لم يعشها في التاريخ.

وبالنَّتيجة اتُخذت قراراتٌ بمعاقبة وتقسيم الإمبراطورية التُّركية المغضوب عليها والتي أمدَّت في عمر الحرب أربع سنوات، وكان الجميع يعلمون ويرون هذه النَّزعة نحو العقوبة. وكان تصرُّف المنتصرين بدون رحمةٍ حقيقة واقعة، ولكن الجهة التي عاملوها بلا رحمةٍ أكثر من غيرها كانت الإمبراطورية التُّركية، وذلك نتيجة خشيتهم الشَّديدة من الطَّرف الذي قام بالقتال فعلا، حيث رأوا منه أمثلة مثيرة للدهشة.

تمت الحرب في سبعة أقاليم وثلاث قارات

يجب التَّوضيح مجددا أن الضَّابط العثماني كان مثل جميع ضباط الجيوش البرية صاحب صفات مميزةٍ، فهو مجبرٌ على معرفة اللغة والجغرافية، ولكنَّ الضابط العثماني لديه خاصيةٌ إضافيةٌ، إذ كان عليه النِّضال في إمبراطوريةٍ واسعةٍ. فعليه مثلا أن يحارب المتمردين والعصابات سنة في اليمن وأخرى في بلاد الشَّام، وفي السَّنة التالية يحارب القوميين في جبال مقدونيا.

قبل دخول في الحرب العالمية الأولى كان موضوع البلقان موضوعا محزنا من النَّاحية العسكرية والسِّياسية. لكنَّ ضباط هذا الجيش نضجوا بسرعةٍ على العكس من زملائهم في جيوش الدُّول الكبرى الذين خاضوا تجربة الحروب قبل أن تبدأ الحرب العالمية الأولى.

وكما فعل مصطفى كمال فقد أوقف أنور بك وفتحي بك وجامي بك هجوم الإيطاليين على طرابلس الغرب ثم شهدوا حرب البلقان. أما عصمت باشا فقد طور من خبرته في القيادة على جبهة اليمن والبلاد العربية. أي أنَّ الحرب العالمية الأولى أدارتها طبقةٌ من الضُّباط الشَّباب بالعمر والمسنين بالخبرة، وهو الأمر الذي أدى إلى البغض من قبل البريطانيين، الذين كانوا يرغبون أن تُمحى الإمبراطورية التُّركية من الجغرافيا وأن ينساها التاريخ. وتظهر ترجمة هذا البغض في حديث كليمنصو المسموم للموفدين العثمانيين إلى سيفر حيث قال: "ماذا تتوقعون منا؟ إنَّكم لستم منخرطين في العالم المتحضِّر، ولم تحققوا أيَّ تقدمٍ للشُّعوب التي تحت إدارتكم، وتعاونتم مع قاطعي الطرق الألمان كي تسرقونا". ورغم أن سياسة فرنسا ابتعدت عن هذا المنطق وعن هذا التَّكبر بعد إعلان وقف إطلاق النار بفترةٍ إلا أنَّ الفكرة ترسخت في ذاكرة الأجيال.

كارثة السِّياسة الخاطئة: ساري قامش

في منتصف شتاء عام 1915م دُفن أكثر فيالقنا تدريبا في الثُّلوج عند الحافة الشَّمالية للإمبراطورية العثمانية. وكان عدوه الجيش الرُّوسي كامنا داخل الخنادق المحفورة بشكلٍ يراعي فصل الشتاء، إلى جانب أنَّه كان معتادا على ذلك الجو ومجهزا باللباس اللازم لهكذا مناخ، أما جيشنا فكان ذاهبا إلى محاربة الرُّوس بلباسٍ صيفيٍّ تقريبا. ولكن وبتعبيرٍ مجازيٍّ كانت "حملة الجنرال الشِّتاء" أسرع من الجيش الرُّوسي على جبهة ساري قامش، فهُزم جيشنا أمام الشتاء. وظهرت جثث شهدائنا المتجمدة في الربيع بعد ذوبان الثُّلوج.

كان أنور باشا في حملة ساري قامش انعكاسا للجهل والمغامرة، ورغم امتلاكه مواهب خاصة، ورغم أنَّه تلقى تعليما جيدا مثل جميع قادة الجيش الشباب، إلاَّ أنَّه لم يكن هناك كادرٌ كافٍ

لإدارة استراتيجيته الخاطئة، فقد حاربنا الرُّوس ولكن لم تتوفر لدى الجيش التَّجهيزات المناسبة للشتاء.

وفي الواقع ينبغي علينا الاستماع بحذرٍ إلى الآراء المنتشرة في هذه الأيام حول معركة ساري قامش، إذ ليس صحيحا أنَّ كامل الجيش استسلم للشتاء دون أن يطلق رصاصة، فرغم كل شيءٍ مات 19 ألفا من الجيش الرُّوسي. ولا شكَّ أنَّه كان هناك تراجعٌ، كما كان هناك دورٌ للأخطاء الاستراتيجية الآنية، بالإضافة إلى أعمال العصابات الأرمنية خلف الجيش المتراجع التي كان لها تأثيرٌ أيضا، والتي يمكن ربط حادثة التَّهجير اللاحقة بردود الأفعال عليها.

ولا ننسى أن الأتراك الشَّباب كانوا، وبحسب قول الماريشال الفرنسي فرانشيت ديسبيري في سنوات الهدنة، أكثر عناصر المجتمع التُّركي حركية. ولكن خارج الدول الكبرى في الغرب لم تكن لديهم الشَّجاعة على الحركة أو حتى الانتظار.

وبالعودة إلى الحديث عن أنور باشا فإنَّه كان علاوة على ذكائه رجل أحلامٍ لا دافع لها، ويملك العيوب العامة لجيل الأتراك الشَّباب، حيث كان مستعدا لتغيير المجتمع والتَّاريخ وفق رأيه، ودون التواصل مع الأطراف الأخرى واللقاء بها والتَّحدث معها، فكان يميل إلى إعطاء الأوامر كما تخطر بباله ولا يستمع للآخرين.

ويبدو أنَّنا لو اخترنا طريق السَّلام مع الجيش المتجدد ومع الطبقة الإدارية الرسمية لكان بإمكاننا بناء مستقبلٍ مشرقٍ ودون مشاكلٍ لنا وللعرب، ولكنَّ حلفاءنا الألمان الذين حاربنا الرُّوس لأجلهم في ساري قامش كانوا قد توقفوا في جبهة مارن منذ زمنٍ.

وإذا كان دخول الحرب وإلى جانب الطرف الخطأ سببا في تدمير تركيا وما حولها، فقد استطعنا نحن الأتراك العنصر الرئيسي للإمبراطورية، بناء مستقبلٍ مختلفٍ، بفضل التَّاريخ والموروث الذي أفرز أبناء قادرين على ذلك، وإن كنَّا لا نستطيع القول إن شعوب الدولة العثمانية الأخرى حصلت على نفس الحظ وقامت بنفس التجديد.

لقد كانت ساري قامش من أكبر الفواجع التي شهدها تاريخنا القريب بعد حرب البلقان نتيجة القيادة البدائية والسِّياسات الخاطئة. وأذكر في هذا السِّياق أنَّني حصلت، نظرا لعمري، على الفرصة لأتعرف على بعض من شهدوا تلك الحرب، وقد سمعت منهم ذكريات مفجعة هزت عالمي

ومعرفتي بالتَّاريخ. كما ازداد إعجابي بمصطفى كمال باشا ورفاقه، لأن الكارثة واليأس اللذين سببهما قادة الحرب عام 1914م بين شعوب الإمبراطورية لم يعرقلان انتقالهم إلى المقاومة. ورغم كل شيء لم يصابوا بالذُّعر ولم يدخلوا في العدمية مثل شعوب أوروبا التي عاشت الحرب العالمية الأولى، واستطاعوا أن يستمروا في حرب الاستقلال بين 1919م – 1922م.

لو خسرنا في تشَناق قلعة

لو أنَّنا خسرنا معركة تشَناق قلعة، ولو افترضنا أنَّ إنكلترا كانت هي التي ستدخل، فإنَّها كانت ستستقر هنا أيضا مثلما فعلت في مالطا وقبرص ومصر، وكانت ستتصرف بالمكان وكأنَّه لها. وعقب ذلك كانت روسيا ستدخل، ولن يكون بمقدورنا بعدها استرداد تلك الأماكن. بل كنا سنضطر لمشاهدة القسطنطينية في كتب السَّفر والرَّحلات. وبالتَّأكيد فإنَّ الكارثة والاحتلال المحتملين في العام 1915م لن يُقارنا بدخول الإنكليز عقب إعلان وقف إطلاق النَّار.

ومن المؤكد أنَّ الكوادر الذين يخوضون حربا كهذه يتطورون اعتمادا على شجاعتهم وتنظيمهم وتجهيزاتهم الفنية واستخدامهم للتقنية، فكلُّ زعمائنا خرجوا من نصر تشَناق قلعة وجميع القادة جاءوا من هناك. وحتى الكوادر المدنية خرجوا من هناك لأنَّهم كانوا من الضباط الاحتياط. ونعطي مثالا واحدا فقط: كان والد عازفة الكمان المشهورة إيلا إيردوران الأورديناريوس (أستاذ متمرس) البروفيسور الدكتور بهجت سابت (أيردوران) طبيبا في ساحة معركة تشَناق قلعة، وقد نجا من قذيفةٍ إنكليزيةٍ بعد أن خرج من الخيمة ليدخن سيكارة، ولو لم يخرج لكان عمله الطبي غير موجود ولكانت إيلا غير موجودةٍ بيننا. وهكذا فإنَّ الذين أنضجتهم الحرب حملوا تركيا نحو الغد، ولو لم يوجدوا لشكَّل ذلك أكبر عقبةٍ في طريق تطور تركيا حتى خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

إنَّ تشَناق قلعة هي من الحوادث الباقية التي احتلت مكانا في ذاكرة الشَّعب وحتى في روحه، ومن النادر رؤية أثرٍ باقٍ بهذه الأهمية في الشَّرق والغرب مثل تشَناق قلعة، إذ لا يوجد في ألمانيا أو النّمسا مثيلٌ لها، أما في فرنسا فتوجد مارن وفيردون، وفي روسيا توجد سمولنسك ومينسك، كما توجد خلال الحرب العالمية الثَّانية ستالينغراد وأوديسا وسيفاستوبول ولينينغراد.

وفي الحقيقة لا توجد صفحةٌ في تاريخ العالم، ولا قطعةٌ مهمةٌ في جغرافية العالم، إلاَّ وفيها الأتراك. ولا يمكن مراجعة التَّاريخ الوطني لأيِّ دولةٍ في أوروبا دون الأتراك. كما لا يمكن فهم

تاريخ وهوية أيّ دولةٍ من دول الشرق الأوسط والدول الرُّوسية والسّلافية دون إدخال الأتراك في الحسبان. ويبدأ هذا الأمر من أعماق القرون الوسطى ويستمر إلى التَّاريخ القريب. فدون الأتراك لا يمكن أن توجد القرون الوسطى وعصر النَّهضة ولا يمكن أن توجد الحرب العالمية الأولى ولا يمكن أن تُفهم. ومن المهم الوقوف على هذه الموضوع، فالعالم الغربي بدأ يكتب عن الحرب العالمية الأولى بكفاءةٍ، وبدأ يفهمها بشكل صحيحٍ بعد مراجعة جبهات الأتراك في الحرب، وقبل ذلك كانت كتابة التاريخ سطحية وسخيفة.

تشَناق قلعة ومصطفى كمال باشا

تحتل تشَناق قلعة أهمية كبيرة في فترة انتقال مصطفى كمال باشا نحو قمة الكفاح الوطني، ولهذا يُعرف بقائد "أنافارتلا" (موقع في جزيرة غاليبولو).

ورغم ذلك يقول البعض بإصرارٍ: "لم يكن أتاتورك موجودا في تشَناق قلعة، ولم يكن موجودا في المعركة البحرية. ولم يكن موجودا في البداية، بل كان موجودا في الختام". ومن الواضح أنَّ ذلك يراد به مسح سيرة قائد تركيا العلماني من الذَّاكرة بمشاعر أصوليةٍ. في حين أنَّ الميزة التي لا تنسى في شخصيته هي الصِّفة العسكرية.

وينبغي عند كتابة هذا القسم أخذ التَّقارير والمعلومات العسكرية المحلية والأجنبية بعين الاعتبار، كما ينبغي علينا معرفة القادة الشَّباب في الحرب العالمية الأولى. والأمر المبشر أنَّ المذكرات والكتابات خرجت من صناديق الأجداد وبدأت تُطبع خلال السَّنوات العشر الماضية.

ومن جهةٍ أخرى علينا أن ندقق في تقارير الجبهة المعادية، وقد تكون مذكرات ليمان فونساندرز والألمان الآخرين مهمة، لكنَّ تلك المذكرات تطغى عليها أحيانا المبالغة والنَّزعة لإعادة تدوين أو إخفاء بعض الحقائق. ومن الواضح أنه يجب جمع الصُّحف اليومية من الأرشيف البريطاني والأرشيف العسكري الألماني.

وبالعودة إلى الحديث عن شخصية مصطفى كمال نلاحظ أنَّه إلى جانب المهمة التي يُكلف بها كان لديه توقٌ إضافيٌّ نحو الصَّولات والتضحيات، ونذكر على سبيل مثال تطوعه في حرب طرابلس الغرب، وعدم اكتفائه بالبقاء كملحقٍ عسكريٍّ في صوفيا خلال الحرب العالمية الأولى، رغم إمكانية ذلك لأنَّ بلغاريا كانت حليفتنا، ولكنَّ مصطفى كمال يصر بأنه يريد خط الجبهة، وكان

يقول: "لا أستطيع البقاء هنا بينما أصدقائي في خط النَّار". فكان هو نفسه سببا في تعيينه على خط الجبهة، وهنا نجد أنفسنا أمام قائدٍ طموحٍ لا يستطيع الوقوف في مكانه بل همه الخروج من صوفيا.

وفي الواقع لا أربط النَّزعة لكتابة سيرةٍ مزيفةٍ لمصطفى كمال مع الفكر الأصولي، لأنَّ هناك حسدا عرقيا أيضا. ومع الأسف فإنَّ بعض المجموعات العرقية في تركيا حاولت تخريب مكانة الأتراك، الذين يعتبرون العنصر الرئيسي في تركيا عبر التَّاريخ. وهذه المحاولات واضحةٌ للعيان ضمن عددٍ من الحركات القومية البسيطة في بعض البلدان حاليا وكذلك عبر التَّاريخ العالمي. فعلى سبيل المثال كان الميل إلى تخريب وتشويه الثَّقافة الرُّوسية واسع الانتشار بين الأتراك الرُّوس قبل تلقيهم للتعليم المؤسساتي ودراستهم في أوروبا، وكانت تلك الحملات تهدف إلى حماية الذَّات من المكون الرئيسي للدولة عن طريق العزلة. ولكنَّ المنطق الصَّائب بدأ يأخذ مكانه بين المتنورين، مع وجود أشخاصٍ تلقوا التَّعليم في المدارس العسكرية والمدنية في القرن التَّاسع في قازان وأذربيجان والقرم، ونتيجة حدوث تماسٍ بينهم وبين التَّعليم والثَّقافة العثمانية، وكذلك ازدياد عدد الدارسين في أوروبا، فقام هؤلاء المتنورين بالبحث في المسائل الوطنية بشكلٍ توافقيٍّ. ويمكن رؤية هذا النَّهج في المقالة التي نشرها إسماعيل الغاسبري (من القرم) بعنوان "سنوات روسيا الألف" في مجلة "الترجمان"، فهو لم يعتمد أبدا أسلوبا قوميا ساخرا أو هجوميا، إذ لا جدوى من ممارسة قوميةٍ بعيدةٍ عن الواقع ولا تحظى حتى بدعم الدول والمثقفين المعاصرين.

والأجدى في سبيل التَّنوير هو تعلم اللغة والتَّاريخ، وإظهار العلاقة المدنية والأصول المشتركة بين الشُّعوب التُّركية ومسلمي روسيا الآخرين، وتهيئة أجواء الوحدة الثَّقافية.

وبالتَّالي فإنَّني أرد مقولة "لم يكن مصطفى كمال موجودا في تشَناق قلعة وفلسطين" التي يرددها بعض الأشخاص ووسائل الإعلام (عكس بعض التقارير العسكرية وتقارير بعض القادة العسكريين المعاصرين) إلى عدم توفير ما سبق ذكره، لأنَّ هذا الادعاء السخيف لا يعتمد على أي تقريرٍ عسكريٍّ، وعندما نقرأ بتمعنٍ المذكرات العسكرية (ليس تلك المكتوبة من قبل قادتنا فقط، بل تلك المكتوبة من قبل قادة مثل الماريشال البريطاني اللورد كارفر أيضا) يتضح لنا عدم منطقية تلك التَّعليقات.

مصطفى كمال مجددا في المقدمة بخنادق معركة تشَناق قلعة
إحدى أكبر المعارك في التَّاريخ العالمي، 1915 م

تغيير مجرى التَّاريخ

في الحقيقة غيرت تشَناق قلعة من مجرى التَّاريخ العالمي، فقد ظهرت روسيا جديدة وتركيا جديدة. حيث لم يسبق لنا أن دافعنا عن الوطن أبدا بمليون عسكري، وهذا الدِّفاع تمَّ على امتداد رقعةٍ جغرافيةٍ واسعةٍ، تمتد من غاليسيا في إسبانيا إلى اليمن. وبعد ذلك اضطر جنودنا إلى القتال لثلاث سنواتٍ في زمن الهدنة.

لقد أثبتنا في الحرب العالمية الأولى أننا شعبٌ واحدٌ ووطنٌ واحدٌ. وفي تلك الحرب الطَّويلة استشهد شبابنا وفلاحونا وصناعنا وكلُّ من كان يستطيع حمل السِّلاح. إلاَّ أنَ حرب السنوات الأربع هذه أكسبتنا وعيا قوميا، ومن خلال ذلك الوعي أسسنا الجمهورية.

شارك عددٌ كبيرٌ من دول العالم في الحرب العالمية الأولى، ودخل معظمها إلى الحرب بنهاية تموز/يونيو وبداية آب/أغسطس. فأعلنت النّمسا والمجر وألمانيا وروسيا، وفي النهاية فرنسا

والإمبراطورية البريطانية الحرب بالتَّبادل. أما الإمبراطورية العثمانية فدخلت رسميا إلى الحرب في الحادي والثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر عام 1914م بعد قصف البارجتين ياووز وميدلي والمدمرات المرافقة لها سواحل سيفاستوبول ويالطا الرُّوسية. وهاتان البارجتان تم شراؤهما بالاسم بعد لقاء أنور باشا والسفير وينغهايم عند التجائهما لسواحل تشَناق قلعة، كما أن الطاقم الألماني بقي على متن البارجتين. وقد تم ذلك القصف بأمرٍ واضحٍ من جمال باشا ووزير البحرية، فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في الثَّاني من تشرين الثاني/نوفمبر. وبعد إعلان بريطانيا وفرنسا الحرب أيضا قامت السُّفن الحربية التابعة لهما بقصف حصون سد البحر وكوك كاه وأرطغرل وأورهانية في مضيق تشَناق قلعة. وكان أنور باشا قد أمر اعتبارا من بداية أيلول/سبتمبر بإنشاء الحصون في المضيق. ومع ذلك تعرضت الدِّفاعات ضد الأسطول المشترك لخسائر كبيرةٍ، فقد استشهد 5 ضباط و80 جنديا.

وبعد بداية حملة المضيق بفترةٍ لم يكتفِ وزير الخارجية الرُّوسي سازانوف بالاعتراض على بريطانيا بل هددها. وكانت روسيا ستنسحب من الحرب، لأنَّ الحملة من قِبل إنكلترا كانت ستضيع من يدها إسطنبول والمضائق الموعودة بها. وطرحت روسيا التي كانت تملك 5 ملايين عسكري كأكبر قوةٍ بريةٍ السُّؤال عن مبرر دخولها الحرب إلى جانب دول التَّحالف، فتوجه تشرشل إثر ذلك نحو توقيع معاهدةٍ مع روسيا يتعهد فيها بإعطاء إسطنبول والمضائق لروسيا.

وكانت الإمبراطورية العثمانية تخوض فعليا غمار الحرب منذ عام 1912م، تلك الحرب التي دخلتها للضرورة، كما لم تُطلق فيها صرخات النَّصر المجنونة كتلك الصَّرخات التي أُطلقت في أوروبا وروسيا. إذ كانت القيادة العسكرية التُّركية هي الوحيدة التي فهمت ضبابية الحرب واستمرارها لمدة طويلة. وكان مدير الشُّعبة الثَّالثة لهيئة الأركان العامة عصمت إينونو قد طالب في نهاية تشرين الأول/أكتوبر بعدم المبالغة في التحالف مع ألمانيا نتيجة انتصار الألمان على الرُّوس في تانينبرغ، كما طرح التساؤل حول قوة هذا الجيش بعد أن أوقفه الفرنسيون بقيادة الماريشال جوفري في جبهة مارن، مطالبا بضرورة تجنب هذا التَّحالف.

ومع ذلك لم يترك عناد وعدوانية سازانزف وتشرشل في تشَناق قلعة أيَّ إمكانيةٍ للتفكير بذلك، ورغم آراء قادة مهمين من أمثال أسعد باشا وفوزي باشا والضَّابط مصطفى كمال وكاظم كارا بكر وعصمت إينونو فإنَّ تركيا انجرَّت إلى الحرب في صف ألمانيا. ومن المفيد التذكير بمقولة

السُّلطان السَّابق المنعزل في قصر بيلاربي، السُّلطان عبدالحميد الثاني: "الجهاد سلاحٌ يفوق تأثير عدم استعماله تأثير استعماله". ومع هذا فقد كان في صفوف الإنكليز والفرنسيين عددٌ كبيرٌ من المسلمين القادمين من مستعمرات الإنكليز والفرنسيين ليحاربوا إلى جانبهم في تشَناق قلعة.

وبعد الهجوم والدِّفاع الأول كانت مسألة تجاوز مضيق تشَناق قلعة والتَّوجه نحو إسطنبول قد حُددت بأمرٍ مباشرٍ من تشرشل، وعند دخول هذه الخطة حيز التَّنفيذ ظهر الاعتراض الرُّوسي المعروف، لكنَّ القائد العام نيكولا غراندوك أوضح أيضا أن هذه المعركة يجب أن تنتهي بسرعة ليصل الدَّعم إلى روسيا، لأنهم كانوا تحت الضَّغط في الداخل، فالبلاشفة كانوا على وشك السَّيطرة على الحكم وهذا ما سيحدث في النهاية، حتى أن روسيا السُّوفييتية سوف تقرر الانسحاب من الحرب ويصبح الأصدقاء القدامى أعداء.

استمرت التَّجهيزات لمدة ثلاثة أشهرٍ، وكانت الإمبراطورية التُّركية تعطي الأهمية للدِّفاع الذي ستقوم به الجيوش البرية، وأثبتت أنَّها على صوابٍ في ذلك. وكان جواد باشا على رأس موقع تشَناق قلعة الحصين، لكنَّ نائب القائد العام أنور باشا عين الألماني ليمان فون ساندرز، رئيس هيئة الإصلاح القادم إلى إسطنبول كرئيسٍ للقوات المشتركة، على رأس الجيش الخامس في غاليبولو. وينبغي هنا عدم المبالغة في أعداد القوة العسكرية الألمانية النّمساوية بالنَّظر إلى كلمة "الجيش المشترك".

ولا يفوتنا الحديث عن الدَّعم التكنولوجي العصري لحلفائنا في غاليبولو، فلم يكن ليمان باشا اسما مميزا في جيش بروسيا، ولكن مع مرور الوقت يمكن ملاحظة قيادته السَّلسة وإعطائه الاعتبار لآراء القادة الأتراك.

وتجدر ملاحظة أنَّ القادة الأتراك الشَّباب وذوي الخبرة قد اجتمعوا في جبهةٍ واحدةٍ في هذه الحرب أي معركة تشَناق قلعة. ورغم تنظيف الحلفاء لمواقع الألغام في المضيق قبل شهرٍ من بداية الدِّفاع الحقيقي في الثَّامن عشر من آذار/مارس فقد تمَّ وضع الألغام قبل عشرة أيام من بدء الهجوم. وكان هذا نجاحا تاريخيا لعناصر سفينة الألغام "نصرت"، وقد تكون تلك هي الحركة التي غيرت مجرى الحرب.

وبعد يومٍ واحدٍ من الهجوم كان واضحا تراجع دول التَّحالف للخلف بعد الدَّمار الذي حل بأسطولهم وبعد رد الفعل الذي لاقوه من مناطق الدفاع. فانسحبت حينها أفضل السُّفن الحربية في العالم والملقبة بالقلعة العائمة "الملكة إليزابيث" بعد أن أصيبت بشكل خفيف، أما سفن "أوشن" و"إريستبل" و"بوفيت" فقد أُغرقت، بينما تركت سفينة "أغاميمنون" ساحة القتال. واعتُبرت تلك الموقعة هزيمة فتمَّ التَّراجع عن قرار المرور من المضيق بالسُّفن. كما لم يقتصر "استعصاء مرور تشَناق قلعة" على النَّصر البحري المهم في الثَّامن عشر من آذار/مارس بل تعدَّاه إلى المعارك البحرية اللاحقة.

كانت قيادة موقع أريبورنو من أهم النُّقاط في حرب تشَناق قلعة. ورغم طلب مصطفى كمال بتعيينه هناك فإنَّ قرار التعيين تأخر، وبالتَّالي تأخر انتقاله إلى هناك حتى شهر نيسان/أبريل. ولم تكن الفرقة التَّاسعة عشرة التي أسندت إليه قيادتها مجتمعة. ومع ذلك فقد كانت فرقته وموقعها في "آنافرتلار" من أهم الفرق الثَّلاث التابعة للقائد الميداني أسعد باشا. وقد دخل أسعد باشا والفرق العسكرية التي كانت بإمرته التَّاريخ العالمي وتاريخ الحروب إثر نجاحاتهم في ذلك الوقت. وكان الأثر الأهم لمصطفى كمال خلال معارك تشَناق قلعة، هو إعطاء الأمر للوحدة المتراجعة في التَّلة رقم 261 بالانتشار من أجل حماية منحدر "جونك". فبعد أمرٍ فوريٍّ من مصطفى كمال توقف تراجع الوحدة، التي نفدت منها الذخيرة، أمام العدو الذي تسلق منحدر "جونك"، واستطاعت الوحدة أن تعيد انتشارها إثر تركيب الحراب للبنادق. وبفضل ذلك اكتسب الأتراك بعض الوقت بعد توقف حركة جنود العدو، وشهد الموقع قتالا مميتا إلى أن جاءت قوات الدعم وأفشلت سيطرة بريطانيا على موقع مهمٍ. وقد ذُكرت هذه الحادثة في التَّقارير العسكرية البريطانية. وإذا تفحصنا الأرشيف البريطاني بتمعنٍ وكذلك أرشيفنا حول معارك غاليبولو فسوف نتبين أهمية وقائع مثل واقعة منحدر جونك. وتبقى المشكلة الأكبر في فهم الحرب العالمية الأولى هي عدم قدرة مؤرخي الحروب على تفحص المصادر التُّركية، إلى جانب عدم تفحص مؤرخي الحروب الأتراك للأرشيف البريطاني والفرنسي والألماني بالشكل الكافي.

بدأت المعركة الكبرى مع تعيين الإنكليز للقائد البريطاني الشهير "أيان هاميلتون" على رأس القوات البرية. وأدركت القوات المهاجمة أن تشَناق قلعة لا يمكن اجتيازها عن طريق البحر، وقد اعترف بذلك الأميرال الأول اللورد "وينستون تشرشل" والقادة الآخرون. وفي الخامس والعشرين من نيسان/أبريل عام 1915م نزلت القوات البرية إلى شبه جزيرة غاليبولو، وتوضعت

في ثلاث نقاط على طول الساحل نظرا لمقاومة الأتراك العنيفة. فكانت عند "كوم كاله" في الطرف الآسيوي، وكانت عند "آري بورنو" و"سد البحر" في الطرف الأوروبي. وكان الإنكليز والفرنسيون يحاولون الوصول من "سد البحر" وموقع شمال "آري بورنو"، بينما كان الإنكليز والأنزاك – قوات الدعم الأسترالية والنيوزلندية – يحاولون الوصول إلى شرق شبه الجزيرة. وفي الحقيقة تسببت تلك المحاولات بضغطٍ كبيرٍ. إلاَّ أنَّ "ليمان فون ساندرز" أدرك أنَّه كان مخطئا بشأن النُّقطة التي توقع أن يتمَّ فيها الإنزال البري، بينما كان القادة الأتراك قد أشاروا إلى النقاط الصَّحيحة.

وكانت حينها فرقة مصطفى كمال، أي الفرقة التَّاسعة عشرة، في الطَّرف الآخر من شبه الجزيرة وتحديدا في "مايدوس" التي تبعد خمسة أميال عن موقع "أري بورنو". ولا شك أن هذا الانتظار احتياطيا كان وضعا حرجا وكان يمكن أن يؤدي إلى كارثةٍ.

وكان الفوج رقم 57 هو المسؤول عن الاحتفاظ بالتِّلال في نقطة "أري بورنو"، ومن المعروف أن الفوج رقم 57 كان من الذين دافعوا ببطولةٍ في معركة "تشَناق قلعة" وهو الفوج الذي استشهد تقريبا معظم عناصره. وقد برز قائد موقع "أنافرتلار" من خلال القرارات الفورية والصَّائبة التي اتخذها، إلى جانب معرفته للمعالم الجغرافية عن ظهر قلب بعيدا عن الخريطة. وهذه الصِّفات ميزته وأكسبته تقدير "ليمان فون ساندرز" الذي كان يختلف معه أحيانا. وفي الواقع كان اسمه هو الأكثر بروزا بين أسماء الفرق الثَّلاثة التي تتبع لقائد الفيلق "أسعد باشا".

يقوم كل مجتمع بكتابة التَّاريخ، لكنَّ تاريخ بعض المجتمعات يؤثر على مسار المجتمعات الأخرى. وينطبق ذلك على معركة تشَناق قلعة البحرية والمعارك البرية التي أعقبتها والتي تُعتبر معارك ملحمية وخالدة في تاريخ العالم بقدر خلود النُّصب القائم لإحياء ذكراها. إذ كانت من الحوادث الكبيرة التي أثَّرت على مسار الحرب العالمية الأولى والتَّطورات التي حدثت بعد الحرب. وقد تعرض الأتراك الذين كانوا في حالة الدفاع لخسائر كبيرة، وشمل ذلك المثقفين الشَّباب في الثَّانويات المرموقة وكليات الطب والهندسة، والحرفيين المهرة في البلدات، والفلاحين الذين يزرعون ويحصدون أرض البلاد، وكانت خسائر لا يمكن تلافيها إلا بمرور 40 عاما.

اتخذ النَّاس في الأراضي المحررة من خلال الحرب التي خاضوها خطوة في طريق مجتمع المواطنة. والجنود الذين حاربوا في "تشَناق قلعة" ذهبوا إلى "غاليسيا"[36]، كما انتقلوا مثل قادتهم الشَّباب إلى جبهة الشَّرق وتدفقوا إلى فلسطين وسورية وبلاد الرافدين.

لقد كانت معارك غاليبولو وكوت العمارة في العامين 1915م و1916م من المعارك التي هزَّت الإمبراطورية البريطانية وأيقظت الرأي العام الإنكليزي من نوم الإمبراطورية، كما كانت سببا في سحب بريطانيا من أوروبا إلى الشَّرق الأوسط. أما نحن فحاربنا إلى جانب الطَّرف الخطأ، أو كنَّا بالأحرى داخل حربٍ ليست لنا، ولكن لم يكن بالإمكان تجنب الهزيمة وتقسيم الإمبراطورية، وخسرنا حينها بالتَّالي أناسنا ووطننا.

انتصار "تشَناق قلعة" وتراجع العدو الناجح

أُخليت "غاليبولو" من القوات البريطانية في التَّاسع من كانون الثاني/يناير عام 1916م. وكان هناك عددٌ قليلٌ من جنود دول التَّحالف في هذه القوات حيث إنَّ معظم تلك الدول كانت قد أخلت جنودها منذ زمنٍ. وهنا كانت بداية خلاف فرنسا مع بريطانيا، الخلاف الذي استمرَّ لما بعد الحرب وأدَّى إلى تصدعٍ كبيرٍ في الحرب العالمية الثَّانية.

عندما تمركز الأسطول في الثَّامن عشر من آذار/مارس في جانب "تشَناق قلعة" كانت القوات البحرية الفرنسية في المقدمة، وقد كبَّدت الدِّفاعات التُّركية في شبه جزيرة "غاليبولو" البحرية الفرنسية خسائر مفاجئة وغير متوقعة. ولاحقا قيَّم العديد من العسكريين والسياسيين هذه الحادثة كمثالٍ واضحٍ على موقف وسياسة بريطانيا الرَّامية إلى التَّضحية بفرنسا.

وفي الحقيقة تعود بداية معارك "تشَناق قلعة" البحرية التي انتصرنا فيه بحلول الثَّامن عشر من آذار/مارس إلى نهايات العام 1914م. لكنَّ احتدام الحرب كان مع هزيمة وتراجع المهاجمين بشكلٍ غير منتظر، إلى جانب ما جرى لأسطول الحلفاء. وكانت نهاية المعركة في التَّاسع من كانون الثاني/يناير عام 1916م. ولكن تمَّ التَّفكير بالإخلاء في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1915م، وقد جرى تنفيذ قرار الإخلاء في الحقيقة على مراحل، بعد القبول به نتيجة حالةٍ من اليأس في لندن، والجدل الذي حصل في البداية.

كانت الإمبراطورية الرومانية أفضل من نفذ انسحابا ناجحا لحملةٍ عسكريةٍ في التَّاريخ. وكان الإخلاء البريطاني آخر عرضٍ لامعٍ لسيطرة بريطانيا على البحار.

وبدون مبالغةٍ فقد تحوَّلت معارك "تشَناق قلعة"، التي استهدفت من خلالها بريطانيا العظمى إنهاء الحرب بسرعة، إلى كارثةٍ كبرى بعد التَّوقف نتيجة ما اعتبروه بأنفسهم "دفاعا شجاعا ومدارا

بشكل جيد".

فالإخلاء الذي امتد لنحو 5 أشهر كان انسحابا ناجحا، لأنّ أيَّ إخلاءٍ مماثلٍ كان يمكن أن يتحول لكارثةٍ. وقد جرى سحب القوات الباقية بصمتٍ وبشكل منتظمٍ. أما ما بقي من أسلحةٍ وذخائر فتمَّ تدميرها بحيث أصبحَت غير قابلةٍ للاستعمال، وغير قابلةٍ لتكون غنائم حربٍ.

ونوضِّح هنا أنَّ قوت جنودنا في "تشَناق قلعة" لم يكن كافيا بعكس ما اعتقده بعض مؤرخينا، ولو كان جنودنا نهمين، فإن الطَّعام المحروق والمسموم المتروك كان سيسبب الأذى ويؤدي لعواقب وخيمة.

احتفل جيشنا بالنَّصر في التَّاسع من كانون الثَّاني/يناير، ولكن لا يوجد بيانٌ واضحٌ في مذكرات قادتنا حول كيفية قيام جيش العدو بالإخلاء الذي استمر لأشهرٍ، وكيف أنَّه لم تتم ملاحظة هذا الإخلاء بالشَّكل الكافي. وتجب الإشارة إلى أنَّ الإنكليز أظهروا نجاحا في الانسحاب والإخلاء بعكس ما أظهروه في الهجوم ومعارك الساحل. وقد استطاع الإنكليز أن يقنعوا الرأي العام البريطاني بأسباب تطور وفشل معركة تشَناق قلعة والتي يطلق عليها في الأدبيات الإنكليزية "غاليبولو"، رغم أن تلك المعارك كانت وفق سياسي شهير مثل تشرشل سببا في بقائه لمدة عشرين عاما على ساحلٍ واحدٍ وانطفاء نجم قائد شهير مثل الجنرال هاميلتون. حيث تم التَّغاضي عن الإحباط الذي عاشوه بعد فترة.

ومما لا شكَّ فيه أن روسيا التي كانت تواجه الجوع والصِّراع بين الدولة والجيش على الحكم، إلى جانب التَّأثير المتزايد يوما بعد يوم للثُّوار البلاشفة، قد دخلت طرقا مسدودة. فاعتبارا من اليوم الذي أُخليت فيه تشَناق قلعة غرقت روسيا في حالة من اليأس والفوضى لم تعشها منذ عامٍ ونصف. وبعد 13 شهرا انتهى حكم سلالة "رومانوف"، وأَعلنَت حكومة "كيرينسكي" عن نظامٍ دستوري وتحضيرات للجمهورية.

وإذا ما عدنا إلى بداية العام 1916م نجد أنَّ الاضطرابات لم تنتهِ بعد مرور ثمانية أشهر على بدايتها، بل على العكس فقد ازدادت، وجرَّت روسيا مع قيام الثَّورة البلشفية إلى حربٍ أهليةٍ طويلةٍ.

أمَّا الشَّعب البريطاني فخاب ظنُّه بجيش وإدارة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشَّمس أكثر بعد انتصارنا في كوت العمارة، والذي احتفلنا بمرور مائة عامٍ عليه في نيسان/أبريل 1916م. وهكذا كان عام 1916م هو العام الحاسم الذي أدَّى في العام 1918م إلى السِّياسات غير العادلة لبريطانيا وفرنسا القاسيتين تجاه أعدائهما، والإبادة تجاه الأتراك، كما أدَّى إلى الخلاف بين البلدين.

لقد رأى السير "شارلز مونرو" خلَف الجنرال هاميلتون أنه أصبح من غير الممكن تقديم الدَّعم للجنود الذين ارتكزوا عند الشاطئ منذ شهر تشرين الأول/أكتوبر، وبالتَّالي أصبح إخلاؤهم أمرا لا مفرَّ منه. وفي شهر تشرين الثَّاني/نوفمبر ناقش وزير الحرب اللورد "كيتشنر" موضوع الانسحاب مع القادة في غاليبولو، والتي جاء إليها برحلة تفقدية، ولاحقا صدرت الأوامر الواضحة في نهاية ذلك الشَّهر.

خلال المراحل الأخيرة من المعركة رأى مصطفى كمال، الذي كان موجودا في إسطنبول آنذاك، بأنَّه من المناسب القيام بهجوم على غاليبولي، وصرَّح بأن عدم القيام بهذا الهجوم كان خطأً يتحمل مسؤوليته القائد ليمان فون ساندرز.

وقد استمرَّت هذه الحملة شهرا، أخلت أثناءه بريطانيا أكثر من خمسة وثلاثين ألف عسكري، وما يقارب أربعة آلاف دابةٍ ومدفعٍ وسيارةٍ وآليةٍ، وتمَّ قتل الحيوانات التي لم تؤخذ إلى السُّفن، كما دُمرت السَّيارات وأُلقي الرَّصاص في البحر، وكان ذلك تصرُّفا صائبا أثناء الإخلاء.

كانت معارك "تشَناق قلعة" مثالا مذهلا للبطولة في الشَّرق خلال المائة عام الأخيرة، وكانت موقعا حصينا ومثالا أصيلا للدفاع عن الوطن في تاريخ أوروبا إلى جانب تاريخ فرنسا وروسيا. كما كانت الحادثة التي دعمت وحصَّنت الهوية القومية والشُّعور بالوطن عند الأتراك، ولعبت دور الدافع للمعارك اللاحقة.

وأجزم أنَّه لا توجد ملاحم مثل تشَناق قلعة في تاريخ أيِّ شعبٍ، ونحن فقط لدينا صرحٌ كهذا، لا نظير له في الشرق. فقد أظهر انتصار تشَناق قلعة جيشا وقادة ومجتمعا قادرين على التَّحمل والمقاومة، ويمكنهم الانتظام بسهولةٍ والالتفاف بإصرارٍ حول هدفٍ معينٍ. ولقد كان الذين أسسوا الجمهورية من هذه الطِّينة.

في كانون الثاني/يناير عام 1916م كوفئ مصطفى كمال لنجاحاته العالية في قيادة مجموعة "أنافرتلار" بوسام الاستحقاق الذهبي. وانتقل بعدها إلى مقر قيادة الفيلق السَّادس عشر الموجود في "أدرنة". ومن المعروف أنه استُقبل بهتافات رائعةٍ عند وصوله إلى "أدرنة" لقيادة الفيلق السَّادس عشر. فمن الطبيعي أنَّ ابن سيلانيك الكبير والذي ذاع اسمه كقائدٍ في معارك تشَناق قلعة، كان شخصا سيُتقبل بحفاوة في أدرنة التي كانت في الفترة الأخيرة مقرا لسكان الإمبراطورية من الديار الرومية والذين عانوا من المحن.

مصطفى كمال باشا المعيَّن قائدا للجيش الثاني في زيارة لقائد جبهة الشَّرق أحمد عزت باشا الذي لم يكن قد أصبح «الصَّدر الأعظم» بعد، وإلى جانب أحمد عزت باشا إلى يسار مصطفى كمال باشا نرى خليل باشا الذي استلم كوت العمارة من الإنكليز،1917 م

في تلك الأثناء أصدر نائب القائد العام أنور باشا عندما كان ينظم الفيلق الموجود في أدرنة أوائل شهر آذار/مارس قرارا بنقل مقر الفيلق السَّادس عشر إلى ديار بكر. ومع هذه القرار وجد مصطفى كمال نفسه فجأة في جبهة الشَّرق، وقد كان ذلك التَّعيين في المرتبة الثّانية من حيث الأهمية في تاريخه العسكري. وبالفعل تحرك إلى ديار بكر مرورا بإسطبنول منتصف شهر آذار/مارس. وكان القائد حتى ذلك الحين قد حارب في سورية والبلقان ومقدونيا وطرابلس الغرب وأخيرا في تشَناق قلعة، لكن كانت تلك هي المرَّة الأولى التي سوف يقوم فيها بالقيادة في شرق الأناضول. وفي الحقيقة تشكِّل تجربته في شرق الأناضول أكثر صفحات تاريخه العسكري إشراقا. لأنه في الأوقات الصَّعبة من الحرب وفي وسط حالة الانكسار العامة استطاع أن يحقق نجاحاتٍ مهمة، كما تعرَّف

على السُّكان المحليين. ونلاحظ أنَّ بعض الأفكار والقوانين التي ساعدت في تأسيس الجمهورية التُّركية مستقبلا وجمعت غرب الأناضول بشرقها، قد ولدت هنا. وعلى الأقل يمكن رؤية تلك التأثيرات في تصريحاته وما قاله عن سكان الشَّرق خلال المؤتمر الصَّحفي في إزميت بعد نهاية حرب الاستقلال.

في نهاية شهر آذار/مارس جرى ترفيعه إلى ضابط برتبة لواء بعد تسلمه القيادة بفترةٍ قصيرةٍ، ثم أصبح "الجنرال" مصطفى كمال. كما انتقل مقر الفيلق السَّادس عشر من ديار بكر إلى "سيلفان" التي كانت مدينة مهمة وموقعا مثيرا للجدل. وبعد سيلفان أعطى الأمر لفيلقه بالانتقال إلى الهجوم في بداية آب/أغسطس من جهة "بتليس و"موش". وخلال فترةٍ قصيرةٍ تمَّ استرداد "موش" من أيدي الرُّوس. وبعد يومٍ واحدٍ أي في الثَّامن من آب/أغسطس دخل الفيلق "بتليس". وكان ذلك الانتصار على جبهة الشَّرق هو الأول والمنتظر منذ زمنٍ طويلٍ على تلك الجبهة، وأصبحت شهرة الجنرال الشَّاب مصطفى كمال باشا تلفت الانتباه فجأة. ونلاحظ أنه اكتسب هناك معرفة حول الإدارة العسكرية، والجيش الرُّوسي، وخاصة الجندي الرُّوسي الذي واجهه للمرة الأولى. وسوف تقدِّم تلك المعرفة العون في السِّياسة الخارجية مستقبلا.

وفي الثَّاني عشر من كانون الأول/ديسمبر جرى منحه وسام "مجيدي" من الدرجة الثَّانية، وذلك حدثٌ في غاية الأهمية.

وفي العام 1917م اهتزَّت روسيا بانتفاضةٍ جديدةٍ، ورغم أنَّ هذه الحادثة ولَّدت حركة من جانبنا أيضا، إلا أنَّه تمَّ الإعلان عنها كمجرَّد محاولة طامحٍ بالوصول لمقام القائد العام.

وكان يتم التَّجهيز للقيام بحملةٍ من قوات العثمانيين في الحجاز، ولكن لم يكن أحدٌ – باستثناء أنور باشا – يؤمن بنجاح هذه الحملة التي اعتبرت بمثابة لعب القمار. وكان الاعتقاد بأنَّه سيتم ردع قوات "أللنبي" التي تقدمت بعد أن اجتمعت ثانية. وقد دعم الألمان هذه المحاولة بالتأكيد، لأنَّه وبالرغم من كون الانتصار النِّهائي غير واردٍ، إلاَّ أنَّها كانت محاولة ستشغل وتنهك العدو الأكبر وتؤخر نجاحه.

وكان مصطفى كمال معارضا لتعيينه قائدا لهذه الخطة ولهذه الاستراتيجية. ويمكن القول هنا إنَّ "ليمان فون ساندرز" كان قائدا منطقيا ويعرف طريق العودة عن الخطأ، ورغم خلافاته مع

مصطفى كمال باشا في بعض المواضيع إلا أنَّه كان يعرف بالنِّهاية كيف يعالج ذلك التوتر. لكنَّ مصطفى كمال باشا واجه لأول مرة المشاكل التي واجهها القادة قبله في الشَّرق مع "فالكينهاين". إذ أصبح "فالكينهاين" مشيرا في الجيش العثماني وليس في الجيش الألماني. وكان قد شغل منصب رئيس هيئة أركان الجيش الألماني، وحين كان على رأس الجيش العاشر في رومانيا، تم تعيينه مع جيش الإمبراطورية التُّركية في بلاد ما بين النَّهرين. وهكذا بدأت المشاكل مع وصول "إيريك فون فالكينهاين" الذي لم تكن لديه الإمكانية للتَّعامل مع معظم القادة تقريبا.

في تلك الأثناء، عاد مصطفى كمال باشا كقائدٍ للجيش الثَّاني من الشَّام إلى ديار بكر، وبعد مرور وقتٍ قصيرٍ، تمَّ تعيينه على رأس الجيش السَّابع التَّابع لقيادة مجموعة "الصاعقة" وانتقل إلى فلسطين. ومن هناك انتقل في النهاية إلى حلب، حيث يقع مقر قيادة الجيش السَّابع في منطقة "العزيزية".

وخلال تلك الفترة أوضح مصطفى كمال باشا رأيه بخصوص جبهة سيناء إلى جمال باشا. ومن المعروف أن جمال باشا كان يتعامل في ذلك الوقت وخلال حرب الاستقلال مع مصطفى كمال باشا بحسن نيةٍ ويظهر له الإحترام، ويبدو هذا واضحا في الرَّسائل المتبادلة خلال حرب الاستقلال. ومن المحتمل أنَّ جمال باشا كان يأخذ نصائح مصطفى كمال بعين الاعتبار لكنه كان يواجه "فالكينهاين". وقد استمرَّ الخلاف والتَّوتر مع "فالكينهاين" إلى أن جرى استدعاؤه من جانب ألمانيا. ورغم أنَّ "ليمان فون ساندرز" حلَّ مكان "فالكينهاين" إلا أنَّ جبهة الشَّرق دخلت في وضعٍ لا عودة منه.

كان "ليمان فون ساندرز" بلا شكٍّ رجل الأركان الألمانية، وكان عسكريا ألمانيا يقوم بتشكيل تركيا والجيش التُّركي حسب منفعة ألمانيا وحسب الوضع العام. لكنَّه كان شخصا يكنُّ احتراما كبيرا للجنود الأتراك، ويمكن رؤية ذلك في مذكرات أتاتورك.

وفي تلك الأثناء شارك مصطفى كمال في رحلة ولي العهد "وحيد الدين" إلى ألمانيا والنّمسا كضابطٍ مرافقٍ. وخلال الرحلة تم تكريمه من قبل "كايزر" وفق البروتوكول بوسام "كوردون دو بروس" من الدرجة الأولى إلى جانب وسام "مجيدي" من الدرجة الأولى، في كانون الأول/ديسمبر عام 1917م.

وفي طريق العودة مر إلى فيينا وبقي هناك لفترةٍ، حيث يقال إنَّه عانى من التهابٍ صعبٍ في الكلى. فوجد في فيينا الإمكانية للاستفادة من ينابيع المياه السَّاخنة الشَّهيرة في "كارلسباد"، وللاستفادة من مطاعمها التي تعتمد نظام الحمية، في الوقت الذي لم يكن فيه "البنسلين" موجودا. وكانت هذه على الأغلب فترة العلاج الجدية الأخيرة لقائدنا، فحتى في فترة رئاسته للجمهورية لم يتلقَّ علاجا منتظما كهذا، ويمكن ملاحظة ذلك في برنامجه الذي لم يسمح له بأي فترات علاج.

ليمان فون ساندرز يسلم قيادة مجموعة جيوش «الصاعقة» لمصطفى كمال باشا، 31 تشرين الأول/أكتوبر1918 م

كان مصطفى كمال بطبعه من المرضى الذين لا يركنون إلى فترات العلاج والمعاينة، رغم احترامه للأطباء. وبالنظر إلى ظروف تلك الفترة فإنَّ حياته لم تمتد طويلا، بل يمكن القول بأنَّ الأمراض التي عانى منها لم يتمَّ أصلا تشخيصها بصورةٍ كاملةٍ. وهذا الموضوع يلزمه بحثٌ منفصلٌ بسبب التَّضارب في الأدبيات التي تفتقد الجدية.

في العام 1918م جرى تعيينه قائدا للجيش السَّابع، وهنا يبرز الحدث الأهم فيما يتعلق بمنطقة فلسطين، وهو قيامه بنقل الجيش إلى شرق نهر الأردن كاستراتيجيةٍ لإنقاذه من الدَّمار الكبير

بعد أن اشتدَّ الهجوم الإنكليزي.

ساهمت الرؤية الناجحة التي يملكها كضابطٍ في تسميته ضابطا فخريا للسُّلطان، وفي تلك الأثناء كان السُّلطان هو "وحيد الدين"، وكانت الحرب في سنتها الأخيرة.

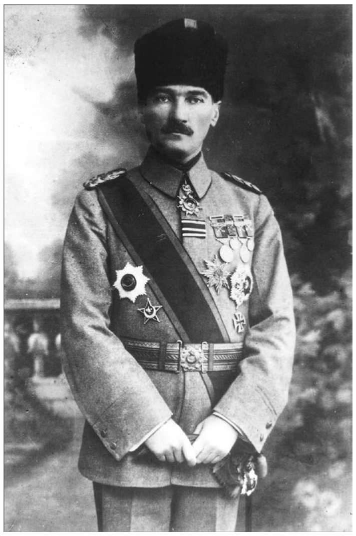

قائد الجيش والضابط المرافق للسُّلطان، مصطفى كمال باشا، 1918م

دخل الإنكليز بشكل وحشيٍّ إلى حلب في تشرين الأول/أكتوبر. وقتلوا الجنود والضُّباط في المشافي، بالتَّوازي مع قتل بعض العناصر المحلية. لكنَّ مصطفى كمال باشا ثبَّت خطا على شمال حلب واستطاع البقاء هناك حتى يوم إعلان وقف إطلاق النار، وهكذا نجح في الحفاظ على الخط شمال حلب تحت سيطرة الجيش التُّركي أثناء وقف إطلاق النار. وتمَّ بالطبع وضع ذلك في الاعتبار بشكلٍ واضحٍ خلال اتفاقية "موندروس". ومع إعلان وقف إطلاق النَّار في "موندروس" سلَّم "ليمان فون ساندرز" قيادة مجموعة جيوش الصَّاعقة لمصطفى كمال باشا.

لقد تعلَّم في حياة الحرب تلك، إلى جانب التَّجربة العسكرية، الكثير حول السِّياسة العربية، ومن الواضح أنَّ ما تعلَّمه لم يكن رتيبا كما هو حال ما يتعلمه المثقفون الأتراك اليوم. إذ استوعب ذلك المجتمع المتنوع، وظهر أثر هذا لاحقا في سياسته. فبعد وقف إطلاق النار، تحرك من أضنة إلى إسطنبول بأمرٍ من وزارة الحربية، وعند نهاية تلك الرِّحلة في منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، قال مقولته الشَّهيرة حين كان يركب القارب قرب محطة حيدر باشا للقطارات. وهي مقولةٌ لم تكن عشوائية، بل سوف تكون أساسا في استراتيجيته خلال الحرب القريبة. "سوف يذهبون مثلما جاؤوا".

ومن المؤكد أنَّ هذه المقولة ليست أُمنيةَ، بل قيلت بالتَّرافق مع خطةٍ واضحةٍ وتقييمٍ وبصيرةٍ استراتيجيةٍ.

كانت حرب "تشَناق قلعة" حربا أممية، وحتى اليونان التي لم تكن قد دخلت الحرب بعد، وقفت إلى جانب بريطانيا ببعض قواتها. ولم يكن قائد الجيش السَّادس في العراق "غولتز باشا" على وفاق مع الضُّباط الأتراك الذين كانوا تحت أمره وعلى رأسهم العقيد نورالدين بيك، لدرجة وجود ادعاءات في التَّاريخ الغربي تشير إلى أنه سُمم من قبل هؤلاء الضُّباط. ومع ذلك ليس هناك خيار سوى تصديق التقرير الذي ينصُّ على أن "فون دير غولتز" قد توفيَّ بمرض التيفوس.

لقد عمل "كولمار فون دير غولتز" كمستشارٍ في الجيش العثماني لسنوات طويلةٍ، فتعلَّم اللغة، وكانت معرفته موضع تقديرٍ. وكان له دورٌ مهمٌّ في تجارة السِّلاح مع ألمانيا، كما لم يتردد في التَّدخل بالسياسة الداخلية. أما العقيد نورالدين، والذي عُرف لاحقا باسم نور الدين باشا ذي اللحية، فقد كان في موقع القيادة أثناء معركة "كوت العمارة" ولم يكن في صف الأركان، لكنه كان ضابطا ذا معرفةٍ واسعةٍ في التَّاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية. وإن كانت مواقفه السياسية لم تحظَ بالموافقة الدائمة من قبل مصطفى كمال باشا وعصمت باشا أثناء حرب الاستقلال، إلاَّ أنَّ معرفته العسكرية ومقاومته جعلته لا غنى عنه أمام القائد العام لحرب الاستقلال. وتولَّى العقيد ركن خليل منصب نائب القائد، وكان عم أنور باشا الأصغر منه عمرا. وتميَّزت علاقة القائدَين بالتوافق الجيد، فرغم محاولات "غولتز" تحريض خليل ضد نور الدين إلاَّ أنَّه لم يجد آذانا صاغية. وبعد وفاة "غولتز باشا" بالتيفوس في بغداد – قبره موجود في الحديقة الصيفية لسفارة ألمانيا بطاربيا – تولَّى خليل باشا قيادة الجيش السَّادس، ومع ذلك فقد طورَّ العقيد نورالدين بك الخطَّة الرَّئيسية للحملة.

ويجب التأكيد على أنَّ العرب في الإمبراطورية العثمانية لم يكونوا جميعا مثل قبيلة الشَّريف حسين الذي تحالف مع لورنس العرب. فالإمام يحيى اتفق مع عزت باشا وعصمت إينونو بعد أن تمرد لفترةٍ طويلةٍ، وبقي العثمانيون أوفياء لهذه الاتفاقية، وحتى الشَّعب لم يتمرَّد أيضا كما تمرَّد فيصل وأبناؤه. والإمام يحيى لم يأتِ بالوراثة كما كان سائدا في اليمن، بل جاء مثل أبيه بالانتخاب. ونورد هنا قول عصمت باشا: "هذا هو فضل الانتخاب".

وفي الواقع تعود مبادئ الديمقراطية إلى اليونان القديمة، وحتى النَّمط الذي ظهر في أوروبا الصِّناعية فإنَّه يحمل في جذوره الإنسانية حقيقة قبلية. وقد برزت في بعض الحالات ديمقراطيةٌ قبليةٌ في شبه الجزيرة العربية وإفريقيا.

وبالعودة إلى موضوع كوت العمارة فإنَّ سكان الكوت لم يكونوا يحبون الإنكليز، وتحركوا مثل ذراعٍ خامسةٍ لجيشنا الذي استمر في الحصار بإصرارٍ. وقد يبدو الانتصار على أنَّه مصادفةٌ مثيرةٌ للجدل، لكنَّه ظهر كاستراتيجيةٍ ضروريةٍ في واحدةٍ من أهم مراحل الَّتاريخ البشريِّ.

في كانون الأول/ديسمبر عام 1915م كان الجنرال الإنكليزي داخل كوت العمارة. وكان لديه نقصٌ في المؤونة، أما من ناحية السِّلاح وعدد الجنود والخدمات الطبية فقد كان متفوقا على الجيش التُّركي. وكان الوضع العام ضد بريطانيا مع مقاومة المحاصرين وعناد قادتهم. وقد تمَّت حملةٌ بهدف كسر الحصار وكان هناك احتمالٌ لنجاحها لكنها فشلت. فاستسلمت القوات البريطانية في التَّاسع والعشرين من نيسان/أبريل. وتعامل خليل باشا مع القادة المستسلمين بنبلٍ، حتى أنَّه فكر أنَّ السَّير نحو الشمال سيكن متعبا ومحبطا لأسرى الحرب، لذلك عرض نقلهم بالسفن النَّهرية في حال قدَّمت القواعد البريطانية القريبة الوقود. لكنَّ رفض المقر البريطاني لهذا العرض تسبب في وصول الأسرى إلى مكان الاعتقال بعد مسيرة طويلةٍ وشاقةٍ.

أدَّى انتصار كوت العمارة إلى ردة فعلٍ شديدةٍ في الرأي العام الإنكليزي. إذ لم يسبق لبريطانيا خلال قرنين، وحتى في الحروب مع نابليون، أن خاضت في أي مكانٍ معارك طويلة ومحبطة كتلك التي عاشتها في الحرب العالمية الأولى. وكانت القوة العدوة الرئيسية التي اصطدمت معها هي جيوش الإمبراطورية التُّركية. وسوف تظهر آثار الغضب الذي نتج عن ذلك في دوائر الإدارة البريطانية خلال التوقيع على اتفاقية وقف اطلاق النار في "موندروس" وما أعقبها. ففي نهاية نيسان/أبريل عام 1916م كان الشَّعب البريطاني والسياسيون الإنكليز محبطين من الجيش، وبدأت تهب رياح النَّقد التي تنتقص منه. ونذكِّر هنا بأنَّ انتصار كوت العمارة كان بعد معركة تشَناق قلعة، الانتصار الذي جعل الإمبراطورية البريطانية في وضعٍ صعبٍ، وولد الاضطراب في سياساتها، وهزَّ فكرة عدم هزيمة الإمبراطورية، كما أدخل الشَّك في الرأي العام البريطاني حول سلطة بريطانيا في العالم، بل إنِّه كان الانتصار الذي جرَّ الرأي العام البريطاني إلى الفوضى. لكن وكما وسنبين لاحقا فقد كان لهذا الانتصار أيضا موقعٌ مهمٌ في الاتفاقيات الموقَّعة بعد الحرب العالمية الأولى.

موندروس وسيفر

كان حكم الإعدام الأول لتركيا تحت اسم "موندروس" الذي كان اتفاقا لوقف إطلاق النار. وهو اسم ميناء جزيرة "ليمني" التي تمَّ ضمها مع جزر الشَّمال الأخرى مثل "تاشوز" و"ميدللي" و"أيري بوز" إلى الإمبراطورية العثمانية في عهد السُّلطان محمَّد الفاتح. وكان تمثال "نايك" الموجود في جزيرة "ساموثراكي – سيماديرك" قبل أن يُسرق ويُنقل إلى متحف اللوفر، رمزا للنصر. لكنَّ الكارثة الحقيقة كانت اتفاقية "سيفر" ذات الشُّروط الثَّقيلة تحت عنوان اتفاقية السَّلام. إذ كان الرأي السَّائد ضد الأتراك هو أنَّه: "لا يوجد لكم مكانٌ في أوروبا، والجميع سيأخذ منكم ما يريد في الأناضول. وإذا ما دخلتم إلى طرفٍ في هضبة الأناضول الجافة وحصلتم على الحق في العيش بإسطنبول، فهذه نعمةٌ لكم". لكنَّ الجيش البريطاني المنهك لم يكن في وضع يمكِّنه من احتلال الأناضول.

قائد جيوش الصَّاعقة مصطفى كمال باشا مع ضباطه المرافقين: صالح بوزوك إلى اليسار، شكرو تزر في الوسط، جواد عباس غورر إلى اليمين، 1918م

لقد دعم الإنكليز "الادعاء العظيم" لرئيس الوزراء اليوناني آنذاك "أليفتيريوس فينيزيلوس" تحت شعار "المال من عندنا والنَّفس من عندكم" (أي المقاتلين والجنود).

وخلال الاتفاقيات التي عقدت قرب باريس – باستثناء الاتفاقية التي عقدت في مصنع سيفر للبورسلان – كان الجنرال اليوناني "ميتاكساس" الأكثر شعبية وأكثر من شغل اهتماما في الصَّحافة. وكان يقول: "تكفينا يونان صغيرةٌ ومشرفةٌ، وليس لدينا شيء نفعله في آسيا الصغرى". وقد اتُّهم "ميتاكساس" بالفاشية لاحقا، رغم معارفه الواسعة ورغم أنَّه كان ربما أعقل القادة اليونان في تلك الفترة. وقد أظهر الوقت صحة مقولة ميتاكساس الذَّكية.

لقد كانت اليونان غارقة في ثمالة النَّصر وحلم الإمبراطورية، وفي هذه الفوضى لم يكن أحد يريد أن يسمع، أما "ميتاكساس" فكان على حق، لأنَّه كان يعرف الجيش المقابل، وأدرك أن هذا الجيش لن يسمح بحدوث أمورٍ معينةٍ حتى لو كان في حالة هزيمةٍ وفي وضعٍ يُرثى له. وقد عارض بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ تقدم الجيش اليوناني إلى الداخل بعد احتلاله لإزمير. هكذا بدأت المغامرة اليونانية في آسيا الصغرى قبل أن تتحول إلى كارثة، وبعد الهزيمة سيتم عقاب المسؤولين عن تلك الكارثة وخاصة القادة العسكريين.

السلطان وحيد الدين

كان السُّلطان محمد الخامس[37] (محمد رشاد) يتبوأ مقام السُّلطان خلال معظم الحرب العالمية الأولى، ومع أنَّ الحرب لم تدم طويلاً في عهد السُّلطان محمد السادس[38] (وحيد الدين) حيث أنَّه استلم الحكم في نهاية الحرب إلاَّ أنَّه كان كبش الفداء وتعرض للهجوم بشكلٍ فاق الحدود، وإلى جانب المبالغة في توصيف أخطائه نُسبت إليه أشياء لم يفعلها. فمثلا، لم يكن وحيد الدين مثل السُّلطان رشاد (محمد الخامس) الذي حاول التَّدخل بشؤون الدَّولة (مع أنَّ تلك المحاولات لم تكن خارج نطاق الصَّلاحيات الدستورية التي نصَّ عليها "القانون الأساسي").

كان لدى وحيد الدين العديد من الأخطاء، حيث لم يكن إصراره على تعيين شخصٍ مثل "الصِّهر فريد" في موقع الصَّدر الأعظم صائبا. ويقال إنَّه كان يمكن أن يعين مصطفى كمال باشا وزيرا للحربية، وهناك بعض الروايات التي تقول إنَّ مصطفى كمال باشا هو الذي قدم مثل ذلك

العرض، لكنَّ وحيد الدين لم يمتلك الجرأة اللازمة لمثل تلك الحركة (أي تنصيب مصطفى كمال وزيرا للحربية).

وفي الحقيقة لم يكن "الصِّهر فريد" لصا أو شخصا فاسدا، ولكن الخطأ الكامن وراء تعيينه كان وضوح عدم امتلاكه للمهارة، إلى جانب شعور العظمة لديه وكونه شخصا حالما. فالعيب بحد ذاته هو أن ينسج شخص في موقع الصدر الأعظم الأحلام خلال الأعوام 1918 و1919 و1920م. وعلاوة على ذلك فقد كان من المعجبين بالإنكليز، واعتقَد نفسه دبلوماسيا جيدا وسوف ينتصر من خلال إقناع بريطانيا وفرنسا في نفس الوقت.

كما أنَّ عداءه للأناضول، ومعارضته العمياء للاتحاديين، أجبراه على اتباع سياسةٍ كادت تخلق البيئة المناسبة للحرب الأهلية خلال فترة وقف إطلاق النار.

حكم الإعدام لدولةٍ وشعبٍ: معاهدة سيفر

كان حقد الإنكليز الذين علقوا في الحرب لأربع سنوات، تجاه الإمبراطورية التُّركية أمرا واقعا. حتى أنَّ الفرنسي "كليمنصو" صرَّح بذلك، بالإضافة إلى ما قاله "لويد جورج".

وكان من المفترض أنَّ يقوم الوفد العثماني الذي ذهب إلى "سيفر" بالتَّفاوض مع الإنكليز والاتفاق معهم، فظهر "الصِّهر فريد" أمامهم بأسلوبه المتملق قائلا: "نحن أتراكٌ عقلاء، ولسنا من هؤلاء الأتراك الشَّباب"، ولكنَّ "كليمنصو" وكما ذكرنا سابقا استبعدهم بموقفٍ مبدئيٍّ.

وفي الواقع كان رفض اتفاقية "سيفر" علامة فارقة لحركة الأناضول، وحتى إذا افترضنا أنَّ حركة الأناضول تلك لم تنجح، فإنَّ الوقوف في وجه الاتفاقية كان سيكون تصرفا مشرفا في التَّاريخ التُّركي. بالإضافة إلى أنَّنا قاومنا دائما في تلك الظروف، في حين لا توجد دولة قاومت إملاءات الدول المنتصرة.

والسُّؤال: "ماذا كان سيحدث لو قبلنا معاهدة سيفر"؟ كانت أجزاء معينةٌ من تركيا ستعطى لاحقا، بينما لم تكن بعض الأجزاء لتعطى نهائيا، مثلا لم تكن منطقة "إيجة" إلى جانب إسطنبول لتعطى أبدا. ومثلما لم تترك إنكلترا جبل طارق ومالطا، فإنها كانت سوف تستوطن إسطنبول كذلك أيضا، ولم تكن لتعطي إسطنبول والمضائق لروسيا أبدا، بل كانت ستلهيهم بشراكةٍ زائفةٍ ثم تؤسس لاحقا لسيطرتها النِّهائية من خلال حفاظها على النِّظام نفسه في قواعدها الجنوبية بصورةٍ تماثل

القوة التي في الشَّمال. وكان الأتراك سيرون هذه المنطقة بحسرةٍ وحزنٍ كسائحين فقط. في ذلك الوقت لم تكن هناك غالبية تركية في إسطنبول.

كان معظم الأتراك في إسطنبول عامي 1914م و1915م من القادمين من هزيمة البلقان، وكانوا لا يزالون تحت تأثير تلك الهزيمة. أما سكان المدينة من غير المسلمين فكانوا مستقرين وفي وضعٍ جيدٍ. ولكن مصطفى كمال باشا كان قد قال عن الأجانب: "سيذهبون مثلما جاؤوا"، ولم تكن هذه المقولة عبارة عن نسج خيال، لأنَّ أيَّ شخصٍ يفكر مثلما يفكر قائد الأركان سيفهم أن الأجانب القادمون ذاهبون لامحالة. وكان يقول أيضا: "هؤلاء متعبون، فإذا اجتهدتم قليلا وعقلتم ولم تستسلموا فسيذهبون"، وقد ذهبوا.

الإمبراطورية العثمانية خلال وقف إطلاق النار

كان انسحاب الدَّولة العثمانية من الحرب العالمية يعني الإفلاس التَّام للأتراك الشَّباب. وبعد توقيع وقف إطلاق النَّار في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر 1918م، تم انتقاد أخطاء حكومة طلعت باشا بشكلٍ صريحٍ في مؤتمر الاتحاد والتَّرقي الاستثنائي المنعقد في إسطنبول. حيث تم في المؤتمر الحديث عن جر "أنور" لتركيا إلى حربٍ عالميةٍ، وخرجت أصواتٌ تقول: "لقد هُزمت سياستنا، لذلك لا يمكننا بأي شكلٍ البقاء في الحكم".

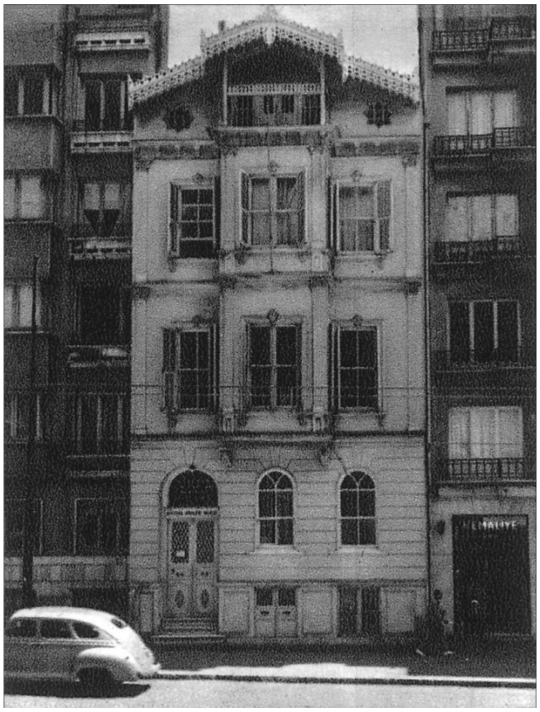

عقد مصطفى كمال في بيته الواضح بالصُّورة في منطقة" شيشلي"
اجتماعاتٍ مع أصدقائه، وقد خرج من هذا البيت بتاريخ 16 أيار/مايو عام1919 م لإنقاذ الوطن

وجاء أعضاء حزب "الحرية والوفاق" الذين كانوا موجودين في الخارج ليحتلوا مكان الأتراك الشَّباب، وكان هذا الحزب عبارة عن مجموعةٍ من السِّياسيين الذين لا مبادئ لهم والدَّاعمين بشكلٍ أعمى وواضحٍ للإنكليز.

يصور مصطفى كمال السُّلطان "وحيدالدين" في مذكراته وفي كتاب "النُّطق" (كتابٌ يشبه المذكرات لمصطفى كمال، فيه مقولاته وخطاباته) على أنَّه شخصٌ عديم الإرادة ومخدرٌ، إلى جانب حبه لإدارة المؤامرات المخادعة بعينه نصف المغلقة دائما. ويبدو أنَّ الإثنين أي وحيد الدين ومصطفى كمال اللذين كان بينهما علاقة صداقة (كان مصطفى كمال هو الضَّابط المرافق لوحيد الدين أثناء رحلته إلى ألمانيا والنّمسا حين كان أميرا ووليا للعهد) قد انتهجا سياساتٍ متعارضة في نهاية الحرب. ومع الأسف لم يتخل السُّلطان وحيدالدين عن موقفه هذا حتى بعد انتصار "صقاريا" ولم يظهر بصيرة الثِّقة والتَّقارب بالقدر الذي أظهره "توفيق باشا" تجاه حكومة "مجلس الشَّعب التُّركي الكبير" في الأناضول.

كان السُّلطان واقعا تحت تأثير صهره "فريد باشا" الذي كان رئيس حزب الحرية والوفاق، وفي نفس الوقت زوج السُّلطانة "مديحة" شقيقة السُّلطان. وقد نضج "فريد باشا" في أوكسفورد وكان يدعم الانتداب البريطاني. ولم يكن "فريد باشا" المعجب ببريطانيا يتردد في القول بأنَّ سيئات بريطانيا قليلةٌ مقارنة بالآخرين، رغم إقراره بعيوبها.

وبعد الحكومات ذات العمر القصير عقب الحرب نجح الإنكليز بتعيين "فريد باشا" في منصب رئيس الوزراء في آذار/مارس عام 1919م من خلال التَّرتيبات التي خططوا لها باحترافٍ. وكان "الصِّهر فريد" ينوي تطبيق برنامج الانتداب الإنكليزي بإسناد وزارة الحربية لـ "سليمان شفيق" ووزارة الدَّاخلية لـ "عادل بك".

وقد أسس هذا الثلاثي "جمعية محبي الإنكليز" بهدف تشتيت الرأي العام، وعينوا على رأس هذه الجمعية: "علي كمال" المشهور والرَّاهب "فرو" والخطيب المعروف "سعيد ملا". وبفضل هذا

التَّنظيم وبمساعدة "الصِّهر فريد" تمكن الإنكليز من السَّيطرة على أكثر أجهزة الدِّعاية والتَّرويج فعالية في إسطنبول. وإلى جانب الدِّعاية للإنكليز بدأت حملةٌ عنيفةٌ ضد فرنسا.

وانتسب إلى الجمعية المذكورة العديد من السِّياسيين المشهورين والرجال المعروفين من أمثال مصطفى صبري الذي وصل لمرتبة شيخ الإسلام، والضابط صادق بك الذي كان عميلا للإنكليز في مصر خلال الحرب العالمية.

وإلى جانب الحملات التي أداروها في الصحف قام هؤلاء الأشخاص بأمرٍ من إنكلترا بفعالياتٍ لتطبيق الانتداب، فشجعوا قتل المسيحيين لتشويه سمعة القوميين (في أدا بازار 1919م وفي قونيا 1920م) وأشعلوا الحرائق وقتلوا الحراس. وبعد ذلك نشروا كتابات في الإعلام تتحدث عن حاجة تركيا لوصايةٍ وتدخُّل قوةٍ أجنبيةٍ.

وقد كشفت محاكمة الجاسوس الإنكليزي "مصطفى صاغر" في أنقرة عن مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال وقادة الحركة الوطنية، يقودها الضابطان المكلفان بإدارة المخبرين لصالح بريطانيا العميلان "العقيد نيلسون" و"النقيب بينيت" إلى جانب أعضاء الفريق.

وفي جلسات "الأربعة الكبار" كان الإنكليز يحثون حلفائهم على الاستيلاء على كليكيا وأنطاليا والمناطق الأخرى فورا. كما رتبوا الأمور لإعطاء إزمير إلى اليونانيين، وأجبروهم على هذه الخطوة. وفي نفس الوقت أظهروا الفرنسيين والإيطاليين في الإعلام التُّركي والإنكليزي على أنهم يسعون لتدمير الإمبراطورية التُّركية وتقسيمها.

وفي الوقت الذي كانت المناطق في إقليم الأناضول تُخصص للدول الأجنبية كي تستولي عليها، كان الإنكليز يستولون على مناطق في الأناضول، وعلى وجه الخصوص المناطق القريبة من سكة حديد بغداد، وما حول إسطنبول، والقسم الذي يتضمن سكة الحديد بين إزميت وإسكي شهير.

وكان الاعتراض الذي أبداه "اللورد كروز" ومسلمو الهند على طغيان اليونانيين الذين استولوا على إزمير مثيرا للدهشة. كما بدأ الإعلام التُّركي بالصراخ فورا طلبا للحماية الإنكليزية، وكانت يتم تداول البيانات التي تنشرها "جمعية محبي الإنكليز" من يدٍ لأخرى. وساد الاعتقاد بأنَّ الهدف الإنكليزي سيتحقق خلال وقتٍ قصيرٍ.

وفي أيلول/سبتمبر من العام 1919م وقعت إنكلترا معاهدة سرية مع السُّلطان تعطيها حق الانتداب على تركيا، وتؤمن لها مباركة الخليفة الرُّوحية والمعنوية لسياساتها المتبعة في البلاد الواقعة تحت سيطرتها. ولكنَّ صعود حركة النِّضال الوطني بسرعةٍ أفسد مخطط انتداب إنكلترا على تركيا من أساسه.

وفي آذار عام 1919م أدت الثَّورة العظيمة التي قامت في مصر إلى سحب آلاف الجنود الإنكليز الذين تم نقلهم إلى سوريا. وأجبرت هذه الحادثة الإنكليز على التخلي عن مخططهم السَّابق للاستيلاء على كامل سوريا، بعد أن تركوا قسما منها لفرنسا حسب الاتفاقية الموقعة بين "لويد جورج" و"كليمنصو" في تشرين الأول/أكتوبر عام 1919م.

وبدأ المسلمون الذين كانوا موالين لبريطانيا حتى ذلك الوقت يحتجون بشكلٍ عفويٍّ على سياسة بريطانيا تحت عنوان حماية الخلافة.

ونتيجة الحوادث التي ظهرت في مصر والعراق والهند ولأسبابٍ أخرى أُجبرت الإمبريالية البريطانية، بعد استعمالها للقوة المفرطة، على تضييق مساحة سيطرتها في الشَّرق الأوسط والشَّرق الأدنى. حتى أخلى الإنكليز في نهاية العام 1919م فجأة وبشكلٍ كاملٍ تقريبا جنوب القفقاس ومحيط بحر قزوين، مع أنَّهم اضطروا لاستخدام جهدٍ عسكريٍّ وسياسيٍّ كبيرٍ لمدة عامٍ ونصف قبل ذلك لاحتلال تلك المنطقة.

وقد عرض "لويد جورج" في أيار/مايو عام 1919م خلال جلسة "الأربعة الكبار" مخططا تُعطى بموجبه إزمير لليونان وإسطنبول وأرمينيا للولايات المتحدة الأمريكية وجنوب القفقاس لإنكلترا. ولكنَّ رفض أمريكا للقسم المعروض عليها واعتراض فرنسا الصَّريح على المخطط أفسد رغبة إنكلترا في الانتداب على جنوب القفقاس. وفي النهاية أجبرت القوات الإنكليزية على إخلاء تلك المنطقة.

وهكذا أدَّت رعاية إنكلترا للسياسات المغامِرة إلى فشلها، وظهرت هذه السِّياسة الخاطئة والمغامِرة بوضوح في "مشكلة اليونان".

وكما ذكرنا سابقا فإنَّ نهاية الحرب كانت تعني إفلاس البرنامج الإمبريالي الإيطالي، حيث كانت طلبات إيطاليا في البحر الأدرياتيكي المتمثلة بالسَّيطرة على كامل "دالماسيا" و"فيوم"

و"إستيريا" هي سبب الجدال الرئيسي في مؤتمر السَّلام. وعلاوة على ذلك فقد احتلت إيطاليا تلك المناطق دون أن تسأل أحدا، لكنَّها لم تستطع إقناع الآخرين وعلى رأسهم حلفاءها بأنَّ الأمر وقع وانتهى.

كما ظهرت خلافاتٌ مشابهةٌ بين إيطاليا وحلفائها إثر طلباتها في آسيا الصغرى. وكانت يوغسلافيا الخصم الرئيسي لإيطاليا في البحر الأدرياتيكي، بينما كان خصمها في بحر إيجة هي اليونان بقيادة "فينيزيلوس"، والتي سيطرت على إزمير و"تراكيا الشرقية" في سعيها لتأسيس اليونان الكبرى. وكانت فرنسا وإنكلترا تدعمان اليونان في نفس الوقت. لأنَّ فرنسا كانت على قناعةٍ بأنها ستقوي تأثيرها على كامل الشريط القريب من خلال انتقالها لدولةٍ ذات سيادةٍ بالقمع العسكري، ومن خلال توسيع اليونان.

وكان من اللافت للانتباه عودة نزعة "التَّوسع الفرنسي" إلى الحياة في فرنسا كما كانت عليه قبل مائة عامٍ.

وقد نجح "فينيزيلوس الكبير من غريت" في أن يصبح بطلا أمام فرنسا، بتنفيذه لجميع طلبات القيادة الفرنسية حرفيا، فنجح من خلال دعمها في تنفيذ انقلابٍ، وفي إدخال اليونان إلى الحرب العالمية في صفوف الحلفاء، كما أسس لحكمه الدكتاتوري بالعنف والقوة.

وفي ظل هذا الوضع خططت إنكلترا لاحتلال إزمير ودفعت اليونان لذلك، حيث تم رسميا الاستناد إلى المادة السَّابعة في معاهدة "موندروس" لوقف إطلاق النار، والذَّريعة هي أن الاضطرابات الجارية هناك تهدد حياة المسيحيين. ومن حق الحلفاء وفقا للمادة السَّابعة احتلال بعض المناطق لتوفير الأمن والسَّلام، ولكن من نافلة القول بأنَّ هذه الذَّريعة مبالغٌ فيها. حيث كانت الحياة تسير بوئامٍ بين الجماعات المختلفة في منطقة "إيجة" بعد الحرب، كما كان تسير من قبل، ولم يُفسد هذا الوئام سوى الاحتلال. ورغم ذلك فإنَّ التَّقرير الذي كتبته لجنةٌ أرسلها الحلفاء في 12 تشرين الأول/أكتوبر عام 1919م، للتحقيق بجميع المواضيع المتعلقة باحتلال إزمير، ذكر ما يلي: "أظهرت نتيجة البحث أن وضع المسيحيين في ولاية آيدن بعد وقف إطلاق النار بشكلٍ عام مطمئنٌ، ولم نصادف ما يهدد أمنهم". ومن هنا جاء القول: "لا شك أن هذا الاحتلال تم دون شرعيةٍ، وخرَق بنود معاهدة وقف إطلاق النار بين تركيا والدول الكبرى".

4

قائد الاستقلال الوطني

ما قبل النضال الوطني

يجب التوقف هنا عند مسألة مهمةٍ وهي كيفية الانتقال إلى النِّضال الوطني، فعلى العكس من الأتراك الشَّباب، استفاد الجنرال الشَّاب مصطفى كمال باشا من الوضع، وهو الذي أقام علاقاتٍ في مختلف المجالات مع موقع السَّلطنة يومها، وعرف كيف يبني صداقة حميمة مع السُّلطان الأخير منذ كان وليا للعهد. كما يُفهم من طلبه منصب وزارة الحرب في مجلس وزراء الهدنة الذي تم تأسيسه في إسطنبول أنه كان يطمح إلى هدفٍ سياسيٍّ فعالٍ، وحين رُفِض طلبه هذا سلك طرقا أخرى. حيث يمكن القول بأنَّ خطته الأولى كانت تَقلدَّه منصب وزير الحربية بصلاحياتٍ واسعةٍ إلى جانب السُّلطان محمد وحيد الدين السَّادس.

كان الجيش والشَّعب منهكين، إلاَّ أنَّ مصطفى كمال ومَن حوله قرروا البدء بالنِّضال في الأناضول، إذ لم يكن ممكنا اتخاذ إسطنبول مركزا للنِّضال. ففي عام 1918، عام الهدنة الحزينة، تم تأسيس جمعية الدِّفاع عن الحقوق في كل من تراكيا وإزمير، وانتفض الشَّعب للمقاومة في كل مكان. إلا أن هذه المقاومة لم تشهد تنسيقا ولا قيادة عليا، فهذه القيادة لا يمكن أن يتولاها إلاَّ قائدٌ له ماضٍ من الانتصارات العسكرية والانطباعات الإيجابية. ويبدو أن اطلاع أتاتورك على النِّظام العام في الأناضول قد لعب دورا هاما هنا، فمن المعلوم أن حضوره إلى سامسون، وتعميم أماسيا[39]، ومؤتمراته في كل من أرضروم وسواس، كان له تأثير في توجيه حركة النِّضال الوطني لاحقا.

تم تأسيس مجلس الأمة الكبير، واختيار أنقرة موقعا له نظرا للظروف السَّلبية السَّائدة في إسطنبول، باعتباره حكومة منفصلة بدون رئيس، قادرة على إنقاذ حقوق منصب السَّلطنة بشكلٍ مباشرٍ. وكان هذا هو شكل التَّصور الأولي والمشهد الذي تم إعلانه رسميا ونشره واعتماده من قبل

مصطفى كمال والمجموعة الضَّيقة المقربة منه في البداية، وقد تغيرت التَّصورات وكذلك الأمور التي تم اعتمادها فيما بعد.

وشكلت فترة الأربعة عشر شهرا الفاصلة بين تاريخ 30 تشرين الأول/أكتوبر عام 1918م حيث أنهت معاهدة موندروس الحرب العالمية الأولى بالنسبة للدولة العثمانية، وتاريخ 27 كانون الأول/ديسمبر عام 1919م حيث وصل أتاتورك إلى أنقرة لتأسيس مجلس الأمة التُّركي الكبير، تحولا ذا أهميةٍ كبيرةٍ في تاريخ تركيا. وينبغي البحث الدقيق في هذه المرحلة التي أدت إلى تأسيس مجلس الأمة التُّركي الكبير في 23 نيسان/أبريل 1920م.

لقد انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الدول المنتصرة نصرا زائفا لا طعم له بعد الدَّمار الشَّامل وملايين الضَّحايا من البشر، وغرقت دول التحالف التي خرجت منهكة من الحرب في مشاكلها الدَّاخلية. وبالمقابل كان أركان الاتحاد والترقي في الدَّولة العثمانية المهزومة ينتظرون العدالة والشَّهامة من الدول المنتصرة من خلال معاهدة موندروس. وقد تمت الموافقة على الشُّروط الواردة في معاهدة موندروس رغم فظاعتها، إلاَّ أنَّ الاحتلال الذي استفاد من مرونة بنودها كان يتمادى كثيرا. فهناك بنودٌ فتحت كل أبواب التَّمادي أمام المحتل، ولم يلاحظ المحتل أنَّه قام بخلط أوراق التوازنات.

المقاومة في عنتاب وأورفة ومرعش

من ناحيةٍ أخرى بدأت التَّوترات والانقسامات تنتشر بين دول التَّحالف، وكان الإنهاك هو القاسم المشترك بينها. ومن جانبها كانت إيطاليا تعي أنَّها منهكةٌ وكان لديها مشاكل داخليةٌ، بالإضافة إلى الخداع الذي تعرضت له من قِبل حلفائها، ولذلك كانت مواقفها مع تركيا أكثر ليونة. أما فرنسا فلم تكن هيمنتها قوية بالمقارنة مع بريطانيا، وعلى سبيل المثال كانت تريد استخدام العناصر المحلية كقوة دركٍ، ولهذا السَّبب كانت هي الدَّولة الأولى التي واجهت المقاومة التُّركية دون غيرها.

كما أنَّ استخدام النَّصارى والحشود الأرمنية كان سببا في انطلاق المقاومة ضد وحدات الاحتلال الفرنسي، فبدأت المقاومة في منطقة "دورت يول" قبل مرعش وعنتاب وأورفة. وكان هذا الدِّفاع والتنظيم الذي ظهر في الأشهر الأخيرة من سنة 1919، سببا لاندلاع الاشتباكات في

"تشوكوروفا"[40] التي لم تشهد مثلها منذ سنة 1909. ولم تنتظر المقاومة في دورتْيول وعنتاب ومرعش حلول سنة 1919، بل بدأت قبل ذلك. فبينما كانت منظمات "ردي إلحاق" (رفض الاحتلال) والمؤتمرات تنادي بالدِّفاع عن الحقوق في مناطق الأناضول الغربية، كانت حركات المقاومة وعمليات الاندماج قد بدأت منذ وقتٍ طويلٍ في المناطق الجنوبية من الأناضول. وفي نفس الحين شهدت مناطق البحر الأسود اضطراباتٍ ضد حركة "بونتوس" (حركة ظهرت في منطقة البحر الأسود تدعو إلى إعادة تأسيس دولة بونتوس).

كانت هذه المقاومات المحلية التي لا تدار من مركزٍ واحدٍ هي الملهمة لحركة النِّضال الوطني في الأناضول. والجدير بالذكر في هذا الصَّدد، أنَّ روسيا انسحبت من الحرب في 3 آذار/ مارس 1918 وفقا لاتفاقية برست – ليتوفسك قبل معاهدة موندروس، وتركت وراءها الموانئ التي احتلتها بداية الحرب عندما انتصرت على الأسطول العثماني الذي كان ضعيفا حينها، كما تركت المدن التي احتلتها في شرق الأناضول. وكان الاحتلال الرُّوسي قد بدأ فعليا في رفع رايات الاستسلام في الجبهات قبل مدةٍ طويلةٍ من اتفاقية برست – ليتوفسك. وقد أحيت الإدارة البلشفية بعد تشرين الأول/أكتوبر 1917م الأملَ في عقد الصُّلح المنتظر بين روسيا وتركيا، مما بعث الآمال فينا ووجَّه محور اهتمامنا وقواتنا نحو الغرب.

مصطفى كمال باشا مفتش الجيش التَّاسع قبيل تحركه إلى سامسون، نيسان/أبريل1919

كيف كان وضع مصطفى كمال في هذه الأثناء؟ ماذا كان يفعل؟

في الواقع كان لا يعير اهتماما كبيرا للزمرة الاتحادية، ولم يكن على وفاقٍ تامٍّ مع شريحة الطبقة العليا من الاتحاديين رغم نشاطه العسكري والانتصارات التي حققها، بل كان قائدا معارضا للاتحاديين. وفي إسطنبول كان عمله العسكري يحظى بالاحترام، حتى أنَّ أنور باشا وصفه بأنَّه الشَّخص الوحيد الذي يستحق خلافته وحمل الأمانة من بعده. إذ كان أكثر الأشخاص قابلية للحوار مع المحتلين. كما أنَّه كان موضع ثقة السُّلطان وحيد الدين حين رافقه في زيارته الأخيرة إلى أوروبا.

وبعد مدةٍ تم تكليفه مفتشا للجيش التَّاسع في سامسون، وكانت هذه المهمة تقليدا هاما في الجيش العثماني منذ مئات السِّنين، فهؤلاء الباشوات المفتشون لهم الصَّلاحية الكاملة في القضاء على الاضطرابات لضمان السِّيادة في المناطق التي يُبتعثون إليها. وكانوا في الماضي يقضون ويصدرون الأحكام ويتخذون الإجراءات، وفي ظروف الفترة الأخيرة أصبحت لديهم صلاحية التحقيق والمحاكمة السَّريعة، بل وإصدار الأوامر للولاة أيضا.

احتلال إزمير

كان واضحا بأن سكان إزمير المسلمين من نازحي الروملي والبوسنة وكريت والجزر، ومن السُّكان المحليين، لا يثقون بالاحتلال اليوناني. وكان هذا أحد دوافع الجنرال الشَّاب مصطفى كمال إلى عدم الانتظار طويلا قبل الانتقال إلى الأناضول.

كانت تركيا مهزومة ومنهكة، إلا أنها كانت صاحبة ميزةٍ كبيرةٍ لا تمتلكها أية دولةٍ شرق أوسطيةٍ أو مستعمرةٍ؛ وهي قابليةُ دولةٍ ومجتمعٍ عسكريٍ سابقٍ على التَّنظيم العالي والسَّريع. وقد كانت لدى نخبة الضباط الذين نضجوا في بلاد البلقان وطرابلس الغرب ومختلف الجبهات في الحرب العالمية الأولى خلال فترة وصلت إلى عشر سنوات، الإمكانية القادرة على تبرير ما صرح به الجنرال متاكسس في اليونان، حيث قال: "صحيحٌ أنَّ اليونان صغيرةٌ، لكنَّها دولةٌ ذات كرامةٍ ودولةٌ مزدهرةٌ. لا داعي للمغامرة ولا للذهاب إلى إزمير". وفي النهاية أدرك بأن قيادات الجيش

التي يواجهها يمكن أن تتعافى حتى في أصعب الظروف، فكرر عندها مقولته: "إن كانَّ ولابد، فعلينا البقاء في إزمير، وعدم التَّقدم أكثر".

في يوم 15 أيار/مايو 1919م سجل أوائل الشهداء أسماءهم في سجل التَّاريخ خلال تصديهم للوحدات اليونانية التي نزلت إلى البر، وكان من بين هؤلاء بعض ضباط الفيلق الموجود هناك والأشخاص الذين تحركوا بدافع مسؤولية وشرف المهمة التي يقومون بها مثل الصحفي حسن تحسين. والبعض الآخر كان من الجنود والمدنيين الذين قتلوا بسبب افتقار أفراد الوحدات اليونانية التي نزلت إلى البر إلى القيم والانضباط العسكري.

ولم يكترث سكان المدينة اليهود بالمحتل أبدا، لأنَّ المذبحة التي جرت بالعقلية الهلينية – المسيحية في مدينة سالونيك عام 1912م كانت محفورة في الذَّاكرة، إلى جانب المحن عبر التَّاريخ الطَّويل. بينما كان المشرقيون من الأصول الأوروبية المسيطرون على الحياة الاقتصادية في المدينة يدركون بأن الأمان والامتيازات الذي منحتها الإدارة العثمانية لهم في الماضي سيفقدونها في الإدارة الجديدة. فالوالي "استرغيداس" الذي أرسلته اليونان لم يكن يوما في نظر هؤلاء أفضل من الوالي "رحمي بيك" في مرحلة التنظيمات الثَّانية. وبالمقابل كانت إحدى المسائل التي تقلق استرغيداس (الحقوقي البارع وصديق "فنيزالوس") هي أنَّ تجار المدينة من الرُّوم تنازعوا مع المشرقيين، واتهموا الوالي بالانحياز إلى جناح أولئك، رغم أنه لم يلتقِ بهم قطُّ. وحول هذا الموضوع ينبغي قراءة منشور "براديس لوتس" المبالغ فيه والمتحيز جدا لغيلز ميلتون، وكذلك قراءة البحث بعنوان "متروبوليت أفندي: أيام متروبوليتي هريستوسموس الرُّومي في إزمير" لياوز أوزماكس.

كانت إنكلترا تدعم اليونان ماديا ومعنويا، وكانت المصروفات كلها تُنفق بالجنيه الإسترليني، كما تتردد فرنسا في دعم اليونان فعليا، أما إيطاليا وهي الدَّولة الثَّالثة في التحالف فلم يكن موقفها من اليونان على غرارهما نهائيا، إذ كانت إيطاليا تتحرك في كل المواقف مع القوميين الأتراك بناء على الشَّكاوى التي يقدمها المسؤولون اليونان دوما، وتناصب العداء للتعاون الإنكليزي اليوناني المشترك.

منظرٌ لإزمير وقد تعرضت للحريق قبل تحريرها من الاحتلال

في تاريخ 14–15 آذار 1919، نزلت الوحدات اليونانية إلى المدينة تحت حماية الأسطول البريطاني الذي القى مراسيه في الخليج بقيادة الأميرال كالثور. إلاّ أن المدينة لم تشهد مع الأسف احتلالا على صورة احتلال الجيوش القوية المنظمة المنسجمة مع التَّقاليد العسكرية في تلك الفترة، فعاشت ثلاث سنواتٍ من الصِّراع المتواصل مع المشاكل التي أفرزتها البيروقراطية والاحتلال من قبل جيش دولة البلقان المشتت تنظيميا، ولا يمتثل بما فيه الكفاية لقواعد الحرب بين الدُّول.

وكانت مناطق إيجة ومرمرة وتراكيا وجانيك (سامسون) وطرابزون وتشوكوروفا كلها تعيش حالة من المعارضة، بينما كانت عنتاب ومرعش وأورفة وأضنة ودورت يول في مقدمة المناطق التي دخلت المقاومة المسلحة منذ مدةٍ. ومع ذلك ينبغي اعتبار تجميع هذه المقاومة الفوضوية وتوجيهها إلى الهدف المشترك بمثابة المرحلة الأولى.

العاطفة الأوروبية تجاه اليونان (هَللنوفيلية)

في مطلع القرن التَّاسع عشر، كانت الفكرة المهيمنة على العقل البشري والأوروبي تقول: "إنَّ وجودنا مدينٌ لليونان القديمة". وكانت تلك الفكرة قد وصلت إلى ذروة المبالغة خلال القرن الثَّامن عشر: "إنَّ كلَّ شيءٍ بعد الموجود في اليونان زائفٌ ومكررٌ. والبشرية المعاصرة تدين بوجودها للهلينية فقط". وفي الواقع كان هذا تيارا قويا للغاية، لهذا السبب، لدرجة أنَّ نخبة من المثقفين من أمثال لورد بايرون ذهبت إلى القتال ضد الجبهة التُّركية خلال الانتفاضة اليونانية،

فكانت النتيجة أنَّهم إما أصيبوا بالأمراض أو قُتلوا في الحرب، أي أنَّهم قُتلوا من أجل اليونان. وعلى سبيل المثال كان اللورد بايرون يحب الأتراك ويحترمهم، إلاَّ أنَّ ذلك لم يكن مهما بالنِّسبة له، بل المطلوب وفقا لرأيه خلاص الهيلنيين من الأتراك لتبقى الحرية قيمة مثالية. وهكذا ضحى بنفسه في سبيل ذلك، فترك الحياة البراقة في لندن، ومات مريضا في مستنقعات اليونان في ريعان شبابه. وإضافة إلى اللورد بايرون يمكن رؤية أسماء الأوروبيين الذين جاؤوا وقُتلوا في الحرب من أجل اليونان على جدران أحد الجوامع المحولة إلى كنائس في ناوبوليون العاصمة الأولى لليونان. وفي الحقيقة لازال العشق اليوناني يعكس آثاره في المجتمع الأوروبي حتى اليوم.

الاحتلال اليوناني

كادت المحاولة اليونانية لاحتلال الأناضول أن تشكل كارثة لها، ولم يكن ذلك مفاجأة، لأنَّ اليونان كانت دولة بلقانية فتية لا خبرة لها ولم تتوطد أركانها بعد، وقد أشعل هذا الاحتلال في الواقع فتيل المقاومة في الأناضول. وبالمقابل استفادت فرنسا من دعم الأرمن لها في الشَّرق، فتم استخدامها كقوةٍ أجنبيةٍ مساعدةٍ.

ولكن من الواضح أنَّ تركيا كانت دولة مختلفة، ويُنظر إليها من قِبل موسكو كدولةٍ يمكن ضمها إلى العالم الشُّيوعي. وقد أكد هذا الأمر ضباطٌ مشهورون في الجيش الأحمر، من القادة المؤسسين للاتحاد السوفييتي، ومراقبون بارعون مثل الضابط الأوكراني ميخائيل فرونزه الذي لا زالت الأكاديمية العسكرية الرُّوسية تحمل اسمه، كما سُميت عاصمة قيرغيزيا بيشكك باسمه لأنَّه القائد الذي احتل تلك الأقاليم. والجدير بالذِّكر أنَّه قال ومنذ البداية عند قدومه إلى هذا المكان: "لا يمكن لهذا المكان أن يقبل بالاشتراكية حتى في هذه الظروف الصَّعبة، لأنَّ هذا البلد مختلفٌ تماما". وفي الواقع لم تكن ملاحظات سيمون إيفانوفيتش آلاروف سفير روسيا السوفييتية في تركيا في سنوات النِّضال الوطني مؤثرة بهذا القدر من التَّأثير، حيث كانت أراء فرونزة أحد قادة الفكر في الجيش الأحمر أكثر دقة.

ومن المهم في هذا الصَّدد تقديم ملاحظةٍ صغيرةٍ حول المساعدات الرُّوسية، فالإعانة التي جمعها المجتمع المسلم هناك تشكِّل نسبة من مساعدات الاتحاد السوفييتي أكثر من نسبة الأموال المقتطعة من الخزينة. وكانت هناك ألبسةٌ وأزياء تم أخذها من الرُّوس، حتى أنَّ القلنسوة التي وضعها عصمت باشا على رأسه كانت هي القلنسوة التي يضعها الجنرالات والعمداء في الجيش

الأحمر، وإن كان ذلك دون دعمٍ من الأركانٍ، ولايفوتنا هنا ملاحظة أنَّ أمثال كانوا فرونزة مستثنين من ذلك.

وقد حاول ضباط الجيش الأبيض التابع لـ "فرانغل" الذي ساقه الإنكليز إلى غاليبولي، الانضمامَ إلى انتفاضة الأناضول بسبب الكراهية التي نمت في نفوسهم تجاه الإنكليز، إلا أنَّهم تعرضوا إلى أشد العقوبات من قِبل جنرالاتهم بسبب هذه المحاولة.

انتفاضة الأناضول

لم تنطلق الرَّصاصة الأولى من إزمير، بل كانت بداية الانتفاضة على العكس مما يُعتقد في دورت يول (في كيليكية) خلال شهر كانون الأول من عام 1918م، كما شكَّل جهانغير زادة حكومة وجمع القوات في الشَّرق عند كارس، إلا أن العدو الأول له كانت العصابات الأرمنية وليس الإنكليز. وتم كذلك استهداف الفرنسين في كل من مرعش وعنتاب بشكلٍ مباشرٍ. وهناك ملاحظةٌ يجدر ذكرها هنا وهي أنَّ الجندرمة داخل الجيش كانوا من عناصر الأرمن المُحْبِطين.

وقد شهدت تشوكوروفا الحدث الذي سُمي بواقعة "قج، قج" (نزوح سكان أضنة إلى المناطق الدَّاخلية من الأناضول فرارا من الظُّلم خلال الحرب في كيليكية)، حيث لجأ بعض أصحاب الأراضي المحليون، بل وكذلك الذين لا يملكون الأراضي إلى الجبال. ولكنَّهم نظموا أنفسهم فيما بعد وانخرطوا في النِّضال، فاضطرت فرنسا إلى التَّخلي عن هذا الإقليم.

وباختصار، بدأ كلٌ منهم في إقليمه بمقاومة قوات الاحتلال أو بمقاومة الأقليات الموجودة، ولم تكن هناك معركةٌ عامةٌ تنطلق لأولِّ مرةٍ.

ونعود لإيضاح أنَّ المقاومة بدأت في دورت يول وعنتاب ومرعش قبل مدةٍ طويلةٍ من تأسيس مجلس الأمة، فقد حدثت أعمال المقاومة هذه في عام 1919 أي قبل بدء عام 1920 حين كان مصطفى كمال باشا يواصل جولته ومؤتمراته في الأناضول، وفي النِّهاية ظهرت نتائجها. وبتعبير الفرنسيين "انتصر الحنطور على الحافلة".

المحطة الأولى في الانتفاضة: سامسون

في الفترة ما بين تاريخ وصول مصطفى كمال إلى سامسون في 19 أيار/مايو 1919م، وتاريخ 23 نيسان/أبريل 1920م حيث أعلنت حكومة مجلس الأمة التُّركي الكبير في الأناضول

بأنها الحامي والمنقذ الحقيقي للسَّلطنة والخلافة، في هذه الفترة الممتدة أحد عشر شهرا، طويت الصَّفحة الأولى من النِّضال الوطني.

ويبدو أن إنزال القوات اليونانية في آسيا الصُّغرى وميناء إزمير الذي تم بدعم الإنكليز في 15 أيار/مايو 1919م، والوضع الجديد الذي نشأ بين الحلفاء والشَّعب التُّركي وجيشه دفعا إلى نشوء صراعٍ جديدٍ فيما بين دول الحلفاء، وفيما بين الشَّعب التُّركي وجنوده والوضع الجديد. وكانت فرنسا بالذَّات غير مطمئنةٍ من السِّياسة المتبعة.

وفي الواقع لم يكن القائد المنتصر في جبهة البلقان فرانشت داسباري الذي دخل إسطنبول على صهوة حصانه دخول الفاتحين معاديا للأتراك كما يعتقد البعض، وعلى العكس من ذلك، فحين رأى النضال الذي أشعلته النخبة التُّركية الشَّابة في الأناضول، أعلن أن "هؤلاء الأتراك الشَّباب يمثلون دينامية الشَّعب التُّركي على الرغم من كل شيء، وهم الذين سيبنون المستقبل، في حين أن الطَّاقم التُّركي العجوز سيئ".

ونذكر هنا واقعة مهمة، فعندما قدم مصطفى كمال إلى إسطنبول أولَّ مرةٍ بعد معاهدة موندروس قال له مدير مكتبه وهو يشير إلى أسطول الحلفاء: "لقد جاؤوا يا باشا"، حيث كان ميناء إسطنبول مليئا بالسفن الأجنبية، لكنَّه نظر في ذلك اليوم إلى زرقة بحر مرمرة تحت زرقة السَّماء وقال: "سيرحلون كما جاءوا".

لقد كان على البلاد أن تتحرر من الاحتلال رغم كل الأوضاع، ويمكنها أن تتحرر، ولهذا السَّبب عقد اتصالاته مع مختلف الأطياف بدءا من أصدقائه في الجيش، وبحث عن مخرجٍ للتحرر خلال وجوده في إسطنبول. وبعد أبحاثه التي استمرت حوالي ستة أشهر، توصَّل إلى رأيه القائل بإطلاق عملية التحرير انطلاقا من الأناضول.

وعلى الأرض دفعت الاشتباكات في الأناضول ولا سيما حركة بونتوس الرُّومي في البحر الأسود وعصاباتها، وكذلك قيام القادة المحليين من أمثال غيراسونلو عثمان آغا بتنظيم الحركات المضادة لها؛ دفعت القيادة البريطانية إلى إجبار مقام السُّلطان على إصدار التَّوجيهات لمنع هذه الحركات، وتعزيز الكوادر الإدارية المدنية والعسكرية اللازمة لذلك، بل واستخدام رجال الدِّين أيضا. وكان مصطفى كمال باشا يومها هو المفتش الأنسب بنظر السُّلطان محمد وحيد الدين

السَّادس، حيث لم يكن على احتكاك كبير مع الاتحاديين، وكان الأقرب إلى فريق القيادة. ولا ننسى أنَّ مؤسسة الباشوات المفتشين كانت مؤسسة مهمة في التَّاريخ العثماني، فمنذ تمرد جلالي تم تعيين باشواتٍ مفتشين ذوي صلاحيات واسعة، بالإضافة إلى تطبيق هذه التعيينات خلال سنوات الاضطرابات التي أعقبت حصار فيينا الثَّاني. واستمر اعتماد هذا التَّقليد في العهد الجمهوري أيضا، من خلال تكليف الباشوات المفتشين بمهمة بسط النِّظام في الأناضول، ومن خلال تفويض المفتشين العموميين بإدارة المناطق المضطربة.

وكان من الواضح أن السُّلطان يدعم مصطفى كمال باشا، وأنَّه لم يلق اعتراضا في ذلك من قبل قوات الحلفاء، فتم تثبيت التعيين في 30 نيسان/أبريل. ونظرا للتطورات واحتلال إزمير، كان ينبغي الاستعجال في التحرك إلى الأناضول، وكان عليه أن يذهب إلى قيادة قطاع الجيش التَّاسع، حيث سيشكل الفريق القيادي المستقبلي من الضُّباط والمدنيين الموجودين هناك. وهكذا توجه إلى سامسون دون تأخير القرار خشية أن تدفع أجواء النزاعات والخلافات التي وقعت إلى التَّخلي عن هذا المخطط.

وكانت القوات اليونانية قد نزلت بدعمٍ من الإنكليز في إزمير بتاريخ 15 أيار/مايو، وبناء على ذلك تحرك مفتش الجيش التَّاسع مصطفى كمال إلى سامسون خلال يومين بواسطة باخرة باندرما. وعند ساعات الصَّباح من يوم الاثنين 19 أيار/مايو، وصل إلى سامسون ونزل إلى ميناء رجي بواسطة القوارب، فتم استقباله من قبل وفد رسمي لكونه مكلفا بمهمةٍ رسميةٍ. وأضحت سامسون المدينة التي أوقد فيها فتيل حرب الاستقلال، وقد كتب بعد سنواتٍ عن ذلك اليوم يقول: "حين رأيت سامسون وشعب سامسون، ازداد يقيني قوة بقدرتي على تحقيق جميع أمنياتي وقراراتي المتعلقة بالوطن والشَّعب. إن روح المواطنة والتضحية التي رأيتها في أحوال وأوضاع جماهير سامسون وقرأتها في أعينهم، كانت كافية للتدليل على صحة اعتقادي بآمالي وتصوراتي".

كانت سامسون نقطة الانطلاق إلى الأناضول، وكانت هذه إحدى نقاط التَّحول الهامة في تاريخنا. وهناك بدأ أتاتورك خطاباته اعتبارا من هذا التَّاريخ، وبذلك يمكن تفسير السَّبب في اختياره 19 أيار/مايو تاريخا لولادته فيما بعد. وقد بقي يعمل هناك مدة من الزمن لينتقل بعدها إلى منطقة حوزة[41]. ورغم أنَّه تم بالطَّبع عزل مصطفى كمال من مهمته هذه بعد فترةٍ قصيرةٍ، لكنَّه اتخذ

الإجراءات اللازمة لعقد مؤتمري أرضروم وسواس اللذين نظما المقاومة في الأناضول، ومهدا الطَّريق إلى أنقرة والمجلس الجديد.

وينبغي في هذا السِّياق عدم إغفال وجود القادة الذين أعلنوا ارتباطهم بمصطفى كمال وأعطوا زخما لحركات المقاومة في الأناضول أمثال: رفعت بيك (بلا) ورؤوف بيك (أُرْباي) وكاظم كارا بكر باشا وعلي فؤاد باشا (جَبَصوي)...

امتيازه عن بقية الباشوات

رغم أن مصطفى كمال باشا لم يكن القائد الوحيد في مجال الوطنية والكفاءة والتَّحفيز على النَّضال، بل كان إلى جانبه ضباط يساعدونه في نضاله، إلاَّ أنَّ الصفة الهامة التي ميزته عن غيره بالطَّبع هي دهاؤه.

ونذكر هنا أنَّ كبار جنرالاتنا الأذكياء قالوا – وهي مقولة مقبولةٌ برأيي – بضرورة عدم الانشغال بتحرير بورصة وأنطاليا وإزمير، لأنَّه طائل من ذلك، وإلاَّ هلكنا وخسرنا الذي بين يدينا، كما قالوا بوجوب الاكتفاء بالأناضول وشرق الأناضول. وهذا لا يتوافق مع فكرة "هدفكم الأول هو البحر المتوسط". بينما كان الهدف من الحرب في سبيل المستقبل الذي يدور في ذهن أتاتورك، مختلفا جدا وكان هو الصَّواب.

التعميمات والمؤتمرات والمقابلات

في يوم 25 أيار، وصل مصطفى كمال باشا ورفاقه إلى منطقة الحوزة، ولم يمكثوا هناك طويلا، حيث كانت المدينة غير مؤهلةٍ للتنظيم، أو غير مؤهلةٍ لتكون مركزا ذا قوةٍ كافيةٍ استراتيجيا، فاكتفوا بنشر تعميمٍ.

كان مصطفى كمال يريد ألاَّ يتم تسريح العسكريين على النقيض من متطلبات معاهدة موندروس، كما كان يريد من الشَّعب أن يشكِّل التَّنظيمات وأن يقوم بالمظاهرات الاحتجاجية.

ومن ناحيةٍ أخرى، بدأ الإنكليز بالتضييق على إسطنبول. لكن مصطفى كمال كان يتجاوز البرقيات القادمة من إسطنبول، لأنَّ السَّبب الرئيسي في قدومه إلى محيط سامسون كان البحث في الاشتباكات التي نشأت بين الأتراك والرُّوم في هذه المنطقة وإعداد تقريرٍ حول ذلك.

وقد واصل مصطفى كمال أعماله بعد القدوم إلى "أماسيا"، ونشر تعميما هناك مع رفعت بيك (بلا) ورؤوف بيك (أُرْباي) وكاظم كارا بكر باشا وعلي فؤاد باشا (جَبَصوي). وفي الفترة اللاحقة لتعميم أماسيا انضم العديد من الضباط، حيث تم من خلال هذا التَّعميم تحديد واقع الحال في البلاد، ووضع الخطط من أجل التَّحرير، واتخاذ القرار بعقد مؤتمرٍ وطنيٍّ. كما نصَّ التَّعميم على أن "الإرادة الشَّعبية ستقود النِّضال وتتخذ القرار". وكانت تلك خطوة مهمة في طريق النِّضال الوطني.

وتقرر أن يتم عقد مؤتمرٍ وطنيٍّ في سواس لاحقا، لكنَّ هناك مؤتمرا آخر تم التَّخطيط له قبل ذلك، فتم التوجه إلى أرضروم للمشاركة في المؤتمر الذي سيعقد هناك في شهر تموز/يوليو. ورغم أنَّ هذا المؤتمر كان من حيث الغاية إقليميا، إلاَّ أنَّه تحول إلى مؤتمرٍ وطنيٍّ من خلال القرارات الصَّادرة عنه. وهكذا شكَّل مؤتمر أرضروم حالة ولادة من حيث التَّنظيم والمشاركة.

وفي الواقع تم قبل المؤتمر تجريد مصطفى كمال باشا من الصَّلاحيات التي مُنحت له في إسطنبول، وأعلن بدوره استقالته من الجيش وأنه سيكون فردا من أفراد الشَّعب. ولكن كان واضحا أن هذا الوضع لا يمكِّنه من قيادة النِّضال.

وقد أعلن كاظم كارا بكر وعلي فؤاد باشا تنصيب مصطفى كمال قائدا لهما، ومنحاه البيعة نوعا ما فكان ذلك تعزيزا لطريق النِّضال، كما تم انتخابه رئيسا للمؤتمر. وبذلك شهد التَّاريخ العثماني للمرة الأولى تحركا وتكتلا مناقضا للقرارات المركزية والأوامر القطعية، وكان هذا على يد المسؤولين العسكريين والمدنيين في الدَّولة. أما صفته الجديدة فكانت: "رئيس الوفد المفوض".

مصطفى كمال في أيلول/سبتمبر 1919م خلال عقد مؤتمر سواس

وتم الإعلان عن بنودٍ مهمة مثل: "التُّراب الوطني واحدٌ موحدٌ ضمن الحدود الوطنية" و"سيهب الشَّعب للدِّفاع، ومقاومة الاحتلال والتَّدخل الأجنبي بكل أنواعه".

وبعد أرضروم، تم في شهر أيلول/سبتمبر التَّوجه إلى سواس لعقد المؤتمر الوطني الذي أُعلن عنه في تعميم أماسيا. وقد وفِد القادمون من جميع أنحاء البلاد إلى سواس، في حين أصدرت حكومة إسطنبول أمرا باقتحام المؤتمر واعتقال مصطفى كمال، ولكن جرى عقد المؤتمر وسط هذه الظُّروف، وتم تشكيل وفد جديدٍ برئاسة مصطفى كمال من جديدٍ، كما تمت الموافقة على قرارات مؤتمر أرضروم نفسها، وتم رفض الانتداب والحماية بصورةٍ قطعيةٍ.

لقد أمضى الباشا 108 أيام في سواس. ولم يكن المكان الذي اجتمع فيه أكثر من 30 ممثلا عبارة عن مجلسٍ فقط، بل ينبغي اعتباره محفلا.

إلاَّ أن النِّضال في الأناضول لم يتم تنظيمه في سواس، فطبيعة الأدوات والعلاقات بين العسكريين والمدنيين في المحيط هي التي ستحدد المعركة.

وقد تضمن القَسَمُ أهم عبارة في قرارات مؤتمر سواس، إذ يقول: "أقسم بالله أن أقوم بتأديب رجال الاتحاد والترقي بسبب دورهم في الأوضاع التي وصل الوطن إليها، وأن لا أعمل على إحياء الاتحادية، وأن لا تكون لي علاقة بنهج الاتحاديين وسياساتهم..."، أي أنَّ كلَّ من له صلةٌ بهذه الحركة يرفض حكومة إسطنبول واتهامها حكومة الأناضول بالاتحادية المغامِرة، ويعلنُ قطع علاقاته مع قادة الاتحاد والترقي الموجودين في الأراضي السُّوفييتية وبرلين وأذربيجان. ولم يكن هناك تغييرٌ ولا تنازلاتٌ في هذا الموضوع.

وفي هذه الأثناء تم تجريد الصَّدر الأعظم "الصِّهر فريد" المقرب من الإنكليز من منصبه، وتعيين علي رضا باشا مكانه، وكان بالطَّبع رجلا وطنيا، فكلف ناظر (وزير) الحربية صالح باشا بمهمة إجراء اتصالات مع الوفد المفوض، واجتمع الطَّرفان في شهر تشرين الأول/أكتوبر في أماسيا وتصالحا. حيث كانت الغاية في النِّهاية ضمان سير عمل المجلس، ولم يكن هذا الوضع مرضيا لقوات الاحتلال بالتَّأكيد.

وخلال الأيام الأخيرة من العام، عاد مصطفى كمال باشا إلى أنقرة، التي اتخذت قرارا تاريخيا مركزيا استثنائيا في 27 كانون الأول/ديسمبر بالرُّغم من حجمها الصَّغير. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتخذ فيها سكان مدينةٍ بالكامل قرارا سياسيا، والثَّابت أن كتلا واسعة وجمعا كبيرا

من المندوبين شاركوا في اتخاذ القرار؛ حيث أعلن تجار المدينة وعلماؤها ومشايخ الطرق الصُّوفية ارتباطهم بالهيئة العسكرية القادمة. وكان ذلك تطورا سياسيا هاما، إذ أصبحت أنقرة مركز النِّضال.

ومن جهته بدأ مجلس المبعوثان (مجلس النُّواب العثماني) بالعمل أيضا نتيجة تأثير لقاءات أماسيا، حيث اجتمع المجلس بتاريخ 12 كانون الثَّاني/ديسمبر 1920م في إسطنبول، وتمت الموافقة على الميثاق الوطني، رغم أن المجلس كان تحت الضَّغط كما سنذكر بعد قليلٍ.

احتلال إسطنبول

لم يلقَ "ميثاقي مللي" (الميثاق الوطني) الذي وافق عليه "مجلس المبعوثان" (مجلس الشَّعب العثماني) والحماس الذي أحدثه، الرضا من طرف بريطانيا، فقام الإنكليز في تاريخ 16 آذار/مارس 1920م باقتحام المجلس وهو في حالة انعقاد، واعتقلوا بعضا من المبعوثين واقتادوهم. وهكذا وقعت إسطنبول رسميا وفعليا تحت الاحتلال، وأُغلق مجلس المبعوثان العثماني.

أعضاء الوفد المنتخبون وهم في قيصري في الطريق إلى أنقرة

من اليمين إلى اليسار: أحمد رستم (بلنسكي) ومظهر مفيد (قانصو) بيك ومصطفى كمال باشا وحسين رءوف (أوروباي) بيك، ومدير مكتب مصطفى كمال باشا الملازم مظفر (كيليج) بيك وحاكِّيى (بهيج) بيك20 . كانون الأول/ديسمبر 1919م

ومن حيث المظهر لم يتم القضاء على الإمبراطورية العثمانية، فكان هناك سفراء في إسطنبول، وكان لحكومة السَّلطنة سفراء في البلدان الخارجية. ولا شكَّ أن الجيش كان تحت السَّيطرة، ولكنَّه لم يكن في حالة انتشارٍ. وكانت هناك حكومةٌ عثمانيةٌ، إلاَّ أنَّ سلطة نظامها كانت محصورة في عاصمتها بين جسر "أون كاباني" و"بَبَك قرة قولو"، وأعتقد أن هذا الأمر كان مجرد مجاملةٍ بين الدُّول.

كانت بريطانيا قد سيطرت حتى على الحلفاء أيضا في إسطنبول، وكان الاحتلال الإيطالي للطرف الأناضولي محدودا للغاية، وتم تشكيل إدارة احتلال متسامحةٌ ومتعاونةٌ في "قاضي كوي". كما تُرك الأمر داخل سور إسطنبول إلى الفرنسيين، والجدير بالذِّكر هنا أن جميع التَّنظيمات الوطنية بما فيها تلك التي تُهرب السِّلاح إلى الأناضول لم يتم ضبطها بشكلٍ تامٍ ووضع حدٍ لها من قبل فرنسا.

وفي وسط هذه الأوضاع أمسك عسكر العاصمة بزمام أمور النِّظام السِّياسي، إلا أنَّهم ارتكبوا أخطاء جسيمة. فلم يكن ما نراه أمامنا هو النَّموذج المعتاد لدولة بريطانيا. وباتت الأحداث الجائرة تُشاهد في إسطنبول الهدنةِ، فوصلت إلى حد الرشاوى بإشراف التُّجار بالتَّعاون مع بعض الأقليات ذات الأفكار المتطرفة. وكانت المدينة تحت سلطة دولةٍ تنشر الضَّغينة في البلاد. ولكن بالمقابل أخذت تجري أحداث لم تُعهد من قبل في إسطنبول الهدنة، حيث بدأت في إسطنبول حياةٌ أكثر حداثة، ونشطت بعض الأحزاب السِّياسية البروليتارية اليسارية. إلاَّ أنَّ أي أمرٍ من تلك الأمور لم يحقق نظاما مستقرا يمكن الاعتماد عليه.

ومن المؤكد أنَّ حركة الأناضول تمثل نجاحا لجيشٍ لم يتفكك وظل متمسكا بتقاليده ومنظومته الهيكلية رغم كل الظروف، فتم الإمساك بجميع عناصر آليات الدَّولة في الأناضول وباتت تحت السَّيطرة، وتمت إدارة النِّضال وفق الآليات الجديدة التي أُضيفت إلى تشكيلات الإمبراطورية العثمانية القديمة.

وبالعودة إلى العام 1204م، فقد جرى احتلال إسطنبول، التي كانت تسمى قسطنطينوبوليس في ذلك العهد، من قِبل قطعان البرابرة القادمين من الغرب. ولا شكَّ أن إسطنبول التي كانت مركزا لإمبراطوريةٍ استمرت مدة ألف عام، شهدت حملة صليبية من الشُّعوب كلها. وعادت لتشهد احتلالا

دوليا مرة أخرى عام 1918م. وكما عاش سكان إسطنبول فترة عصيبة بسبب الفرسان المسلحين في العام 1204م، فإنَّهم عاشوا فترة عصيبة بسبب السُّفن المسلحة في العام 1918م.

لقد شهدت قسطنطينوبوليس البيزنطية، وإسطنبول العثمانية الكثير من الشدائد؛ فشاهد سكان إسطنبول السُّفن الإنكليزية والفرنسية والإيطالية الحاملة لجيوش حلفائهم في حرب القرم التي وقعت عام 1853م مع روسيا. وكان تعاطف سكان إسطنبول مع الجنود الأوروبيين الذين حاربوا إلى صفهم وقتلوا واضحا خلال هذه الأيام المضطربة من عام 1853م.

في حين أن أحفاد الجنود الذين كانوا حلفاء يومها عادوا كقوات احتلالٍ عام 1918م، وهكذا استعاد سكان إسطنبول على الفور إحساسهم التَّقليدي بالريبة والكراهية الذي كان قد تغير عام 1853م.

واعتبر الجنود الذين نزلوا من السُّفن المسلحة البريطانية أنفسهم أصحاب المدينة، وأصبحت آلية الحفاظ على الأمن والحياة الاقتصادية تحت إشرافهم. ولم يكن هذا التَّطور غريبا؛ بل كان في الواقع مظهر يأسٍ غير متوقع من البريطانيين. إذ مارست بريطانيا هنا الإشراف والإدارة الفعلية التي كانت تمارسها في مستعمراتها وفي الهند ومالطا وجبل طارق، بل وفي مصر التي كانت محتلة. ولكنَّ عاصمة الإمبراطورية القديمة لم تضع للإنكليز أي اعتبار.

وفي الحقيقة لا زالت معلوماتنا عن تاريخ الشرطة في الفترة بين 1918م و1922م تعتمد على التَّواترات الشَّفهية، وإذا دققنا في بعض الأحداث ستظهر أمامنا أمورٌ غريبةٌ. حيث كانت العصابات الإجرامية في المدينة تمارس في الغالب تمييزا عرقيا، وتقوم إما بالتعاون مع الشُّرطة البريطانية ووحداتها أو بالاشتباك معها وفقا لهذا التمييز. وباختصار نلاحظ عبر التَّاريخ أن الدُّول الغربية عندما يتم احتلالها من عدو خارجي كانت تقول: "هذا قدرنا، زرعنا فحصدنا، علينا أن نتصرف بذكاء بعد الآن". أما شعبنا فمن الصَّعب جدا أن يعتمد مثل هذه العقلية، إذ أننا لا نستطيع تحمل الأجنبي في بيتنا كثيرا.

وهكذا، عاشت إسطنبول أجواء التَّوتر بصورة مثيرةٍ للغاية. فقد أدى ميل الإنكليز بصورةٍ يائسةٍ نحو الحليف اليوناني إلى الغضب الشَّديد لدى الحلفاء الآخرين وسكان المدينة في آن معا.

ويمكن الرُّجوع إلى ما كتبه الأستاذ "طارق ظفر طونايا" عن فترة الهدنة في المجلد الثَّالث من كتابه "الأحزاب السِّياسية" الذي يدعى "أوبوس ماغنوم" (باليونانية: العمل الكبير).

ومن الطَّبيعي أنَّ الذين ينتمون إلى التَّيارات الاشتراكية والقومية العرقية قد استفادوا من أجواء حرية التنظيم السِّياسي التي نشأت، إذ لا يمكن القول بأن الوطنية التُّركية كانت حرة إلى هذا الحد. فكما يقول فالح رفقي: "كان الجميع يتهرب من التُّركية" في عاصمة الإمبراطورية.

وقد شهدت السَّنوات الأربعة تطوراتٍ مدهشة، حيث عاشت إسطنبول، بسبب الإنهاك والدمار الذي خلفته السنوات الأربعة من الحرب، صراعا بين الهزيمة والمقاومة، وبين الاستسلام والصُّمود.

مصطفى كمال مع المشاركين في مؤتمر سواس بعد المؤتمر، 1919

وكما مارست إنكلترا الضُّغوطات اليائسة على سكان المدينة، والتي أدَّت إلى آثار سلبيةٍ، فإنَّها عادت لتكرر الممارسة ذاتها في الشَّرق الأوسط وفلسطين أيضا.

يخبرنا التَّاريخ أنَّ لكل قوةٍ زمن ازدهارٍ وضمورٍ، وقد مرَّت بريطانيا بفترة ضمورٍ، فبدأت إسطنبول وكوتشوك آسيا بالنَّطح. وكان الاعتقاد سائدا بأنَّ الإمبراطورية العثمانية هي الوحيدة التي تزلزلت وبدأت بالاضمحلال، ولكن تبيَّن فعليا أنَّه لم يكن هناك أيٌّ شعبٍ من شعوب العالم مستعدا

للعيش بسكينةٍ ووئامٍ تحت راية إمبراطوريةٍ أخرى. وهكذا قام العسكريون والمدنيون والإداريون في إمبراطوريتنا بلمِّ شملهم سريعا، وبدأت المقاومة من مكانٍ لآخر. وقد وقف الإيطاليون إلى جانب الأناضول اعتقادا منهم بأنَّ البريطانيين قاموا مع اليونان باستغلالهم بعد نهاية الحرب الطَّويلة. وكان عمل الوحدات الإيطالية الأول فور نزولها إلى البر هو القيام بالسَّيطرة على قصر الفناديك الواقع في شارع القبطان طوم طوم، الذي سلبته واغتصبته النّمسا منها في مؤتمر فيينا عام 1815، وطرد أعضاء السفارة النّمساوية منها. وفي الواقع لا يُعد ذلك جورا، حيث عاد قصر الفناديك إلى الإيطاليين من جديد. وجاء الآن دور القنصلية الإيطالية في إسطنبول.

التَّمهيد إلى المجلس الجديد

إثر اعتماد مجلس المبعوثان العثماني قرار "ميللي ميثاق" (الميثاق الوطني) احتلت دول الحلفاء إسطنبول، وحلت المجلس العثماني، واعتقلت قسما من النُّواب ونفتهم. وبناء على ذلك، تم اتخاذ القرار بعقد مجلسٍ وطنيٍّ جديد في أنقرة.

واتَّسم المجلس الذي التأم في 23 نيسان/أبريل في أنقرة بميزاتٍ مهمة للغاية، فقد كان مجلسا مؤسِّسا، وجرى اعتماد عاصمةٍ مؤَسِّسةٍ داخل الأناضول بدلا من العاصمة التي لا تمارس حقوقها، وتبنت السُّلطة اسم تركيا وتم استخدامه للمرة الأولى، كما انضم الأعضاء المتبقون من المجلس المنحل في إسطنبول إلى عضوية المجلس الجديد.

ويبقى تاريخ 23 نيسان/أبريل 1920م تاريخا هاما، ففي هذا التَّاريخ سُميت دولتنا باسم شعبنا. وهذا الاسم ليس على نمط "الولايات المتحدة"، بل هو على العكس تسمية الدَّولة باسم شعبٍ متأصل الجذور في التَّاريخ. وقد أوضحت حكومة مجلس الأمة التُّركي الكبير الأمر بوعي أكبر، فكان النِّظام نظام حكومة مجلسٍ ندعوها "كونفانسيونال" (هيئة تشريعية عليا)، وهي حكومةٌ ثوريةٌ إلى حدٍّ ما مثل مجلس الكونفانسيون الفرنسي، وهي نظام إدارةٍ قائمٌ على المجلس مثل الإدارة السُّوفييتية المجاورة حينها، لكنَّه يختلف عن أنظمة المجالس الشَّعبية الأخرى في التَّاريخ، حيث كانت توجد في مجلس الأمة التُّركي الكبير معارضةٌ ناشطةٌ؛ معارضةٌ خارج الأعضاء الملتفين حول مصطفى كمال باشا والمرتبطين به دون اعتراض، والذين جاؤوا من مجموعة "مدافعي حقوق" (الدِّفاع عن الحقوق). وكان ضمن هذه المعارضة الموالون للسُّلطان والإسلاميون، واليساريون والاتحاديون، إذ لم يكن الاتحاديون جميعا من فئة الموالين المستسلمين لطاعة مصطفى

كمال باشا ولحكومة الأناضول. وقد كشفت الفئة الثَّانية هذه عن معارضتها بعد فترةٍ قصيرةٍ، لكنَّ حرب الاستقلال مضت رغم وجود هذه المعارضة، نتيجة اتباع سياسةٍ دقيقةٍ ومتوازنةٍ.

والجدير بالذِّكر أن إعلان الجمهورية تم بعد اتفاقية لوزان، لكنَّ هذه الفترة كانت فترة "مجلس حكومتي" (حكومة المجلس). واستمر نظام حكومة المجلس في تركيا في الفترة بين 23 نيسان/أبريل 1920 و1923م حيث تم إعلان الجمهورية.

كان ذلك حرب استقلال ومقاومة ضد الاحتلال، فكان انتصارنا، وكانت فترة "حكومة المجلس" الممتدة إلى ثلاث سنوات الحجر الأساس للانتصار.

تجريم الاتحاديين

واصلت مجموعة "الصُّهر فريد" في إسطنبول اتهامها مصطفى كمال ومَن حوله بالاتحادية، رغم أنَّ هذا الفريق قطع ارتباطه بالاتحاديين منذ زمنٍ طويلٍ. فالكلُّ يعلم بأنَّ قادة الاتحاد والتَّرقي يكرهون هؤلاء، وأن هؤلاء لا يحبذون الاتحاديين كثيرا. إلاَّ أنَّ هذه الاتهامات تحمل شيئا من الصَّواب، فبناء المجلس المقام في أنقرة تم إنشاؤه كمركزٍ للاتحاد والتَّرقي، والعناصر الأكثر حيوية ونشاطا من الشَّعب كانوا يشكلون في النِّهاية العناصر الفتية في صفوف هذا الحزب. وكان البعض من هؤلاء من قادة الاتحاد والترقي القديم، حتى أنَّ هناك دعوة نادت بإحضار أنور من ألمانيا التي لجأ إليها وتنصيبه قائدا للنضال الوطني. إلاَّ أنَّ القسم الأعظم من الاتحاديين أدركوا بأن زمن الاتحاد والتَّرقي قد ولى وينبغي عليهم التَّخلي عنه، والالتفاف حول مجموعات "مدافعي حقوق"، والاجتماع حول مصطفى كمال باشا والانضمام إليه بشكلٍ قاطعٍ.

وكما أوضحنا سابقا، لم يكن لأيٍّ من قادة الاتحاد النَّاشطين مكانٌ في فريق حرب الاستقلال، أضف إلى ذلك أن القَسَم الذي أداه أعضاء مؤتمر سواس يمنع نهج سياسة الاتحاد والتَّرقي.

مجلس الأمة الكبير

تتغير الأنظمة في حياة المجتمعات دائما، ولا يحدث هذا التغيير بنفس الأسلوب. حيث يتغير بعضها على سيلٍ من الدِّماء كما جرى في فرنسا وروسيا، أما في تركيا فجرى هذا التغيير عبر الحرب، لكنَّها كانت حربا ضد الخارج. وكان ذلك من حسن الطالع، لأنَّ إعلان الجمهورية من خلال طرد العدو نحو الخارج، بدل حربٍ داخليةٍ تخلف العار والخصام بين الأشقاء، يُعتبر صفحة

مشرّفة، وتشييدا راسخا لمستقبل الأمة. ومن المفيد هنا توضيح ما يلي: لم تكن الدَّولة هي التي تغيرت، فالدَّولة الجديدة هي شعارٌ وتغيير في الاسم فقط، لأنَّ دولتنا مستمرةٌ، والجمهورية هي في الواقع استمرار للدولة العثمانية، وهذه نقطةٌ أساسيةٌ ينبغي التوقف عندها. ومن المؤكد أنَّنا لم نقم بهذا التَّغيير بسهولةٍ، لأنَّ بعض الناس كانوا سيرفضونه، بل إنَّ هذه النُّقطة كانت أصلا مسألة اختلفت حولها آراء رفاق الدَّرب الذين ندعوهم بالفريق المؤسس للجمهورية، وأحدثت نزاعاتٍ فيما بينهم.

الجمعة 23 نيسان/أبريل 1920م

في يوم 23 نيسان/أبريل 1920م، بدأ عهدٌ جديدٌ في أنقرة. إذ اعترف الأفغان وروسيا السُّوفييتية الجديدة بحكومة هذا المجلس. كما انتهت المشكلة القائمة في الجبهة الشَّرقية عند توقيع اتفاقية موسكو مع الرُّوس، وتم الالتفات إلى الجبهة الغربية. وقد امتاز مجلس الأمة التُّركي الكبير الذي افتتح في 23 نيسان 1920م بامتيازات ملفتةٍ للنظر. فعلى الرغم من التَّسمية التي وردت في اللغات الأجنبية باسم إمبراطورية دولة التُّرك، وتعني جغرافيا وطَنَنا تركيا، تم ذكر اسم دولتنا باسم "تركيا" للمرة الأولى، وكان ذلك من الأهمية بمكانٍ. وكان تأسيس مجلس الأمة التُّركي الكبير في 23 نيسان 1920م يعني استعمال اسم التُّرك للمرة الأولى في حياة الدَّولة بعد مرور 1400 عامٍ من التَّاريخ.

لم تُظهر أية دولةٍ من الدُّول التي هزمتها دول الحلفاء المقاومةَ التي أبدتها تركيا، وكان لذلك أسبابٌ. فقد كانت تركيا هي الدَّولة الوحيدة التي تمزقت أوطانها بشروطٍ قاسيةٍ (باستثناء المجر). وكانت بريطانيا تنوي أن تذيقها الويلات بسبب الحرب التي استمرت أربع سنواتٍ. وفي ظل هذه الظروف الصَّعبة التأم مجلس الأمة التُّركي الكبير، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها مجلسٌ في دولةٍ إسلاميةٍ بتطبيق مهمة "الشورى" ويمسك بزمام جميع السُّلطات بين يديه.

ورغم أنَّ المجلس الذي سبقه (1877–1878م) كان المجلس الأول، لكنَّه لم يمتلك السُّلطة الكاملة على كافة أجهزة الحكم ولم يكن يستطيع مراقبة الجهاز التَّنفيذي. أما هذا المجلس فكانت لديه صلاحية الإشراف حتى

مصطفى كمال باشا ورفاق دربه على شرفة بناء المجلس الأول1920

على سلطات الحرب الاستثنائية وقد أشرف عليها بالفعل. والجدير بالذِّكر هنا هو الثَّقة والاعتماد اللذين منحهما للعسكريين الذين أداروا الحرب. إذ قام المجلس في هذه الدورة بدورٍ إشرافيٍّ لن يتكرر في الدورات اللاحقة، فأشرف على الجيش، وعلى السِّياسة الخارجية أيضا.

ومن الصَّعب إدراك سبب العداء الذي تبديه الدَّوائر المحافظة في الوقت الحاضر نحو 23 نيسان/أبريل من حيثُ حفل افتتاح المجلس ونهجه السِّياسي، فافتتاح مجلس الأمة التُّركي الكبير تم مقرونا بالدعاء بعد صلاة الجمعة. والواقع أنَّ هذه ليست انتقاداتٍ تاريخية تحت عنوانٍ إيديولوجيٍّ، بل يعتقد أنَّ هناك بعض الأسباب الأخرى.

وفي حقيقة الأمر، كان لتاريخ 23 نيسان/أبريل 1920م آثارٌ على عالم البلقان والشَّرق الأوسط الذي ظهر بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية وعلى العالم الإسلامي عامة. ففي شمال أفريقيا؛ لا زالت صور قادة حرب الاستقلال حاضرة في ثقافة الشَّعب الجزائري والتونسي، بل وفي اللوحات الزُّجاجية المنتشرة في الأسواق. ولا زال حماس تقييمات المسلمين لتلك المرحلة من التَّاريخ، ولا سيما مسلمي الهند، مستمرا حتى اليوم.

حرب الاستقلال رغم المعارضة

كان الوضع يقتضي تأسيس الجيش، لأنَّ عمليات المقاومة بدأت منذ زمنٍ، ورفعت المقاومة رايات النَّصر في محيط أضنة وعنتاب ومرعش. وقد أدركت فرنسا أنَّها لن تستطيع فعل شيءٍ في

هذا الإقليم الذي كان من حصتها فلجأت إلى عقد اتفاقٍ مع حكومة مجلس الأمة التُّركي الكبير، أعلنت خلاله الانسحاب من الحرب. وكانت هذه الخطوة بمثابة صفعةٍ للإنكليز. والجدير بالذِّكر هنا، أنَّ حكومة أنقرة كانت لديها شبكة علاقاتٍ دبلوماسيةٍ واسعةٌ. وهذا يعني أن تركيا الجديدة الشَّابة تولت إرث الإمبراطورية العثمانية. ولكنَّ هؤلاء الأتراك الشَّباب تميزوا عن رجال الدَّولة من أمثال أنور باشا وطلعت باشا بأنَّهم أدركوا أهمية سلاح الدبلوماسية تماما، وكان هذا نتيجة الدَّهاء التَّنظيمي لمصطفى كمال باشا الذي لم يحِد عن القوانين يوما، أضف إلى ذلك أنَّ كارا بكر باشا وعصمت باشا، وهما من قادة حرب الاستقلال، كانا متقيدان بالامتثال لمتطلبات القانون والشَّرعية والنِّظام. كما أن المرحلة التالية للثَّالث والعشرين من نيسان/أبريل لم تخرج قطُّ عن الإطار الذي حدده دستور عام 1876م ولا عن الشَّرعية التي أطَّرها. بل لوحظ أن التَّحرك كان ضمن إطار هذا الدستور دون معارضةٍ له ولا مخالفةٍ.

وقد جرت حوادث تمردٍ إقليميةٌ خلال السَّنة والنصف التي أعقبت حرب الاستقلال، حيث شهد إقليم مرمرة مرحلتين من تمرد أنزافور (أحمد أنزافور) بدءا من بيغا وتشَناق قلعة وإزميت وأدابازاري ودوزجة وصولا إلى هاندك[42]. وكانت لأنزافور علاقاتٌ حميمةٌ مع محيط القصر ومع "الصِّهر فريد"، لكنَّه كان غبيا. وبالمقابل لا يمكن القول بأنَّه "جمع حوله أفراد عشيرته"، لأنَّ حركات التَّمرد في حرب الاستقلال لم تقتصر على إقليم مرمرة والشَّعب الشَّركسي في هذه الأطراف، (إذ جرى منذ العام 1856م إسكان الشَّركس في كافة أرجاء الإمبراطورية: في مرمرة وبولو ومرعش وقيصري وغوروم وأماسيا وهاتاي وسوريا وفلسطين). كما أن التَّمرد شمل قونيا وبوزوك (يوزقاط) أيضا، حيث كان السُّكان المحليون هم رواد التَّمرد فيهما. وكان رد الفعل هذا طبيعيا من قبل سكان الأناضول الذين أنهكتهم الحرب والخدمة العسكرية بعد حرب البلقان والحرب العالمية التي استمرت زمنا طويلا. وقد تركزت تلك المعارضة للعسكرة في أوساط المسلمين من أصحاب التَّعليم المحدود المنتشرين في الأناضول، ومع ذلك لا يمكن التَّغافل عن الدَّور النَّشيط لبعض رجال الدين طوال حرب الاستقلال، وعن تحركاتهم في دعم القوى الوطنية. وفي هذا المجال نذكر أنَّه تم تحشيدٌ هامٌ وبأعداد كبيرةٍ من قِبل الوعَّاظ وأصحاب الأدوار الدعائية، ومن قِبل أمثال مفتي أنقرة بورَكْجيزادة رفعت أفندي، وهو من الدَّاعمين لفتاوى "البابياتاهت" (العاصمة) ولفتاوى حكومة الأناضول في الولايات في آن معا. ولكن عندما أخذت حرب الاستقلال منحى الحرب الداخلية والصِّراع بين الأشقاء، تم طيُّ هذه الصَّفحة مع قيام حكومة مجلس الأمة بتشكيل الجيش

النِّظامي وانضمام الضبُّاط القادمين من إسطنبول إليه. إلاَّ أنَّ الأطراف التي كانت تقتات تحت رداء الإخلاص للقصر والباب العالي وترى أن مصالحها تتناقض مع الجهة المقابلة، لم توفر جهدا في إثارة هذا الشَّعب المنهك.

وكان سكان الأناضول رغم كلِّ شيءٍ، من أكثر الشُّعوب التي خرجت من الحرب العالمية الأولى رغبة في الانضمام إلى الدِّفاع عن الوطن، ولم تتردد فئاتٌ عدةٌ في اللحاق بالجنود الذين كانوا في المقدمة (هؤلاء الجنود تحولوا إلى مجموعة عناصر متذمرةٍ ومهمشةٍ في الدول المنهزمة الأخرى، بينما ظهروا كقوةٍ مؤثرةٍ فعليا في تركيا). ومن جهةٍ أخرى كان البعض يقتربون من الطَّرف المقابل منذ البداية سعيا للوقوف ضد النِّضال الوطني، وكان دور هؤلاء منهِكا للغاية، بل كانوا أشدَّ إنهاكا وإثارة لليأس من البريطانيين واليونان.

إنَّ مستوى التعليم وجودته وطبيعة رجال الدين لها أهمية بالغة بالنسبة للمجتمعات خلال الحروب. وقد برزت هذه الأهمية جلية خلال حرب الاستقلال.

وقد تمثلت مهزلة أنزافور في أنَّه أحيل إلى التقاعد وهو برتبة "يوزباشي" (نقيب) ثم مُنح رتبة الباشا التي تُدعى رتبة "باشي بوزوق باشا". ولا شكَّ أنَّ الإهمال والمهانة والبيروقراطية التي اتصفت بها حكومة "الصِّهر فريد" كان لها دورٌ في ذلك.

واللافت هنا أن الذي قام برفض الأمر وتأديب هذه الحركة هو "أدهم باشا" الذي كان شركسيا، كما أنَّ القائم مقام الذي قتله المتمردون بدون رحمةٍ في هاندك وهو العقيد محمود بيك يدعى "محمود بيك الشَّركسي" أيضا، وقد أعدمه المتمردون بطريقةٍ بشعةٍ، وألقوا جثته في الماء فريسة للحيوانات البرية. وبالتَّالي، لا يجوز ربط مثل هذه التَّمردات بالصِّراعات العنصرية.

وفي النِّهاية تم سحق التَّمرد الأول لأنزافور من قبل وحدات "قواي ميللية" (القوى الوطنية)، ولكن اندلع لاحقا تمردٌ ثانٍ، بدعمٍ من حكومة "الصِّهر فريد" رغم عدم إتقانه لفنون القتال، في كلٍّ من محيط سَكاريا ودوزجة وهاندك، وكان هذا الإقليم هو الأكثر دعما للتَّمرد، وقد تطلب القضاء على التَّمرد الثَّاني قوة أكبر. والجدير ذكره هنا أن حكومة أنقرة مدينةٌ بأمور كثيرةٍ لأدهم باشا، وقد اعترفت بذلك بشكلٍ جليٍّ.

ظهرت أثناء تشكيل المجلس الأمة في العام 1919م بعض التَّحركات لاتهام الحكومة بالاتحادية، واستمرت هذه الاتهامات والاعتراضات رغم قيام مجموعة الأناضول برفض الاتحادية بل ولعنتها في مؤتمر سواس. ولابد هنا من التَّوضيح أنَّه في تركيا عام 1919م، وفي ظروفٍ لم تشهد التكنولوجيا المتطورة ولا وسائل الإعلام المختلفة، كانت الإشاعات قوية مع الأسف إلى حدِّ أنَّها كانت السَّباقة في كلِّ شيءٍ. وهكذا كانت تلك الفترة من أصعب الفترات التي شهدها مصطفى كمال باشا حتى تم الانتهاء من تشكيل الجيش النِّظامي.

وفي الواقع لم يكن الوئام بين المتمردين على ما يرام دوما، حيث كان البعض من المتمردين غدارين من أمثال "غاور إمام أنزافور" (الإمام الكافر أنزافور)، وكان البعض متخبطين لا يدري ما يريدون. وكان بينهم عناصر متمسكةٌ بالتَّمرد بشكل هستيري، وبالمقابل كان بينهم عناصر ممن فروا من الجيش النِّظامي، وفي الطريق تم إقناعهم من قِبل عناصر الطَّرف المتمرد بالانضمام إليهم. كما كانت مشاعرهم متباينة تجاه جنود وضباط "قواي ميللية" (القوى الوطنية)؛ فالبعض يحقد حقدا أعمى، والبعض ليِّنٌ بعض الشيء. وعلى سبيل حين سيطر المتمردون في (غَرَدَة) عليها وأردوا شنق خسروي بيك، دفع مظهر الجنود القويُّ والمهيبُ المتمردين إلى التَّردد، وبدأ النِّقاش يدور حول ما إذا كان شنقه جائزا أم غير جائزٍ، وتم تأخير عملية الإعدام، وعندها وصل عناصر القوى الوطنية وأنقذوه من القتل.

ومن الضَّروري التوقف هنا عند طبيعة الأشخاص الذين قضوا على التَّمرد: فأدهم كان شخصا نصف متعلمٍ، لا معرفة لديه، لكنَّه كان ذا رتبةٍ عاليةٍ جدا وذا قدرةٍ كبيرةٍ على الإقناع، حيث استطاع في بعض المرات السَّيطرة على العناصر المتمردة مع أسلحتهم. وكان أدهم وغيرَسونلو عثمان آغا (طوبال عثمان) قويَّان، إلاَّ أنَّ مواقف عناصر مجموعتيهما تجاه الشَّعب كانت متباينة. فعلى سبيل المثال: كان عثمان آغا يميل إلى العلاقة الجيدة والمتوازنة مع الشَّعب. وفي نهاية المطاف جرت تصفية هذه المجموعات إثر تشكيل الجيش، وتحولت قوات عثمان آغا لتكون فيما بعد أولَّ وحدة حراسةٍ لمجلس الأمة. ونقول في هذا السِّياق إنَّه من الخطأ إلغاء وحدة حراسة المجلس، وهو الأمر الذي حدث مؤخرا، بل يجب إعادة تشكيلها.

بدأت التَّشويشات ضد الحركة بالظُّهور مع أوائل عام 1920م في الأناضول، فكان من البساطة بمكان اتهام جركس أدهم بالخيانة، لأنَّ الأمر كان عبارة عن صراعٍ وتحزبٍ. حيث كان

هناك من يتهمه بالخيانة بسبب التحاقه باليونان، ويعتبر ذلك استسلاما وانسحابا، ولا يقبل التَّبرير بأنَّه حدث نتيجة التَّضييق من الجيش النِّظامي.

وكان أدهم قد رفض الانصياع لسلطة الإدارة وتمرد عليها عندما انتقلت أنقرة إلى مرحلة الجيش النِّظامي والدِّفاع النِّظامي. ولم يكن له بالمقابل أيُّ مطلبٍ. ومن المفيد هنا الحديث عن جركس أدهم، الذي نشأ كصف ضابطٍ، وكان واقعا تحت سيطرة شقيقين له متخرجين من الحربية، أحدهما هو رشيد بيك، وكان معارضا قويا لعصمت باشا، حتى أنَّه كان يعارضه أكثر مما يعارض الرئيس مصطفى كمال باشا، وكان دائم التَّأثير على أدهم. وبمرو الوقت توسعت المشكلة بين الأخوين داخل نظام العائلة ووصلت حد الخصام، وتزامن ذلك مع بروز دور القواعد العسكرية والديوان الحربي، ورفض الأوامر والتهمة بالتَّمرد، فلجأ جركس أدهم إلى الجهة المقابلة. وكان هذا اللجوء مأساة من وجهة نظر أيِّ مؤرخٍ عاقلٍ.

وفي الواقع لم تكن طبيعة هذه القوات تماثل طبيعة الميليشيات المساعدة قبل تشكيل الجيش النِّظامي، فمثلا كان مظهر عناصر "داميرجي أفة" في إيجة أشبه بوحدة تقليديةٍ تمتلك التَّنظيم والشَّجاعة. ولاشك أنَّهم كانوا يطيعون أوامر أنقرة ويضحون بأنفسهم ويحاربون العدو المحتل في الأقاليم التي يوجدون فيها، ولكنَّهم من جهة أخرى لم يتخلوا عن عاداتهم القديمة في فرض الضرائب الباهظة على بعض الأغنياء، وكانوا أشداء على من يعارضهم.

وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك غيرَسونلو عثمان آغا، الذي كانت له مبادئ صارمةٌ ونظامٌ شديدٌ خاصٌّ به. وطبقا للأحاديث التَّاريخية والخواطر التي سمعتها ذات يوم، لم تلجأ ميليشياته إلى حركاتٍ مثل النَّهب العشوائي وعمليات الاغتصاب. وكان مخلصا للغاية لمبادئ أنقرة وأوامرها، ولم يكن له في الواقع أيُّ موقف تمردٍ في هذا السِّياق.

لم ينضم جركس أدهم إلى أيٍ من هاتين المجموعتين، كما لم يتم إرساله إلى المدرسة الحربية مثل شقيقيه رغم رغبته في الالتحاق بها. ولكن يُقال بأنَّه هرب من البيت في عمرٍ مبكرٍ، بسبب عشقه للعسكرية، والتحق بالمدرسة العسكرية وتخرج منها برتبة صف ضابطٍ، ولم يكتفِ بذلك، فانضم إلى "تشكيلاتي خاصة" (القوات الخاصة). وقد كان شخصا ذكيا تعرف على النَّاس وعاشر مختلف شرائح السُّكان في الرقعة الجغرافية الآسيوية من الإمبراطورية، وكان فريدا في قدرته على معرفة الأشخاص وإقناعهم. ومن خلال سماته هذه كانت له شخصية قيادية، ولكن

بالمقابل كان من الصَّعب عليه الانسجام مع التَّقاليد والأركان العسكرية العثمانية، لأنَّ المسألة تتعلق في النهاية بتلقي الأوامر. والنُّقطة الثَّانية الجديرة بالذِّكر هي تقديمه الأولوية للرَّوابط العائلية الموجودة ضمن القبيلة التي ينتمي إليها على ما سواها. وبالتَّالي لا يمكن من وجهة نظرٍ سياسيةٍ القول عن أدهم بأنَّه عسكريٌّ، فهو

مصطفى كمال باشا مع جركس أدهم ورفاقه أمام مقر القيادة
في محطة أنقرة، تشرين الثَّاني/نوفمبر1920

ورغم النَّجاحات التي حققها في حياته النِّضالية اختار صف المعارضة للقادة في أنقرة بترغيبٍ لا مسؤولٍ من شقيقيه.

وقد دفعه ذلك الوضع أخيرا إلى التَّردد في الانضمام إلى الجيش النِّظامي وإلى اتخاذ موقفٍ رافضٍ نوعا ما، ودخل في حركاتٍ توصف بالخيانة، مع أنَّه كان يجب عليه مراجعة نفسه وسط هذه الظروف. وتبقى الإشارة إلى أنَّ مسألة التحاق جركس أدهم بالجيش اليوناني مسألةٌ ينبغي مناقشتها، من حيث جديته في تلك الحركة، ومن حجم الأضرار التي ألحقها بالجيش الوطني. ولا شكَّ أنَّها كانت حركة لا يمكنها الإفلات من العقاب، لذلك اختار حياة اللجوء لينجو من العقاب، ومات خارج البلاد.

أصبحت أنقرة مركز السُّلطة بالكامل، ومركز إدارة الجيش بالكامل، ولم تكن هناك أيَّة معارضةٍ لأنقرة ضمن الجيش في إسطنبول، حيث كان الجميع مؤيدين رغم وجود بعض المترددين أو المتأخرين في الانضمام، ولكن لم يكن أحد من الأسماء المشهورة معارضا.

وقد انتقلت شخصياتٌ مهمةٌ من الذين كانوا في إسطنبول، مثل فوزي باشا وعصمت بيك (إينونو)، إلى أنقرة بعد فترةٍ. أما الأشخاص الثَّلاثة الذين كانوا في المقدمة منذ بداية حرب الاستقلال فهم: مصطفى كمال باشا مفتش الجيش، وكاظم كارا بكر باشا قائد موقع الشَّرق، وعلي فؤاد باشا في أنقرة. وقد اجتمع هؤلاء الثَّلاثة حول موضوع المقاومة وأداروا الأعمال دون ترددٍ، ولهؤلاء الثَّلاثة جوانب مشتركةٌ وجوانب مختلفةٌ، فهم جميعا كانوا قادة لديهم معرفةٌ لا تقتصر على المعرفة العسكرية فقط، حيث كان كاظم كارا بكر يقوم بتلحين أغاني الأطفال وكتابة التمثيليات، كما كانت معرفته بالأدب والتَّاريخ عميقة وتماثل معرفته العسكرية، بالإضافة إلى إتقانه عدة لغاتٍ. وكما نعرف فإنَّ إتقان اللغات الكثيرة كان من صفات الأركان العثمانية، وهذه المعرفة انقطعت لفترةٍ من الوقت، لكنَّها عادت للظهور مرة أخرى الآن.

أما علي فؤاد باشا فكان من نسل الجنرال البولندي "كونت بورزيكي" المعروف باسم "مصطفى جلال الدين باشا"، وقد ترعرع ضمن مجموعة إسطنبول التي تبنت التتريك بعنفٍ وقوةٍ. وهو ذو شخصيةٍ واسعة الاطلاع والمعرفة، إضافة إلى أنَّه ليبراليٌّ وطنيٌّ. ويُعتبر خالا للشاعر "ناظم حكمت"[43] فهو قريب والدته.

ويبقى التَّذكير بسيرة مصطفى كمال خلال المرحلة السَّابقة، وهي معروفةٌ: إذ ولد وترعرع في سيلانيك ومقدونيا، حيث إحدى أكثر أوساط الإمبراطورية تعددا في الأعراق والأجناس، وحيث تنتشر الميول القومية أيضا. وقد بقي هناك ودرس في المدرسة العسكرية إلى حين مجيئه للكلية الحربية في إسطنبول.

وهكذا كان ترؤس هؤلاء الثَّلاثة للمقاومة شيئا طبيعيا، وبالمقابل كان هناك بالتَّأكيد مَن عارض مقاومة الأناضول، وقد حافظ بعضهم على موقفه، بينما عاش البعض فترة من التَّردد والانتظار. وكان من بين المنتظرين فخرالدين ألطاي بيك وعصمت بيك (إينونو) وفوزي تشاكماك باشا الذي رُفع إلى رتبة لواء عام 1914م وأصبح وزيرا للحربية عام 1920م. والواقع أنَّ فوزي باشا لم يكن رجلا عاديا، إذ كان صاحب معرفةٍ ولديه مبادئ واضحةٌ، وكان اسمه معروفا،

وعسكريا ناجحا قبل وصوله إلى ذلك المنصب، ولكنه مع الأسف لم يرَ فوزي باشا في البداية أنَّ مقاومة الأناضول منطقيةٌ، بل إنَّه عارضها أحيانا، ونتيجة موقفه هذا اتسم التَّعامل معه بشيءٍ من البرودة بداية. وعندما جاء اليوم الذي تبين فيه أنَّه لم يعد ممكنا عمل شيءٍ في إسطنبول، كان فوزي باشا من بين الذين أدركوا ذلك متأخرا. فذهب مباشرة إلى مقر "علي فؤاد" باشا في "ليفكه" (بلدة في قبرص التُّركية) بعد رحلة بدأت في ليلة السَّابع عشر من نيسان/أبريل عام 1920م وانتهت في ليلة الخامس والعشرين/السَّادس والعشرين من الشَّهر نفسه. وحين وصل إلى المقر قال: "لقد تأخرنا قليلا" (يقصد أنَّه تأخر في الانضمام للمقاومة) فكان الجواب: "لا عليك باشا"، وتم إرسال برقيةٍ بذلك إلى أنقرة. وكان رأي أتاتورك في البداية هو عدم قدومه، ولكن بعد إصرار علي فؤاد باشا، أرسل أتاتورك إليه برقية ودية تحمل توقيعه بتاريخ 25/26 نيسان/أبريل يقول فيها: "لقد سعدنا بانتقالكم إلى الأناضول بواسطة صفوت بيك. أهلا بكم، وننتظر تشريفكم لأنقرة. مع احترامنا". ولذلك يُعتبر مجيئ فوزي باشا إلى أنقرة واستقباله بهذا الشكل حدثا مهما واستثنائيا.

وفي اليوم الرَّابع من افتتاح مجلس الأم خطب فوزي باشا فيه كنائبٍ عن منطقة "غبزه". وقد وصف "شوكت ثريا بك" ذلك بشكل جيدٍ. فأوضح أنَّه لا يمكن الوثوق بالإنكليز، وأن كفاح الأناضول أصبح واجبا بعد أن فقدت حكومة إسطنبول ومقر الخلافة دورها وأصبحت معطلة وظيفيا.

بعد ذلك تم تعيينه في الخدمة. وقد تسلم منصب وكيل الدِّفاع في أنقرة ورئيس هيئة التَّنفيذ، ثم أصبح رئيس الوزراء، وفي الحقيقة كان يمارس وظيفته بهمةٍ وإخلاصٍ عاليين. ورغم أنَّه كان القائد الأقدم، وأثرى "حركة النِّضال الوطني" من ناحية المشاركة العسكرية، إلاَ أنَّه أضحى خلف مصطفى كمال باشا عندما أعطى المجلسُ الأخيرَ رتبة المشير عقب معركة "سَكاريا". ولكن بعد معركة "ميدان القائد الأعلى" (وتعرف بمعركة دوملو بينار، في آب/أغسطس عام 1922م وسميت بمعركة ميدان القائد الأعلى لأن أتاتورك أدارها) أعطى مصطفى كمال رتبة المشير المذكورة لفوزي باشا. وهو أمرٌ شاهدناه أحيانا عند "نابليون"، حيث كانت رتبة الماريشال الثَّاني تُعطى لبعض جنرالات فرنسا.

وبالإضافة إلى ما سبق فإنَّ هناك الكثير من الأساطير حول فوزي باشا، إذ يُقال عنه بأنَّه متدينٌ جدا، ويتم الحديث عن وقائع لا علاقة لها بالحقيقة. ولكنَّ الثَّابت أنَّ فوزي باشا لم يتدخل أبدا

بأي وكيلٍ أو وزيرٍ في الحكومة – حتى وإن لن يستسغه – فقد كان رجل دولةٍ تلقى تربية الإمبراطورية، وكان رجلا له ثقله. أما في حال وجود مشكلةٍ لديه، فكان يناقشها دون مماطلةٍ مع مصطفى كمال باشا. وتلك الصِّفة (أي عدم خوض النِّقاشات الطَّويلة) كانت موجودة لدى مصطفى كمال باشا أيضا، فمن المعلوم أن النِّقاشات غير المنتهية لن تحقق شيئا.

وينبغي هنا الوقوف عند نقطةٍ، وهي أنَّ "فخرالدين ألطاي باشا" قائد جيش الخيالة، والذي برزت ميزاته الإيجابية في هذا المنصب، كان تابعا لأحد قادة إسطنبول وهو "يوسف عزت باشا"، لأنَّ موقعه كان متأرجحاَ كثيرا، ولم يكن يستقر إلى أيِّ جهةٍ، إضافة إلى أنَّه كان مترددا بشأن موضوع أنقرة. ولكن من باب الأمر الواقع تم إحضاره بالقطار إلى أنقرة، وكان لـ "علي فؤاد باشا" و"رفعت باشا" دورٌ في هذا الخصوص. حيث تم هناك إقناع جميع هؤلاء القادة، وأصبحوا حين عادوا تابعين لأنقرة. وقد جرت كلُّ هذه الأحداث في فترة تأسيس المجلس.

أما عصمت باشا فكان قد انتقل سابقا خلال لقاء "بيلجيك"، واستقبله أتاتورك بشوقٍ لأنَّه كان القائد المنتظر. فجرى تعيينه رئيسا للأركان برتبة عقيد في حكومة "مجلس الأمة التُّركي الكبير". ويقال بأن عصمت باشا كان مساعد أنور باشا الأمين، ونتيجة لصفاته القيادية كان القائد المنتظر. وهكذا تم حل مسألة القيادة وأزمة القادة، واكتملت مجموعة قادة حرب الاستقلال مع التحاق المجموعة الثَّانية، وكان الدَّور في ذلك للصفات القيادية. ونذكر هنا أنَّ مصطفى كمال باشا أقنع بعض القادة رغم استيائه منهم، إذ لم يكن لديه خيار آخر. وقد جرت الحرب ضمن هذا الوضع، وحين اكتمل تشكيل الجيش النِّظامي لاحقا، تم استئناف الحرب، كما تم حل مسألة الميليشيات المساعدة.

وقد برزت مشكلةٌ ثانيةٌ خلال حرب الاستقلال، وحول هذه المشكلة ننصح بقراءة مؤلفات "شوكت ثُريا" و"مته تونتشاي" لتقييم الحركات الثَّلاثة التي سيتم الحديث عنها. ومن المفيد أولا التعريف بـ "شوكت ثُريا"، فهو لم يكن عضوا في الحزب الشُّيوعي التُّركي، بل كان عضوا مباشرا في الحزب الشُّيوعي في جمهورية روسيا الاتحادية والاشتراكية السُّوفييتية التي أصبحت لاحقا الاتحاد السُّوفييتي، وخلال سنوات الثَّورة قام بعمل الدعاية نظرا لمعرفته باللغة الرُّوسية، وكان من نوع القادة البارزين. وقد نظر إلى الأحداث من داخل تلك الحركة بصفته عضوا في الحزب، لذلك يُعتبر توصيفه لحرب الاستقلال مهما بالنِّسبة لنا.

ولا بدَّ قبل المتابعة من بعض التوضيح، حيث كانت هناك حركةٌ تسمى الجيش الأخضر، وهي حركةٌ سادها الغموض، وتضم الكثير من الفرق، ولم يكن معروفا هل هي حزبٌ سريٌّ أم علنيٌّ، ولكن المؤكد هو أنَّها لم تكن مرخصة رسميا، بينما كان الحزب الشيوعي الرسميُّ مرخصا من الدَّولة، إلى جانب الحزب الشيوعي التُّركي الرُّوسي. والجدير بالذِّكر أنَّ الحزب الشُّيوعي التُّركي تقلص مع الزَّمن. وفي الحقيقة لم يكن لدى "شوكت ثُريا" موقفٌ جديٌّ من الحزب الشيوعي التُّركي، كما أنَّ نظرة "شوكت ثُريا" إلى الأحداث كان فيها جانبٌ من نظرة روسيا أيضا.

بالإضافة إلى ما سبق ينبغي أن نأخذ بالاعتبار جولة الجنرال "فرونز" في الأناضول. حيث تجسدت الرؤية العامة في عدم إمكانية ظهور حركةٍ شيوعيةٍ، وعدم حدوث تحولٍ في هذا البلد. وكان الرأي السَّائد هو أنَّ هذه المنطقة كانت دولة كبيرة وحكمت بلادا أخرى ثم خرجت من يدها فتقلصت هذه الدَّولة، ولكنَّ أثرها الدبلوماسي لم يتقلص. وبناء عليه لا بدَّ من دراسة الموضوع بشكلٍ جيدٍ، فقد كانت روسيا حليفتنا كونها دولةٌ تحارب الإمبريالية التَّقليدية، وينبغي تقييمها في هذا السياق، وأنا أعطي أهمية للأمر من هذه الناحية.

ونذكر في هذا السِّياق تأسيس حزبٍ مثل حزب شورى الشَّعب، وقد كتب "مته تونتشاي" دراسة حول هذا الموضوع. وفي الواقع فإنَّ الحركات اليسارية في الأناضول، وتقديم تصورٍ واضحٍ عن مدى كونها عاملا مهما في تلك الأيام، أمرٌ يحتاج لاحترافية كبيرةٍ، خاصة أنَّ الجدال في الحركات التي كانت في إسطنبول لم يتوقف، رغم أنَّه لم يتم البحث فيه كثيرا.

في هذه البيئة مرت الأناضول بمرحلة امتحان القيادة، وقد برز ذلك في الجيش والقطاع المدني والعام. ومع تأسيس مجلس الأمة الكبير اندمجت حركة إسطنبول مع الأناضول، وجرى استخدم المفهوم الشَّرعي الذي ينص على أنَّ المجلس انتقل من إسطنبول إلى أنقرة. وبعبارةٍ أخرى: لا يتجاوز الأمر قدوم المبعوث (النائب) من هناك (إسطنبول) إلى هنا (أنقرة)، حيث إنَّ مبعوثية أتاتورك تستند إلى الانتخابات القديمة، كما أنَّ قدوم "فوزي باشا" كمبعوثٍ لـ "غِبزَه" تستند إلى الأساس نفسه (مع ملاحظة عدم وجود القوات المسلحة الإنكليزية في "غِبزَه"). وبكل الأحوال باتت الأناضول وكأنَّها تقف إلى جانب إسطنبول، وبدأت القناعة تتشكل بأنَّ جميع الإدارات موجودةٌ الآن في أنقرة، لأنَّه توجد في إسطنبول حكومةٌ ومقر خلافةٍ مشلولتين.

وهناك قضيةٌ أخرى مثيرةٌ للاستغراب وهي اتفاقية الصُّلح في أنقرة بعد معركة "سَكاريا"، حيث كانت أنقرة وإسطنبول تُمثلان معا في أوروبا. وفي الحقيقة فإنَّ شرح تلك الأحداث يطول، مع أنَّها حصلت خلال فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ. فعلى سبيل المثال كان لدينا في باريس سفيران، وهذان السَّفيران كانت بينهما علاقات طيبة. وبالطَّبع لم تكن العلاقات بين أنقرة وإسطنبول تشبه العلاقات بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية مثلا أو بين ألمانيا الشَّرقية وألمانيا الغربية سابقا، إذ كان "مختار بيك" وممثل أنقرة "فريد تيك بيك" يتشاوران فيما بينهما ويتبادلان الأفكار في بعض المواضيع. حتى أنَّ ممثل أنقرة في باريس كان يستعير طاقم المائدة من ممثل الدَّولة العثمانية أثناء المآدب.

الشَّعب بشيوخه وشبابه ورجاله ونسائه وقروييه ومدنييه ينتظر مصطفى كمال
ليخرج إلى شرفة بناء المجلس الأول الذي تم فيه اتخاذ قرارات مهمة خلال تأسيس تركيا الجديدة

كان مجلس أنقرة يملك فرقا هاما يميزه عن المجالس الثَّورية التَّقليدية، حيث وجدت ضمن المجلس مجموعات معارضةٌ، ولم تقتصر تلك المجموعات على اليساريين والمحافظين، بل كانت هناك في نفس الوقت مجموعةٌ عسكريةٌ من الاتحاديين الذين دعموا أنور باشا. وكان هذا الطَّرف هو الذي عمل مصطفى كمال على التَّعامل معه بالأساس، لأنَّ هدف هؤلاء كان إحضار أنور باشا الذي

كان خارج الحدود التُّركية، ومن ثم الالتفاف حوله. وبقي هذا التَّصور مستمرا بالفعل حتى الانتصار في معركة "سَكاريا".

كانت المجموعات المعارضة في المجلس تخالف التَّوجهات الجمهورية، وترغب في الحفاظ على الخلافة بل وعلى السَّلطنة أيضا. أضف إلى ذلك أنَّ إلغاء الخلافة وضع قادة حرب الاستقلال في مواجهة بعضهم البعض أحيانا، فكانت مجموعة "المدافعة عن الحقوق" القادمة من أرضروم بشكلٍ خاصٍّ تتبنى الأفكار المحافظة في مواجهة مصطفى كمال وعصمت إينونو وباقي القوميين. وكان "رؤوف خوجا" يترأس هذه المجموعة، كما تبنى "محمد سودي" نائب "لازيستان" لاحقا فكر المجموعة والتي تم تصفيتها في مجلس العام 1924م.

ولم يكن هناك انسجامٌ بين مجموعات "النِّضال الوطني"، إضافة إلى قيام المعارضة بعرقلة إدارة الحرب واتخاذ القرارات الواجب اتخاذها. وفي ظل تلك الأوضاع ينبغي اعتبار التجربة التي عاشها مجلس حرب الاستقلال تجربة ديمقراطية مبكرة غير متوقعةٍ، لأنَّ المجالس في أواخر عهد الإمبراطورية لم تشهد مثل هذا النضج في مجال السِّياسة.

وفي الوقت ذاته تشكَّل في المجلس ما يشبه الكتل الحزبية، واكتسبت هذه التكتلات مع الوقت المزيد من الهيكلية والطابع التَّنظيمي. ولكنَّ مثل تلك المجموعات والحركات لن تُشاهد حتى العام 1946م.

لم يكن من المصادفة اختيار أنقرة لمثل هذا التَّنظيم، فأنقرة كانت أكثر تنظيما وقوة من أرضروم وسِواس، ولم تكن فقيرة مثلما يُقال لنا في الكتب المدرسية التي حافظت على محتواها حتى الآن. بل كانت قد حققت قفزة كبيرة في تجارة الحبوب والصُّوف خلال القرن التَّاسع عشر، وكانت تقع على سكة الحديد والتي جمع التجار الدَّعم لها كي تمر عبر المدينة، وبالفعل أعطت السِّكة الحديدية إضافاتٍ جدية لأنقرة. وللمقارنة نبين أنَّ السِّكة الحديدية التي أرادتها مدينة قيصري لم تصل إليها، ولكنَّ تجار قيصري كانوا ينقلون منتجاتهم مع القوافل إلى أنقرة وفق آليةٍ خاصةٍ ومنها يتم النَّقل إلى الوجهة المطلوبة. وقد تم ربط قيصري بالشَّبكة لاحقا في عهد الجمهورية.

في هذه الصورة الملتقطة خلال فترة النِّضال الوطني، يوجد إلى
جانب مصطفى كمال باشا أصدقاؤه من أمثال فوزي تشاكماك باشا، يوسف كمال تنغير شنك بيك،
رفيق سايدام بيك، جلال بايار بيك، إضافة إلى الممثلين الرُّوس والأذريين

وإذا طالعنا كتب الرَّحالة الأجانب في القرن التَّاسع عشر نرى أنَّه عاش في المدينة أطباء وتجار أجانب لا تزال قبورهم موجودة في أنقرة إلى الآن. بالإضافة إلى ذلك كانت قنصليات إيران وفرنسا وبريطانيا موجودة في المدينة. كما كانت المدينة تمتلك إمكانياتٍ تجارية جدية، ويعود السَّبب على وجه الخصوص إلى وجود سكانٍ أرمن كاثوليك. ولا يفوتنا التَّذكير بالمصرف الذي تم تأسيسه في المدينة. أما على الصَّعيد المعيشي فكانت هناك حياةٌ راقيةٌ وعالية المستوى في الحي الأرمني داخل الجدار الثَّاني لقلعة أنقرة. وعلى الصَّعيد التَّعليمي كانت مدارس البعثات الأجنبية موجودة أيضا. وباختصارٍ كان سكان المدينة يعيشون حياة رغيدة. فظهر التُّجار في أنقرة والمناطق التَّابعة لها مثل "قيصري" و"قيرشهير"، (نذكر مثلا أنَّ "وهبي كوتش" مؤسس عائلة كوتش أغنى عائلات تركيا خرج من هذه البيئة). لم يظهر الثَّراء هناك لاحقا (يقصد أن الثراء كان موجودا). من ناحيةٍ أخرى وبغضِّ النَّظر عن كلِّ ذلك فإنَّ إظهار سكان أنقرة الولاء لمصطفى كمال وقيامهم بفتح أبواب المدينة له، أدى إلى بقائها كمقرٍ للحكومة.

دعونا نتوقف الآن عند موضوع الاحتفال بالثَّالث والعشرين من نيسان/أبريل عيدا للأطفال إلى جانب الاحتفال به كيومٍ للسيادة الوطنية. فقد خلَّفت الحرب وراءها العديد من الأطفال اليتامى، وكان بعضهم دون عائلةٍ أصلا، ولم تكن هناك إمكانيةٌ لتحسين أوضاعهم. إلاَّ أنَّه انطلاقا من نهج

الأنظمة الثَّورية في الاهتمام بالأجيال الصَّاعدة (وهو ما ينطبق على كافة المجتمعات الشَّرقية خلال القرن التَّاسع عشر والقرن العشرين)، فقد ربط المجلس عيد السِّيادة الوطنية بالأطفال، وهو أمرٌ خاصٌّ بنا وعنصرٌ مهمٌّ في تاريخ وثقافة العالم. حيث قرر مصطفى كمال باشا بعد عامٍ من افتتاح المجلس في 23 نيسان/أبريل عام 1923م الاحتفال بهذا اليوم كعيدٍ، وبدأ الاحتفال بيوم "عيد الأطفال" لأول مرةٍ حينها.

مركز النِّضال الوطني

بالعودة إلى أنقرة، كانت المدينة في القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر مدينة تعداد سكانها 20 ألف نسمة، وكانت مركز مقاطعةٍ مهمةٍ.

كما أصبحت بعد عهد "التنظيمات" مركزا لولاية، وإضافة لحدودها الحالية، كانت ألوية "قيرشهير"، "قيصري"، "بوزوك" (حاليا "يوزغات") تابعة لها أيضا. وكانت أنقرة عاصمةُ "غالاطيا" منذ العهد الرُّوماني (عُرفت حينها باسم أنكريا) تعتبر مركزا عسكريا مهما. وقد تأسست مملكة "غالاطيا" الشَّهيرة مع سيطرة "الكلتيين"، وسادت اليونانية في هذه الرقعة الجغرافية بمرور الوقت. لكنَّ الثقافة الكلتية – الغالاطية بقيت في الأسماء والعادات، حيث توجد على جدران القسم الداخلي من معبد "أغسطس"، الذي يعتبر معلما هاما في التَّاريخ العالمي، ترانيم لاتينية تبدأ بالأعمال الصَّالحة والمهمة التي قام بها "أغسطس"، كما يمكن رؤية بقايا الثَّقافة اليونانية – الكلتية من خلال النُّصوص اليونانية الموجودة في الجناح الأيمن للمعبد والتي تشرح مهرجانات واحتفالات المدينة.

وقد استعملت الإمبراطورية البيزنطية، التي تعتبر امتدادا لروما في القرون الوسطى، جميع الأحجار التي جمعتها وحتى أجزاء الآثار الفنية القديمة في بناء قلعة أنقرة.

وفي الحقيقة كانت المدينة دائما تحت خطر الاستيلاء عليها، وهذا ما حدث في العهد السلجوقي، عندما حاصرت جيوش "تيمور" المدينة، لكنَّ السُّكان دافعوا عنها، وكان أعضاء النَّقابات الذين شكلوا "أخويات أنقرة" يديرون المدينة في جوٍّ أخويٍّ دون أن تقع بينهم خلافاتٌ كثيرةٌ، حتى أنَّهم نجحوا في الصُّمود أمام جيوش "تيمور".

يقول البروفيسور "أوزر أرغينج"[44] إنَّه كان من المسلَّم به قيام قاضي المدينة بالتَّحقيق في براءة الوالي المعين، ومن الوقائع المعروفة في هذا السِّياق خلال القرن السَّابع عشر أنَّ القاضي المشهور آنذاك "فيلدان زاده" لم يعترف بتعيين قاطع الطريق "جلالي"، الذي جاء ببراءةٍ من رئيس اللواء، ولم يسمح له بدخول المدينة.

كانت أنقرة مدينة مدهشة، توجد فيها كافة الجماعات من غير المسلمين، وكان يهود أنقرة سكانا أصليين. ومما يلفت النَّظر في هذا السِّياق، أنَّنا إذا عدنا إلى قوائم المدينة الرسمية للبضائع، نجد ضمنها زيت الزيتون الوارد من مناطق بعيدةٍ، وسبب ذلك أن زيت الزيتون كان حلا للعائلة اليهودية في موضوع محظورات الطعام، يمكِّنها من صنع الطعام الذي تريده سواءٌ كان مالحا أم حلوا. ولهذا كان سكان أنقرة يعرفون زيت الزَّيتون جيدا.

أما سكان المدينة الأرمن فدخلوا في تجارة الصُّوف (صوف الماعز)، وقد ساهمت المعامل في تحسين الوضع المادي للشعب. وأصبحت أنقرة إلى نهاية القرن السَّابع عشر مركزا لتصدير القماش، لذلك نجد فيها إلى جانب بقايا حمامات الإمبراطور الروماني "كاراكلا"، العديد من قبور التُّجار الأجانب ومنهم البولنديون والإنكليز.

وأذكر أنَّه في المعرض الذي نظمناه في قصر توب كابي تحت عنوان "كنوز الكرملين"، كان صوف أنقرة بكل عظمته يتصدر المعرض مع حلل القياصرة والأساقفة. ولا ننسى أن الأساقفة السويديين كانوا يرتدون ثيابا مصنوعة من صوف أنقرة.

خلال القرن التَّاسع عشر تم إنشاء أبنيةٍ مثل "تاش هان" (خان الحجر) الذي يُستعمل اليوم كـ "متحف الثَّورة"، ونادي الاتحاد والترقي. وكان من الواضح أنَّ حكومة "النِّضال الوطني" ستستقر هنا، حيث أصبحت بعض المدارس ودوائر الدَّولة (مثل بناء المحطة في الجنوب، والمدرسة الزِّراعية على طريق "كجي أورن – كالابا"، و"ساري قشلا" أو الثَّكنة الصفراء) مقراتٍ لحكومة أنقرة.

وحين وصل مصطفى كمال باشا إلى أنقرة في كانون الأول/ديسمبر عام 1919م وجدها مدينة على الصُّورة التي ذكرناها. ورغم أنَّ الفقر كان موجودا، لكنَّ المدينة كانت تحتوي على

مخزونٍ معينٍ من الثَّروة. ورغم أنَّها كانت مدينة متربة ومغبرة وذات طابع محافظٍ، لكنَّها كانت على اتصالٍ مع العالم.

كيف أصبحت أنقرة عاصمة؟ لا يمكن إلى الآن الإجابة على هذا السُّؤال بسهولةٍ، ولكن هناك أمرٌ واضح وهو أنَّ إزمير كانت موقعا سلبيا من النَّاحية الاستراتيجية، كما أنَّ المعارضة في قونية وإسطنبول كانت بداية العام 1920م بين رافضٍ ومترددٍ. وفي نهاية الأمر كان الانتصار قد تحقق في أنقرة، وعلى الأغلب كانت طبقة الإدارة الرَّسمية هي التي أوحت بقرار اتخاذ المدينة عاصمة، قبل قادة حرب الاستقلال. وفي الحقيقة استحقت أنقرة ذلك، ولكن لا يمكن قول الشيء ذاته عن المكاسب السَّهلة التي حققها المضاربون على الأراضي.

الغازي مصطفى كمال باشا يشارك مع أصدقائه في الدعاء الذي يتلوه «
عبدالله عظمي افندي» من أجل انتصار الجيش خلال عيد الفطر أمام بناء المجلس

وباختصار فإنَّ الصُّورة التي تُرسم لأنقرة خلال فترة النِّضال الوطني تضلل الجميع، لأنَّها كانت غير ذلك في الواقع، فمن النَّاحية التجارية كانت أنقرة خلال القرنين التَّاسع عشر والعشرين على اتصالٍ مع العالم الخارجي أكثر من مدن الأناضول الأخرى. وكان يوجد فيها الأطباء الأوروبيون والقناصل والمدارس الأجنبية وتجار الصُّوف الأغنياء من الجماعات الأرمنية

والكاثوليكية. كما كانت مليئة بالنَّاس القادرين على العمل والدخول في المشروعات. ومع هذه الخصائص أصبحت هذه المدينة مرشحة لتكون مركز حرب الاستقلال.

أما بالنسبة للمدن الأخرى، فقد اجتمع مؤتمر "أرضروم" بعددٍ أقل من الممثلين عما نعرفه، ولم يكن هناك مشاركون كثر في "سِواس" أيضا. ورغم الاستقبال الحار الذي لقيه مصطفى كمال باشا في "سِواس"، إلاَّ أنَّها كانت بعيدة ومن غير الممكن اتخاذها مركزا.

كان سكان أنقرة أكثر من استقبل مصطفى كمال بحرارةٍ ودعمٍ. أضف إلى هذا أنَّ المدينة كانت في موضعٍ تهيمن معه على الأناضول من خلال خطوط السكك الحديدية. وكما ذكرنا سابقا تشكلت حكومة المجلس هنا وأصبحت مركز حرب الاستقلال.

فن الانسحاب

يُعتبر الغازي مصطفى كمال باشا في الحقيقة عسكريا مهما في تاريخ الحرب، إذ توجد تقنياتٌ قام بتطويرها في التَّاريخ العسكري التُّركي، وعلى رأس هذه التقنيات يأتي الانسحاب والعودة للخلف. فالجيوش التُّركية لم تكن تعرف الانسحاب، ولم يعرف الأتراك التِّقنيات التي كانت تستخدمها جيوش روما في الانسحاب والتراجع، وكلما تطلب الأمر تراجعا كانت الهزيمة حتمية.

لكنَّ ذلك لم يحدث في حرب الاستقلال، لأنَّ خطة التَّراجع كانت استراتيجية طورها قادة حرب الاستقلال أي الضباط الشَّباب في الجيش العثماني وعلى رأسهم الغازي مصطفى كمال باشا، وكانت تلك الاستراتيجية أسلوبا عسكريا وسياسيا وفي الوقت ذاته خطة استراتيجية.

وبعد أن كانت الجيوش التُّركية تدافع بجنودٍ في غاية الثَّبات والتَّحمل والعناد، فإنَّهم تعلموا كيف يحولون هذا الدِّفاع إلى هجومٍ.

حرب الاستقلال

إنَّ القائد العام (أي مصطفى كمال) بنظر الجميع ودون نقاشٍ هو من رجال الشَّعب التُّركي الكبار. وعادة تتم دراسة سيرة الرجال الكبار، وأكثر من مرةٍ، فتختلف التَّعليقات حولهم، ويجري طرح الأسئلة، والبحث عن أجوبة. وهذا الشيء هو الذي يجب القيام به في الأساس، لأنه لا يمكن

قبول أيٍّ شيء على أنَّه حكمٌ أكيدٌ. وتقييم الأشخاص الذين حجزوا مكانة في التَّاريخ لا ينبغي أن يتم بناء على معلوماتٍ ملفقةٍ.

وبالتَّالي لا يمكن إثارة الجدَّل حول إدارة شخصٍ حقق النَّصر في "موهاج"، فهذ الجدال عبثيٌّ ويشبه بجنونه وعبثيته الجدَّل حول رياضيات "برنار ريمان" (عالم رياضيات ألماني) و"نيكولاي لوباتشيفسكي" (عالم رياضيات روسي).

كما أنَّ أقوالا على نمط: "إنَّ حرب الاستقلال كانت من تخطيط الإنكليز" هي أمورٌ تثير الضَّحك، وحتى الإنكليز سوف يضحكون منها. لأنَّ هذه الأمور لا تتعدى كونها تفسيراتٍ وحماقاتٍ لا مكان لها واقعيا.

ولا علاقة لذلك الموضوع بحرية التَّعبير. إذ أنَّ التَّقليل من شأن القادة والمقاتلين والانتصارات التي حققها الاتحاد السُّوفييتي خلال الحرب العالمية الثَّانية، في روسيا الحالية التي ألغت الدَّولة السُّوفييتية والشيوعية وقبحتها ودفنتها في التَّاريخ، بل حتى استعمال تعابير تسيئ إلى الجيوش الرُّوسية في الحرب العالمية الأولى خلال العهد القيصري، كل ذلك يؤدي إلى انتقاداتٍ لاذعةٍ من المجتمع قبل أن يؤدي إلى المحاكم. والأمر نفسه يسري في فرنسا وبريطانيا.

القيامة الحقيقية بعد الحرب العالمية الأولى:
النِّضال الوطني

دفعت فاتورة الحرب العالمية الأولى الثقيلة الشَّعبَ والنُّخبةَ، بما ذلك القادة العسكريين، إلى توخي المزيد من الحذر، ولكن بالنِّسبة لمصطفى كمال باشا ومحيطه كان هناك تقدمٌ سريعٌ إلى جانب الحذر. وبالطَّبع فإنَّ قراءة الوضع والتَّأثير في النَّاس يتطلب دهاء. وفي الواقع كان الجميع يحب وطنه ويحاول إنقاذه، وقد استطاع مصطفى كمال باشا بمؤهلاته القيادية أن يقنع زعماء الأقاليم والشَّعب وأن يجمعهم. ومن الواضح أن الانتصار الذي تُوج في الثَّلاثين من آب/أغسطس لم يأتِ خلال يومٍ واحدٍ، بل تم نسج النِّضال الوطني غرزة غرزة حتى معركة القائد العام (معركة دوملو بينار).

لقد أخضعت معاهدة "موندروس" في الثَّلاثين من تشرين الأول/أكتوبر عام 1918م تركيا لشروط احتلالٍ ثقيلةٍ. إضافة إلى أنها كانت تفسح الطَّريق لقوات الاحتلال في الفترة التَّالية لتوقيع

المعاهدة كي تقوم بالتَّغييرات الاستراتيجية التي تراها ضرورية، وبالفعل قامت قوات الاحتلال بذلك.

كان السِّياسيون والقادة الأتراك، حتى خلال الظُّروف الصَّعبة للعام 1918م، يعتقدون واثقين من أنفسهم بأنهم سيواجهون إنكلترا وفرنسا فقط. لكنَّ الإمبراطورية البريطانية كانت منهكة، وكانت إمكاناتها القتالية من النَّاحية البشرية محدودة ولا تسمح لها باحتلال تركيا، لذلك أخذت القوات اليونانية الجديدة إلى جانبها منذ البداية. وقبل احتلال إسطنبول بمدةٍ طويلةٍ، نصَّبَت اليونان حاكمة على "تراكيا". لأنَّه رغم هزيمة اليونان في معركة "سَكاريا"، فقد أبدت إنكلترا – ودون تأخيرٍ – باسمها وباسم حلفائها تعاطفها مع اليونانيين لاحتلال "تراكيا"، مع أنها أظهرت عدم رضاها في البداية.

أنزلت اليونان الجنود في "تكيرداغ" قبل الهجوم الكبير، فكانت اليونان، التي أُرسلت لاحتلال مناطق غير متوقعة في "إيجة" و"مرمرة"، وكانت اليونان الذِّراع اليمنى لإنكلترا. وساعد هذا الوضع السيئ في تقوية المقاومة عند الجيش والقوات التُّركية وبعض الأهالي في البلدات الصغيرة، كما جمع من جديد الاتحاديين الذين كانوا أكثر عناصر الرأيِّ العام التُّركي وعيا وتنظيما. إذ كان الاتحاديون قد انقسموا إلى قسمين خلال حرب الاستقلال، قسمٌ لم يتخل عن أنور باشا وطلعت باشا، وقسمٌ آخر مهم تجاوز شخصية أنور باشا وعهده، والتف حول أنقرة من أجل حر ب الاستقلال.

وفي الوقت الذي كان مصطفى كمال باشا يحتضن فيه الجميع، فإنَّه لم يتنازل عن مبادئه، وأعلن صراحة التَّنازل عن الهوية "الاتحادية"، ولكن لم يكن استبعاد جميع "الأتراك الشَّباب" ممكنا، إضافة إلى أنَّه كان متعاطفا معهم ويحسب نفسه عليهم. وقد رأى "الأتراك الشَّباب" أن الإمبراطورية كانت على وشك الانهيار، وأرادوا إدارة حقوقية وقانونية لمنع ذلك. وبالنَّتيجة تأسست تركيا على أيدي تلامذة ذلك الفريق.

تركيا في العام 1918
كانت مختلفة تماما عن تركيا 1914م

كانت قوة دول التحالف وانتصارهم أمرا واقعا، لكنَّ فريق أركاننا رأى نقاط ضعفهم. ورغم كلِّ شيءٍ ورغم هزيمة تركيا في نهاية العام 1918م إلاَّ أنَّها اختلفت عما كانت عليه في العام

1914م، لأنَّ سنوات الحرب الطَّويلة في مختلف الأنحاء الجغرافية، زادت من قوة المقاومة لدى فئةٍ قليلةٍ من القادة الأتراك، مثلما فتحت الطريق لظهور أفرادٍ ومجموعاتٍ تفكر بطريقةٍ مختلفةٍ حول مستقبل تركيا، وقد عزز خط الجبهة الطويل للجيش التُّركي مع دول مثل إنكلترا وفرنسا وإيطاليا هذه المقاومة. وبالتَّأكيد لم يكن عدد الذين ينظرون بإيجابيةٍ إلى العسكريين الأتراك قليلا في الجيش البريطاني.

كانت إيطاليا منذ انتهاء الحرب تشعر بأنها خُدعت جراء المواقف المغرورة لكلٍّ من فرنسا وبريطانيا، ولم يقتصر تعاطفها مع الأناضول على الكلام فقط، إذ كانت إيطاليا أكثر المنزعجين من إعطاء الأراضي في "إيجة" لليونان، لأنَّها كانت موعودة بتلك الأراضي كي تدخل الحرب، كما أنَّها تخلت عن حليفتها ألمانيا ووقفت إلى جانب دول التحالف.

هل كانت إدارة المضيق ستُعطى لليونان؟

لنلقِ نظرة الآن على الأحداث التي وقعت في جانبنا، وقبل ذلك لنسجل ملاحظة أو اثنتين: كان ابن الصدر الأعظم الأخير "توفيق باشا" واسمه "إسماعيل حقي بك" رائدا في الجيش، وصهرا للسُّلطان حيث كان متزوجا من "أُلفية سلطان". وقد ذهب "إسماعيل حقي بك" إلى الأناضول، فظنَّ مصطفى كمال أنَّه كان يحمل رسالة من الطَّرف الآخر، أي من والده الصَّدر الأعظم ومِن حَميه السُّلطان. في حين أنَّه انتقل إلى الأناضول دون علم أحدٍ، وقال لمستقبليه: "لنذهب إلى القتال الواجب على كل جنديٍّ وضابطٍ. لقد قدمت كي أنضم إلى قوات الأناضول". وبالفعل لاقى القبول من الأناضول.

لقد وصل الأمر إلى هذه المرحلة بالفعل، حتى أنَّ ابن "مديحة سلطان" من زوجها الأول والابن غير الشَّرعي لـ "الصِّهر فريد" كان يريد الانضمام إلى حركة الأناضول، وكان الإنكليز على درايةٍ بذلك بهذا الأمر، فأعلنوا من المفوضية أنَّه يمكنه الذهاب بالتَّأكيد وأنَّهم سوف يعطونه التأشيرة للذهاب، وقالوا: "إذا أراد حضرته يمكننا إرسال مرافقةٍ لحمايته حتى الوصول إلى الأناضول، ولكنَّ اليونانيين ينتظرون على أتم الاستعداد للحفاظ على إسطنبول والمضائق".

وكان هذا احتمالا مخيفا جدا، حيث أظهر بوضوحٍ أنَّ موضوع إعطاء حماية إسطنبول والمضائق وقيادتها لليونان كان مدرجا على جدول الأعمال، وهو أمرٌ ربما يكون مجرد تهديدٍ وربما يكون مخططا مدروسا.

تأسيس الجيش النّظامي

كان تنظيم الجيش الوطني، وإدارة القوات غير النِّظامية، واستبعاد تلك المجموعات بعد تأسيس الجيش النِّظامي فترة صعبة. ولكن ينبغي أن ندرس تلك المرحلة التَّاريخية ضمن الشُّروط والظُّروف المحيطة بها، وبالتَّالي النَّظر بإيجابيةٍ عند تقييم إجراءات تلك القوات رغم فوضوية أفعالها قبل اكتمال تأسيس الجيش الوطني. لأنَّ إجراء التَّقييم العسكري يجب أن يكون من منطلقٍ تاريخيٍّ وبعيدا عن ظل السِّياسة.

كان ظهور الجيش النِّظامي يتم بشكل متوازٍ مع الجهود الدُّبلوماسية، وكانت انتصارات "كاظم كارا بكر"، وفوز "مجلس الأمة التُّركي" بتأييد روسيا البلشفية، وحياد فرنسا المستاءة قبل معركة "سَكاريا"، وموقف إيطاليا المهم، أمورا ستظهر أهميتها في التَّاريخ القريب.

دستور العام 1921م

تمت كتابة أول دستور لتركيا الحديثة في العشرين من كانون الثَّاني/يناير عام 1921م، وجرت الموافقة عليه وإدخاله تاليا حيز التَّنفيذ من قبل "مجلس الأمة الكبير". وأصبح ساري المفعول في يومٍ يتوافق تاريخه بشكل نادرٍ وغريبٍ مع تاريخ دستور الإمبراطورية، أي كانون الأول/ديسمبر عام 1876م.

وبالنَّظر إلى التَّطبيق، لم يكن بالإمكان مراعاة دستور العام 1876م (القانون الأساسي) الذي كانت الملكية الدستورية عماده. وكان الارتباط بذلك الدستور معنويا فقط، فالنِّظام الموجود في أنقرة كان نظام المجلس التقليدي. وكان تصويت النواب هو من يعين الوزراء، ورئيس الحكومة هو نفسه رئيس "مجلس الأمة الكبير" أي مصطفى كمال باشا، كما كان الجيش هو جيش المجلس. ومع ذلك لا يمكن القول إنَّ بعض الأحكام الأساسية في نص دستور العام 1921م تم تنفيذها لتحقيق التوافق مع تلك الفترة.

وبالرغم من كلِّ شيءٍ فإنَّ الأشخاص الذين كانوا يديرون تركيا، كانوا يراعون القانون والشَّرعية أثناء قيامهم بالنِّضال الوطني، ولكن بعد تحقيق النَّصر ونظرا للظروف التَّاريخية أُلغي دستور العام 1876م (القانون الأساسي) مع إلغاء السَّلطنة في تشرين الثَّاني/نوفمبر من العام 1922م، كما حل دستور العام 1924 (التَّشكيلات الأساسية) محل دستور العام 1921م. وإلى الآن

فإنَّ أكثر الدساتير استمرارا لفترةٍ طويلةٍ في تاريخ الجمهورية التُّركية هو نص دستور العام 1924م.

وفي الحقيقة كان دستور العام 1921م إعلانا جذريا وقصيرا ومؤذنا بنهاية السَّلطنة، حتى كاد أن يكون إعلانا مبطنا لتأسيس الجمهورية. حيث كانت المادة الثَّانية من القانون المؤلف من 24 مادةٍ تنص على أن السِّيادة للشَّعب، والأهم من ذلك أنَّ اسم الدَّولة تأكد في المادة الثَّالثة والتي تقول: "تدار الدَّولة التُّركية من قبل مجلس الأمة الكبير".

وبالتَّالي كانت سيادة الشَّعب فوق الخلافة حسب رأي "إيلما ليلي حمدي خوجا" وهو الذي وصفه "سليمان خير بولا خوجا" برائد "تفسير الاجتهاد"، كما أكد "طه آق يول"(صحفي وكاتب تركي معاصر) على علوِّ سيادة الشَّعب، وهو ما يعني أنَّ النِّظام الجديد كان مقبولا من قبل بعض الذين تلقوا التعليم الشرعي.

كان هناك الكثير من الأحكام التي لم تطبق من دستور العام 1921م (التشكيلات الأساسية)، وكانت الأعمال المتعلقة بالتَّعليم والصَّحة والميزانيات المخصصة لها في المدن والبلدات مسؤولية مجلس الشورى في المنطقة، لكنَّ هذه المجالس لم تؤسس. كما كان هناك حكمٌ غريبٌ آخر، حيث لم يكن كامل أعضاء المجلس من أعضاء التَّشريع الدائمين في العاصمة، أي لم يكن جميع الأعضاء يعيشون في المجلس التَّشريعي، بل كان مبعوث (نائب) كلِّ ولايةٍ سيؤسس مجلس شورى دائم. وهذا الحكم الغريب عن الديمقراطيات الغربية كان أشبه بالـ "بريسيديوم" (هيئة الحكم في الاتحاد السوفييتي)، ولكنه لم يُطبق أبدا.

لقد عكس دستور العام 1921م (التشكيلات الأساسية) دون شكٍّ سيادة المجلس، وكان بمثابة وثيقة للانتقال إلى الجمهورية. ولكن مع إلغاء السَّلطنة والمصادقة على معاهدة لوزان وإعلان الجمهورية، أصبحت هذه الوثيقة غير كافيةٍ، لذلك أخلى هذا الدستور مكانه لدستور العام 1924م. وحل نظام الفصل بين السُّلطة التَّشريعية والتَّنفيذية محل نظام سيادة مجلس الشَّعب.

وفي المحصلة أظهر دستور العام 1921م "كفاح الأناضول" كحركةٍ تراعي الحقوق ولا تتردد في الإعلان عن الأفكار الجمهورية.

كانت معارك إينونو عرضا وحملة للجيش النِّظامي والقوات التَّابعة لحكومة "مجلس الأمة الكبير"، ولم تكن نصرا نهائيا ولا معركة فاصلة نهائية. إذ لم يكن هناك مقدارٌ كافٍ من التَّحضير والاستعداد.

أما المعركة الحقيقية فكانت "سَكاريا"، حيث كان الانسحاب والتَّراجع طويلا ومنتظما وعبارة عن خطةٍ استراتيجيةٍ ناجحةٍ، وفيها تعلم الأتراك أسلوب التَّراجع. وبالنِّهاية كانت معركة "سَكاريا" معركة حقيقية ضارية وطويلة، استمرت 22 يوما و22 ليلة. بينما كانت المرحلة التَّالية هي معركة "أفيون كوجا تبه" المسماة معركة "القائد العام".

مصطفى كمال باشا يتفقد ميدان المعركة خلال معارك «إينونو»
ونرى في الصُّورة اعتبارا من أقصى اليمين: عثمان طوفان بيك، المرافق مظفر قليج، شمس الدين تانر بيك، عارف أيجي بك، مصطفى كمال باشا، توفيق بيكلي أوغلو بيك، المرافق صالح بوزوك بيك

وقد ساهمت معارك "إينونو"، التي جرت بين كانون الثَّاني/يناير وآذار/مارس أثناء طقسٍ صعبٍ، في زيادة التَّحفيز ورفع المعنويات بشكلٍ جديٍّ. وكانت معركة مهمة وناجحة من حيث إظهار إمكانية وقوع الحرب واستمرارها، كما كانت لها نتائج انعكست على النَّواحي الدبلوماسية.

بدأ الهجوم العام لليونانيين في كانون الثَّاني/يناير من العام 1921م، وكانت تلك هي الحملة الجماعية العسكرية الثالثة للجيوش اليونانية. وكان "أدهم الشركسي" لا يزال حينها على الساحة،

وأدى تنظيمه للقوات النِّظامية في جيش المجلس إلى التجاء "أدهم" لليونانيين.

ولا شكَّ أنَّ معارك "إينونو" هي أكثر المعارك إثارة للجدل في تاريخ حرب الاستقلال. إذ بعد أن قويت شوكة المعارضة بعد العام 1946م، وبعد ظهور الحزب الديمقراطي، ولدت الرغبة في التَّقليل من أهمية معارك "إينونو" في التَّاريخ، بعد أن كانت تلك الرغبة مقتصرة على المجموعات الجانبية للمعارضة.

لقد قيل إنَّ حروب "إينونو" كانت في الحقيقة هزيمة قدَّمها مصطفى كمال باشا على أنَّها انتصارٌ مجاملة لـ "عصمت بيك". وهذا الزَّعم غير دقيقٍ لأنَّه لا يمكن القيام بإطراءٍ أو مجاملةٍ لأيِّ قائدٍ من خلال اختلاق حادثةٍ عسكريةٍ ملفقةٍ.

مصطفى كمال باشا مع قائد الجبهة الغربية عصمت إينونو
بعد النَّصر في معركة «إينونو» الثَّانية1921 م

وفي واقع الأمر لعب الثَّبات والعناد في نظام "عصمت باشا" الدِّفاعي بمواجهة القوات اليونانية المهاجِمة دورا في المقاومة أمام التَّراجع. والملاحظ أنَّ القوات اليونانية في المقدمة فقدت الاتصال بالمركز، لذلك اختارت التَّراجع بشكلٍ فرديٍّ أمام الدِّفاع، وكلما تراجعت تبعتهم قوات "المجلس". وبالنِّهاية أسفرت معركة "إينونو" الأولى عن انتصار القوات التُّركية وتراجع العدو، ولكنَّ اللافت كان انسحاب قوات "الشركسي أدهم" من الميدان في الجنوب، إذ لم تتبق لتلك القوات

فرصةٌ للقتال أكثر ضمن الجيش اليوناني الذي انضموا إليه حديثا، وكان الانسحاب أفضل لهم. ولسوء الحظ لم يذهب الدَّعم بالاتجاه الصَّحيح. ورغم ذلك فإنَّ النجاح في معركة "إينونو" رفع المعنويات في البلد ورسخ مسألة الكفاح الوطني، كما رفع من معنويات "حكومة المجلس"، بل ومن معنويات "المجلس" نفسه.

وبالإضافة إلى ذلك عززت النَّجاحات على جبهة الشَّرق من النَّجاحات السابقة، ففي الثَّالث والعشرين من شهر شباط/فبراير اللاحق دخلت الوحدات التُّركية "أردهان" و"أرتفين"، وكانت معركة عنتاب منتهية أصلا. وهذه المقاومة الأسطورية انتهت مع بدايات شهر شباط/فبراير.

أما عند الحدود الجنوبية فكان الدِّفاع بالنِّسبة للفرنسيين غير فعالٍ، والاحتلال مكلفا، لذلك قررت فرنسا الانسحاب من الجبهة.

وقد فتحت هذه الأوضاع الطَّريق لـ "صلح أنقرة"، وبعد فترة جاء "هنري فرانكلين – بويلون" إلى أنقرة.

معركة "إينونو" الثَّانية

جرت لاحقا النِّقاشات حول الأهمية الاستراتيجية لقيام معارك "إينونو" بإيقاف العدو، أما في معركة "إينونو" الأولى فكان بالإمكان الحديث لأول مرةٍ عن مقاومة الجيش النِّظامي. ولا يزال النِّقاش جاريا حول توفيقنا هناك، بينما كان الواقع أنَّه في نهاية الجهود لإيقاف هذا التَّقدم استمر التَّراجع بشكلٍ منتظمٍ من جديد. وهذا أمرٌ يحدث لأول مرةٍ

في التَّاريخ التُّركي، ولمرةٍ وحيدة. لأن الجيوش التُّركية ومن ضمنها الجيوش العثمانية لم تكن تعرف أسلوب التَّراجع، بل كان التَّراجع يتحول إلى هزيمةٍ مباشرةٍ. وعلى سبيل المثال قمنا بعد الخسارة في "إيزلادي دربندي" بالتقاط أنفاسنا في "فارنا" حيث تجمعنا هناك وأدرنا الحرب. وفي ذلك الوقت كان على رأس جيش الاتحاد الصليبي مجريون من أمثال "هونيا دي يانوش" وكان الجيش يملك قوة عظيمة. وهناك مثالٌ نموذجيٌّ آخر

هو حصار فيينا الثَّاني، فقد تمكن هجوم ملك بولندا "سوبيسكي" على أسوار فيينا انطلاقا من تلة "كاهلنبرغ" من تفريق الجيش العثماني، ولكننا تجمعنا بعد ذلك وحاربنا لمدة ستة عشر عاما حتى "صلح كارلوفجة".

ولكن هنا في الأناضول عام 1920م يمكن الحديث عن انسحابٍ

الغازي مصطفى كمال باشا ونائب «ديرسم») تونجلي) «دياب أغا» أثناء الذَّهاب إلى المجلس في الثَّاني والعشرين من آذار/مارس1922 م

صائبٍ، إذ كان انسحابا مماثلا لنظامالانسحاب والتَّراجع لدى إمبراطورية روما، وقد طبقنا الاستراتيجية التي لم نستطع تطبيقها في حرب البلقان.

واليوم يقول البعض إن "عصمت إينونو" كان فاشلا في معارك "إينونو" الأولى والثَّانية، وإنَّ مصطفى كمال قام بالتَّغطية على الموضوع. لكنَّ من يقول ذلك ليس متخصصا في الشؤون العسكرية.

وبرأيي فإنَّ التَّاريخ العسكري المكتوب من قبل المؤيدين والمعارضين بعيدٌ كلَّ البعد عن الإقناع، والأسوأ من ذلك عدم وجود تدقيقٍ جديٍّ. لأنَّنا نستند مع الأسف إلى بعض تقارير المختصين والعسكريين الأجانب لإثبات الوقائع.

مؤتمر لندن

أظهر نظام العمل والأداء المعتمد على المبادئ الخاص بحكومة "مجلس الأمة الكبير" تأثيره على العالم الخارجي، وأجبر دول التَّحالف على أخذ رفض أنقرة لمعاهدة "سيفر" بعين الاعتبار.

ولكن يُلاحظ أن مؤتمر لندن لم يكن مسارا جديا للتصحيح بل كان هدفه الإلهاء. فقد كان مؤتمر لندن عبارة عن خدعةٍ، وكان مصطفى كمال باشا يعرف ذلك. لأنَّ مواد المعاهدة التي وقعتها دول الحلفاء مع "بكر سامي بيك"، كانت برأي القائد العام عبارة عن اتفاقيةٍ أخرى مدفوعةٍ من قبل الحلفاء كي تقبل بها الحكومة، بعد اتفاقية "سيفر" والاتفاقية الثَّلاثية الموقعة فيما بينهم والتي تقسم الأناضول لمناطق نفوذ. حيث كانوا إضافة إلى ذلك يخططون لخلق ازدواجيةٍ من خلال دعوة حكومة إسطنبول أيضا. ورغم أنَّ تلك الأمور كانت معلومة، لكنَّ تم الاشتراك في المؤتمر، فالاشتراك كان يعني الاعتراف بحكومة أنقرة، كما يدحض مقولة "الأتراك يريدون القتال وليس السَّلام". وهناك واقعةٌ إيجابيةٌ مهمةٌ يجدر ذكرها، فعندما أُعطي حق الكلام لوفد إسطنبول، قال توفيق باشا (حكومة إسطنبول): "إنَّ الممثل الحقيقي للشعب التُّركي هي حكومة أنقرة، وأنا أعطي حق الكلام لأخي بكر سامي بيك (أنقرة)". وهذه نقطةٌ يجب على المؤرخين الوقوف عندها.

ويبقى أمرٌ آخر، وهو أنَّ "بكر سامي بيك" قابل خلال مؤتمر لندن، ودون علم أنقرة، دبلوماسيي فرنسا وإنكلترا وإيطاليا، وأعطى لكلٍّ منهم على حدة بعض الوعود، وبلا شكٍّ رفض القائد العام مصطفى كمال باشا الموقف الاسترضائي الذي أظهره "بكر سامي بيك" وطلب منه الانسحاب من وزارة الخارجية.

المعركة التَّاريخية: سَكاريا

أسفرت الاشتباكات التي سبقت معركة "سَكاريا" عن هزيمة جيوش "مجلس الأمة الكبير" على جبهة "كوتاهيا" و"إسكي شهير". ولكن تم هنا تطبيق استراتيجيةٍ مثيرةٍ، ولأول مرة لم تتحول خسارة الموقع إلى هزيمة. وكانت تلك استراتيجية الجيوش التُّركية الجديدة، وهي أنَّ كلَّ وحدةٍ مسؤولةٌ عن الدِّفاع عن موقعها رغم تحركها مع الوحدة التي بجوارها.

وقد جرى اتباع هذه الاستراتيجية حتى نهاية الحرب، فإذا انسحبت وحدةٌ ما، تستمر الوحدة المجاورة بالمقاومة ولا تقوم بالانسحاب. وبالتَّالي كان الدِّفاع عن الوطن أهم من جميع القواعد العسكرية، واستمرت الحرب وفق فكرة "لا يوجد خطٌ للدِّفاع، بل توجد مساحةٌ للدِّفاع، وهذه المساحة هي كامل الوطن". ولذلك لم يتحول التَّراجع إلى هزيمةٍ.

وهكذا أمَّنت تركيا الجبهة الشَّرقية بعد اتفاق 16 آذار/مارس 1921م في موسكو، واتفاق 13 تشرين الأول/أكتوبر 1921م في "قارص"، بعد أن كانت قد أمَّنت جبهة "تشكوروفا" (الاسم الحديث لسهل كليكية) إثر اتفاق وقف إطلاق النَّار مع فرنسا الموقَّع في أيار/مايو عام 1920م. ولكن من ناحيةٍ أخرى، أدى انسحاب الجيش نحو جوار أنقرة إلى خلق معارضة داخل "المجلس الكبير".

لقد كانت أرض الأناضول البلد الوحيد الذي عمل فيه نظام حكومة مجلس الأمة الكبير بكل صلابةٍ خلال الثَّورة. والواقع أنَّ شخصية مصطفى كمال باشا القيادية والسِّياسية انتصرت في هذه النُّقطة فأخذ كامل الصلاحيات من المجلس. حيث عين نفسه قائدا كامل الصَّلاحيات وليس كما أراده البعض أن يكون فقط القائم بأعمال القائد العام. وقد تم نشر أوامر "تكليفي – ميلية" (المهمات الوطنية) وتم تطبيقها.

وخلال فترةٍ سادها التَّشاؤم جرت مناقشة احتمال نقل المجلس إلى أنقرة، فقام نائب الشَّرق "دياب آغا"، بأسلوبه وطريقته الخاصة في الكلام، بدور المتحدث باسم المجموعة الرافضة لانسحاب المجلس والحكومة بأيِّ حالٍ من الأحوال.

انسحبت جميع الوحدات تعمل بنظام التَّراجع الجديد إلى شرق نهر "سَكاريا" في الفترة بين العاشر إلى الخامس والعشرين من تموز/يوليو بعد الهزيمة في "كوتاهيا" و"إسكي شهير". ولكن وسط التَّوازن المختل في العالم، كانت تركيا تُولد بذكاءٍ من النَّاحية الاستراتيجية.

كانت أصوات المدافع تُسمع أحيانا في أنقرة خلال عمليات المقاومة التي بدأت شرق نبع "سَكاريا"، وعلى جبهةٍ امتدت نحو 100 كيلو متر. وكانت المعركة التي استمرت بين الثَّالث والعشرين من آب/أغسطس والثالث عشر من أيلول/سبتمبر، أي 22 يوما و22 ليلة، أكثر المعارك دموية وأكثر التَّصديات عنادا في تاريخ تركيا الممتد لـ 900 عامٍ. لقد عرف أحفاد الفاتح كيف يدافعون عن الوطن الأم.

مصطفى كمال باشا بثياب الماريشال بعد أن تم تكريمه من
قبل المجلس وأعطي لقب «الغازي» ورفع لرتبة «ماريشال»

لقد كان للجيش اليوناني القادم إلى الأناضول أفضلية لم يملكها أيُّ جيشٍ محتلٍ، إذ كان متفوقا من ناحية السلاح، ولم يكن متعبا من حربٍ طويلةٍ، وكانت طرق إمداده مفتوحة من "مرمرة" و"إيجة"، إضافة إلى وجود دعمٍ شعبيٍ له في الأماكن التي مر بها، وإن لم يكن هذا الدَّعم مطلقا.

وقد حمل هذا الجيش حلم إنقاذ وتأسيس العالم "الهيليني" القديم (الادعاء العظيم)، ولكن مع الهزيمة الثَّقيلة تخلى عن هذا الخيال. وبات انقلاب "الادعاء العظيم" إلى "كارثة آسيا الصُّغرى" أكثر الحوادث المتضاربة في تاريخ اليونان الحديث.

كانت الخطة في معركة "سَكاريا" هي التَّسلل إلى الخط الجنوبي لليونانيين الأكثر رخاوة، وتثبيت حشودٍ من الجنود بسرعةٍ هناك. وكانت الأفضلية الوحيدة لجيش "المجلس" هي قوات الخيالة وقدرتها على الحركة السَّريعة والفورية. وقد أدَّى القتال الشَّرس بين الطَّرفين إلى تراجع اليونانيين خلال فترةٍ قصيرةٍ، ولكنَّ هذا التَّراجع توقف في الحقيقة خلف "إسكي شهير" عند "أفيون". وهكذا بدأ تجهيز الجيش، وتنفس المجلس الصعداء بهذا الانتصار في ظل المعاناة من نقص الذخيرة والمعدات.

وهنا عزلت حكومة إسطنبول مصطفى كمال باشا وأصدرت بحقه فتوى بالإعدام، إلاَّ أنَّ "مجلس الأمة التُّركي الكبير" منح قائد تركيا المنتصر والقوي لقب "الغازي"، كما تم ترفيعه إلى رتبة "ماريشال" (مشير).

لقد ظهرت في كامل العالم الإسلامي، كما في داخل بلدنا، تقييمات مختلفةٌ بين الدبلوماسيين والعسكريين في دول التَّحالف وحتى في بريطانيا.

كانت الحكومة اليونانية قد تغيرت مع بداية معركة "سَكاريا"، وكان "فينزيلوس" قد ترك البلاد بعد خسارته للانتخابات في نهاية العام 1920م، وعاد الملك "كونستانتين" الذي كان معروفا بميله إلى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى. لكنَّ الملك "كونستنانتين" كرر قبل معركة "سَكاريا" الخطأ الفادح الشَّائع في تلك الفترة، فعلى غرار القيصر الرُّوسي "نيكولا الثَّاني" الذي تولى دورا ليس له، وعوضا عن إدارته لبلاده من عاصمته خلال الحرب العالمية الثَّانية ذهب إلى الجبهة كقائدٍ عامٍّ حيث فشل في إدارة المعركة، كذلك تولى "كونستانتين" القيادة العامة وجاء إلى إزمير. وقد أزعجت تلك الأفعال العسكريين المحترفين، فقاموا بتقوية خطوط الدِّفاع في هذه المرة.

والجدير بالذِّكر هنا أنَّ حكومة إسطنبول وخاصة "توفيق باشا" طلبت من السُّلطان "محمد السَّادس" أن يهنئ جيش الأناضول والقائد العام. لكنَّ ذلك لم يتم بشكلٍ علنيٍّ، ورغم أن بعض المؤرخين يقولون إنه جرى إرسال الأوسمة إلى الذين شاركوا في معركة "سَكاريا" إلاَّ أنَّ ذلك ليس واضحا، وما زال الغموض يكتنف الحادثة. ومن المؤكد أنَّ التكريم العسكري إذا تم بهذا القدر من الغموض فلن يسمع أحدٌ به.

معاهدة أنقرة وفرنسا

لم تقف فرنسا إلى جانب حكومة الأناضول خلال "النِّضال الوطني" لكنها اختارت الوقوف على الحياد، وبعد الهزيمة التي تلقتها في "كيلكية" (تشكوروفا) تخلت عن الخط الذي رسمته حليفتها بريطانيا، وفضلت الاتفاق مع أنقرة في النِّهاية. كما اختارت إيطاليا الوقوف إلى جانب حكومة الأناضول، بعد تجاهل انتصارها والمقاومة التي أظهرتها أمام النّمسا. أضف إلى ذلك الإهمال الذي قوبلت به من طرف المعسكر الفرنسي – البريطاني رغم تضحياتها والكوارث التي عاشتها خلال الحرب والتي دفعت بها جانبا منذ بدايتها.

هبت في السَّنوات القليلة الماضية رياح ما يسمى كسر المسلمات في التَّاريخ التُّركي القريب، وهو ما يسميه الأوروبيون "إزالة الغموض". ونذكر هنا أنَّ أولى التوجهات من هذا النَّوع بدأت في أوروبا. إذ كان تاريخ تلك المجتمعات وتاريخ بريطانيا مليئا بالأحداث والأنظمة التي لا تتوافق مع التراث والتَّقليد الديمقراطي الذي تفاخروا به كثيرا، الأمر الذي أدى إلى تنظيم كتابة التَّاريخ من جديد، حتى انحصر التَّعليم أحيانا وخاصة التَّعليم المتوسط في مواضيع التَّاريخ القريب.

وكان من نتائج هذا التعليم وجود طلابٍ فرنسيين لا يعرفون ترتيب الملوك المشاهير لسلالة "بوربون"، ووجود طلابٍ ألمان/نمساويين لا يفهمون أهمية صلح "ويستفاليا" وحرب الثَّلاثين عاما بين 1618م – 1648م. ولكن بالمقابل يجب القول أيضا إنَّ "علم التَّاريخ" وأساليب البحث التَّاريخي كانت سليمة في تلك البلدان، ولم يتحول هدم المحرمات في التَّاريخ القريب إلى مادةٍ للسُّخرية. أما لدينا فنلاحظ أنَّ هذه المحاولات وصلت إلى درجةٍ أصبحت معها مضحكة. وعلى سبيل المثال خرجت ادعاءاتٌ مضحكةٌ حول معركة "تشَناق قلعة"، حيث سمعنا من يقول: "بدلا من استشهاد 250 ألف شخصٍ – رغم أن هذا الرقم لا يمثِّل عدد الشُّهداء فقط بل العدد الكلي للجنود الذين أُخرجوا من المعركة من شهداء وجرحى – كان من الأجدى إفساح المجال للمدرعات والمدمرات، والتي تمكنت من المرور أصلا في نهاية الحرب، وكنا جلسنا أسيادا في إسطنبول حينها".

إنَّ على هؤلاء النَّظر قليلا إلى التوزع السُّكاني التَّاريخي والتُّركيب الاقتصادي لإسطنبول، فمرور الإنكليز من المضيق نهاية العام 1914م أو بداية العام 1915م، واتحادهم مع روسيا عندما الشَّمال، كان سيجعل عدد سكان المدينة من غير المسلمين، والذين كانوا يشكلون نصف السُّكان تقريبا، يزداد بسرعةٍ مع وصول المستوطنين الرُّوس والبريطانيين. وكان الأتراك سيرون إسطنبول فقط في ذكرياتهم ورحلاتهم السياحية.

كما ظهرت في هذه الأيام إشكالية الثَّلاثين من آب، وانتشرت في البلد المقولات يمينا ويسارا تريد إلغاء "الثَّلاثين من آب"، وتصف لوزان بالهزيمة وليس النَّصر. ولكنَّ الواقع هو أنَّ تقييم آخر معاهدات السَّلام في الحرب العالمية الأولى (أي معاهدة لوزان) باعتبارها بدأت مع الهجوم الكبير في السَّادس والعشرين من آب/أغسطس وأدت إلى النَّصر في الثَّلاثين من آب/أغسطس هو حكمٌ

عبثيٌّ. وبالتَّالي لم يكن هناك نصرٌ في "لوزان" لأنَّ الدبلوماسيين لم يهاجموا بعضهم البعض بالحراب.

بل يمكن الحديث عن حلٍّ وسط في "لوزان" حسب الظُّروف القائمة. فقد تمت في "لوزان" المصادقة على الحدود التي رسمتها الحراب، وكان المكسب الوحيد هو إلغاء القيود وشروط الاستسلام وسط حالةٍ من الضَّوضاء والمشاجرات. حيث لم يملك أحدٌ القوة للمقاومة في مواجهة الآخر، وكانت أوروبا وتركيا منهكين.

إنَّ الثَّلاثين من آب/أغسطس هو نصرٌ بالتَّأكيد، ولا مثيل له في الكثير من الدول. أما الدُّول التي لديها يومٌ مشابهٌ فتقوم بالاحتفال به، وعلى سبيل المثال يحتفل الفرنسيون بيوم النَّصر في اليوم الذي جرى فيه توقيع اتفاقية وقف إطلاق النَّار مع ألمانيا (هدنة كومبين الأولى 1918م)، كما يحتفل الرُّوس بيوم النَّصر في السَّابع من أيار/مايو (1945م) وهو اليوم الذي استسلمت فيه ألمانيا النَّازية، وتترافق الاحتفالات بتلك الأيام مع تبادل التَّهاني.

لقد تغيرت بعد نصر الثَّلاثين من آب/أغسطس الجغرافية السِّياسية لـ "تراكيا" ولتركيا التي كانت تحت الاحتلال. واحتفظت الجيوش بما يمكن الاحتفاظ به، بينما تقدم الأتراك. وكان الجيش اليوناني المجهز بشكلٍ كاملٍ والمنتظر قرب "سيلانيك" مكلفا بالاحتفاظ بـ "تراكيا الغربية" وليس بالهجوم. لكنَّ قادة الاستقلال "فوزي باشا" و"كاظم كارا بكر باشا" كانوا حذرين جدا، وحتى مصطفى كمال باشا، الذي يعتبر أكثر اندفاعا مقارنة بهم، اضطر أن يكون حذرا بعد الوصول إلى حدود "تراكيا الغربية".

وكانت هناك فترة إعدادٍ طويلةٍ قبل الهجوم الكبير، واتخذت حكومة أنقرة بصبرٍ كبيرٍ تدابير الدِّفاع من خلال قوانين شديدةٍ، كما طبقت الميزانية الجديدة. وأدى كل ذلك إلى ارتفاع معنويات الشَّعب.

وفي المقابل كان قيام اليونان بزيادة ميزانية الحرب، ودعم الحكومة الإنكليزية لها، وكذلك إعلانها بأنَّ اتفاقية "سيفر" ستُنظم لصالح اليونان، أسبابا جعلت "حكومة المجلس" تُصدر بيانا يكاد يكون إعلانا عالميا بخصوص المقاومة.

وباستثناء مقدارٍ قليلٍ من التَّفوق في أعداد بندقية المشاة، لم يكن هناك تفوقٌ على الجيش اليوناني حتى بعدد الجنود، إلاَّ في أعداد قوات الخيالة.

ومن باب الحيطة تم إخفاء يوم الحرب عن الدبلوماسيين والصحفيين في أنقرة، وانتقل القائد العام (مصطفى كمال باشا) بشكل سريٍّ إلى "آكشهير" من أجل ما يفترض أنَّه كان حفلة شاي.

كان رئيس هيئة الأركان العام هو "فوزي تشاكماك باشا"، وقائد جبهة الغرب هو "عصمت إينونو باشا"، وقائد الجيش الأول هو "نور الدِّين باشا"، وقائد الجيش الثَّاني هو "يعقوب شوقي باشا".

لم تكن الدُّول الأخرى تتوقع أن بإمكان الأتراك القضاء على المواقع المحصنة، ولكن حدث ما لم يكونوا بانتظاره. فقد بدأ قصف المدفعية مع ساعات الصَّباح الباكرة من يوم السَّادس والعشرين من آب/أغسطس، وأعقبه حصار قسمٍ مهمٍ من الفرق اليونانية في قرية "جال"، والهجوم على القوات اليونانية المحتلة في منطقة "إسكي شهير". حيث بدأت المعركة بهجومٍ خاطفٍ واستمرت على هذا النحو.

وتم أسر القائد العام الجنرال "تريكوبيس"، المعروف كعسكريٍّ ناجحٍ، في الثَّاني من أيلول/ سبتمبر عند "أوشاك"، ودخلت القطعات الأولى بقيادة قائد الجيش الأول "نورالدين باشا" إلى إزمير. وفي التَّاسع من أيلول/سبتمبر دخلت القطعات الأخرى مع مصطفى كمال باشا إلى إزمير وسط أجواء الاحتفالات.

مصطفى كمال باشا خلال متابعته لمجريات المعركة من تلة الَّنصر
مع مرافقه «صالح بوزوك بيك»، أنقرة 9 أيلول/سبتمبر1921 م

لقد كان الانتصار في "موهاتش"[45] في 29 من آب/أغسطس عام 1526م حادثة غيرت من تاريخ أوروبا، كما يمكن اعتبارها نقطة الذَّروة في إمبراطورية الأتراك. وبعد ما يقارب الـ 400 عام أي في 30 آب/أغسطس عام 1922م كان الانتصار في معركة "القائد العام" (معركة دملو بينار) انتصارا لدفاع الأتراك عن وطنهم الأم في آسيا الصغرى. وكان انتصارا منتظرا، وعلى رأس قائم المنتظرين لهذا النصر كان قائدنا العام وضباطنا.

وفي وقتٍ سابقٍ كان القائد اليوناني المشهور "إيونيس ميتاكساس"، الذي نجح في الدِّفاع عن اليونان في مواجهة "موسيليني" خلال سنوات الحرب العالمية الثَّانية، قد قال "لا تذهبوا إلى هناك. سيظهر الجيش التُّركي أمامكم خلال يومين ويقضي عليكم"، وهذا ما حدث بالفعل.

وكما ننظر إلى يوم 26 من آب/أغسطس 1071م باعتباره تاريخ دخول الأتراك إلى الأناضول، فإنَّ 26 من آب/أغسطس 1922م هو وثيقة عدم خروجنا من الأناضول للأبد، مع ملاحظة أننا وبشكلٍ واضحٍ لم نكن في وارد الخروج من الأناضول بالأساس.

لقد استمرت حرب الاستقلال التُّركية من خلال تركيبة الدَّولة القديمة. ويجب عدم نسيان أنَّ مجموعة صف الضُّباط (العرفاء والرقباء) كانت لديهم تجربةٌ في حرب البلقان والحرب العالمية،

مثل القادة الشَّباب الذين أداروا حرب الاستقلال. ففي نهاية الأمر استطاعت حكومة أنقرة تجميع المميزين من الإدارة الرَّسمية العثمانية، بالتَّرافق مع إجراءات التَّنظيف، وذلك ابتداء من المدير العام وانتهاء بمرسل البرقيات.

وإلى جانب القادة المذكورة أسماؤهم يجب ذكر العقيد آنذاك "بهيج بك" الذي عمل لاحقا سفيرا في بودابست وفرنسا تحت حكومة "فيشي"، إذ تم بفضله وبفضل طاقمه إيصال شحنات الحرب إلى الجيش رغم الصُّعوبات التي سببتها الخطوط الحديدية التُّركية.

وأخيرا فإنَّه لابدَّ للعبقرية أن تتوهج، ولابدَّ أن تتحقق تصورات الرجال الكبار من خلال طاعة وموافقة الجماهير، وقد كان مصطفى كمال باشا قائدا تمكن من كسب فئةٍ واسعةٍ من الجماهير.

الهجوم الكبير

بدأ الهجوم الكبير بعد هذه الصَّحوة، وكان جيشنا في وضعٍ يملك معه خاصية الهجوم والدِّفاع. وقد كانت معركة تم التَّخطيط والتَّجهيز لها بشكلٍ جيدٍ، ويمكن القول إنها كانت معركة القادة (الأركان الذين خططوا) لأن تحركات الجيش المقابل كانت متوقعة. وفي الواقع لم تكن هناك وجهة نظرٍ واحدةٌ وقائدٌ واحدٌ بين الذين وضعوا الخطة، بل كانت هناك العديد من وجهات النَّظر. وكانت الخطة النِّهائية محصلة تلك الأفكار، أما الشَّخص الذي وضع هذه الخطة فهو الماريشال الكبير الغازي مصطفى كمال باشا. ومن الجدير بالذِّكر أنَّه عندما كان قادة الأركان يجهزون الخطة قبل "الهجوم الكبير"، اعترض الجميع على خطة الغازي مصطفى كمال باشا بالقول: "هذه ثقةٌ زائدةٌ، ولا يمكننا تنفيذ تلك الخطة"، فبادر الغازي – كما هو معلومٌ – إلى القول: "إما أن ننفذ هذه الخطة، وإما لا ننفذها فتكون تلك نهايتنا".

القائد العام الغازي، مصطفى كمال باشا في
كوجة تبه، 26 آب/أغسطس1922 م

لقد كان القائد العام صاحب خبرةٍ وتجربةٍ، وإلى جانب ذلك كان قائدا مقداما وصاحب ذكاءٍ حادٍّ، وأدت استراتيجيته هذه إلى النَّصر. كما كان يتقن جيدا القيام بالهجوم المضاد، لذلك تم فعليا إنجاز المعركة خلال يومٍ واحدٍ، وأخذ دفاع الطَّرف المقابل ينهار وينتهي. وكان القائد المنهار أحد أهم جنرالات اليونان في آسيا الصُّغرى وأكثرهم موهبة وهو "تريكوبيس". وعندما نعرف ذلك ندرك أنَّ هذه المعركة كانت معركة القادة الكبار، وأنَّ تفاصيل الوضع تمت مناقشته ودراسته من قبل.

وعلى الأرض كان عدد المدفعيين عندنا أكثر بشكلٍ يثير الدَّهشة، لكنَّ عدد المشاة عند اليونان كان أكثر. وبموازنة الأسلحة كان اليونانيون متفوقين، وكان الفرق بين الجيشين أكثر وضوحا في المعدات، حيث كانت آليات النَّقل عند اليونانيين أقوى، وعدد الطَّائرات اليونانية التي استخدمت للاستكشاف كان أكبر بكثير في هذه الحرب.

ومن الضَّروري توضيح أنَّ بعض سكان الأناضول دعموا اليونانيين، واضطروا للتَّراجع مع الجيش اليوناني اعتبارا من "أفيون" حين أصبح النصر حليفنا.

وفي الحقيقة لم يكن الطرف التُّركي أيضا يتوقع في بداية "الهجوم الكبير" أن المعركة ستنتهي بهذه السُّرعة، لأنَّنا عندما نراجع أحيانا بعض المعلومات المدونة والشَّفهية نرى أن التَّفكير السَّائد كان يميل إلى أنَّ المعركة ستطول، وأنَّ الهزيمة لن تكون بهذه السُّرعة وسوف تستغرق وقتا.

عيد النَّصر

هذا اليوم هو يوم الجيش، وتوجد له أمثلةٌ في العالم، فعلى سبيل المثال يتم في روسيا الاحتفال يوم السَّابع من أيار/مايو بعيد النَّصر، أما نحن فلدينا عيد النَّصر في الثَّلاثين من آب/ أغسطس. ومن جهةٍ أخرى كان يوم الثَّلاثين من آب/أغسطس أساسا نهاية الحرب العالمية الأولى، لأنَّه جرى توقيع وقف إطلاق النَّار في "موندرس" عام 1918م. ولكن لم يكن هناك معاهدة سلامٍ، إذ رفضنا اتفاقية "سيفر" التي فُرضت علينا، وقد تعزز هذا الرفض في الثَّلاثين من آب/أغسطس. ثم ذهبنا إلى "مودانيا" بوقف إطلاق النَّار، وبعدها إلى "لوزان" من أجل إبرام المعاهدة التي حققت السَّلام، وفي النِّهاية تم تأسيس تركيا.

وليس من قبيل المصادفة أن يكون شهر آب/أغسطس مليئا بالانتصارات في تاريخنا، لأنَّه ينبغي الوضع في الاعتبار تأثير الجغرافية والطَّقس والظُّروف على المعركة وعلى اختيار اليوم. وقد بدأت تلك الانتصارات في "ملاذ كرد"، ثم "موهاتش"، والانطلاق نحو أبعد نقطة في أوروبا، ومعركة "القائد العام". وهي انتصاراتٌ نحتفل بها دوما وسنبقى نحتفل بها.

ولا شكَّ أنَّ الجيش مهمٌ لكل بلد، لكنَّ أهميته تزداد بالنِّسبة للبلدان ذات المساحة الجغرافية الواسعة وعدد السُّكان الكبير. وتُعتبر تركيا مهمةٌ جدا من ناحية تاريخ الحضارة، لأن الأتراك حكموا بلادا مختلفة، مثل أفغانستان الحالية وإيران اليوم. ولم تكن غالبية السُّكان في تلك البلاد تتحدث التُّركية، حتى أنَّ اللغة الفارسية كانت تستخدم في الإدارات الرَّسمية. إلاَّ أنَّ الجيش كان دائما يتحدث التُّركية، وكان دائما تركيا، وكان هو جيش تركيا الذي حقق الاستمرارية في تاريخ الشَّعب.

اعتبارا من القرن الثَّامن عشر حصلت قفزةٌ في خط الحضارة، وبدورنا حاولنا أيضا إحداث تغييرٍ حضاريٍّ في القرنين الثَّامن عشر والتَّاسع عشر. فكانت فترة صعبة، إذ حصلت تغييرات مفاجئةٌ وقد واكبتها تركيا، والحقيقة أنَّ العسكر هم مَن فعل ذلك.

وعلينا هنا التَّوضيح أنَّه في الطريق إلى الجمهورية أظهرت حوادث مثل التي حدثت في "غاليبولو" و"ساري قامش" و"حلب" وفي النِّهاية حرب الاستقلال أننا من بين الشُّعوب النَّادرة التي تعرف كيف تدافع عن وطنها. فظهور القادة الكبار ورجال الدَّولة العظماء على الدَّوام، ومواجهة المحتل، والنَّجاح في الاستقلال يعني أن تلك الحقيقة أصبحت تقليدا في هذه الأرض.

لقد كان الغازي مصطفى كمال باشا القائد العام للحرب، وكان ماريشال تركيا. وبعده أصبح "فوزي تشاكماك باشا" ثاني ماريشال، فكانت تلك بمثابة شهادة شكرٍ للقائد الأقدم منه ونائب إسطنبول والذي ترك وظيفته ضمن حكومة إسطنبول وانتقل إلى الأناضول.

المارشال الغازي مصطفى كمال باشا
في أنقرة، 4 كانون الأول/ديسمبر 1921م

وفي الواقع انقسم الشَّعب كما القادة خلال سنوات النِّضال الوطني إلى قسمين، الأول يريد الاستمرار في القتال لاسترداد الأماكن المحتلة، والثَّاني يريد المحافظة على ما في اليد. فكان الشَّعب متشتتا. لكنَّ مصطفى كمال باشا وعلي فؤاد وكاظم كارا بكير تصرفوا بجسارةٍ وفطنةٍ، وأثَّروا على الشَّعب.

كان هؤلاء قادة أذكياء وأصحاب معرفةٍ، وكانوا جنرالات الإمبراطورية الشَّباب، وفي الوقت ذاته عسكر دولةٍ قديمةٍ وشعبٍ كبيرٍ. وبالتَّالي يمكننا القول إنَّهم كانوا شبابا متقدمين في السِّن، لأنهم كانوا في عمر الشَّباب ولكن أصحاب خبرةٍ، وقد عاشوا حياة صعبة، وخاضوا الحرب العالمية الأولى التي استمرت بالنِّسبة لنا ست سنوات وليس أربع سنوات، وكانوا قبلها في اليمن والبلقان وأماكن كثيرةٍ أخرى.

لقد رأى الأجانب، من أمثال الضباط الإنكليز وضباط الملكية اليونانية والقادة الفرنسيين أنَّنا سنقاوم. وبالتَّأكيد لم يكن جميع الفرنسيين مثل رئيس الوزراء الفرنسي "جورج كليمنصو" يحملون العداء والكره للأتراك، حيث كان هناك من يتحلى بالواقعية.

وبطبيعة الحال فإنَّ التَّحالف ليس بالعمل السَّهل، وخاصة مع ضرورة الابتعاد عن الأوروبيين. فلا ننسى أنَّه عندما خسرنا القدس جرت في البلدين الذين كانا يعدان حليفا لنا، أي ألمانيا والنّمسا – المجر، احتفالاتٌ عامةٌ، وقُرعت الأجراس. وكانت تلك الاحتفالات لا تقل عن احتفالات الجنرال البريطاني "أللنبي" والرأي العام البريطاني.

لقد كان أتاتورك داهية في المجال العسكري، ولكن من الصَّعب شرح ذلك بالتَّفصيل. وفي هذه النُّقطة يُعتبر تعليم الأركان الذي تلقاه مهما جدا، لأنَّه كان تعليما جيدا. ويمكن القول عن الأركان أنَّهم كانوا يعرفون كل شيء، ولديهم الكثير من التَّواصل مع المدنيين، وكانوا يمتلكون معلوماتٍ ويتلقون التَّعليم في الفلسفة والتَّاريخ والجغرافية والأدب والهندسة والرياضيات، وعلى الأقل كانوا يفهمون ما يقال. كما أن التعليم الذي تلقاه الغازي مصطفى كمال باشا قاده لاحقا لاتخاذ خطواتٍ لافتةٍ، فقد تم تأسيس كلية اللغة والتَّاريخ – الجغرافيا في خطوةٍ رائدةٍ. وتكاد تركيا أن تكون البلد الأول في تدريس علم الأركيولوجيا ولغات بلاد ما بين النهرين. حتى أنَّه تم إرسال أربعة أو خمسة طلابٍ إلى أوروبا لدراسة التَّاريخ البيزنطي. أضف إلى ذلك الأهمية الخاصة التي كانت تُعطى لتعليم اللغات.

خلال سنوات فينيزيلوس طُرح اسم رئيس جمهورية تركيا كمرشحٍ لجائزة نوبل للسلام. لماذا؟ لأنَّ فينيزيلوس كان رجل دولة يملك مواصفات مناسبة، ولم يستمع في البداية إلى التَّنبيهات حول "فكرة ميغالي"[46] وقدم إلى الأناضول. وعندما تحول هذا القدوم إلى كارثةٍ، طلب المبادلة قائلا: "أرسلوا لنا الهيلينين (اليونانيين) الموجودين هناك". وهو كان سياسيا متطرفا لكنَّه كان يعرف

التَّكيف مع العالم. وفي حقيقة الأمر كانت اليونان خلال تلك الفترة تتحرك بالكثير من العواطف المتطرفة، ولم تعرف الاعتدال إلا في أواخر القرن العشرين.

تحرير إزمير

في بداية القرن العشرين كانت إزمير مركزا إقليميا حديث التَّطور، ولم يكن نصيب الأتراك المسلمين كبيرا من حيث عدد السُّكان ومن حيث الحياة الاقتصادية. ولكنَّ عدد سكان إزمير ازداد فجأة، و"تتركت" المدينة (أصبحت تركية المعالم والسُّكان)، وبالتَّوازي ازداد عدد المسلمين فيها. وهكذا ظهرت مدينةٌ جديدةٌ في أعقاب كارثة البلقان والجُزر، إلاَّ أنَّها تعرضت بعد فترةٍ قصيرةٍ للاحتلال والتَّدمير وكأنها تدفع كامل ثمن الحرب العالمية، حتى كادت تكون المجرم والمذنب الوحيد. وكان من الواضح أنَّ حرب البلقان وفقدان "الديار الرُّومية" لم تسبب هذا المقدار من المتاعب. ولكنَّ إزمير أظهرت مقاومة لهذا الاحتلال.

جاء اليونانيون إلى إزمير في الخامس من أيار/مايو عام 1919م بفضل تحالف "أليفتيريوس فينيزيلوس" و"لويد جورج" وبدفعٍ من إنكلترا رغم المعارضة الداخلية. وبعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تركت اليونان المدينة بعد أن عاشت أهم كارثةٍ في التَّاريخ. فكان ذلك عبارة عن إفلاس برنامجٍ غير سياسيٍ ولا علاقة له بالواقع.

وفي الثَّاني والعشرين من أيلول/سبتمبر عام 1922م أعطى "أرستيديس ستيرغياديس" المفوض اليوناني في إزمير (أو بالأحرى الوالي المعين من قبل "فينيزيلوس" على إزمير ومحيطها) الأمر لموظفيه بجمع الأرشيف وإتلاف القسم المهم منه، وإفراغ المدينة بعد ذلك.

واعتبارا من هزيمة الثَّلاثين من آب/أغسطس بدأ يجري تفريغ غرب الأناضول من الجيش اليوناني والرُّوم المحليين. وعاشت المدينة قحطا لم تعرفه من قبل، ولم يعد هناك أمنٌ. وكان من الواضح أنَّ فترة الاحتلال التي امتدت لثلاث سنواتٍ وثلاثة أشهرٍ ستنتهي.

وبدوره كان "ستيرغياديس" على رأس مشروع تحويل إزمير إلى "هيلينية" (يونانية)، وقد أدرك أنَّ تنفيذ هذه الخطة يجب أن يكون وفق ترتيباتٍ محددةٍ لا تسحق الأتراك كثيرا، ولكن لا يبدو أن الجميع أدركوا ذلك وخاصة الذين حوله، فكانت النتيجة حزينة. وعندما غادر "ستيرغياديس" في

العام 1922م كان أكبر أعدائه هم الكنيسة الرومية الأرثوذكسية ويونانيو إزمير، وانتهت وظيفته بحالةٍ من فقدان الأعصاب.

وقد كان "أرستيديس ستيرغياديس" من حاشية "أليفتيريوس فينيزيلوس" الرجل الذي أسس جمهورية اليونان، وكان المفضل لدى الدول المنتصرة والمعرف بـ "الغريتي الكبير". وعُرف "ستيرغياديس" – الذي كان محاميا بالأساس – بين الموظفين المعينين في إزمير بفهمه لحقوق الإسلام. وعندما عمل واليا على "أبير" (يانيا)، تميز عمله بمراعاة حقوق الأقلية، وحتى في إزمير فإنَّه عمل على عدم التفريق بين الأتراك واليونانيين باستثناء المبادئ الاقتصادية الأساسية. وعلى عكس الولاة السابقين مثل الاتحادي "رحمي بيك" لم يقترب كثيرا من العائلات المسيحية الشَّرقية (ليفانتن) في المدينة، لأنَّهم لم يكونوا ينظرون إليه كنبيلٍ مرموقٍ. كما فسدت علاقته مع روم المنطقة، لأن روم إزمير وخاصة رجال الأعمال كانوا يأملون بالحصول على مكاسب كبيرةٍ من هذا الاحتلال. وفي النِّهاية غادر منصب الوالي في إزمير، وتعرضت جميع أعماله ومحاولاته خلال تلك السنوات الثَّلاثة للعبث والتخريب من قبل موظفي الكنيسة واليونانيين في إزمير.

في كتاب "الفردوس المفقود" لـ "جون ميلتون" يتم الحديث بمبالغةٍ عن عالم متعدد الأجناس والأعراق، وفي هذا العالم المتعدد الأجناس توجد توتراتٌ عميقةٌ. وبينما انتظرت اليونان والشَّعب اليوناني في "إيجة" الشَّيء الكثير خلال الاحتلال الذي استمر مدة ثلاث سنواتٍ، فإنَّ أمثال "ستيرغياديس" لم يستطيعوا أن يمنعوا هذه الحماقة، وجاءت النهاية المنتظرة.

لقد بلغت تركيا النُّقطة المطلوب الوصول إليها مع هيئة القادة الواقعيين في العام 1922م، وكانت أوامر القائد العام بالحركة السَّريعة في المعركة تركز في الوقت ذاته على أن يكون البحر المتوسط هو الحدود الطبيعية للجمهورية التُّركية. وبالأساس كان هدف الأتراك خلال تاريخهم الممتد لتسعة قرون هو الوصول من آسيا الوسطى وإقليم خراسان إلى البحر المتوسط. وبالتَّالي فإنَّ الذَّكاء العسكري ومفهوم مصطفى كمال باشا لتاريخ الحضارة استوجبا عدم التَّخلي عن ميراث الإمبراطورية هذا (أي الحدود الطبيعية المتمثلة بالبحر المتوسط). لذلك كان الأمر الذي أعطاه للجيوش "هدفكم الأول البحر المتوسط" أمرا متعلقا بهذا الهدف بالتَّأكيد. وعندما دخلت الجيوش إزمير بعد الانتصار في المعركة بتسعة أيامٍ كانت تحمل ذلك الأمر.

وفي الواقع تعرض الرُّوم المحليون خلال استرداد إزمير لضررٍ كبيرٍ، فقد اضطروا لترك أماكنهم. ولا تزال أسباب الحرائق والخراب الذي تعرضت له المدينة تُناقش حتى الآن، وتُستخدم كأداةٍ سياسيةٍ. ومن المطلوب اليوم بحث الحادثة وتقييمها بشكلٍ منطقيٍّ أكثر في ظل الاعتدال الحالي.

القائد العام الغازي مصطفى كمال باشا مع مرافقه صالح بوزوك بيك،
وفوزي تشاكماك باشا في فيلق إزمير، 10 أيلول/سبتمبر 1922م

كما تعرض الأرمن، الذين كانوا على علاقة مع جيش الاحتلال اليوناني والسُّكان اليونانيين خلال الاحتلال، إلى خسائر مفاجئةٍ وكبيرةٍ. أما اليهود فقد تحركوا بتوافقٍ مع الإداريين الأتراك، وتعايشوا مع مسلمي إزمير المحليين بشكلٍ جيدٍ، واستمر هذا التَّوافق لاحقا.

حاولت اليونان خلال الأشهر الأخيرة للاحتلال الذي استمر ثلاث سنواتٍ تأسيس جمهورية "أيونيا" التابعة لها في "إيجة"، وأنشأ البنك اليوناني الوطني فروعا في إزمير و"أيفاليك". كما أسست جمهورية "أيونيا" جيشا وجندت السُّكان اليونانيين المحليين (الهيلينيين). واعتبارا من هذه اللحظة أصبح بالإمكان الحديث عن خيانة الوطن، وكذلك معرفة المتمرد من خلال اللباس الرَّسمي. وهكذا انتهت إزمير كمدينةٍ محبةٍ للسلام ومتعددة الأجناس. وكانت تلك النِّهاية يوم التَّاسع من أيلول/ سبتمبر عام 1922م.

كان يوم الثَّلاثين من آب/أغسطس عام 1922م يوم الانتصار في معركة "القائد العام"، واليوم الذي بدأت فيه الجيوش اليونانية بالتَّراجع الاستراتيجي والعسكري في حالةٍ من التَّشتت. وبعد استسلام القائد العام "تريكوبيس" وهزيمة الجيوش الموجودة في الأناضول، أدى تراجع الوحدات إلى الفوضى، وتسبب بوقوع حريقٍ.

وفي الأول من أيلول/سبتمبر وبأمرٍ من القائد العام تم إعلان "البحر المتوسط" هدفا أول للجيوش، وكان محور الهجوم هو ساحل البحر الذي تحول اسمه فيما بعد إلى بحر "إيجة". ولا يزال هذا الأمر موضوعا للنقاش بالقدر ذاته الذي يُناقش فيه حريق إزمير.

وفي الحقيقة لم يكن هذا تطورا منتظرا. فمع بداية حرب الاستقلال وحتى خلال معركة سَكاريا، كان العديد من القادة ومن داعمي حركة الأناضول، يعتقدون أنَّ الاكتفاء بمركز الأناضول وشرق الأناضول وسواحل البحر الأسود وتشكوروفا (كيلكية) سيكون في ذلك الوقت واقعيا واستراتيجيا. أما طموح تحرير إزمير وبورصا وتحقيقه بهذه السُّرعة فيمكن فقط توضيحه بالدَّهاء العسكري لـ مصطفى كمال باشا.

في بداية أيار/مايو عام 1919م توج "فينيزيلوس" والقادة التَّابعون له إسقاطهم للملك بالقدوم إلى إزمير. فقد رجحت بريطانيا المنهكة كفة اليونان التي دخلت الحرب متأخرة والتي لم تتعب كثيرا. وكان "فينيزيلوس" رجل المرحلة في المحافل السِّياسية. والواقع أنَّ اليونان كانت تحلم باحتلال ما كان يعرف سابقا بولاية "أيونيا" (تُشكل اليوم ولايات إزمير وآيدن ومانيسا ودنيزلي) إلى جانب ولاية "كاريا" (الاسم القديم لولاية "موغلا"). كما أنَّها لم تكتفِ بالمناطق الأخرى التي خططت لاحتلالها وهي "باليكِسير وبورصا" بل توجهت مباشرة نحو أنقرة وإسكي شهير. وهذه الخطة التي حملت طموحاتٍ كبيرة في البداية تحولت إلى إخفاقٍ تامٍّ داخل البلد في النهاية. وبالمحصلة فإنَّ حملة "آسيا الصُّغرى" لليونان بين العامين 1922م – 1924م أدت بجانب تبادل السُّكان إلى تطوراتٍ سلبيةٍ لهذا البلد. حيث كان سكان اليونان الجدد من دون عملٍ، ولا يستطيعون التَّكيف مع الموطن الجديد، وأظهروا ميلا للمذاهب اليسارية التي لم يعرفوها من قبل.

احتلال إسطنبول كان لا يزال مستمرا

لقد تم تحرير إزمير وغرب الأناضول من أيدي اليونانيين ولكنَّ احتلال إسطنبول كان لا يزال مستمرا. وقد أنهى انتصار الثَّلاثين من آب احتلال تركيا دون شكٍّ، وأمَّن الحماية مرة أخرى

للوطن الذي كانت الخطوة الأولى نحو وجوده في آب/أغسطس عام 1071م. وهكذا كانت مناطق الأناضول في أواخر أيلول/سبتمبر محررة باستثناء إسطنبول. وقد تم توقيع وقف اطلاق النَّار مع التحالف بعد اللقاءات في "مودانيا" بين الرابع والحادي عشر من تشرين الأول/أكتوبر. وكانت عملية استعادة "تراكيا" من الجنود اليونانيين، وتغيير الإدارة سوف يتمان خلال 30 يوما.

وكانت محادثات السَّلام ستقام في "لوزان"، وفي الدَّفعة الأولى كان ثمانية آلاف جندي تركي (من الجندرما) سيدخلون إلى "تراكيا الشَّرقية". ورغمَ أنَّ المندوبين اليونانيين لم يوقعوا على وقف اطلاق النَّار في البداية بدعوى عدم

تخويلهم بذلك، إلاَّ أنَّه وبضغطٍ من دول التَّحالف أفرغت الحكومة اليونانية القسم التابع لتركيا حاليا من "تراكيا". وكان الجميع ضجرا ومنهكا من الحرب.

وانطلاقا من رغبة "المجلس" في منع حكومة إسطنبول من المشاركة بمفاوضات السَّلام، فقد اتخذ قرارا تاريخيا في تشرين الثَّاني/نوفمبر من العام 1922م بإلغاء السَّلطنة، وعلى إثرها ترك السُّلطان تركيا.

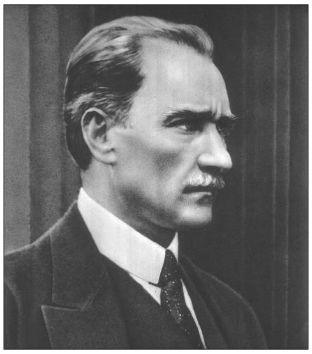

مصطفى كمال باشا بعد معركة «إينونو» الثَّانية يفكر بالمعارك التَّالية

ورغم دخول وحدةٍ عسكريةٍ ممثلةٍ لتركيا الجديدة إلى إسطنبول، لكنَّ استلامها من قوات الاحتلال تأخر حتى تشرين الأول/أكتوبر من العام 1923م. وخلال هذا العام كان لابدَّ للتغييرات في إدارة إسطنبول المدنية والعسكرية أن تكون مثيرة للجدل، وبالفعل لم تكن فترة من دون حوادث. ولم تبقَ أجواء وقف اطلاق النَّار مستمرة.

لا يمكننا القول إننا نعرف الكثير عن تلك الفترة باستثناء بعض الكلمات الغامضة في صفحات المذكرات. لذلك فإنَّ الفترة الانتقالية لإسطنبول بين مرحلة وقف اطلاق النَّار ومرحلة الجمهورية تنتظر المهتمين كي يلقوا نظرة على مجموعات الصُّحف والمؤرخين المؤرشفين.

بعد توقيع اتفاق وقف إطلاق النَّار في "مودانيا" عام 1922م، دخلت أولى الوحدات إلى إسطنبول أولا بقيادة "شكري نايلي باشا"، ثم بقيادة "رفعت باشا". وتعتبر الفترة من خريف العام 1922م إلى تشرين الأول/أكتوبر عام 19232م، الذي يُعد شهر تحرير إسطنبول، فترة غامضة من تاريخنا. وبالتَّأكيد لا يشبه ذلك العام الأعوام الأربعة التي قبله (18 تشرين الثَّاني/نوفمبر 1918م – تشرين الأول/أكتوبر 1922م).

ماذا عن تلك الفترة الانتقالية وكيف تمت؟

انتهت السَّلطنة، والخليفة كان خليفة فقط، فلم يكن حاسما ولا صاحب سلطةٍ سياسيةٍ أو مدنيةٍ. ولم يكن حتى يوصف بما يسمى السُّلطة الرُّوحية، ولم يكن بالإمكان أساسا وصفه بذلك.

ما هو موقف السُّلطات العليا في هذه المدينة، أي ممثلي الأناضول وقادة قوات الاحتلال والخليفة؟

لقد انتهت الحرب الطَّويلة، وبرزت مشاكل اتفاقية وقف إطلاق النَّار. كما برزت مشكلة اللاجئين الرُّوس البيض في إسطنبول. ونحن نعرف الفترة الأولى قليلا من خلال كتاب "الأحزاب السِّياسية في تركيا" للأستاذ المرحوم "طارق ظافر توناي" الذي تناول فيه الأحزاب السِّياسية في فترة وقف إطلاق النَّار، وكتاب "إسطنبول خلال وقف اطلاق النَّار" تأليف "بيلجه كريس" الذي يتناول إسطنبول خلال تلك المرحلة، ولكن ما هي فترة العام الانتقالي هذا؟ توجد ادعاءات بأنَّ هناك مِن أهل القصر مَن أخذ أشياء من القصر، إلاَّ أنَّ البعض ينفي هذه الادعاءات كليا.

ويجب هنا أيضا معرفة ماذا فعلت المؤسسات غير المسلمة إلى جانب السُّلالة الحاكمة للدولة خلال تلك الفترة الانتقالية.

وبالمحصلة وعلى الرُّغم من كلِّ شيءٍ ظهرت مدينةٌ أكثر أمنا، ومرفوعة الرأس. والمهم أنَّ جيش الأناضول بقيادة "نور الدين باشا" كان ينتظر هناك في تشرين الأول/أكتوبر عام 1923م.

إنَّ على أصحاب الادعاءات أن ينظروا أولا إلى الصُّحف والمجلات والتَّقارير المحلية والأجنبية قبل التَّحدث بكلام فارغ. ومن الضَّروري أيضا قراءة تقارير الدبلوماسيين الأجانب في أرشيف الشُّؤون الخارجية. وأنا على ثقةٍ بأنَّه ستظهر معلومات مثيرةٌ من النَّاحية الصَّحفية.

وفي الحقيقة تم احتلال إسطنبول مرة أخرى من قبل المحتلين الغربيين، وكانت المرة الأولى خلال الحملات الصليبية من قِبل الصليبيين اللاتين في بيزنطة بين العامين 1204م و1261م، بينما كانت الثَّانية خلال فترة وقف إطلاق النَّار. وان صح التَّعبير يمكن القول إنَّه بعد السُّلطان محمد الفاتح، فتح الجيش التُّركي بقيادة مصطفى كمال باشا هذه المرة المدينة من جديدٍ.

realpagex0231x

5

الطَّريق إلى الجمهورية

ملاحظاتٌ حول إلغاء السَّلطنة...

في 1 تشرين الثَّاني/نوفمبر 1922 ألغى مجلس الأمة التُّركي الكبير (البرلمان) السَّلطنة. وتم إبلاغ هذا القرار الهام إلى آخر السَّلاطين السُّلطان وحيد الدين. واعتبارا من ذلك التَّاريخ سيتم اختيار الشَّخص الأصلح – أي الأفضل علما وأخلاقا – من ضمن الخاندانة (السُّلالة العثمانية) ليكون خليفة، ولكن سيتم اعتماده من قِبل الدَّولة التُّركية. أي أنَّ من حق كل فردٍ من الخاندانة أن يكون خليفة، إلا أن السُّلطة ستكون بيد الدَّولة.

بعد إلغاء السَّلطنة، لم ينتظر محمد وحيد الدين السَّادس حتى يتم اختياره خليفة باعتباره الرجل الخلوق الأوسع علما في الخاندانة في إسطنبول. واضطر آخر السَّلاطين إلى اللجوء إلى أوروبا بواسطة السَّفينة الإنكليزية مالايا دون أن يأخذ أيَّ شيءٍ من الخزينة بالفعل، ولم تكن لديه أموالٌ في البنوك الأوروبية أيضا. وقد توفي هناك بعد فترة قصيرة أمضاها في الشقاء.

وكان ابن عمه – وهو في نفس الوقت حموه – عبد المجيد أفندي ابن السُّلطان عبد العزيز أحد أفراد السُّلالة العثمانية لطيفا مع حكومة مجلس الأمة التُّركي الكبير ومع الحركة في الأناضول، فتم اختياره خليفة. ولكن لم يتمكن ذلك الخليفة الأخير من الحفاظ على منصبه، ولا المحافظة على علاقاته مع الأناضول ولا على التَّوازنات الحساسة، فتم إلغاء الخلافة أخيرا في شهر آذار/مارس من 1924م ونُفِيَ أفراد السُّلالة العثمانية إلى خارج البلاد.

والأمر الملفت للنظر هنا؛ هو أن المجلس حلَّ نفسه في 9 نيسان/أبريل، وتم تشكيل مجلس جديد أكثر اعتدالا وأكثر انسجاما مع التغييرات اللاحقة. وتم إجراء الانتخابات في تموز/يوليو، واجتمع المجلس في شهر آب 1923. وكان في مقدمة الأعمال التي قام به مجلس الأمة التُّركي

الكبير، مصادقته على اتفاقية لوزان التي وقعت في 24 تموز/يوليو 1923 بعد مشادَّات دبلوماسية كبيرة استمرت عشرة أشهر تقريبا.

ولا يمكن إنكار وجود المعارضين لإلغاء الخلافة بلا شكٍّ، فقد عاش خاندانة آل عثمان ستة قرون من نظام الحكم الفردي الوراثي المطلق. ورغم أنَّ الأتراك لم يكونوا من أنصار الملكية المطلقة، ولا يوجد لدينا اليوم أي حزبٍ يحمل هذا التَّوجه، لكنَّ الأتراك يحبون أولياء أمورهم، وأغلبية الأتراك يحبون السَّلاطين لاسيما التِّسعة الأوائل منهم ويدعونهم بالماريشالات الكبار، وهناك من يضم عبد الحميد الثَّاني في الفترة الأخيرة إلى هؤلاء.

وبرأينا فإنَّ الكتَّاب الذين لا يبالون بمن لا يحب الملكية الوراثية والذين يطلقون أحكاما مطلقة لا يمكن أن يكونوا أشخاصا مقنعين أو مؤرخين أقوياء. كما لا يمكن تقييم السُّلالة العثمانية التي شكلها والمسيرة التَّاريخية التي خطَّها السُّلطان محمد الفاتح والسُّلطان سليمان القانوني ومراد الأول والثَّاني بالقول إنَّ "السُّلطان خضع للحريم". لأن الرجال الذين بنوا قصر توب كابي، وهؤلاء الأجيال الأربعة لم يموتوا فيه ولا في أسِرَّته.

والجدير بالذِّكر أن الملكية الوراثية لم تُطرح بديلا عن الجمهورية أيضا بعد إلغاء السَّلطنة. بل استسلمت السُّلالة العثمانية إلى قدرها، دون ردود فعل هزليةٍ، ودون تنظيمٍ معارضٍ واضحٍ.

ولو لم تُلغَ السَّلطنة لاستمرت باعتقادي مدة من الزمن، ثم انتكست مثل المؤسسات الأخرى. لأنَّه لا توجد وثائق تدل على أنهم كانوا يشكلون خطرا، مع عدم خلو الأمر من وجود الخطر. إذ كانت هناك مجموعاتٌ مستاءةٌ من الجمهورية، ويُخشى من استخدامهم الملكية الوراثية، وكان ذلك مبعثا للقلق رغم كونه احتمالا مجهولا. فالخليفة الأخير عبد المجيد أفندي مثلا كان يتصرف تصرفاتٍ مثيرة وغير مسؤولةٍ وكأنَّه سلطانٌ. حيث أقام مراسم سلاملك (تحية السُّلطان) يوم الجمعة بصورةٍ مبالغٍ فيها، وكان خروجه أثناء المراسم بمظهر السُّلطان محمد الفاتح وهو يمتطي جواده ملفتا للانتباه للغاية. وبالطَّبع لم يكن هذا السلوك سلوكا جنونيا، لأنَّ الحكام هم الذين يظهرون بهذا المظهر. فعلى سبيل المثال؛ أقام نيقولا الثَّاني[47] والإمبراطورة حفلة تتويجٍ وفق مظاهر القرن الخامس عشر والسَّادس عشر، وارتدى كلٌّ من فرانتس جوزيف[48] وزوجته إليزابيث زيَّ ملوك المجر وتاج المجر، وفي احتفال الذكرى السَّنوية الـ 2500 بداية عام 1971 لعب شاهنشاه إيران الأخير مع الشاهبانو فرح بزيهما وتاجيهما دور زوجين متألقين من الحكام الساسانيين. وهؤلاء

جميعا كانوا حكاما. بينما كانت تلك الحركات والمظاهر وأمثالها تثير الخوف من التفاف الفئات المستاءة في أنقرة وإسطنبول حولها. والأكثر من ذلك أنَّ شمول النفي كلَّ أفراد الخاندانة غير القادرين ساهم في طرح مثل هذه الادعاءات أيضا. وبالطَّبع لم يكن هذا التَّصرف محصورا فينا فقط، بل كان يحدث في كل أنحاء العالم، حيث تم نفي الأسر الحاكمة في روسيا بل وتم اغتيالهم كذلك. ولم يكن النِّظام الجديد عندنا استثناء حيث قام بنفي جميع أفراد صلة الدم بالسُّلالة العثمانية، ورغم إمكانية تجاوز النَّفي للأفراد من خارج صلة الدم (أي زوجات الشاهزادات وزوجات السَّلاطين وأولاد نساء السَّلاطين)، إلاَّ أنَّ الغالبية منهم فضلوا الانضمام إلى قافلة النَّفي على البقاء في ظل الوضع القائم.

كيف تم إلغاء الخلافة؟

اتسمت الخلافة الإسلامية كمؤسسةٍ في القرن التَّاسع عشر بالمظهر الأكثر إثارة عبر التَّاريخ، وقد تولد عن مؤسسة الخلافة منذ القرن الإسلامي الأول الصِّدام والتَّحزب، وقامت أكثر من حكومةٍ إسلاميةٍ بادِّعاء الخلافة لنفسها منذ الأمويين في الأندلس، وفيما بعد في القرنين الخامس عشر والسَّادس عشر. وكانت على شيءٍ من الصواب، لأنها كانت تحكم مجتمعاتٍ إسلامية.

وفي القرن التَّاسع عشر، كانت النَّظرة العامة تميل إلى القبول بالخلافة في دولة وحيدةٍ وهي الدَّولة العثمانية. فلم يعد الشِّيعة في إيران يقومون بدعاياتٍ معاديةٍ للخلافة العثمانية رغم أنهم لا يعترفون بها، كما أنَّ النَّظرة السَّلبية عند سيد أحمد خان في الهند في موضوع الخلافة، والآراء الجديدة في العالم العربي حول حصر الخلافة في الأصول العربية أو في قريش، كانت تواجه اعتراضاتٍ شديدة حتى في المناطق الجغرافية نفسها، وفي الواقع كانت الجاليات المسلمة أكثر ميلا للعثمانيين. كما ظهرت من جهةٍ أخرى أراء إسلاميةٌ معاصرةٌ تطالب بتنظيم مؤسسة الخلافة بما ينسجم مع الهيكلية والنِّظام السِّياسي لعالم الاستعمار في القرن التَّاسع عشر، وينبغي هنا مثلا ملاحظة السَّنوسيين (سيد محمد المهدي) أو جمال الدين الأفغاني.

وبناء عليه نلاحظ أنَّ السَّلاطين العثمانيين في القرن التَّاسع عشر ولاسيما عبد الحميد الثَّاني، كانوا يعملون في الحكم وفقا لوجهات نظرهم من خلال الصِّراع مع بعض هذه الآراء المختلفة ومن خلال تأييد البعض الآخر. كما نلاحظ في هذه الفترة أيضا ظهور تيار "بان إسلاميزم" (تيارٌ يسعى إلى إنشاء وحدةٍ سياسيةٍ لجميع الدول الإسلامية) تركي المركز في المحيط العثماني. وتحولت

عاصمة الإمبراطورية العثمانية في النِّهاية إلى مسرحٍ لتنظيم تعليمٍ إسلاميٍّ جديدٍ، وقد أجريت العديد من الدراسات حول هذ الموضوع، ولكننا لن نتطرق إلى تفاصيلها بكلِّ أسفٍ.

وكانت الغاية من تحديث المدارس العثمانية هي توفير التَّعليم الأكثر تميزا بما يوازي مستوى مدارس الأزهر وقازان مع ضمان السَّيطرة الأيديولوجية. وكان على عبد الحميد الثَّاني كخليفةٍ أن يحافظ على كرامة هذه المؤسسة من الدَّاخل والخارج وإحداث رؤيةٍ تتماشى مع سياسته. وبعبارةٍ مختصرةٍ أولت الإمبراطورية العثمانية الاهتمام البالغ بمؤسسة الخلافة في القرن التَّاسع أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

السُّلطة التي هزتها الحروب

أدَّت الشُّروط الغريبة التي أحاطت بالمشاركة في الحرب العالمية الأولى بالإضافة إلى وضع مؤسسة الخلافة نفسها، إلى اهتزاز نظرة الشَّعب التُّركي نحو مؤسسة الخلافة. ومثلما أدى إشراك الدَّولة في الحرب من قبل مسئولي الاتحاد والترقي الواقعين تحت نفوذ هيئةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ أجنبيةٍ إلى إفناء الجيش وفقا لاستراتيجية القادة الأجانب، فإنَّ إعلان الجهاد تحت راية "الخليفة/السُّلطان" الشَّريفة أحدث هزة في سلطة مؤسسة الخلافة أيضا. وقد بدأت حديثا دراسة أحوال الجنود المسلمين في كلٍّ من طرفي الحرب العالمية الأولى. إذ وقعت في بعض الأحوال مجموعات كاملةٌ من الجنود المسلمين في الأسر لدى دول الحلفاء. ولم يكن قيام الجنود المسلمين من الطَّرف المقابل بمساعدة جنودنا الذين عانوا الأمَرَّيْن في معتقلات الأسر، وكذلك فرار الجنود المسلمين في الجيش الرُّوسي إلى الطَّرف التُّركي أو الطَّرف النّمساوي المتحالف، إلاَّ السُّلوك التَّقليدي الطَّبيعي للمسلمين خارج إطار نداء مقام الخلافة إلى "الجهاد". ولكن تبقى حقيقةٌ مؤكدةٌ وهي أنَّ المسلمين من كلا الطَّرفين شاركوا في الحرب ضد بعضهما البعض.

المجلس يختار الخليفة

حين التأم مجلس الأمة التُّركي الكبير في أنقرة بتاريخ 23 نيسان/أبريل 1920م، كان هناك إحساسٌ بأن جوهر الخليفة والسُّلطان سيتغير. ولكنَّ مؤسسة الخليفة لم يتم تناولها في أذهان العديد من المبعوثين (النُّواب) وبقيت مشاعرهم مع السَّلطنة على حالها.

وكانت هذه المرحلة التي انتهت بإلغاء الخلافة سببا في نشوب خلافٍ عميقٍ في وجهات النَّظر داخل الفريق الذي أدار النِّضال الوطني نفسه، وكذلك سببا في توتر وتصفية في الكادر الإداري بل واللجوء إلى خارج القطر.

وحين تم إلغاء السَّلطنة، اختار المجلس ولي العهد عبد المجيد أفندي كخليفةٍ فقط في 18 تشرين الثَّاني/نوفمبر 1922. وكانت تلك هي المرة الأولى خلال 1300 سنة، يتم فيها اختيار الخليفة من قِبل نظام شورى يمثل الشَّعب جميعا. وهو أمرٌ يماثل بالكاد النِّظام الذي أوصى به الخوارج في القرن الإسلامي الأول، ولكن في ظروف مختلفة وغريبة.

وفي الواقع لن تكون للخليفة هذا سلطةٌ سياسيةٌ ولن يكون عمره مديدا. وقد عبَّر علماء الأزهر في مصر وكذلك لجنة الخلافة لدى مسلمي الهند عن موافقتهم على هذا الاختيار. كما أن الوفد القادم من القرم "باسم مؤتمر مسلمي الروس" قام بالرُّجوع إلى الخليفة "من أجل خطبة يوم الجمعة"، أي أنَّه اعترف به.

العلاقة بين السُّلطة والخليفة

لا شكَّ أن المناقشات حول وضع الخليفة، الذي ليست لديه سلطة سياسية ولا يستخدم أجهزة السُّلطة، قد بدأت قبل شهري شباط/فبراير وآذار/مارس من عام 1924م بكثيرٍ. حيث لم يتمكن حتى المطالبين بالحفاظ على الخلافة من تقديم تعريفٍ دقيقٍ للعلاقة بين السُّلطة في أنقرة والخلافة في إسطنبول. فكان الوضع مماثلا لنموذج العلاقة اللافتة في التَّاريخ بين الخليفة العباسي في أيامه الأخيرة والأسرة المملوكية في مصر. إلا أن هذا النَّموذج لا يمكن اعتماده مثالا من أجل تحديد العلاقة بين الخاندانة العثمانية والجمهورية النَّاشئة بعد إلغاء السَّلطنة. كما أن مؤسسة الخلافة اكتسبت من جهةٍ أخرى أهمية من قِبل مسلمي الهند لاحقا، حتى أصبح المطلوب هو الوصول بتلك المؤسسة إلى طبيعةٍ ونموذجٍ لم يُعهد مثله في التَّاريخ، فتم هنا طرح مفهوم الخلافة الإسلامية للمناقشة.

يختلف صعود الخليفة إلى العرش عن صعود أيِّ حاكمٍ آخر تماما، حيث ينبغي أن تجري مراسم تقليد السَّيف في جامع أبي أيوب الأنصاري (تماثل مراسم التتويج نوعا ما)، ويقيم الخليفة في قصر سلفه، وتقام مراسم (السلاملك) تحية ليوم الجمعة. وقد واجهت مراسم تحية الجمعة فيما بعد

انتقاداتٍ مختلفة، وأدت إلى انتشار القيل والقال حول رغبة الخليفة عبد المجيد في السَّلطنة. وفي الواقع لا يمكن القول بأن الخليفة نهج سياسة تتماشى مع الأوضاع.

لقد أثير النِّقاش حول نظرة الحكومة في أنقرة – باعتبارها امتدادا للسَّلطنة – إلى الخلافة ورغبتها في إلغاء هذه المؤسسة من أجل أن تمسك بزمام السُّلطة بقوة، وتناولته الأوساط الأدبية والمحافل السِّياسية بين الحين والآخر. وقد أبرز رجال تاريخ العلوم السِّياسية، لا سيما البعيدون عن أفكار الحركات الإسلامية من أمثال متَه طونجاي، وجهة النَّظر هذه. ولكن يوجد خطابٌ سياسيٌّ مدعومٌ في الغالب يوحي بأن الحكومة الكمالية قد ألغت الخلافة من أجل إنشاء مجتمعٍ علمانيٍّ.

في عام 1923م، نشر سيد بيك[49] رسالة تحت عنوان "خلافتن ماهيتي شرعيسي" يعني (الجوهر الشَّرعي للخلافة) يدافع عن فكرة عدم وجود ارتباط بين مؤسسة الخلافة والسُّلطة الإسلامية، يقول فيها: "ليست الخلافة مؤسسة دينية، بل دنيوية وسياسية". وفيما بعد، وخلال مناقشة الموضوع في المجلس، كتب هذ العالِم الإسلامي سيد بيك (وكان وكيلا للعدل ونائبا في المجلس عن إزمير) رسالتين، حيث دافع عن مطلب إلغاء الخلافة ضد المعارضين اعتمادا على الرسالة التي كتبها قبل عام. وقد طُبع خطاب سيد بيك في المجلس من جديد فيما بعد في طبعةٍ منفصلةٍ. ولكنَّ الحكومة كانت حاسمة في قرارها، لأنَّ إبعاد النِّظام الجمهوري الخلافة عن السُّلطة السِّياسية كان تمهيدا لإلغاء الخلافة بسبب العجز السِّياسي حينها (وفي الواقع تماشيا مع النَّظرية)، وكذلك مقدمة لنفي الخاندانة إلى خارج القطر.

عهد الإصلاحات الجذرية

إنَّ المثال الأكثر إثارة للانتباه في الخطاب السِّياسي ضد الخليفة هو خطاب الرئيس الغازي مصطفى كمال إلى المجلس في 2 مارس 1924م. إذ تحدث مصطفى كمال في هذا الخطاب عن توحيد المنهاج الدراسي في تركيا (يعني إلغاء التَّدريس الديني، وتوحيد البرامج بين المدارس الأجنبية تحت إشراف وكالة المعارف – أي وزارة المعارف في العهد العثماني – وبين المدارس الوطنية)، وتطبيق القانون المدني في مجال الأسرة وحقوق المواطن.

وبالتَّالي فإنَّ الإصلاح القانوني الذي تم في عام 1926، كان قد ورد في يوميات المجلس وتم الإعلان عنه قبل عامين. وهكذا جرى في الفترة التي أعقبت إلغاء الخلافة إغلاق مؤسسات التَّعليم الديني، وتفريق الطُّرق (الصُّوفية) الإسلامية، وإغلاق التكايا، ووضع قانون اللباس. ولعله تم بهذه

الطريقة الولوج إلى مرحلةٍ من الإصلاح الجذري بالتَّزامن مع التَّغيير الثَّقافي والعلماني المتداخلَين فيما بينهما.

النَّبي صلى الله عليه وسلَّم والخليفة

تُشكل مسألة الخليفة واحدة من الموضوعات التي تستحوذ على النِّقاش في الإسلام. وقد ورد لفظ الكلمة في موضعين في القرآن، وفي كلا الموضعين أضيفت إلى سيدنا آدم وسيدنا داوود، أي أضيفت إلى الإنسان. لأنَّ ذكر الله وإدراكه محصورٌ في بني آدم من بين جميع الكائنات. حيث لا يوجد نصٌ مثل: "الخلافة في قريش" ولا "الخلافة وراثةٌ من الوالد إلى الولد"، وينطبق هذا على الأحاديث النبوية أيضا، لأن الشَّخص المعني في النِّهاية هو نبيٌّ، وأحاديثه إلهية المصدر. وهو ليس رجل دولةٍ. ولو أنَّه تحدث بهذا الشَّكل، لتقاتل الناس.

وبالطَّبع ينبغي إدارة المجتمع بصورةٍ ما، وهذه الإدارة في المجتمعات الإسلامية يقوم بها "الخليفة".

مصطفى كمال باشا ولطيفة خانم وهما يقتربان من بناء بلدية
أفيون على حنطورٍ مكشوفٍ برفقة الحشود الضخمة

لذلك، لا فرق بين الإدارة والخلافة، أي أنَّه لا توجد علاقةٌ روحيةٌ. كما لا يمكن القول بأن واقع وجودها في الواقع يعني التَّعامل معها كمؤسسةٍ روحيةٍ خلال العصور الإسلامية كلها. ونذكر أن تحويل الخلافة إلى مؤسسةٍ روحيةٍ تم من خلال اتفاقية "كوتشوك كاينارجي"[50] في القرن الثَّامن عشر. ولم يكن طرحُها من قِبلنا بل من قِبلهم، وقد أُبلغ موراديغي دوسون[51] بأنَّ هذه النَّظرة هي الأنسب للنُّخب العثمانية.

مقام الخلافة في مركز الدِّين والسِّياسة

لا يمكن للخلافة أن تعود، مثلها مثل الزُّجاج المكسور الذي لا يمكن أن يُعاد كما كان.

وحين ألغينا الخلافة كان الوضع على الشَّكل التالي:

لم يكن من الوراد أن يتمسك مسلمو روسيا بهذه المؤسسة، فهناك الاتحاد السوفييتي. ولا يمكن لذلك العالم في العام 1924 وما بعده أن تكون له صلةٌ بالخلافة أو بأية مؤسسةٍ أخرى هنا.

أما فيما يتعلق بالهند حيث توجد الكثافة الأعلى للسُّكان المسلمين في العالم، فعلينا التَّوقف عند هذه النُّقطة، لأنَّ الخلافة العثمانية والخليفة بالنسبة لمسلمي الهند كانا حجةً يعتمدون عليها في مواجهة الإدارة الاستعمارية البريطانية، وكانت هي المعتمد، فعندما يُقال: "لا يرضى الخليفة لا بهذا، ولا يتوافق مع الدِّين" أو عندما يُقال: "الخليفة يؤيد ذلك، وينبغي تنفيذه" فإنَّ تلك الأقوال كانت مصدر قوةٍ في ترجيح الكفة أثناء المناقشات. ولهذا السَّبب كان مسلمو الهند مستائين من إلغاء مقام الخلافة. ولكن حين رسمت الهند طريقها المستقبلي في التَّاريخ تبيَّن بأن موضوع الخلافة لم يعد له عملٌ هناك أيضا.

وفي العالم العربي، لم يعد هناك أحدٌ يؤيد الخلافة التُّركية في الواقع منذ القرن التَّاسع عشر. ونلاحظ هنا أنَّ العالم العربي منذ القرن التاسع عشر لم يكن يريد الاستقلال، ولكنه في نفس الوقت لم يكن يريد الخلافة التُّركية أيضا. إذ كانوا يقولون: "الخلافة من حقنا، الخلافة من حق قريش".

وكما قلنا كانت فكرة إلغاء الخلافة مهيمنة على المجلس العام 1924. وفي أول بندٍ أبرز وكيل العدل سيد بيك رسالة كانت عبارة عن مقترحٍ في موضوع فصل الخلافة عن أعمال الدَّولة. أي أنَّ الأرضية المناسبة لإجراء الفصل المذكور عام 1922. وفي البند الثَّاني أبرز نفس الشَّخص رسالة مشابهة تدور حول عدم الجدوى (من الناحية الرُّوحية) من خليفةٍ معزولٍ عن سلطات الدَّولة.

واستخدم في الرِّسالة الأولى حجة تاريخية، وبيَّن أن سلطة الخلافة في بغداد كانت تختلف عن سلطة الدَّولة واكتسبت الصِّبغة الروحية تقريبا لا سيما في العهد البويهي ثم السَّلجوقي من بعده، وأوضح في الرِّسالة الثَّانية أنَّ هذا الأمر من المستحيل أن يتوافق مع مفهوم الدَّولة في الدَّولة الإسلامية.

وبعيدا عن كون الرِّسالتين مطروحتين من قِبل الشَّخص ذاته، فقد كانتا منطقيتين في الواقع، ولا ترتبطان بالعقيدة بشدةٍ. لأنَّ الخلافة في الدين الإسلامي لم تُذكر في القرآن الكريم إلا مقرونة مع الأنبياء، كما لم ترد تفاصيل كثيرةٌ حول كيفية ممارسة نظام الخلافة، ويبدو عدم وجودها أمرا منطقيا وفيه الخير.

ومن المثير للغاية أن يتم التأسيس لوجهة النَّظر مرتين اعتمادا على المعطيات والأحداث التَّاريخية اللاحقة. وقد قام بذلك وكيل العدل السَّابق سيد بيك، كما ذكرنا في الأعلى. ولكن لم يلحظ الكتَّاب في أعمالهم هاتين الرسالتين، والمرة الأولى التي وجدتهما مذكورتين كانت عند مَتَه طونجاي.

لقد جرت محاولةٌ في مصر لإقامة الخلافة، ولكن لم يكن هناك بالتَّأكيد من يرى في الخديوي ولاسيما فؤاد أهلية لهذا المقام. كذلك لم يكن الموضوع واردا بالنِّسبة لإيران. وكان من الممكن أن تحمل جبهة الأردن والعراق، أي الهاشميون، هذا المقام في الدول الإسلامية الواقعة حينها تحت الوصاية البريطانية ونفوذها القوي، إلا أنَّ تركيبتهم الهيكلية ما كانت لتسمح بذلك، وما كان لأحد أن يعترف بهم حتى أنَّ السُّعوديين سيكونون في مقدمة من يرفضهم.

وبالتَّالي حين أُلغيت الخلافة، وكما ذكر في الأسباب الداعية لذلك، بقيت مؤسسة مندمجة بعهدة مجلس الأمة التُّركي الكبير. وبالطَّبع لم تعد هذه المؤسسة موجودة اليوم، فقد أُبطلت بقرارٍ مفاجئٍ في العام 1924. وانتهت بنفي الخليفة والذُّكور من السُّلالة والذُّكور القريبين منهم خلال أيامٍ معدودةٍ. ولم يتم ترحيلهم حتى من محطة سيركجي القريبة، بل ركبوا القطارات من محطة تشاتليجة بعيدا عن الأنظار. ومُنح الآخرون مهلة عدة أسابيع أخرى للرحيل، فغادر جميع أفراد السُّلالة العثمانية الحاكمة السَّابقة بمن فيهم الأصهار، وكل من يحمل صفة الشَّاهزادة (ولي العهد) والسُّلطان. وبقي قسمٌ من الذين تم العفو عنهم لاحقا، وكذلك من لا توجد لهم صلة عن طريق المصاهرة، وبالإضافة إلى بعض أمهات السَّلاطين والشَّاهزادات اللاتي لا ترتبطن مع السُّلالة بصلة الدَّم. بينما انضمت السُّلطانات بإرادتهن إلى المنفيين رغم السَّماح لهن بالبقاء.

وفيما بعد سُمح للنِّساء من السُّلالة العثمانية الحاكمة السَّابقة بالعودة في عام 1952 دون أن يمر على نفيهن 30 عاما. كما منح الذُّكور حق العودة بالعفو الصادر عام 1974م. أي أنَّه بعد تاريخٍ طويلٍ لم يعد بإمكان أحدٍ منهم العودة إلى البلاد، وأمضوا 50 عاما من حياة الشَّقاء. إذ لم يكن لديهم الكثير من المال، فالدَّولة كانت تعطيهم مقدارا محدودا. وكان جواز السَّفر الممنوح لهم جوازا باتجاهٍ واحدٍ ولا يسمح عودتهم، فوضعتهم فرنسا جميعا رهن الحجز، ومنحتهم جوازات سفرٍ دبلوماسية جديدة كأميراتٍ وأمراءٍ. ومع هذا عانوا الكثير من المشقات في بعض الأماكن، فانتشروا لاحقا في دول البلقان وأوروبا الوسطى وأرجاء فرنسا ومن ثم في بريطانيا وأمريكا.

وبإلقاء نظرةٍ على وضع السُّلالة العثمانية الحاكمة بعد مضي خمسين سنةٍ، نجد أنَّ ظروف حياتهم المعيشية لم تتطور، حالها حال السُّلالات الحاكمة السَّابقة الأخرى. فعلى سبيل المثال كان "أوتّو" ولي العهد النّمساوي الأخير (الصَّديق الحميم للسُّلالة العثمانية) هو الوحيد من أفراد السُّلالة النّمساوية الذي أصبح عضوا في البرلمان الأوروبي وبدعمٍ من الألمان، أما أفراد السُّلالة الآخرون فلم يصلوا إلى مناصب ذات قيمةٍ تُذكر. وكانت تلك هي حال سلالة هوهَنزوليرن[52] وسلالة تشار أيضا. حتى أن النِّزاع نشب بينهم حول رئاسة العائلة. ولا يزال هناك خلاف بين عضوين من آل رومانوف[53] حتى اليوم.

ولم يكن للسُّلالة العثمانية كذلك شأنٌ كبير، ولم يتجاوز الأمر قيام شخصٍ أو شخصين بتحسين وضعهما المادي. وكان يوجد بينهم من درس جيدا، وأولى الاهتمام بالتَّعليم وكان ذلك تحسنا، فبعض الأفراد من الإناث تدرجن في الدِّراسة في الخارج بشكلٍ لا يمكن أن يحصلن عليه في عهد السَّلطنة. وهكذا خرج من بينهم أصحاب فكرٍ عظماء في أوروبا من أمثال نسلي شاه سلطان والشَّاه زادة عثمان أرطغرل أفندي. وبالمقابل كان هناك من بقي فقيرا ودون تعليمٍ أيضا، لاسيما من بقي منهم في الشَّرق الأوسط.

ولم يشارك أفراد السُّلالة العثمانية في أي وقت من الأوقات في حركات وتنظيمات سياسية ضد الدَّولة، ولم يتحدثوا ضد الجمهورية علنا، بل كان هناك من تحدث لصالحها أيضا.

على الرغم من أن مسلمي الهند وربما قسمٌ من الإندونيسيين حزنوا لإلغاء الخلافة في الوهلة الأولى، ولكن حدثت لاحقا تحولات كثيرةٌ هناك.

كما أنَّ أصحاب المذاهب الإسلامية التي كانت لها مواقف معارضةٌ بشدةٍ للخلافة التُّركية من قبل، انقطعت علاقتهم بهذه القضية تماما. أضف إلى ذلك أنَّه لم يصدر أي صوتٍ داعمٍ، بل ولا مجرد استياءٍ من قِبل الإسماعيليين، وهم الأكثر ثراءً من حيث المال والتَّعليم، والمنتشرين في العالم الإسلامي جغرافيا مع قلة عددهم.

أما المرارة التي عاشها المسلمون للوهلة الأولى في القارة الهندية حيث يشكلون كثافة سكانية، فآلت إلى الزَّوال مع ظهور مفهوم الهند المسلمة. وأحد رواد هذا المفهوم هو خالدة أديب (أدِفوار) خانم، التي أمضت عند خروجها قسما من وقتها خلال زمن الهجرة في أماكن مثل كلية أليغار الإسلامية، والتف مسلمو الهند حولها. وقد التقت في تلك الأجواء بأشخاصٍ من أمثال نهرو ومولانا آزاد، ولم تكن لها مواقف متشددةٌ. وفي عام 1937 صدر لها كتابٌ تحت عنوان "داخل الهند"، وهو الكتاب الأول لمثقفةٍ تركيةٍ يتم طبعه في دار نشر مرموقة (ويدنفلد ونيكولسون)، حيث لاقى انتشارا واسعا بين القراء، ولا يزال من الكتب التَّقليدية في الهند. وقد أثبتت في كتابها بأنَّ المسلمين في جنوب القارة الهندية شعوبٌ مختلفةٌ من حيث الحياة المعيشية والثقافية، وجرى اعتماد آرائها وتعليقاتها بالفعل.

وهكذا، ومع هذه التغيرات المتدرجة بسلاسةٍ، وجدت الهند شخصيتها الخاصة بها داخل نفسها، ولم تعد مسألة الخلافة مثار جدل بعد الاستقلال.

وبالنَّتيجة، لا أرى أنَّ إلغاء الخلافة التُّركية أحدث متاعب كثيرة، وبالطَّبع يوجد الكثير من الآراء المخالفة. ولكن يبقى القول بأنَّ الخلافة أُلغيت دون تشويهٍ وتلويثٍ لسمعتها، وهذا ما ينص عليه مجلس الأمة التُّركي الكبير.

وهناك ملاحظة جديرةٌ بالذِّكر، فالنِّظام الذي انتخبه الشَّعب للمرة الأولى هو مَن اختار الخليفة وهو مَن ألغاه، وهذا الأمر من الأهمية بالمكان.

والآن، لو كانت الخلافة بيد تركيا اليوم فما الذي كان سيحدث؟ أعتقد أن تأثير الدور التُّركي على العالم الإسلامي سيكون هو التَّأثير الحالي نفسه، ولن يكون أكثر من ذلك.

ورغم أنَّ الخلافة موجودةٌ في الإسلام، ومذكورةٌ في القرآن الكريم، إلاَّ أنَّ ذكرها ورد كوصفٍ للإنسان. فالإنسان خليفة الله، يذكره ويؤمن بقوته ويبايعه. ومن ناحية أخرى، لم يرد في

القرآن الكريم ولا في الوحي ولا في الحديث النبوي تعريفٌ للخلافة ولا نظام الخلافة ولا ترتيباته. وهذا ليس عيبا، بل إنَّه الكمال بأتم معانيه المخصوص بالوحي في الحقيقة. إذ لا توجد أحكامٌ وكيفياتٌ مثل: يجب أن يكون هكذا، وينبغي أن يكون هكذا، أو ينبغي تعيينه بالانتخاب.

ومن الواضح أنَّ الخلافة في الإسلام ليست مؤسسة روحية، بل هي مؤسسةٌ دنيويةٌ. وقد شهد العالم الإسلامي خلافتين عبر الزمن، حيث تم فتح إسبانيا خلال العهد الأموي، فانفصلت إسبانيا عن المركز، وكانت هناك خلافةٌ في الشَّام، وفي الطَّرف الآخر منها خلافةٌ في الأندلس. كما أنَّ الخلافة كانت موجودة في العهد العثماني، وكان المماليك موجودين، وكانت آسيا الوسطى موجودة، وفي القرن الحادي عشر كان الشِّيعة موجودين أيضا.

ونذكر هنا عدة نقاطٍ مهمة: الأولى، وجود أقوالٍ بأنَّ السُّلطان سليم الأول الملقب بالقاطع (ياووز سليم) استلم الخلافة وأخذها لمكانٍ آخر بعيدا عن خطها، وهو أمرٌ ليس صحيحا. والثَّانية، أنَّ صفة الخلافة هذه استعملت للسُّلطان محمد الفاتح والسُّلطان بيازيد، إذ كان ولاتهم يطلقون عليم هذه الصِّفة داخل حدود الدولة. والثَّالثة، أنَّه بالإضافة إلى القانوني وسليم الأول لم تُستعمل كلمة الخلافة والألقاب الكبيرة إلا قليلا. مع أن السُّلطان عبد العزيز أو عبد المجيد والآخرين في القرن التَّاسع عشر كانوا يدعون بصفات مثل "ظل الله في الأرض". وقد وردت صفة الخلافة بشكلٍ رسميٍ في دستور عام 1876م، وإن كانت موجودة من قبل. كما أنَّ اصطلاح الخلافة كان ساريا على سليم الثالث أيضا. أضف إلى ذلك أنَّ عبارة الخلافة واردةٌ في كل الوثائق منذ عام 1774م (اتفاقية كوتشوك قاينارجة).

وإذا انتقلنا إلى النَّظر في نمط حياة ومعيشة آخر الخلفاء العثمانيين عبد المجيد، نجد أنَّه لا ينسجم مع نموذج الخليفة لدى المتعصبين. إذ كان في حياته الشَّخصية عثمانيا يعيش في بيئةٍ علمانية بالكاملٍ، فهو أميرٌ واسع الاطلاع، يتقن الفرنسية والألمانية، ومنفتح حتى أكثر من ابنه الذي درس زمنا في الأكاديمية العسكرية في بوستدام. وكان يرتدي "ملابس السِّباحة" القصيرة، ويسبح ويلعب الرياضة ويرسم ولديه عددٌ من الموسيقيين. وهكذا كانت حياته بمستوى حياة بورجوازيٍ أوروبيٍ محافظٍ، ولكنه كان بالمقابل يمثل القصر العثماني، ولا يوجد في هذا تناقضٌ، فهو ملتزمٌ بمبادئ الأخلاق العامة، ويوجه الملاحظات بين الحين والآخر إلى أفراد السُّلالة العثمانية الشَّباب حول بعض أنماط حياتهم، حيث إنه كخليفةٍ ورئيسٍ للعائلة يملك تلك الصلاحية.

وكان وجميع اللاجئين من أفراد السُّلالة العثمانية في ذلك العهد يتحدثون عنه كخليفةٍ، ويتم التُّركيز على وضعه كخليفةٍ لاجىءٍ.

ومن جهةٍ أخرى كان الخليفة الأخير، مهملا للغاية ومسرفا، كما وصفه أحد أفراد عائلته، ولا يكتفي بخزينته، بل يطلب الدَّعم المالي من حكومة أنقرة باستمرار، ويطالب بميزانية أكبر، ويُجري مراسم تحية الجمعة في أجواء صاخبةٍ.

علاوة على ذلك، كان رأفت باشا إلى جانبه. ولكن عندما حدث بعض التوتر العابر بين قادة حرب الاستقلال، كان رأفت باشا هو الأكثر تقليدية في التَّفكير وفقا لأنقرة.

الماريشال الغازي مصطفى كمال باشا مع وكيل (وزير) الدِّفاع
الوطني رأفت (بَله) باشا4 . كانون الأول/ديسمبر 1921م، أنقرة

ولنطرح السُّؤال الآتي: "هب أنَّ عبد المجيد أفندي بقي هادئا بارد الأعصاب، ولم يقم بالتَّحرشات بعد الانتصار في حرب الاستقلال وتأسيس مجلس الأمة التُّركي الكبير في أنقرة وخلال الفترة الانتقالية وبعد إعلان الجمهورية، فهل كانت الخلافة باقية؟". من المعروف في الواقع أنَّه كان لطيفا مع الحركة في أنقرة، إلا أنَّ الخلافة كانت ماضية إلى الإلغاء يوما ما، ولكنَّ الإجراء كان سيتأخر بعض الوقت، ومن المحتمل أنَّ السُّلالة العثمانية لم تكن لتتعرض إلى النفي إلى الخارج بهذه الصُّورة العنيفة. فقد كان النفي مفاجئا للغاية وتعرض أفراد السُّلالة العثمانية إلى الظُّلم الشَّديد، إذ كان القانون قاسيا للغاية، وحدثت بعض الانتهاكات خلال التَّنفيذ، وأدت إلى نتائج غير مرغوبٍ بها.

ربما كانت هذه الأمور كلها لن تحدث، بل ربما حدث انتقالٌ مرنٌ أيضا. ورغم أنَّ أمر إلغاء الخلافة كان مقدَّرا، إلاَّ أنَّه كان من المحتمل أن يتم نفي السُّلالة العثمانية بطريقةٍ لا تجعله الحدث الأقسى في عملية انهيار العرش والتَّاج بعد الحرب العالمية الأولى، بل وكان من الممكن أن يتم بطريقةٍ مدروسةٍ.

المؤتمر الاقتصادي لدولةٍ فقيرةٍ في إزمير

في المؤتمر الاقتصادي في إزمير المنعقد عام 1923، تم اتخاذ قرارات تحقيقا لرغبات مجموعات الفلاحين والتُّجار، ومن الصَّواب اعتباره المؤتمر الذي أعلن النِّظام الاجتماعي والاقتصادي لتركيا أمام العالم الخارجي، أكثر من كونه المؤتمر الذي اتخذ القرارات المصيرية بشأن تركيا.

كان المؤتمر ذا طبيعةٍ بيروقراطيةٍ استشاريةٍ من خلال القرارات الصَّادرة، وكانت هناك أجواءٌ على شاكلة: "من كان له رأيٌ في الاقتصاد فليتقدم". وقد اتخذ المؤتمر سلسلة من القرارات من أجل تطوير الحياة الاقتصادية. وكان باديا منذ اليوم الأول بأن الدَّولة العتيدة ماضيةٌ نحو تنظيم الحياة الاقتصادية، حيث تمت السَّيطرة على الخطوط الحديدية، وتأميم الشَّركات الموجودة. رغم أنَّ الذريعة الأكثر أهمية في مواجهة ذلك حينها كانت تدعي عدم قدرة الأتراك على تشغيل خطوط السِّكك الحديدية.

وبما أن الدَّولة لبست لبوس النِّظام الليبرالي، فقد أبقت الاقتصاد تحت سيطرتها، فاحتكرت السُّكر والدُّخان والقماش الأمريكي الرَّخيص وغيرها من السِّلع الضرورية التي تستهلكها شريحةٌ كبيرةٌ من الشَّعب.

كما أنَّ تركيا أنجزت عملية التأميم في مجال النَّقل والخدمات البريدية والبنية التَّحتية الحضرية، في وقتٍ سابقٍ لبدء الدول الأوروبية بذلك لاحقا. وإضافة لهذا شرعت الدَّولة في تنفيذ سلسلةٍ من الصِّناعات الثَّقيلة في هذه المرحلة.

ولم تكن الأسباب أيديولوجية، بل كان الوضع مماثلا لحالة عدم وجود رجل أعمال محلي قادر على شراء فندق "برا بالاس" في إسطنبول عبر مزادٍ علنيٍّ وعلى تشغيله.

وقد غدا المؤتمر الاقتصادي ساحة للمناقشات حول جميع قطاعات الحياة الاقتصادية بل والبنية التَّحتية للتَّشغيل والآليات البيروقراطية أيضا. فعلى سبيل المثال: اعترض كاظم قرة بكر باشا على الذين ينادون بحل مشكلة الأمية من خلال تغيير الأحرف إلى اللاتينية، وأوضح بأن عملية التَّحول إلى اللاتينية لم تنجح، وتحولت إلى فوضى.

بعض الملاحظات حول لوزان

تعد معاهدة لوزان للسَّلام معاهدة في غاية الأهمية من حيث تحديد حدود الدَّولة التُّركية ومؤسساتها ومصيرها في آنٍ معا. ولا تزال النِّقاشات حول كونها نصرا أم هزيمة مستمرة إلى اليوم. وأعتقد أنَّ القول الفصل في ذلك هو ما يقوله المؤرخون: "إنَّ لوزان حلٌّ وسط".

لقد فرضت تركيا الاعتراف بحقوقها، إذ رفضت حكومة الأناضول، من بين الدول المهزومة في الحرب العالمية الأولى، إملاء سيفر من سلسلة معاهدات باريس التي أُمليت عليها – وفي الواقع لم تقبل بها الحكومة العثمانية أيضا بسبب عدم وجود مجلسٍ – وأملت شروطها هي وفرضت الاعتراف بها، وتوصلت إلى معاهدة صلحٍ كبيرةٍ.

وكانت حكومة المجلس قد رفضت معاهدة لوزان في الجلسة الأولى عام 1923، وكان من اللافت للانتباه الجدل بين كرزون وعصمت باشا، حيث جرت الملاسنات بينهما آنذاك بسبب إشارة كرزون بعض الأحيان إلى معاهدة موندروس. وكان عصمت باشا يرد عليه ويقول: "لقد جئت إلى هنا من مودانيا".

هناك من يرى معاهدة لوزان هزيمة بينما يراها آخرون نصرا، فالفريق الأول اعتبر أنَّنا لم نحصل على شيءٍ في لوزان، بينما اعتبر الفريق الثَّاني أنَّنا نحن الذين حصلنا على ما أردنا.

والمهم أنَّنا رفضنا كشعبٍ خرج من الحرب حديثا اتفاقية سيفر المشؤومة، فكانت معاهدة لوزان معاهدة منطقية، وتسوية مشرفة للغاية، لأنَّها كانت معاهدة ثابتة وضامنة للنِّظام.

وبما أنَّ معاهدة لوزان كانت وثيقة تأسيسية تم توقيعها والاعتراف بها في الفترة الانتقالية قبل إعلان الجمهورية، فإنَّ جميع رجال السِّياسة والبيروقراطية في فترة الجمهورية يقولون عنها: "الاتفاقية الأساسية للجمهورية، بل هي أساسها". وتلك نقطةٌ مهمةٌ للغاية، فهذه المبالغة تعتمد على الفكرة التَّالية: "لدى النَّظر إلى بنود لوزان، نرى أنه تم في الواقع تثبيت مسألة تصفية الإمبراطورية ومسألة النِّظام الجديد من خلال اتفاقيةٍ دوليةٍ". وبالمقابل (وبسبب هذه الخاصية في المعاهدة) تعلق عليها الجهات المعارضة لها بالقول: "إنَّ هذه المعاهدة ما هي إلا خدمةٌ موجهةٌ بالكامل من الخارج".

وفي الحقيقة كانت لوزان معاهدة تسويةٍ، أي أنَّها تُعد اتفاقية مع الدول المعارضة، إلى جانب كونها اتفاقية مع الشَّعب التُّركي من أجل النِّظام الجديد الذي سيتم تأسيسه. وينبغي التَّوقف عند هذه الاتفاقية بالتَّأكيد.

في أواسط شهر تشرين الثَّاني/نوفمبر عام 1922، غادر آخر السَّلاطين البلاد، وكان مجلس الأمة التُّركي الكبير اتخذ قرار إلغاء السَّلطنة في بداية الشَّهر نفسه. حسنا، ماذا فعل مجلس الأمة التُّركي الكبير؟ هل سيعلن عن نظامٍ جديدٍ؟ الإجابة للوهلة الأولى هي لا. ورغم تصاعد الشُّعور بأنَّ الجمهورية باتت على الباب، إلا أنَّ الجمهورية لم تُعلن بعد.

وفي نفس السِّياق كانت حرب الاستقلال قد وصلت إلى نهايتها بالفعل مع معاهدة مودانيا، وبدأ وضعٌ جديد من أجل إنهائها قانونيا. وهنا غابت السَّلطنة، أي أنَّ الإمبراطورية تمت تصفيتها.

وبالمقابل تمت المرحلة الأولى من لوزان بين تاريخي 20 تشرين الثَّاني/نوفمبر 1922 و4 شباط/فبراير 1923. ولا شكَّ أن المسألة الأكثر أهمية في المرحلة الأولى من مؤتمر لوزان لم تكن ترسيم الحدود كما يُعتقد، حيث تم حل المشاكل الحدودية بين تركيا واليونان هنا، بل وتم قبول الحل مبدئيا، كما تم بحث المشاكل المتراكمة منذ مئات السنين بين إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وبين تركيا

الجديدة من خلال مجموعتين، ولكنَّ المسألة الأساسية كانت هي الامتيازات والعلاقات الاقتصادية. فهذه القضايا لم تجد حلا بأيِّ شكلٍ، وقد ترك وفدنا المفاوض برئاسة عصمت باشا لوزان بعد مواجهةٍ عنيفةٍ. ثم عادوا إلى طاولة المؤتمر من جديد في 23 نيسان/أبريل 1923. وفي نهاية المحادثات، تم التَّوقيع على الاتفاقية في 24 تموز/يوليو 1923. والخطوة التَّالية لها بالغ الأهمية، حيث تمَّ على أرض الواقع العمل بمعاهدة لوزان ببنودها المائة والثَّلاثة والأربعين، والتي تتضمن 17 وثيقة وخمسة أجزاء وخمس معاهدات وخمسة بروتوكولات وخمسة بلاغات.

لكنِّ محاضر الاتفاقية وبروتوكولاتها الأولية وتعليقاتها لم تجد طريقها إلى النَّشر، على الرغم من أنَّ حكومة الجمهورية التُّركية ظلت تقول منذ سنواتٍ طويلةٍ: "هذه الاتفاقية هي الحجر الأساس لجمهوريتنا ومجتمعنا الجديد". والأمر ليس متعمدا بالتَّأكيد، بل يمكن القول بأنَّه نتيجة الانطباع السَّائد حول الاكتفاء بالخطاب السَّهل، وعدم التَّعامل مع التَّعليقات والنُّصوص الوجيزة. وهذه العقلية تسري حتى على كوادر الشؤون الخارجية.

وفي الحقيقة لم تُحل تلك المسألة كما يجب حتى في "مجموعة وثائق لوزان" التي أعدها الأستاذ المرحوم سَها مراي بين عامي 1969 – و1973، بعد البحث والتَّدقيق في النُّصوص.

كما أنَّ بند "اتفاقية لوزان" الوارد في المجلد الأول الذي يتناول الفترة ما بين عامي 1919 و1973 من كتاب "الأحداث والسِّياسة الخارجية التُّركية" الذي نشرته كلية العلوم السِّياسية، لا يمكن القول عنه في الأدبيات العلمية سوى أنَّه مقالٌ متقنٌ لا يُقدم الكثير. مع العلم أنَّ هذا الكتاب أعيد طبعه عدة مراتٍ، ويُعتبر مرجعا يتم الاعتماد عليه في السِّياسات الخارجية وخارج القطر.

من المفيد في هذا الصَّدد التَّدقيق في الاتفاقية نفسها، وأولا في الأسماء اللافتة للمندوبين الذين شاركوا في اتفاقية السَّلام، فرئيس الوفد هو عصمت باشا، وكان ضمن الوفد رضا نور، وإلى جانبه رئيس وزرائنا حسن سقا بيك، وعضوٌ مثير للاهتمام وهو هايم ناحوم آخر رؤساء حاخامات الإمبراطورية. ومن المثير للانتباه هنا حدوث نقاشٍ حادٍّ بين وجهتي الرأي في مجلس الأمة الكبير، وبالتَّالي من غير المنطقي الادعاء بأن اتفاقية لوزان كانت نتيجة توجيهات شخصٍ واحدٍ أو قوةٍ وحيدةٍ.

تم رسم الحدود وفقا لمعاهدة مودانيا، وفي الواقع لم نستلم كافة المناطق الحدودية التي رسمتها معاهدة مودانيا، لكنَّ المناطق التي سنستلمها باتت معروفة، وبالأحرى كانت هناك قوات عسكريةٌ كبيرةٌ وكافيةٌ لنا في هذه المناطق.

ونورد موضوع الحدود بالتَّفصيل:

تم في لوزان تغيير خط بوديما (ياليكوي)/كاليكراتيا (المعمار سنان) – المنطقتان من ضواحي إسطنبول حاليا – الموجود إلى الأمام قليلا من خط تشاتليجا المذكور في سيفر، ولم يرد ذكر الخط والمنطقة في مذكرة الصُّلح في شهر آذار/مارس 1921 في نهاية مؤتمر لندن.

وفي مذكرة الصُّلح المذكورة وبعد انتصار سكاريا واتفاقية أنقرة مع فرنسا تم تغيير وضع باباسكي وقركلر ألي بعد أن كانتا لليونان. وتم اعتبار الخط الأساس هو خط مريج أي خط الإمبراطورية العثمانية الوارد ذكره مع الدَّخول في الحرب العالمية الأولى.

وبقيت جميع الجزر خارج تركيا على وضعها بعد حرب البلقان بإستثناء جزيرتين، وبقيت جزر إيجة الشَّمالية بيد اليونان. كما أنَّ اثني عشرة جزيرة سيتم إضافتها نهاية الحرب العالمية الثَّانية ولن تعود في النِّهاية إلينا، مع أنَّ ألمانيا النازية كانت تريد منحنا إياها، لكنَّ القبول بها كان يعني المواجهة ضد دول الحلفاء والاتحاد السوفييتي، وبما أنَّه لم يكن من الصواب تخريب السِّياسة الخارجية لألمانيا رفض عصمت باشا هديتها.

وعلى الحدود السُّورية تم تجردينا من السَّيطرة على أنطاكيا (هاتاي)، وبقي سنجق إسكندرون ولكنَّ وضعه كان مجهولا، لأنَّه تحت الانتداب، وفي النَّهاية عاد إلى تركيا عام 1939.

وعلى الحدود العراقية لم يتم حل مسألة الموصل في لوزان وتم تأجيل حلها، دون تحديد مدة هذا التأجيل.

أما إقليم المضايق فكان تحت السَّيطرة الدولية خاليا من الجنود، وبقي على وضعه ليتم البت فيه في مونتروكس عام 1936.

الغازي مصطفى كمال باشا يحيي الأطفال،
توزلا - إسطنبول، 5 حزيران/يونيو 1928

وقد شغلت مسألة المضايق تركيا في الحرب العالمية الثَّانية، ولكن تم فيما بعد إنهاء مسألة إخلائها من العسكريين. وكان من المعروف للجميع بأن قوات الاحتلال ستغادر إسطنبول في الفترة اللاحقة لمعاهدة لوزان، غير أن وضع إسطنبول لم يذكر في لوزان أصلا.

مسألة المواطنة وعملية التَّبادل

تم البت في الامتيازات العدلية خلال الفترة الثَّانية؛ حيث لن يتم التَّدخل بأي صورةٍ في قرار من يريد من الأفراد غير المسلمين بأن يغير هويته الوطنية. وكانت عملية التَّبادل التي جرت بعد معاهدة لوزان مباشرة – حيث لم تذكر في بنود لوزان – نتيجة لطلب اليونان بعد اللقاءات التي

أجرتها مع الدُّول الكبرى في تلك الأيام (يمكن أن نعتبره ضغطا يونانيا)، واضطرت الدَّولة التُّركية الحديثة إلى القبول به، فخضع جميع السُّكان من السُّلالة الهلينية في الأناضول إلى عملية التبادل هذه. وكان من بين هؤلاء أكثر من 100 ألفا (وهو عددٌ هام) من النَّصارى الأتراك الذين يُطلق عليهم اسم "الروم القرمانلي". وتلك العملية كانت إعادة هيكليةٍ سلبيةٍ بحق حاضر الجمهورية ومستقبلها، حيث تم إرسال الرعايا من الأصول الهيلينية إلى اليونان، واضطر هؤلاء ولا سيما القرمانليون أن يعيشوا حياة بالغة الصُّعوبة هناك. أما السُّكان الروم في إسطنبول وبوزجادة وإمروز، كما هو حال أتراك تراكيا الغربية بالضبط، فتم استثناؤهم من العملية وبقي وضعهم معلقا. (ألم يتم حل هذه القضية؟ أبدا، فقد أُرسل الرعايا اليونانيون من بين هؤلاء إلى اليونان بعد عام 1960. وبدأ هذا الوضع بتفتيت الأواصر الأسرية حتى أن البعض اضطر إلى الرحيل قبل الأوان. وتعرضت إسطنبول في هذه الفترة فجأة إلى حركة مناهضة الهيلينية).

وفيما لن تتطرق معاهدة لوزان لاحقا إلى القيود العسكرية الواردة في سيفر، فإنَّها تحدد المناطق المحيطة بالمضائق مناطق خالية من العسكريين، وقد حصلت تركيا على حقها في إبقاء 12 ألف عسكري في محيطها.

المبادلة السُّكانية بين تركيا واليونان

لم يتناول النِّقاش في لوزان مسألة المبادلة السُّكانية بين تركيا واليونان، إلاَّ أنَّها كانت على جدول أعمال مؤتمر لوزان، واتُّخِذ القرار بشأن المباشرة في تنفيذها. وبالتَّالي كانت عملية المبادلة واحدة من النتائج التي نتجت عن مؤتمر لوزان. وقد شملت عملية المبادلة عددا كبيرا للغاية من السُّكان، ولهذا السَّبب ينبغي التَّطرق إلى قضية المبادلة بوجهٍ خاصٍّ.

تركت الإمبراطورية وراءها ميراثا. وكلمة الميراث مستعملةٌ في لغتنا اليومية. وسأشرح الأمر بالأمثلة من خلال الكلمات المستعملة في لغتنا التُّركية داخل تركيا. فعندما أنظر إلى بناءٍ ما، تتبادر إلى ذهني بعض الكلمات: "أناهتار" (مفتاح)، "تمل" (أساس)، "كيليت" (قفل) وهذه الكلمات غربيةٌ، بينما لا توجد كلمة "أناهتار" (مفتاح) في تركية أذربيجان، ولكنهم بالمقابل يستعملون كلمات مثل "أتشك" (مفتوح)، و"باغلاماك" (ربط)، والتي هي موجودةٌ أيضا في اللغة التُّركية داخل تركيا. ولنأخذ الجملة التَّالية: "يالِنِزْ فَنَريني بويرازدة ياقطيم" (أضأتُ منارة الشَّاطئ في الجهة

الشَّمالية)، نجد أنَّه لا يوجد فيها سوى كلمة تركية واحدة هي "ياقتم" (أضأت)، أما كلمات "يالنن" (شاطئ)، و"فنر" (المنارة)، و"بويراز" (الشَّمال) فكلها كلماتٌ غربيةٌ.

تحتل الكلمات العربية والغربية حيزا كبيراً في الأدب التُّركي واللغة التُّركية. ولكنَّ لغتنا هي اللغة التُّركية، لأنَّ المؤسسات القديمة في الإمبراطورية كانت تمتلك ثقافة ولغة، ونحن ورثناها كما هي. وإنَّ رفض هذه المؤسسات وإنكارها يؤدي بالمجتمع إلى الفوضى المعرفية وفناء الثَّقافة.

وبالمقابل تعاني دول البلقان المعاصرة من المشاكل الاجتماعية الثَّقافية الفعلية مثل رفضها لبعض المواريث، كما أصابت تلك المشاكل الشَّرق الأوسط أيضا. في حين أنَّ تاريخ الإمبراطورية ينبغي عدم تناوله كتاريخٍ محليٍّ.

لقد شهدنا زلزالا كبيرا، واسم هذا الزلزال هو الحرب العالمية الأولى. وكانت عملية المبادلة من أهم نتائج تلك الحرب، وهذه المبادلة تضمنت بعض النواحي الجيدة بالطَّبع كما هو حال كل أمرٍ سيءٍ، إلا أنَّها كانت بشكلٍ عامٍّ مأساة كبيرة، وجرحا لا يندمل.

وفي مواجهة محاولة احتلال تركيا، خضنا النِّضال الوطني بقيادة مصطفى كمال باشا أولا، ثم أجرينا مفاوضات مودانيا ثانيا. وطبقا لهذه المفاوضات تم الإبقاء على حدودنا مع البلقان كما هي حسب اتفاقية أوسي/لندن في العام 1912م والعام 1913م.

واليوم نسمع بعض الأصوات تقول: "لقد سلمنا الجزر الاثني عشر في لوزان"، ولكنَّ هذه كانت محتلة فعليا من قِبل إيطاليا خلال حرب البلقان، ولم يقم أحدٌ بتسليمها في لوزان، بل تم تحديد تابعيتها في نهاية الحرب العالمية الثَّانية. في حين أن جزر إيجة الشَّمالية كانت محتلة منذ حروب البلقان وبقيت في يد اليونان.

كما نسمع من يقول أيضا: "لو أن الجيش التُّركي دخل تراكيا الغربية..." غير أنَّ اليونان بعد هزيمتها في الأناضول، جمَّعت كلَّ فيالقها العسكرية في سلانيك وليس عند الخطوط الحدودية الحالية، وأخذت تنتظر هناك، وكان هناك احتمالٌ كبيرٌ في أن يخوض الطَّرفان حربا طويلة الأمد.

وبالتَّالي فإنَّ القول: "لو أنَّ الأمر سار كذلك "، هو بمثابة سحب العربة المنقلبة إلى المسار الخاطئ.

وفي الحقيقة، جاءت مبادلة عام 1924م باقتراحٍ من رجل الدَّولة اليوناني فنيزلوس. وبدأت حينها الهجمة التَّاريخية من جديد؛ فقالوا: "لقد طرح الجمهوريون عملية المبادلة من أجل التَّطهير العرقي". لكنَّ الواقع هو أنَّ عملية المبادلة كانت أولا اتفاقية ثنائية الأطراف، ولم تكن من طرفٍ واحدٍ. كما أنَّ فنيزلوس عندما رأى الحقيقة المرة في المغامرة الكبيرة التي قامت بها اليونان، عاد إلى الصَّواب، وطالب بالسُّكان ذوي "الأصل الهيليني" في الأناضول من أجل زيادة عدد سكان اليونان بحدودها آنذاك. وقد وافقت الدول الكبرى على ذلك فكان لزاما علينا القبول به أيضا، حيث إن تركيا التي أنهكتها الحرب المستمرة إحدى عشرة سنة في طرابلس وصلت إلى حالةٍ لم تعد تمكنها المضيَّ لمزيد من الوقت في الحرب أو الصُّمود أمام الضغوطات في هذا السِّياق. حيث دامت الحرب العالمية الأولى إحدى عشرة سنة بالنسبة لنا، في حين أنها لم تستمر أكثر من أربع سنوات بالنسبة للآخرين. ولم تكن دولتنا الحديثة تلك الدَّولة القوية التي يمكنها مواجهة التَّحالف الدُّولي في بعض الأمور. ولذلك يمكن القول بأن الشُّروط القائمة حينها أجبرت الدولتين على إجراء المبادلة السُّكانية فيما بينهما.

وخلال عملية المبادلة، هاجر حوالي مليون ونصف المليون من سكان الأناضول إلى الطَّرف المقابل. وقد ذهب هؤلاء من المدن المختلفة، وأحيوا في الأماكن التي استقروا فيها في اليونان أسماء المدن التي قدموا منها بإضافة "نيا" أي "الجديد". في حين قدم إلينا من هناك خمسمائة ألف شخص تقريبا. وينبغي دراسة تأثير هذه الأعداد، فعلى سبيل المثال: اضطرت اليونان إلى شراء مادة التَّبغ من الخارج من أجل تشغيل معامل الدُّخان لأنَّ زراعة التَّبغ انتهت في أراضيها بعد هجرة الأتراك. وبالتَّأكيد لم تكن عملية المبادلة في يومٍ من الأيام إجراءً اقتصاديا عقلانيا؛ حيث إن النَّشاطات الاقتصادية تجري في مجموعاتٍ محددةٍ ومجتمعاتٍ معينةٍ. فمهنة صياغة المجوهرات والخياطة والتبغ... إلخ تكون عادة محصورة بمجموعاتٍ محددة، وحين يتم إبعاد هذه المجموعات تنهار تلك القطاعات. ويبدو أنَّ هناك من انتبه إلى هذا الوضع، فالتُّجار في قيصري ونيغدة مثلا تجمعوا ووقفوا إلى جانب النَّصارى الأتراك (أو الروم القرمانلي) وقالوا: "أرجوكم لا ترسلوا هؤلاء الناس، فنحن لسنا قادرين على إدارة دكانٍ هنا".

ولم تكن المبادلة في الواقع مبادلة بين الأتراك واليونان. حسنا، فماذا إذا؟ لقد كانت عملية تبادلٍ بين الأرثوذكس والمسلمين، وينبغي التمعن في ذلك جيدا. حيث كان السَّبب في قدوم "البوماك" (المسلمون السّلاف الذين عاشوا بين مقدونيا وبلغاريا واليونان وتراكيا الغربية) والذين لا

يتقنون اللغة التُّركية جيدا من اليونان إلى تركيا، بينما غادر الأرثوذوكس القرمانليون والذين لا يتقنون اللغة اليونانية تركيا إلى اليونان. مع أنَّ هؤلاء الأتراك القرمانليون النَّصارى كانوا يتحدثون اللغة التُّركية الأوغوزية الأصيلة (ولعلَّ تلك اللغة أفضل من لغتنا)، وكانوا يكتبون التُّركية بالأبجدية اليونانية، وكذلك كان حال إنجيلهم، وبالمقابل كانوا لا يعرفون اليونانية بتاتا. لذلك افتقدت تركيا مجموعة نصرانية مهمة مع مغادرة هذه المجموعة، ولكننا كنا مجبرين على إرسالهم، لأنهم هم الذين أرادوا ذلك. ومن جهةٍ أخرى جاء إلينا المسلمون من سكان سالونيك واليونان وتراكيا الغربية والجزر ولاسيما جزيرة كريت، وكان القادمون من كريت يعيشون في منطقةٍ معزولةٍ ويتحدثون اليونانية، وقد نسوا الكثير من اللغة التُّركية تحت تأثير الهوية الدِّينية بينما لم تتعلمها الأجيال الجديدة أبدا. وكان هؤلاء مسلمين أيضا. وعلى الرغم من عدم معرفتهم باللغة التُّركية، فقد عززت القوميةُ اليونانيةُ الأرثوذوكسيةُ القوميةَ التُّركيةَ والهويةَ التُّركيةَ في كريت تعزيزا قويا.

نحن أمةٌ اعتادت على استقبال المهاجرين، فلا زلنا نستقبل المهاجرين من البلقان منذ الحرب الرُّوسية العثمانية عام 1877–1878م. وقد أسكنا المهاجرين في ولاية "طونة" في بلغاريا عند نهاية حرب القرم عام 1856م، كما نجح مدحت باشا خلال فترة ولايته في تنفيذ توطينٍ نموذجيٍّ لمهاجري القرم والقفقاس من روسيا، وهؤلاء لم يأتوا إلى الأناضول من قبل، ولكن بدؤوا بالقدوم ابتداء من الحرب الروسية العثمانية (1877–1878) والتي تُدعى أيضا بحرب 93 نسبة للتقويم الهجري الذي كان متبعا في الدولة العثمانية.

وقد قامت تركيا بترتيباتٍ خاصةٍ من أجل السُّكان الجدد القادمين من خلال عملية المبادلة، وكان هؤلاء سعداء على العموم، ولكنَّهم لم يكونوا سعداء بالمطلق، ولن يكونوا كذلك. إذ لا يوجد مهاجر يحب الأرض التي هاجر إليها بشكلٍ كاملٍ، بل يبقى في حالة حنينٍ إلى بلده القديم. وكانت هذه القاعدة عامة، فإذا أُسكن شخصٌ دارا فيها أشجارٌ، كان يقول: "الشَّجرة التي في بلدي أكثر ظلالا".

وبكلِّ الأحوال تم حل مشكلة توطين اللاجئين بشكلٍ أفضل من اليونان، وذلك لاعتيادنا على استقبال المهاجرين. ولم تظهر أزمةٌ اجتماعيةٌ كبيرةٌ بفضل خبرتنا في استقبال المهاجرين من الروملي والقفقاس والقرم وروسيا. بل حدثت حالاتٌ من الزَّواج الذي نسميه "التَّزاوج الدَّاخلي" (أي

حصر التزاوج ضمن القبيلة أو العرق)، ونشأت أواصر القربى، واختلط أهل الأناضول بالأعراق الجديدة، وتغيرت بعض الشَّيء عادات الزَّواج القروي المغلق، ودخلت مهنٌ جديدةٌ إلى المجتمع.

ولكن ينبغي أن لا ننسى بأن عملية الهجرة أو التَّبادل هذه كانت مؤلمة وأدَّت إلى زوال مهارات وكفاءات. فأن تأخذ عائلة من دوبروجا الواقعة على الحدود الرومانية البلغارية وتُسكنها في ألازيغ، عمليةٌ مؤلمةٌ للغاية. والجدير بالذكر هنا أن الملايين من هيلنيي الأناضول لم يعيشوا حياتهم باليونان في سعادةٍ غامرةٍ. فالسُّكان الذين لم يألفوا في الأناضول حياة الاشتراكية، وجدوا أنفسهم في وسطٍ أقرب إلى الاشتراكية حين وصلوا إلى هناك، لأنهم اعتُبروا مكتفين ذاتيا. كما اضطروا إلى مواجهة مشاكل أخرى وانقساماتٍ طبقية هناك. بينما ساهم الذين قدموا إلى هنا، رغم أنهم لم يتمكنوا من التَّكيف مع التحديات جزئيا، في التَّغيير والتَّطوير بتركيا.

وبالمحصلة فإننا بحاجةٍ إلى المزيد من فهم الجغرافيا، لإدراك أنَّ الزَّعم حول قيام السُّلطة الجمهورية بترتيب عملية المبادلة بغاية التَّطهير العرقي ليس حقيقة تاريخية ولا أخلاقية.

مهاجرو بلغاريا

يختلف مفهوم المبادَل عن المهاجر من حيث التَّعريف العملي، فالأول يُطلق على المجموعة السُّكانية التي تم تغيير مكان إقامتها وفق اتفاقيةٍ بين الدول، في حين أن كلمة المهاجر تأتي من مصدر "هجرة"، وتعبر عن الطائفة التي رحلت بسبب المشاكل، أو لدوافع دينيةٍ. فعلى سبيل المثال: يُدعى أغلب القفقاسيين والقرميين والبوشناق والأرناؤوط عندنا بالمهاجرين، بينما يُدعى المهاجرون اليونانيون في الأغلب بالمبادَلين. ويمكن أن نعتبر الأتراك البلغار مثالا على السُّكان المهاجرين أيضا، ففي عهد تيودور جيفكوف آخر زعماء الحزب الشُّيوعي البلغاري، طردت جمهورية بلغاريا الشَّعبية 300 ألف تركيٍّ من أراضيها دفعة واحدة وجمعتهم أمام البوابة الحدودية في أدرنة، وقالت لنا: "تعالوا وخذوا رعاياكم". وقد كانت هناك معاناةٌ لمدة سنتين، إلاَّ أنَّ البنية الصِّناعية والحضرية المتطورة لتركيا سرعان ما استوعبت واحتوت إخوتنا في الدم من رعايا الإمبراطورية العثمانية. وفي الواقع كنا بحاجةٍ إلى سكانٍ بمثل تلك الإمكانيات، لأنَّ مشافينا كانت بحاجةٍ إلى الكوادر الطبية، وورشاتنا كانت بحاجةٍ إلى المهنيين والكهربائيين، وصناعاتنا كانت بحاجةٍ إلى الخبراء القادمين من هناك، حيث كانت هناك بنيةٌ مقبلةٌ على التَّطور. كما استفدنا من مساهمات العناصر الإيجابية في الحياة الأكاديمية والإدارية.

والحال ذاته ينطبق على سنوات الأربعينيات والخمسينيات حين شهدت الهيكلة الزراعية نموا مطردا استدعى وجود أناسٍ يجيدون الأعمال الزراعية، فاستقبلت تركيا آنذاك ما بين 100 إلى 200 ألفا من المهاجرين البلقان.

ولا شكَّ أن مثل هذه الموجات من الهجرة تسبب متاعب كبيرة للغاية، ولكن عندما ننظر اليوم للأمر بنظرة مؤرخٍ، نرى أن تركيا استوعبت مثل هذه الهجرات بمهارةٍ تفوق في خبرتها الكثير من الدول الأخرى. وربما تكون ألمانيا متفردة في القارة الأوروبية من حيث الخبرة ذاتها في استيعابها للمهاجرين القادمين من الشَّرق.

وتبقى هناك حقيقةٌ يتوجب ذكرها وهي أن بلغاريا اضطرت إلى إعادة استقبال قسم من مواطنيها الثلاثمائة ألفا، أي من الأتراك الذين طردتهم. لأنَّها كانت البلد الأكثر ازدهارا وكان شعبها الأكثر اكتفاء بين دول المجموعة الشَّرقية في ذلك الحين، بينما يواجه المجتمع عادة مشكلة الجوع نتيجة انخفاض الإنتاج.

الدُّيون المتبقية من العهد العثماني

كانت تصفية "دنياي عمومية" (مؤسسة الديون الخارجية للدولة العثمانية) أهم صفحةٍ من صفحات لوزان، والموضوع الأكثر إثارة للجدل. فقد تم إهمال تلك اللجنة في الواقع، وغدت الدَّولة التُّركية هي المعنية بهذا الأمر، وبتعبيرٍ آخر خرجت عن إطار كونها مؤسسة للحجز، وتحولت إلى إطار علاقة تبادل الدُّيون مع تركيا. وعندما أرسلت تركيا ممثلا عنها إلى فرنسا كان موظفا في وزارة المالية بمرتبة المفتش.

ولاحقا تم إيفاء هذه الديون من خلال الدفعات المنتظمة وفقا للتقسيطات المتفق عليها. والمهم بهذا الموضوع هو إلغاء سلطة "إدارة الديَّن العام"[54] على مسألة تاريخ جباية الضرائب ومقدارها. فقد انتهى دورها كمؤسسةٍ تقوم بإجراءات الحجز، وأضحى التَّعاطي مع الأحكام الاقتصادية يتم وفق الأساليب الاقتصادية.

كما أُلغيت محاكم الامتيازات وألغيت جميع أنواع الامتيازات، ولكنَّ الأمر الذي لم ننتبه إليه هو أن الامتيازات كانت متبادلة، مع أنَّ الامتيازات المتبادلة في الماضي لم تكن تسري عليها نفس الحقوق بالنِّسبة لنا مع الأسف. وقد شكلت تلك أهم مشكلةٍ بالنِّسبة الدول التي تعتمد على الاقتصاد

الوطني، فالقضية هي قضية نظامٍ يعتمد على تأثير القوة وأحقيتها أكثر من قضية نشاطٍ أو تبادلٍ تجاريٍّ على أساسٍ ليبراليٍّ.

كان موضوع تعويضات الحرب المستحقة من اليونان موضوعا للخلاف بين عصمت باشا مع وفده المفاوض وبين دول الحلفاء، وقد تم حله على الشّكل الآتي: يُترك أمر الخطوط الحديدية للأتراك، والمقطورات تدخل وتخرج على خط مدينة دَدَأغاج (أليكساندر وبورلي) – قرة أغاج (أدرنة). ويُطبق الوضع بشكلٍ مشابهٍ في سوريا، ولكن ليس على نفس المستوى. وفي وقتٍ لاحقٍ تمت إزالة هذا النوع من السكك شبه الدائرية (أي السكك التي كانت تدخل إلى البلد الحدودي المجاور لتركيا مثل سوريا وبلغاريا وتخرج منها، وكان لتركيا الحق في ذلك) من الحدود.

النّزاع بين عصمت باشا ورضا نور

في فترة مباحثات لوزان كان هناك نزاعٌ خفيٌّ ويدور بشكل مثيرٍ للغاية بين عصمت باشا والدكتور رضا نور، حول مسألة البطريركية مثلاً. فقد كان عصمت باشا ينوى إبعاد البطريركية خارج البلاد، بينما اتخذ رضا نور موقفا رافضا من الإبعاد، ثم بقيت البطريركية داخل الحدود التُّركية كواحدة من المؤسسات التركية. وهذا الوضعُ والتصرفُ لا ينسجم مع الدَّور العام للكنيسة. ويجب علينا التَّوضيح هنا بأنَّ الكنيسة الأرثوذكسية ليست مثل الكنيسة الكاثوليكية، وكانت مكانتها بين الكنائس الأرثوذكسية الأخرى هي بمثابة "الأول بين المتساويين"[55]. ورغم أنَّ بطرك إسطنبول يمتاز ببروتوكولٍ روحيٍّ، إلاَّ أنَّه من الصَّعب تصويره بالشكل الأوكومانيزمي الموجود في كنيسة روما. وبالنتيجة، نلاحظ أن المشكلة لم تجد لها أيَّ شكلٍ من الحلول، ولا زالت مستمرة حتى يومنا هذا.

وبصورةٍ مماثلةٍ، هناك قضية مدارس الطوائف ومؤسساتها التي بقيت مرتبطة بأحكامٍ مفتوحةٍ في لوزان. فالمدارس الرُّومية (الغربية) في إسطنبول، والتي تم الاستيلاء عليها، كانت واقعةَ تحت ضغط ثنائي بين المعارف التُّركية والمعارف اليونانية. وبلغ الأمر حد ورود الشَّكاوى من أثينا من حينٍ لآخر. وعموما لم تكن هذه المدارس في وضع مريح، إذ برزت بعض المشاكل في قبول الطُّلاب وقبول المعلمين وتوسيع المدارس إنشائيا، فكيف سيتم حلها؟ أعتقد أن الحل يمكن أن يتحقق من خلال جلوس الدَّولة والطَّوائف إلى مائدة المفاوضات والتَّوصل إلى حلٍّ وسطٍ يُرضي الطَّرفين. لأنَّ المشكلة التي تُترك من دون حل تدفع الطَّرف الآخر إلى التَّعامل بالمثل، فاليونان مع

الأسف لم توجد أيَّ شكلٍ من الحلول للمدارس التُّركية في تراكيا الغربية ومدارس الطوائف التُّركية، وطالما أن الأمور ماضيةٌ على نفس الوتيرة فلن تجد المشاكل حلولها. حيث إنَّ المدارس غير الإسلامية، والتي ندعوها بمدارس الأقليات لازال وضعها كما هي منذ اتفاقية لوزان.

وفي الواقع فإنَّه وفقا للقانون، ينبغي في الأصل أن تعيش الطَّوائف في ظل أحكام قوانينها الخاصة بها. بينما كانت تركيا قد حلت أمور حقوق الأسرة والحقوق الفردية وحقوق الميراث من خلال القانون المدني عام 1926م. ويمكن القول بأن هذا القانون كان امتدادا لمشروع "النعتمد القانون المدني الفرنسي، ولننتهِ هذه القضية" الذي طرحه محمد أمين علي باشا في كريت في ستينيات القرن التَّاسع عشر. ولا شكَّ أنَّه لم يكن ممكنا البدء بحل المشكلة إلاَّ بهذه الطريقة، لكنَّ القانون صدر متأخرا عن الاتفاقية مع الأسف.

إنَّ المشاكل الناجمة عن ذلك الموضوع إنما تستند إلى المدارس والكنيسة والأوقاف، حيث كانت هناك مشاكل كثيرةٌ في عدة مجالاتٍ تتعلق بها. والأمر يتطلب وجود مبادرةٍ قانونيةٍ حقيقيةٍ من أجل حلها. وقد بدأت مسألة الأراضي الوقفية تجد حلها رويدا رويدا.

ما هي اتفاقية لوزان؟

إنَّ لوزان هي اتفاقية سلامٍ منطقيةٌ ومشرفةٌ للغاية، وينبغي التوقف عندها. حيث انتهت الحرب العالمية الأولى وفقا لها من الناحية القانونية. وبفضل لوزان، لم تشهد تركيا مشاعر الإذلال والظُّلم، ولأنَّها أرادت لبقاء على هذا الوضع، اتخذت القرار بالبقاء بعيدا عن الكوابيس والأفكار الارتجالية مثل الاشتراك في الحرب العالمية الثَّانية بين عامي1939م و1945م، أو الوقوف إلى جانب أيِّ طرفٍ من طرفي الحرب، وكان هذا الأمر ذو أهميةٍ بالغةٍ لدول البلقان والشَّرق الأوسط. ولهذا السَّبب، تُعتبر اتفاقية لوزان اتفاقية ثابتة وضابطة للنظام رغم أنَّها – كحال الاتفاقيات الأخرى – يعتريها القدم والتأكل.

احتفلنا بعصمت باشا بوصفه بطل اتفاقية لوزان، ورئيس الوفد المفاوض، والموقِّع على الاتفاقية، من باب شخصنة هذا النجاح. والأمر ذاته ينطبق في حالة انتقاد الاتفاقية ورفضها بل وتجريمها، كما فعل البعض. وأعتقد أنَّه مما يرفع من شأن هذه الاتفاقية عاليا هو معارضة رضا نور لها، مع أنَّه كان ضمن الوفد، وكان انتقاده مماثلا لانتقادات الذين لم يكونوا ضمن الوفد. وفي الواقع أبرز عصمت باشا نفسه كدبلوماسيٍّ جيدٍ، ولم يقدم تنازلاتٍ لأنه كان عنيدا، ولاشكَّ أن عدم

تنازل الأشخاص، في مثل هذه المهمة ووسط هذا الوضع، عن التَّعليمات التي تلقوها والمبادئ المحددة أمامهم، أمرٌ من الأهمية بمكان.

وقد كان عصمت باشا مقتنعا بعدم التَّنازل نظرا لعقليته كأركان حربٍ، ولو لم يكن كذلك لتكررت ربما الأخطاء التي وقع فيها بكر سامي بيك في مؤتمر لندن.

ومن المهم التَّأكيد أنَّ عصمت باشا حين ذهب إلى لوزان لم يكن هواه على هوى "متّرْنِيش"[56] أو "تالَّيَرْان"[57]، وكان بعيدا عن المغالومانيا (جنون العظمة). فالعالم لم يعد عالم ذلك النَّمط من الدبلوماسية، ولم يكن لدى عصمت باشا القوة التي تقف وراء "تالَّيَرْند"، وفي نفس الوقت لم يتمكن ممثل الأقوياء كرزون أن يصبح متَّارْنِشيا. وبالتَّالي كان الباشا يعرف حجمه ويدرك ما ينبغي فعله تماما. وفي النِّهاية، كان عصمت باشا رجل الحكومة، وقد أدى المهمة التي أوكل بها من قبل الشَّخص أو المؤسسة التي أرسلته إلى هناك.

نشر الإشاعات التَّاريخية عن عصمت إينونو

لا يمكن في بلدنا تطوير كتابة التَّاريخ والوصول بشكل خاصٍّ إلى معلومات التَّاريخ الصَّحيحة بسبب طريقة تقييم واستخدام الوثائق. إذ يوجد اتجاهان متعاكسان في هذا المجال، وهذان الاتجاهان يجعلان من الصَّعب كتابة التَّاريخ.

الاتجاه الأول: تحريف الوثيقة. فهناك من يدعي العثور على وثيقةٍ، أو يستخدم مقطعا من المستند أو المذكرة بصورةٍ لا تتوافق مع الأساس. حيث لا يتم في هذا الاستعمال السيء (والذي ندعوه "الإخلال بسياق النَّص")، الأخذ بعين الاعتبار علاقة الفقرة أو المقولة بالنَّص المقتبسة منه. وهو أمرٌ يفعل البعض حتى عند التَّعامل مع النُّصوص المقدسة، مع أنَّه تصرفٌ شاذٌّ. ولهذا السَّبب تعرض هذا النَّمط من الكُتَّاب إلى محاربةٍ شديدةٍ أواخر العصور الوسطى وخلال عصر النَّهضة في أوروبا، إثر الإساءة في استخدام النُّصوص المقدسة بالدَّرجة الأولى.

وقد تجلت هذه التوجهات في العالم الإسلامي من خلال استخدام آيةٍ من القرآن الكريم، وتفسيرها بشكل ضيقٍ مستقلٍّ عن القرآن الكريم، أو ذكرٍ بعض الأحاديث التي تدور الشكوك حول صحتها. ومما لا شك فيه أنَّ جميع الذين قاموا بذلك تعرضوا للانتقاد من قِبل العلماء الآخرين، إلاَّ أنَّه كان لهم دورٌ فعالٌ في التَّضليل مع الأسف رغم قلة عددهم.

أما عندنا فظهرت توجهات أكثر سوءا في السَّنوات الأربعين أو الخمسين الأخيرة، حيث بدأ الأشخاص الذين يريدون الإدلاء بتعليقاتٍ مذهلةٍ حول التَّاريخ الحديث في إنتاج وثائق مزورةٍ. وكان أول ما يلفت النَّظر في أغلب هذه الوثائق هو أسلوبها وأخطاء كلماتها.

وكما ذكرنا في الصَّفحات الماضية فقد نُشرت وثيقة حول عصمت باشا تحت عنوان مجلس الأمة التُّركي الكبير، وعلى الرغم من أنَّ الوصف المستخدم حينها في مثل تلك الوثائق كان كلمة "خصوصي"، إلاَّ أنَّها استُبدلت بكلمة "خاص". أما بالنِّسبة للمضمون فإنَّ الاعتقاد بالتعاون بين شكري قايا وعصمت باشا، وفقا للزعم الوارد في الوثيقة المزورة، أكثر إثارة للسخرية من اتحاد خروتشوف وكيندي ضد الجنرال ديغول. ومع ذلك يصرون على طرح أسئلة سخيفة، ويحاولون جذب الخبراء إلى الموضوع، ويزعجون الناس. وقد زاد إنتاج هذا النمط من الوثائق. أنصح الذين يطرحون تدريس التَّاريخ الحديث في المدارس بمراجعة الوضع. فأي تاريخ حديث هذا ستقوم المدارس بتدريسه للطلاب، ولم نستطع بأي شكل من الأشكال رفع مستوى الجدية فيها حول هذا النهج أو غيره؟

وفي هذا الصَّدد، ينبغي بيان أن نخبة القادة المخضرمين في الحرب العالمية الأولى وفي مقدمتهم أتاتورك وأسعد باشا وفوزي باشا وكاظم كارا بكر وعصمت باشا كانوا جميعا معارضين للألمان. وكان أبرز المُعادين للألمان كما ذكرنا سابقا بشكل أكثر تفصيلا، ومع قدوم غولتز باشا الذي ساهم في المزيد من التوترات انسحب نور الدين باشا من القيادة. وبالإجمال لم يكن لأحدٍ من هؤلاء القادة أن يحب الضُّباط الألمان، أو أن يتعاون مع الألمان ولو جاء ألف كاهنٍ يلقنونهم ذلك. ولم يكن من الوارد أيضا أن يقوم أحدٌ من الإنكليز والفرنسيين ممن يعرفون هذه النخبة باتهام تركيا إينونو بالميول الألمانية في أي وقت من الأوقات، أو أن يقوموا بالانضمام إلى المتهِمين، بل كانوا سيقولون لهم: "مهلا كونوا هادئين، وقليلا من العقلانية". وبالمقابل كان من الواضح أن تلك الاتهامات لا يمكن لها أن تكون ألمانية.

شغل عصمت باشا بالاشتراك مع أتاتورك، رئاسة الأركان العامة، ومنصب رئيس الوزراء فترة طويلة من الزمن، وكان خلالها رئيس الحكومة المفضل. ومن المعروف أن بعض التوترات حدثت بينهما من حين لآخر، ولم يكن السَّبب الأساسي في التوتر نابعا من ذهنية الغازي الإدارية وسلطوية عصمت باشا، كما يحدث في بعض الدوائر تكرارا، بل كانت توجد وراء التَّوترات أسباب

أكثر جدية. فأحداث تراكيا في العام 1935م دفعت رجلي الدَّولة ورفيقي الدرب هذين إلى المواجهة العنيفة. ومع ذلك، فإنَّ التزام عصمت باشا بالقانون، واحترامه للمنظومة الإدارية، أوجدا لدى أتاتورك في الواقع تحذيرات وإن كانت غير معلنة حول الطَّريقة التي ينبغي أن تمضي بها الجمهورية الجديدة.

وكان هذا النِّزاع الذي جرى بينهما كرجلي دولةٍ حادا، ولم يسبق أن حدث مثله حتى خلال الخدمة العسكرية لقادة حرب الاستقلال، وبلغ ذروته في شهر أيلول/سبتمبر عام 1937. فنشأت فكرة تشكيل مجلس للإشراف على مجلس الأمة التُّركي الكبير نتيجة النزاع بين أتاتورك وعصمت باشا. وتم حينها تجريد عصمت باشا من منصب رئاسة الوزراء وتعيين بديل عنه، وهو جلال بايار الذي كان يحمل فكرة الدَّولة والحزب. وقد قدَّم جلال بايار أمام أتاتورك فريقه الحكومي وكان نفس الفريق الحكومي لعصمت باشا، مع تغييرٍ وحيدٍ هو طلبه إعفاء رفيق سايدام من منصبه. والحقيقة أنَّ جلال بايار كان يحترم عصمت باشا ظاهرا وباطنا، لذلك عندما انتُخب الأخير رئيسا للجمهورية قدم بايار استقالته من منصبه دون أيِّ اعتراضٍ.

وقد شاهدنا في الصحافة التُّركية في الآونة الأخيرة، مقالات ترسم صورة أشبه ما تكون بمباريات الشَّطرنج بين جناحٍ بارزٍ من قادة حرب الاستقلال وبين رجال الدَّولة والحكومة الأخيرة. وهذا الموقف المضحك مبنيٌّ على مجموعة من الوثائق المزورة والإشاعات. وأجزم أنَّ هذا التَّطور غير ملائمٍ في مجتمعنا، حيث لا يُعرف علم التَّاريخ الجاد، ولا تُعرف عادة القراءة المقارنِة بين اهتمامات الباحثين واهتمامات القراء.

مسألة الموصل:
المسألة التي أخذت حيزا من النِّقاش الشَّديد في المجلس

بدأ النزاع السِّياسي الدَّاخلي نتيجة 24 تموز/يوليو 1923 في فترة تأجيل المؤتمر، واستمرت التقييمات المضادة والمتطرفة بعد 24 تموز/يوليو. ومن الملاحظ أن المجلس المتشكل بعد المجلس الأول الذي أدار حرب الاستقلال والنِّضال الوطني، والمؤلف من الكادر المنسجم مع النِّظام، أخذ أيضا يرفع صوته المعارض بالتدريج.

في السِّياسة الخارجية، لم يتم حل مسألة الموصل مع الأسف، وهي مسألةٌ لا يمكن الادعاء بأنَّها مثيرة للاهتمام مثل مسألة هاتاي. ففي مسألة هاتاي كان هناك موقفٌ واحدٌ للطَّرف الموافق

والطَّرف المعارض، وكان أكثر اعتدالا وتوافقا مع الحكومة. وبالتَّالي اتفقت الحكومة مع فرنسا واستمرت العملية حتى عام 1939. أما الموصل فمن الواضح أنَّ أمرها تُرك على البركة.

أصبح البترول أكثر المواد قيمة في جميع مجالات الحياة لاسيما عند وزير الأسطول البريطاني ونستون تشرشل، عقب انتقال الأسطول البريطاني من الفحم إلى استعمال البترول في الحرب العالمية الأولى.

وبالعودة إلى الحديث عن الموصل نذكر أنَّه كانت فيها أقليةٌ تركيةٌ ذات أهميةٍ بالغةٍ. وحين نقول ولاية الموصل (التي يبلغ عدد سكانها حاليا 2–3 مليون نسمة تقريبا) نقصد وجود أقليات مختلفةٍ أخرى في أربيل وكركوك أيضا. وفي الواقع لم يكن الإقليم تحت هيمنة أية أقليةٍ محددةٍ، وهو وضعٌ أشد مصيبة وإيلاما من وضع هاتاي. وإلى جوار موضوع الأقليات كان المؤثر الآخر الهام في الموصل هو البترول.

كان التوتر بين فرنسا وإنكلترا على أشده في ذلك الحين، وعلى الرغم من أنَّ هذا التوتر لم يصل بين الطَّرفين إلى حد إعلان الحرب بينهما، لكنَّه أثار المنافسة إلى درجة وقوف فرنسا بجانب هتلر في النِّهاية. وبتعبير آخر: انجلى الواقع عن ظهور الطاقم السِّياسي الذي لم ينضم إلى المقاومة ضد الاحتلال الألماني في فرنسا، وبسبب عداوته للإنكليز والجماهير المؤيدة له كان يريد التَّحالف مع ألمانيا.

وقد جرت اتفاقيات مختلفةٌ حول موارد البترول في الموصل، ومع الأسف لم تتضمن لوزان أيا منها. وعلى كلِّ حالٍ خسرنا هذه المنطقة بالكامل فيما بعد. وكان هناك سببٌ لعدم بسط الجيش سيطرته على هذه المنطقة التي تعد من ضمن "ميثاقي مللي" (الميثاق الوطني)، وهو بنيتنا العسكرية. حيث صرفت تركيا الجديدة النَّظر عن التَّوسع العسكري والتَّسلح والنفقات العالية التي يتطلبها، لأنَّه كانت هناك حاجة إلى رعاية الصحة والتَّعليم، نظرا للمشهد المخيف في هذين المجالين، ولهذا لم تحظَ النَّفقات العسكرية بالاهتمام البالغ في البداية. ولولا تلك الأسباب لبرزت أصواتٌ حليفةٌ للحكومة تؤيد تلبية الاحتياجات العسكرية. ولكن كان من الواضح أنَّه تم توضيح الوضع العسكري بالكامل أمام الأطراف المعارضة خلال المناقشات الدَّائرة في المجلس، وجرت محاولة إقناعهم بالاحتياجات العسكرية. فهل اقتنع الناس؟ لم يقتنعوا على الأرجح، فالجدال لازال مستمرا حتى اليوم.

أعتقد أن تركيا لم تكن حينها في حالة تؤهلها للخوض في مسألة الموصل، إلاَّ أنَّ تركيا ليست بالتَّأكيد في وارد سياسة "انسوا الماضي، وانظروا إلى المستقبل". وقد كانت مسألة هاتاي أوضح مثالٍ على ذلك.

لا مفرَّ من سقوط الدَّولة العثمانية

تنهار الإمبراطوريات عبر التَّاريخ. وسواءٌ انهارت الإمبراطورية انهيارا طبيعيا، أم تمت تصفيتها، فإنَّها تحافظ على وطنها الأم، وتستمر في المحافظة على ثقافة الوطن الأم في الأراضي التي فقدتها. ولكنَّ الإمبراطورية العثمانية خسرت خلال سقوطها مع الأسف وطن العنصر الأم، ووطن العنصر التُّركي في الروملي أيضا، وتلك خسارةٌ فادحةٌ.

في العام 1914م شاركنا في حربٍ لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وتعرضنا في نهاية هذه الحرب إلى العديد من الخسائر، وكان الأكثر تعرضا للخسائر هم الفلاحون والعمال أي الذين يحملون المنجل والذين يطرقون على السَّندان. ولم تكن هناك منطقةٌ بعيدة عن ذلك في هذه الحرب الخاسرة. كما برزت حقيقةٌ واقعةٌ ترافقت مع تقلص عدد سكان الإمبراطورية، وهي الخوف من الدخول في صراعات داخليةٍ دمويةٍ عنيفةٍ، وهي أمورٌ لا زلنا نحمل تبعاتها حتى اليوم.

أما الأمر الأهم في نهاية هذه الحرب فكان خسارة تركيا للفئة المثقفة، والتي لم نتمكن من تعويضها طوال خمسين سنةٍ. حيث كانت أعداد الشُّهداء المتعلمين الذين قضوا نحبهم في جبهات الحروب (والتي دعوناها بحروب ضباط الصَّف في تشَناق قلعة والقفقاس وفلسطين) وفي حرب الاستقلال، أعدادا كبيرة للغاية. وقد خسرنا صنفا من الشَّباب المثقف يمثل المدنية ويمثل لونا منفتحا على الشَّرق والغرب. وإذا كان الشَّباب في تركيا اليوم شبابا انقطعت صلاتهم بماضيهم تماما، فإن سبب ذلك يعود إلى تلك الفترة.

إن تجربة الإمبراطورية هي تعبيرٌ عن الطَّبيعة الخالصة لبلدنا وأمتنا في التَّاريخ، وعن الموقع الفريد والمتميز الخاص بالأمة والدَّولة التُّركية من حيث التجربة التَّاريخية والجغرافية والسِّياسية.

وأجد من المفيد الحديث عن السَّفير زكي كونَر ألب، هذا الشخص الذي لم يكن يعرفه الكثيرون في السَّابق، إلا أنَّني أعتبره من المثقفين الكبار، وهو ابن علي كمال، ناظر الدَّاخلية (وزير

الدَّاخلية) الأخير في الإمبراطورية العثمانية. وقد عاش في سويسرا، ودرس فيها ثم عاد إلى تركيا وعمره ما بين 20–30 سنة، واشترك في امتحانات وزارة الخارجية ونجح فيها بدرجاتٍ عاليةٍ. وعندما تم عرض مسألة تعيينه على السَّيد رئيس الجمهورية عصمت باشا، نظرا لكونه ابن أحد رجالات الحكومة في إسطنبول، أي علي كمال، كان جواب الباشا: "طالما أنَّه شابٌّ ذو كفاءةٍ فما المانع؟" وأمر بضمه إلى الكادر. وبالتَّالي لا بدَّ أنَّه دارت في ذهن هذا الشَّاب، أي زكي كونر ألب، الخاطرة الآتية: "أن تكون تركيا فهذه مهنة صعبة، لكنه امتياز".

إنَّ حظ أمثال هؤلاء في الحصول على فرصتهم المستحَقة كبيرٌ، ولكن الثَّمن كبيرٌ أيضا.

الجمهورية...

تبدو الكلمة كلمة عربية، وهذا صحيحٌ من حيث علوم اللغة، ولكن ينبغي التوضيح بأنَّها كلمةٌ جديدةٌ واصطلاحٌ مستحدَثٌ في اللغة التُّركية. فكلمة الجمهور في اللغة العربية تحمل معنى يماثل:

"la gente" و"die Leute" و"people".

وقد استعملت كلمة "جمهوريت" لدى العثمانيين، فكانت جمهورية البندقية تدعى في الأوساط السِّياسة الرسمية "فناديك جمهورو"، وكانت جمهورية بولونيا تدعى "لهيستان جمهورو". وبالتَّالي يعود إلى الأتراك استخدام كلمة جمهور للتعبير عن نظامٍ ما أوعن تصنيفٍ ما.

وفي الواقع كان الفكر السِّياسي العثماني قد أنتج في القرن التاسع عشر المئات بل الآلاف من الكلمات مثل: اقتصاد، تفريق القوى، وعبارة "بوهراني مالي" التي استخدمها جودت باشا للتعبير عن "crise financière". وأغلب هذه الكلمات تبناها العرب والإيرانيون.

إنَّ حياة الجمهورية بسنواتها الطويلة هذه، هي في الواقع أفضل مثالٍ حيٍّ على قدرة مجتمع ما على التَّغيير، وعلى إحداثه هذه التَّغيير بنفسه، وعلى إدراكه لوعي التَّغيير.

لقد تغيرت تركيا كثيرا، وسوف تتغير أيضا. ومن الثَّابت أنَّ هذا التَّغيير حدث من خلال مقدارٍ قليلٍ من النِّزاعات قدر الإمكان، ومقدارٍ قليلٍ من سفك الدماء، وهو أمرٌ ينبغي الاعتراف به.

وربما لم تكن هناك نظريةٌ قويةٌ تؤدي إلى توجهٍ في الرأي خلال هذه التَّحولات، ولكن كان هناك اعتماد كبير على الواقعية والبراغماتية والعملية. لأن المجتمع يريد الاستمرار بالحياة، وتلك

الاستمرارية تدور ضمن منطقةٍ جغرافيةٍ شديدة التَّبدل والتَّنوع والاختلاف. وهذا هو الذي يميز الأتراك، فنحن نعيش وسط محيطٍ أجنبيٍّ منذ 12 قرنا من الزمن.

وإنَّنا لسنا بحاجةٍ إلى عقلٍ نظريٍّ، بل بحاجةٍ إلى عقلٍ عمليٍّ، وبحاجةٍ إلى أن نكون واقعيين من أجل الاستمرار في الحياة.

العثمانيون وفكرة الجمهورية

لم تكن هناك رغبة لدى العثمانيين بالجمهورية فالدَّولة العثمانية كانت ذات نظامٍ ملكيٍّ (الحكم المطلق)، ولكن ومنذ عهد التنظيمات كان هناك مقاربةٌ للحضارة الغربية. ورغم أنَّ هناك رغبةٌ في عدم ذكر الأمر، إلاَّ أنَّ الوضع كان هكذا، فقد عاشت فكرة الجمهورية في الدَّولة العثمانية في أذهان مجموعاتٍ معينةٍ.

وفي الحقيقة لم يكن هناك أيُّ شيءٍ يتعلق بالجمهورية في تفكير "الاتحاديين". لأنَّ الاتحاديين كانوا مثل "مدحت باشا" تماما يؤمنون بالدستور، ولكنَّهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن الدُّستور. حيث كانوا يعتقدون أنَّ البلاد ستنجو عبر النِّظام الدستوري، وأن الذِّئب (القوي) سيكون على مائدةٍ واحدةٍ مع الخروف (الضَّعيف)، ولكنهم رأوا بأنفسهم مثل جميع الرومنسيين أنَّ الوضع ليس على هذه الصُّورة. لذلك كانت ردة فعلهم شديدة.

وقد يخطر في بالنا السُّؤال التَّالي: "هل يمكننا رؤية الفكر الجمهوري لدى النُّخبة المثقفة في الدَّولة العثمانية"؟ والحقيقة أنَّه يمكن رؤية مبادراتٍ فرديةٍ، لكنَّ ذلك غير مدونٍ، ولم ينتشر الحديث عنه، وحتى في الإعلام المعارض وفي الخارج لم يكن يتم التَّطرق إلى هذا الموضوع.

لقد ظهرت فكرة الجمهورية في فرنسا، ولم تتطور هذه من خلال التَّجارب الأخرى في تلك الفترة. وكانت المجموعات الجمهورية في البلقان وإيطاليا بقيادة "مازيني" قد بدأت بالثَّورة، وبعد الثَّورة ودع الإيطاليون سلالة "سافيون"، كما ودع البلقانيون الملوك المصدَّرين إليهم من الخارج.

وفي الوقت الذي حصلت فيه الثَّورة الفرنسية، ظهر شخصٌ يدعى "توماس باين" وامرأةٌ تُدعى "ماري وولستونكرافت". كان الأول من الطبقة الفكرية الأنكلو أمريكية الوسطى، وصاحب قلمٍ قويٍّ. أما الثَّانية فكانت الابنة الثَّانية لعائلةٍ ذات سبعة أولادٍ من الطَّبقة العامة، وقد توفيت مبكرا، بعد أن عاشت حياة بؤسٍ، لم تتلقَ التَّعليم خلالها. وبالطَّبع كان هناك آخرون، ممن ينتمون إلى

الطبقات المختلفة، يحبون الثَّورة الفرنسية. وبالمقابل كان هناك "إيدموند بورك" الذي يكره الثَّورة الفرنسية، ورغم ذلك كانت أفكاره تنادي بأبعد مما نادت به الثَّورة الفرنسية، فعلى سبيل المثال كان ينادي بإلغاء العبودية في حين لم تلغِ الثَّورة الفرنسية العبودية في المستعمرات. وكان "بورك" يتحدث عن المساواة بين بريطانيا والهند.

ومن جهةٍ ثانيةٍ كان الإنكليز هم الذين أوجدوا النِّظام الذي يُدعى "الملكية الدُّستورية"، وكانت تلك "الملكية الدُّستورية" الإنكليزية حيث لا دستور، هي نموذج الإدارة أو الحكم الأقرب إلى نموذج الجمهورية في ذلك الوقت.

ومن المعروف أنَّ فرنسا هي التي جاءت بجمهورية العصر، حيث كان أصحاب الملكيات وأصحاب الضَّرائب يُنتخبون ويَنتخبون. ولكن ينبغي أن لا ننسى وقوع حوادث عنيفةٍ خلال الثورة، فعلى سبيل المثال قاد إرهاب الدَّولة "لافوازيه" المعروف بأبي الكيمياء إلى المقصلة، حتى أنَّه قال: "اتركوني ثلاثة أيامٍ أنهي فيها هذه التجربة".

لذلك كان هناك إعجابٌ بالإصلاحات على الطريقة الإنكليزية النَّاجحة والدَّائمة والتي ليس لها أثرٌ تخريبيٌّ، وفي هذا الصَّدد كان "جودت باشا" يدافع عن إنكلترا. بينما لم يكن هناك أحد بين المحافظين، بل وصل الأمر إلى القول بأنَّ رجال التنوير الفرنسيين دمروا الإيمان والأخلاق العامة.

وبالعودة إلى جمهوريتنا يجب القول إنَّه لا يوجد مجتمع من دون مشاكلٍ. وأعتقد أن المجتمع التُّركي تغير بسرعةٍ استثنائيةٍ، واستبدل بعض القوالب بشكلٍ حديٍّ، مع الإبقاء على جوانبه المحافظة، وترجيح "المحافظة المعتدلة" وليس التَّحولات الرومنسية مثل الروس أو الإيرانيين. فالإدارة والفكر اللذين لا يستوعبان هذا النمط سيتعرضان للخسارة سواء كان النِّظام شيوعيا أو متطرفا. بينما كان المجتمع التُّركي – وبصورةٍ واضحةٍ – لا يحب التَّطرف، فهو بالأساس مجتمعٌ محافظٌ، ويملك قوالب واضحة، ويقوم بالتَّغيير ضمن هذه القوالب. ولذلك لا توجد فيه انحرافاتٌ، إذ أنَّ لديه الشكل الخاص به للحراك الاجتماعي.

29 تشرين الأول/أكتوبر 1923م: إعلان الجمهورية

إنَّ الجمهورية هي استمراريةٌ، وكما كانت الدَّولة العثمانية إمبراطورية الأتراك فإنَّ الجمهورية هي جمهورية الأتراك، والجمهورية التُّركية لامثيل لها في أيِّ مكانٍ.

يقول مظهر مفيد كانسو: "أخبرني الغازي عن أفكاره الجمهورية في صيف العام 1919م"، وهو أمرٌ صحيحٌ. فرغم أنَّ مظهر مفيد والعديد من أصدقاء الغازي المقربين، الذين لم يكن يخفي عنهم شيئا، لم يدونوا الكثير من أفكار الغازي الحقيقية، إلاَّ أنَّ هذه الأفكار نقلها مظهر مفيد شفويا إلى بعض الأشخاص في ذلك الوقت. وهناك العديد من الأحاديث التي تداولها أولئك الأشخاص، ولكنها ليست موجودة في السجلات. إضافة إلى ذلك لم يكن من الممكن التَّفكير بحلٍّ آخر في نهاية العام 1918م والعام 1919م.

نذكر هنا عبارة تقول: "من يهزم نفسه حين يكون منتصرا ينتصر مرتين"، وكذلك المقولة التَّالية: "لقد انتصرتُ، وأنا الفائز. لم يكن الطَّرف المقابل بالشيء الكبير"، وهي مقولةٌ تضلل صاحبها كثيرا.

وفي هذا السِّياق نلاحظ أنَّ بعض الألمان بالغوا كثيرا في حرب فرنسا – بروسيا، حتى أنَّ أحد الجنود الألمان قال: "لقد انتصر الاقتصاد الألماني والثَّقافة الألمانية على فرنسا". ولكن بالمقابل قال بعض العقلاء الألمان عند الحديث عن الثَّقافة: "توقف. من أنت حتى تهزم الثَّقافة الفرنسية؟".

كان ذلك في القرن التاسع عشر. وبينما كان دبلوماسيٌّ اسمه "فون بيلو" مثلا يهين ويشتم "فيكتور هوغو" حين يقارنه بالأديب الألماني "غوته"، كان "بيسمارك" لا يفعل الشيء نفسه، لأنَّه كان دبلوماسيا حقيقيا. كما أنَّ رئيس الوزراء النّمساوي "ميترينيخ" (وهو بالأصل أميرٌ ألمانيٌّ) لم يفعل ذلك أبدا.

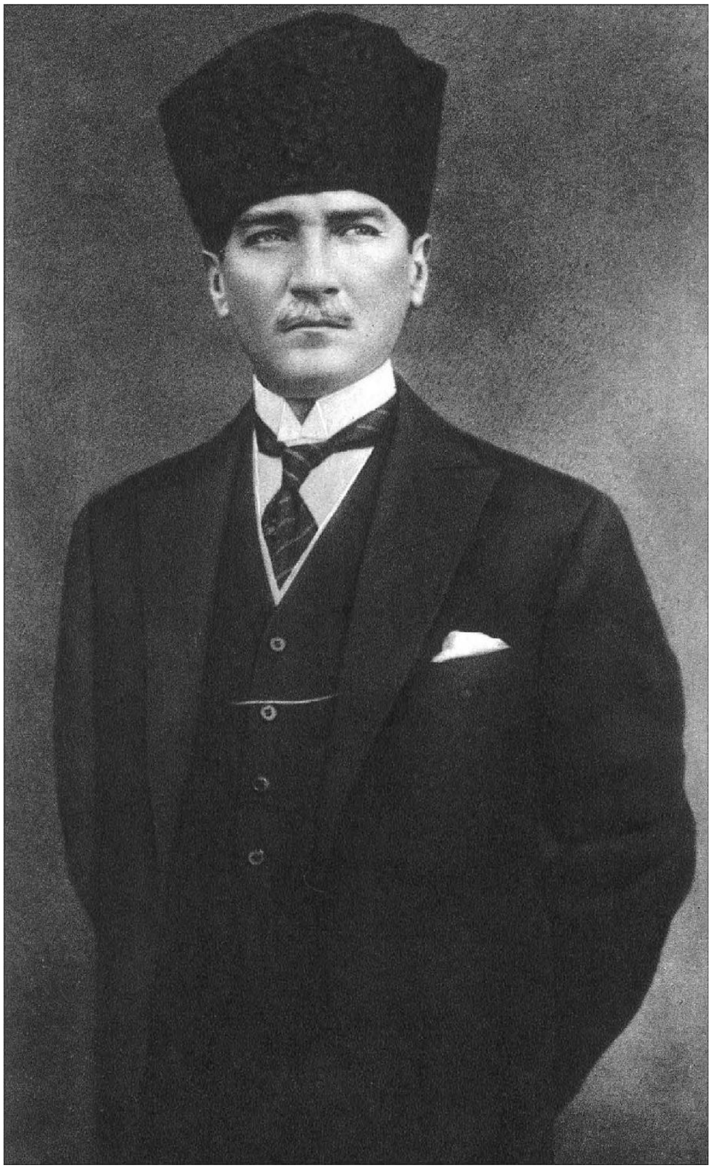

رئيس مجلس الشَّعب التُّركي الكبير، الغازي مصطفى كمال باشا1923 م

لقد أدرك جيل حرب الاستقلال وخاصة أتاتورك ورفاقه ضرورة فتح الأبواب باتجاه الغرب، ولم يكونوا المجموعة الأولى التي تفعل ذلك في تاريخ الحداثة العثمانية. ولكن كان من الواضح أنَّهم جمهوريون، كما كان من الوضح اتجاه التَّغييرات التي سيقومون بها. وفي الحقيقة لم تولد هذه الأفكار في ذهن أتاتورك فقط، لأنَّ الطريق كان واضحا ومستمرا منذ عهد التنظيمات لكنَّه لم يكن قد اكتمل. وكانت هناك مشاكل كبيرةٌ أمامنا، وأولها النِّظام الحقوقي، فرغم وجود قوانين

العقوبات والتِّجارة البحرية والحقوق الإدارية وحقوق الدُّول، إلاَّ أنَّ الحقوق المدنية لم تكن موجودة، ولم يكن هناك حق المواطنة. كنا نفتقد جميع هذه الحقوق، وكانت تلك هي المشكلة.

الجمهورية بالأساس هي نظام حكمٍ مكوَّنٌ من مجموعةٍ ضيقةٍ ذات إمكانيات معينة ضمن تركيبٍ سلطويٍّ محددٍ. وهذا لا يتعارض مع الصفة السِّياسية (الفضيلة السِّياسية) ولا يحتاج بالضرورة إلى ثورةٍ، فلا أحد يرغب بهزاتٍ كبيرةٍ في الحياة، وكلُّ فردٍ لديه إيمانٌ معينٌ ومفهومٌ معينٌ للانسجام والنِّظام، وليس من السهولة الإقدام على تغيير ذلك.

لم يكن هناك فكرٌ معارضٌ للجمهورية في فترة الإعلان، ولم يخرج أحدٌ ليقول "تسقط الجمهورية". كما أن النِّظام الجمهوري ولد في تركيا بعد حرب عالميةٍ طويلةٍ وحرب مقاومةٍ وطنيةٍ.

وحين قال أتاتورك "هدفكم الأول البحر المتوسط"، كان هناك من يؤمن بالجمهورية، ولكنَّ مقدار الأمل حين الحديث عن هذه المواضيع ليس معروفا، رغم أن القادة كانوا يتحدثون ويناقشون فيما بينهم.

لقد كانت الجمهورية هي النِّظام الذي فكرت به مجموعةٌ ضيقةٌ من حركة الأناضول، وهذه المجموعة لم تتوسع قبل الحرب العالمية الأولى.

وإذا ألقينا نظرة على الدُّول الأخرى نجد أنَّه كان يتم إبعاد الجمهوريين في الإمبراطورية الألمانية، أما في بريطانيا فكانوا يدانون ويتم وسمهم بالجنون. وفي المجتمع الأوروبي القديم عموما كان مجرد فتح الموضوع ولو على مائدة الطَّعام سببا للطرد خارج البيت من قِبل صاحب البيت. وفي النمسا – المجر كان التشيكيون والكروات والسلوفينيون والسلوفاك والقوميون المجر من أتباع "كوسوث لاغوس" هم فقط مَن يناقشون الأمر. فقد كانت الإمبراطوريات تُعتبر بمثابة "العناية الإلهية". ولكن خلال القرن التَّاسع عشر جرت المناداة بالإصلاحات والطلبات الدُّستورية. وكان القوميون المتطرفون في البلقان (نتيجة وجود الملوك الأجانب) ينادون بالجمهورية أحيانا. أما في الجبل الأسود الصغير وصربيا فإنَّ الحال لم يكن كذلك.

قد يتساءل البعض عن كيفية استقبال الشَّعب للجمهورية في ظروف العام 1923م؟ هل كانوا يعرفون ما هي الجمهورية؟ في الواقع لم يكونوا يعرفون الكثير ولم يكونوا مدركين لها. فالشَّعب

التُّركي يحب النِّظام العام والأمن ويرى صوابية السُّلطة التي يطيعها، وهو أمرٌ يسري على الجماعات في كل مكانٍ. حيث تنظر إلى الحاكم من منطلق مدى قوته وقدرته على تحقيق الرَّفاه، والأهم من ذلك عدالته.

وعادة يعد الديكتاتوريون بالنِّظام الملكي ولا يأتون بسلالةٍ حاكمةٍ، فالجنرال "فرانكو" والأميرال "هورثي" قاموا بالحكم كنوابٍ للملك، بينما حكم "موسوليني" و"أنتونيسكو" بوجود ملك "مثل الدمية". ورغم ظهور شاه إيران "رضا بهلوي" بدور رئيس الجمهورية إلاَّ أنَّه جلس على العرش، وفي ألبانيا اختار "أحمد زوغ" الدور ذاته.

ونستحضر هنا العبارة الصَّحيحة عن أحداث العامين 1923م و1924م، والتي قالها المؤرخ الإنكليزي "أرنولد توينبي": "في الحقيقة كانت تركيا منتصرة، لكنها قبلت الهزيمة أمام الغرب".

لقد قبلت تركيا، مع نظامها الحقوقي ونمط الحياة وعلمانيتها التي لم تسميها ولم تعلنها بعد، المؤسسات الموجودة في العالم الغربي. وكما نعرف جميعا فإنَّ تركيا ستصبح أخيرا جمهورية، فقد وضَّح مصطفى كمال باشا وأصدقاؤه نظام الحكم من خلال القول: "إن شكل الحكم والحكومة في الدَّولة التُّركية هو جمهوريٌّ، ورئيس الجمهورية هو رئيس الدَّولة ويُنتخب من قِبل أعضاء المجلس". ونستطيع القول في هذا السِّياق إنّ مجلس العام 1923م كان المجلس الذي ظهر كالحديقة التي فيها ورودٌ من دون أشواكٍ بوجود معارضةٍ قليلةٍ.

كان في هذا المجلس 286 عضوا، وافق 156 منه فقط على النِّظام الجمهوري بعد مناقشاتٍ طويلةٍ، وهذا العدد يفوق النِّصف بقليلٍ. هل قال الآخرون لا؟ لم يقولوا لا، بل بقوا مترددين. وهكذا تم قبول النِّظام الجديد ولم يعد بالإمكان التفكير بغيره، ولكن كان لابد من وقتٍ أكثر من أجل أن تعيش الجمهورية. وقد أظهرت حركات التمرد والمحاولات الديمقراطية، مثل "الحزب الجمهوري التَّقدمي" (بالتُّركي: ترقي بيرفر جمهوريت فرقه سي) و"حزب الجمهورية الحر" (اسمها بالتُّركي: سربست جمهوريت فرقه سي)، أنَّ ترسيخ الجمهورية العلمانية يحتاج إلى مرور الوقت. وهذه المناقشة يمكن أن تستمر إلى اليوم.

لكنَّ الفرق الكبير الذي يميز الجمهورية التُّركية عن دول العالم الثالث، هو استنادها أولا على التقاليد الإدارية والعسكرية لإمبراطوريةٍ سابقةٍ، فكوادر الجمهورية قدمت من الإمبراطورية.

وثانيا، وضوح أساس المشروعية والقانونية، إذ أنَّ تشكيل حكومة الأناضول والمجلس اتخذ دائما هذا الأساس كمبدأ رغم سيادة الحزب الواحد في هذه البلاد لمدة 28 عاما. وثالثا، بروز صراع الديمقراطية في مجتمعٍ وجمهوريةٍ يُظهران تطورا في مجال العلوم والتقنية.

وفي الواقع كانت تركيا هي الوحيدة التي حافظت على نظام الأغلبية الديمقراطي دون انقطاعٍ بعد الهند، وهي تجربةٌ لا نجد لها مثيلا في العالم الثَّالث فضلا عن العالم الإسلامي، والنَّموذج الوحيد المشابه لنا هي باكستان، وإن كانت البنية الديمقراطية هناك تعرضت للتوقف.

لماذا الجمهورية؟

كان "عثمان أرطغرل أفندي" أقدمُ الأمراء ورئيسُ السُّلالة لفترةٍ طويلةٍ مؤيدا للجمهورية وكان يتقبلها، وقد قال: "هذه الواقعة لم تكن جيدة لعائلتنا لكنها كانت جيدة للبلاد".

ولم يقم أحدٌ من أفراد السُّلالة بالكتابةٍ أو بإصدار بيانٍ يعارض فيه بشكلٍ صريحٍ الجمهورية أو أتاتورك. فعلى سبيل المثال ورغم عدم مقدرتي على التَّوثيق بسبب وفاتها، إلا أن "السُّلطانة نسلي شاه" قالت عن أتاتورك، وبوجود شهودٍ على ذلك فلم أسمعها وحدي، وأمام مجموعة مقربةٍ: "أولا كان معارضا للرجعية، وثانيا أنقذ الوطن، وثالثا لا يليق بنا الحديث ضده".

وقد ذكر "مراد بردقجي" في احدى مقالاته أخيرا أنَّ حوارا كهذه جرى بين "السُّلطانة نسلي شاه" و"قاني كاراجا".

وهكذا كانت مسألة الرجعية وإنقاذ الوطن الخط الأساسي الذي توقف عنده وتحدث عنه جميع أعضاء السُّلالة. وفي هذا المعنى كان الانتقال إلى الجمهورية معتدلا جدا. ولكن ينبغي هنا عدم استحضار نموذج سلالة "بوربون"[58] أو إرهاب حكومة "روبسبيير"[59].

وبالتَّأكيد فإنَّ النِّظام الجمهوري سيستمر، إلاَّ أنَّ التَّساؤل المقلق هو كيف ستكون الجمهورية. وإذا كان الحديث عن نظامٍ آخر غير الجمهورية في العالم غير واردٍ، فإنَّ هناك في الواقع أنماط للإدارة تختلف عن بعضها من حيث طبيعتها، وبعضها بعيدٌ عن كلمة الجمهورية.

ما هي هذه الأنماط؟ هناك حكم الشَّعب، ولكن حكم الشَّعب لم يُعرف بشكلٍ واضحٍ منذ جمهورية روما التي يستند إليها في مبادئه الحقوقية والتطبيقية. أضف إلى ذلك أنَّه توجد الكثير من

المتغيرات والانحرافات ضمن هذا النِّظام. وباستثناء بعض الأنظمة التي لديها فكر قريب من الكمال، فإن عدد الأنظمة التي تبحث لتطبيق الأنظمة الملكية كان بازدياد.

في مساء يوم 29 تشرين الأول/أكتوبر 1923 م تم إطلاق 31 طلقة مدفعية،
وأُعلن مصطفى كمال باشا أول رئيسا للجمهورية التُّركية في جميع أنحاء البلاد

ومع ذلك وخاصة بالنِّسبة لمصطفى كمال كانت تركيا ستصبح جمهورية، لأنَّ مصطفى كمال ورفاقه كانوا تحت تأثير المدرسة الفرنسية. وكانت في ذهنهم أيضا فكرة الدَّولة المركزية

الاشتراكية الشَّعبية على النمط الفرنسي، إلاّ أنَّ هذه الفكرة لم تخرج كثيرا إلى العلن وبقيت في الأذهان. وأنا على ثقةٍ بأنَّ أتاتورك كان قد أدرك ورأى انتهاء صلاحية الملكية.

نحن اليوم جمهوريون، وحتى أعضاء السُّلالة متصالحون مع الجمهورية ولا توجد ميولٌ ملكيةٌ لأفراد عائلة العثمانيين. ومن الواضح أنَّه لا يمكن وجود أمرٍ من هذا القبيل، وحتى الذين لديهم ميلٌ مضللٌ كهذا يتعرضون للتنديد والعقاب مباشرة من قِبل أعضاء العائلة الآخرين.

ومن المعلوم أنَّ العضوين الأخيرين من قدماء العائلة، أي المرحوم "عثمان أرطغرل أفندي" و"السُّلطانة نسلي شاه" التي توفيت قبل مدةٍ قريبةٍ، كانوا قد قالوا "لم يبقَ ما يُسمى بالسُّلالة، نحن عائلة، عليكم أن تعلموا هذا". وهذا القبول بحقوق وشكل العائلة هو دليلٌ على الاندماج مع فلسفة المجتمع وتنظميه الاجتماعي.

لقد أظهرت الحركة التي أسست الجمهورية بعد الحرب العالمية الأولى مقاومة واستحقت موقعها، في حين لم تستطع أيُّ دولةٍ من الدول المهزومة أن تُظهر مقاومة كهذه، فقبلت تلك الدول شرط المنتصرين ولكنَّ تركيا قاومت، وكانت تقاوم بإرادتها، وأولئك الذين نظموا تلك المقاومة وقادوها انتقلوا إلى النِّظام الجمهوري.

إنَّ الجمهورية نظامٌ مترسخٌ اليوم، ولكن هناك من يعارض جوهرها حتى في الوقت الحالي، بالإضافة إلى وجود مجموعاتٍ في الداخل والخارج ليست صديقة لتركيا بل تُفسد استقرارها، وبالتَّأكيد ستتخطى تركيا ذلك.

ومن باب الموضوعية نبين أنَّ بعض المحافظين أو التقدميين أو الحائرين بينهما يملكون أفكارا جمهورية. وفي الحقيقة فإنَّ السلطة لا تعني "الأيديولوجيا"، فالأيديولوجيا هي الأساس وهي تتضمن العلمانية والحقوق والغرب.

اختيار اسم تركيا

لقد تقرر اسم "تركيا" رسميا في العام 1920م، ولكنَّ الاسم "تركيا" بحدِّ ذاته كان حيا على الدَّوام، بينما كان اسم "العثمانيين" مستخدما في المحافل الرَّسمية خلال القرن التَّاسع عشر، وكان يُقال للهوية "تركي" دائما. ولم يكن اسم "العثمانيين" يُستعمل على نطاقٍ واسعٍ في العصور القديمة، أما كلمة "تركي" فكانت هوية صالحة لكل عهدٍ، وقد استعملت الكلمة "تركي" في كل العهود. كما

أنَّنا نكرر غالبا اسم دولة السَّلاجقة الأتراك، وهو تعبيرٌ وضعه الإيطاليون في القرن الثَّاني عشر والثَّالث عشر (مثل تركيا أو تركمانيا). ولكن يبقى اسم الأتراك هو الذي يمتد ويستمر. فالجيل الذي شاهد جبهة "غاليبولو" وجبهة "القفقاس" وعاش معارك "السويس" و"كوت العمارة" و"غاليسيا" لا يمكن أن يقبل بهويةٍ غير التُّركية، وهو لا يقبل بهوية "العثمانيين". حيث إنَّ هؤلاء القادة تلقوا التَّعليم في الكلية الحربية، ويتقنون اللغات الأجنبية، ويعرفون العالم، لأنَّ الملحقين العسكريين كانوا يقابلون زملاءهم من كل الدُّول، وكانوا يرون كيف يحمل الجميع فكرة "قومي"، فالقومية يتم تعلمها في الخارج وليس في الداخل.

توجد في تركيا أعراق مختلفةٌ يُقدم أفرادها أنفسهم على أنَّهم أتراك، خاصة تحت مظلة الإسلام.

وهذه هي "تركية" تركيا، هذه هي "تركية" دستور العام 1924م. مع ملاحظة أنَّ تعبير "تركيا" كان هو معنى "التُّركية" في مجلس العام 1920م.

وعلى أرض الواقع كانت الشُّعوب الإسلامية قد انفصلت عن الإمبراطورية، وكان واضحا أنَّ البلاد العربية لن تعود، كما فقدنا الـ "بوماك" والألبان في البلقان، بالإضافة إلى انتهاء مسيرتنا في القفقاس منذ زمنٍ بعيدٍ. لذلك فإنَّ هذه "التُّركية" هي الباقية، ولكن يجب إدراكها بالمعنى الذي تركته الإمبراطورية.

"التُّركية"

تُعتبر القومية التُّركية الثَّروة الأهم في تركيا، وهي ليست مجرد بطولاتٍ محليةٍ، فالقومية التُّركية كانت منذ عهود التَّرحال (البداوة) نظاما عرف التَّحمل والتَّنظيم والتَّغير حسب الظروف. وعلى الرغم من كل الانقطاعات والافتراقات التي حصلت عبر التَّاريخ، فقد نجحت في خلق كيانٍ ومجتمعٍ ثقافيٍّ من حدود الصِّين إلى نهر الدَّانوب.

خطاب مصطفى كمال باشا، في الحديقة الوطنية بمرسين،
وقد لاقى صدى واسعا في جميع أنحاء البلاد

وفي الواقع حدث أحيانا انقطاعٌ أو فتورٌ في هذا الكيان، ولكنَّ هذا ليس العالم "الجرماني" ولا العالم "السّلافي" المرحلي، فالعالم التُّركي موجودٌ خلال كلِّ زمانٍ، لذلك تكمن أهميتنا الاستراتيجية وثروتنا في تركيتنا ذاتها.

وفي هذه الرقعة الجغرافية توجد لدى المجتمعات التي تعيش عليها قابليةٌ كبيرة للتحرك والتنقل. كما أنّنا لا نعرف مشكلةٌ اسمها نقص السُّكان، وحتى إذا انخفض معدل المواليد، فهناك سكانٌ أتراك يهاجرون من أحد أركان هذه الجغرافيا.

أخيرا ينبغي أن نضيف أنَّ نموذج الجمهورية التي كانت في ذهن أتاتورك هي نفسها الجمهورية التي نادى بها "جان جاك روسو". وقد ظهرت تلك الجمهورية في دستور العام 1924م.

ونؤكد أنَّ العبارة التي نقصدها هي "الأتراك"، وهذه العبارة يجب أن تبقى، أما تعبير "تركيلي" الذي يدل على الجنسية التُّركية وليس على العرق، والذي ظهر حاليا فهو تعبيرٌ مضحكٌ وغير واضحٍ، وهو مصطلحٌ غير متناسقٍ من حيث متطلبات اللغة والهوية.

6

عهد الثَّورات (التغييرات)

نظرة عامة على الثَّورات (التغييرات)

عندما نلقي نظرة على الثَّورات بشكلٍ عامٍّ نلاحظ نشوء دولةٍ مركزيةٍ قوية التُّركيب تعمل على تأمين حقوق المواطن، فالحركة العلمانية جاءت لترسيخ مفهوم المواطنة تماما. حيث تم القضاء على بعض التَّنظيمات والعادات والأعراف والتَّقاليد الخاصة بالمجتمع العثماني، حتى أنَّ الغازي مصطفى كمال باشا أنهى النَّقابات والمشايخ أسوة بما طبقته الثَّورة الفرنسية. وقد لخص المرحوم "حسني ديكر أُسطة" نقيب نقابة المنجدين مآل النَّقابات بالقول: "لم يكن المرحوم أتاتورك يحب الجمعيات".

وبلا شكٍّ فإنَّ عدم تطور المجموعات والمجتمع الصِّناعي والمجتمعات التَّقليدية مثل المجموعات ذات الخلفية العرقية والدينية، يؤدي إلى بعض الهزَّات في المجتمع الحديث، والتي قد تحيِّد المجتمعات وتجعلها غير قادرةٍ على إنتاج سياسيين يفهمون ويدركون العالم والمجتمع في تركيا كما حدث في بعض الدول الأوروبية بين الحربين العالميتين.

لم تكن الأولوية لدى الأحزاب المتشكلة، والتي تفرقت أو التي تعمل من أجل البقاء، هي عدد الأعضاء الضَّروريين لتطوُّر الحزب أو تأمين المصادر المالية، فهؤلاء لم يكونوا يملكون الكوادر السِّياسية أو الكوادر التي تضع البرامج السِّياسية، بل ولم يكونوا يملكون الكوادر والفرق التي تطور برامجها السِّياسية الموجودة. وتلك هي أكبر مشاكل جمهوريتنا والتي يجب حلها في أقرب وقتٍ.

كان الدَّافع إلى موضوع "إلغاء الخلافة" هو الرَّغبة بتأسيس وحدةٍ في الإدارة والأيديولوجيا ضمن هذا الوضع الجديد، ولذلك تم إلغاء الخلافة في فترةٍ قصيرةٍ. وهو أمرٌ خلق في الواقع ردة فعلٍ أكثر من موضوع "إلغاء السَّلطنة"، وحتى القادة الذين انتصروا في حرب الاستقلال معا، مثل "كاظم كارا بكر باشا" و"رفعت باشا"، لم يتفقوا حوله.

وفي الحقيقة لم يكن أحد من هؤلاء القادة مؤيدا للتغييرات باستثناء الغازي مصطفى كمال باشا أتاتورك، حيث كان أتاتورك وحده تقريبا (وإلى حدٍّ ما "عصمت إينونو") مَن يريد تأسيس النِّظام الجمهوري بذهنية الجمهورية والثَّورة، وكان عدد الذين يشاركونه الإيمان بهذه الفكرة قليلا بين أتباعه. ونذكر في هذا السِّياق أنَّ "فوزي باشا" وحتى "عصمت باشا" وافقا على "ثورة الحروف" انطلاقا من قبولهم بمبدأ "حكمة الحكومة"، أو مبدأ وجوب الطَّاعة من أجل بقاء الدولة. ورغم أنَّ "عصمت باشا" كان أول المعارضين للعديد من الإصلاحات، لكنَّه كان أول من طبق تلك الإصلاحات بعد إعلانها، وتلك هي الخاصية الأولى لرجل الدَّولة الذَّكي. وهي خاصيةٌ كانت واضحة عند رجال الدولة العثمانية، ويمكن أن نسميها فلسفة "ما حدث قد حدث، اذا لنستمر في الطَّريق"، أي أنَّ رجل الدولة العثمانية كان "براغماتيا".

وهكذا نرى أنَّ قسما من الأصدقاء القريبين عارضوا القائد في إلغاء الخلافة، ولكن بعد تأسيس الجمهورية أسس هؤلاء الأصدقاء "حزب ترقي الجمهورية" الذي كان جمهوريا بأفكاره. أما الفرق بين أتاتورك وبين هؤلاء فهو أنَّه كان جمهوريا منذ البداية، وكانت لديه رؤيةٌ وتخطيطٌ مسبقٌ للأمور. لذلك فإنَّه خلال حياة أتاتورك وبعد وفاته، استطاع أن يدفع العديد من الأشخاص من حوله إلى الدخول في القضية التي كان يؤمن بها بسبب تكاملها.

لقد تم تثبيت صيغة النِّظام من خلال إعلان الغازي مصطفى كمال ورفاقه قيام الجمهورية، ولكن لم يكن ذلك سهلا، لأنَّه كان يوجد بين المبعوثين (النُّواب) مَن كان لا يزال يريد الخليفة والسُّلطان. ومن جهةٍ ثانيةٍ كان عددٌ من قادة حرب الاستقلال، حتى قبل تأسيس الجمهورية، لا يتوقعون دخول إسطنبول واستعادتها من جديد، كان إنقاذ قسمٍ من الأناضول كافيا بالنِّسبة لهم في تلك اللحظة. بينما كان الغازي مصطفى كمال باشا قد رأى ضعف الطَّرف الآخر، ولذلك قال: "أيها الجيوش تقدموا، هدفكم الأول البحر المتوسط".

كما كان إعلان الجمهورية أيضا دليلا على رؤية أتاتورك البعيدة، ومرة أخرى كان بعض الذين من حوله هم وراء إبطاء ثوراته وحرفها عن مسارها. لذلك كانت الخاصية الأكبر لأتاتورك هي الإقناع وتحقيق التَّوافق، في هذه البيئة التي خلت من الكوادر.

دستور العام 1924م

تم قبول دستور العام 1924م مباشرة من قبل المجلس وليس عن طريق الاستفتاء كما كان كان معتادا في النصف الثَّاني من القرن. وهكذا تم إلغاء دستور العام 1921م الذي تم قبوله خلال حرب الاستقلال من قبل المجلس أيضا. أما بالنِّسبة لدستور العام 1876م (القانون الأساسي) ودستور العام 1921م (قانون التَّشكيلات الأساسية) فقد اعتُبرا ملغيين مع إلغاء السَّلطنة من قبل المجلس في تشرين الثَّاني/نوفمبر عام 1922م.

وكان دستور العام 1924م مقارنة بدستور العام 1921م المؤسِّس يقوم على مبدأ سيادة المجلس، لأن التَّنفيذ يتم تحت حكمه ولأنه هو الذي يمنح الثِّقة، حيث لم يكن التَّفكير بانفصال السُّلطة التشريعية على حدة واردا. وفي الحقيقة سيمثل هذا النِّظام شبه التقليدي السُّلطةَ التَّنفيذيةَ (أي سلطة الحكومة) عبر تاريخ تركيا.

والمثير للجدل كان إمكانية تطبيق نص دستور العام 1924م على حياةٍ سياسيةٍ ديمقراطيةٍ ومتعددة الأحزاب، رغم أنَّ ذلك الدُّستور بقي معظم مدة تطبيقه تحت إدارة حزبٍ واحدٍ. ففي دستور العام 1876م (القانون الأساسي) كان هناك مجلس المبعوثان (مجلس النُّواب) ومجلس الأعيان، أما في دستور العام 1924م فتم قبول نظام المجلس الواحد.

وكان الضَّعف الأكبر في النِّظام الدُّستوري منذ العام 1924م هو الفشل في تحقيق استقلال القضاء وضمان سلطته. ونذكر هنا أنَّ حرية الصحافة (التي لم يتم ذكرها في العام 1876م) ذُكرت في الدُّستور بشكل محدودٍ من خلال عبارة: "تُعتبر إدارة قانون المطبوعات (الصَّحافة) حرة". ورغم انتهاكها خلال فترةٍ قصيرةٍ فإنَّ حرية الصَّحافة دخلت في حياتنا السِّياسية. وكان إلغاء "حجب الصُّحف" قد جرى عبر التَّعديلات التي تمت في دستور العام 1908م (المشروطية الثَّانية)، ومنذ ذلك الحين لم يعد نظام الحجب قانونيا.

ونستطيع القول بأنَّ مؤسسة الصحافة أخذت حقها في دستور العام 1924م، ولكنَّ انتهاك حرية الإعلام لا علاقة له بدستور العام 1924م. وبصورةٍ مشابهةٍ لم تكن أحداثٌ مثل عدم قبول النُّواب الجدد الذين انتخبوا بعد انتخابات البرلمان عام 1946م، نظاما من صنع الدُّستور، بل اختلالٌ تم تطويره لاحقا. كما أنَّ عدم السَّماح للصحافة باتهام أعضاء الحكومة، وعدم الاعتراف بحق الإثبات[60]، وغيرها من الممارسات لا يمكن أن يكون لها علاقةٌ بهذا الدُّستور.

وبالتَّأكيد لا يمكن لأحدٍ أن يتصور بأنَّ دستور العام 1924م منع جميع أنواع الأحزاب، إذ من الواضح أنَّ "قانون التَّشكيلات الأساسية" (أي دستور 1924م) منع فقط الأحزاب والفعاليات التي تفتقد السَّلطنة. وبخلاف ذلك فإنَّ الضَّمانة الدُّستورية لقوانين "الثَّورات" تمت في دستور العام 1961م.

وفي حقيقة الأمر كان نص دستور العام 1924م وطنيا ومناسبا لاستمرار حياةٍ اجتماعيةٍ ديمقراطيةٍ ومتعددة الأحزاب، وإضافة إلى ذلك، كان نصا واضحا وتمت صياغته بشكلٍ جيدٍ قياسا إلى تلك الفترة. أما القيود التي وجدت في حياتنا السِّياسية مثل عدم مناقشة السِّياسية الخارجية في المجلس، وبقاء النفقات العسكرية خارج الرقابة الجدية، فهي نتاج تقاليد الحياة السِّياسية ومفاهيم التَّربية السِّياسية ولا تنبع من الدُّستور.

وبالطَّبع كان بإمكان تركيا المحافظة على دستور العام 1924م مع بعض التَّغييرات الطَّفيفة عليه، ولنأخذ مثلا مؤسسة "مجلس الشيوخ الجمهوري" فهي لم تكن موجودة في دستور العام 1924م بل تم إنشاؤها بموجب دستور العام 1961م، ولكنها أُلغيت في دستور "الثَّاني عشر من أيلول" دون اعتراض أحدٍ. بالإضافة إلى أنَّ عرض إنشاء مثل تلك المؤسسة – في دستور العام 1982م – لم يُقدَّم من قِبل أي مجموعةٍ ممن جهزوا سابقا دستور العام 1961م، من مبدأ أنَّ "مجلس الشيوخ" لم يكن مناسبا للتَّاريخ الاجتماعي التُّركي، وبالتَّالي لم يتم تطويره واعتماده في نظامنا البرلماني.

وحتى السِّمة المهمة لدستور العام 1924م بالدَّرجة الأولى وهي العلمانية لم تُدرج كمبدأ في النص، بل تم إضافة هذا المبدأ عبر التغيير الذي حصل عام 1928م. أضف إلى ذلك أنَّ مبادئ الجمهورية والتي لم تتغير إلى الآن كانت موجودة في هذا الدُّستور.

والخلاصة هي أنَّ البيئة التي أوجدها دستور العام 1924م تحت اسم القانون الأساسي، أو التَّشكيلات الأساسية[61] هي 26 عاما من نظام الحزب الواحد، و14 عاما من النِّظام المتعدد الأحزاب. حيث ولد بعده دستورٌ جديدٌ إثر "حركة 27 أيار/مايو"[62]، وهذا الدُّستور وكما هو معروفٌ تم إلغاؤه قبل أن يُطبق لمدة عشرين عاما.

نُشرت كتاباتٌ عديدةٌ عن زواج "الغازي" من "السَّيدة لطيفة" الذي استمر فترة قصيرة، ورغم التَّعليقات المبالغ بها، فإنَّ "السَّيدة لطيفة" تمثل شخصية المرأة التُّركية الكبيرة التي نقلت تركيا إلى تغييرٍ عظيمٍ. وفي الواقع ظهرت اعتبارا من القرن التَّاسع عشر نساءٌ متنوراتٌ كان لهنَّ أدوارٌ مهمةٌ، إلاَّ أنَّه لا يوجد أثرٌ يمكن قراءته للإجابة على السُّؤال الذي يبحث عن دور "السَّيدة لطيفة" البناء في تلك المجموعة من النِّساء.

وكانت التواصل بين "السَّيدة لطيفة"، التي درست في سويسرا، وبين "الغازي" قد بدأ منذ تحرير إزمير، حيث إنَّ معرفتها للغات الأجنبية، إذ كانت تستطيع الكتابة والقراءة بثلاث لغاتٍ، ومشاهدتها لأوروبا، تركا أثرا عند "القائد العام"، فتشكلت لديه قناعةٌ بأنَّ تلك الصُّورة هي التي ينبغي أن تكون عليها زوجة رئيس الدولة الحديثة. ولكن كان من الواضح عدم إدراك "السَّيدة لطيفة" بشكلٍ جيدٍ ماذا يعني أن تكون زوجة رئيس الجمهورية التُّركية. ومن جهةٍ ثانيةٍ، لم يكن وجود "ماريشال" أمرا مألوفا في تركيا، لذلك كان قيام زوجة زعيمٍ وقائدٍ كهذا بمناداته "كمال" من نافذة القطار، أمرا لا ينسجم مع أيٍّ من بروتوكولات العشرينيات.

أضف إلى ذلك أنَّ "السَّيدة لطيفة" كانت على علاقة صداقةٍ مع زوجة "رضا نور"، التي كانت كما يقول زوجها في مذكراته ابنة أحد الباشوات المنتسبين للنظام القديم، وكان لديها مشاكل نفسيةٌ، في حين لم يكن لامرأة في موقعها – السَّيدة الأولى – أن تتواصل مع أحدٍ من المعارضة.

وعندما تكون المرأة زوجة رئيس الجمهورية، أي السَّيدة الأولى، فلا ينبغي أن تتصرف مثل زوجة رجلٍ مترفٍ محدود السُّلطات وعديم المسؤوليات. لأنَّها إذا تخاصمت أو اشتبكت مع زوجة أحدهم مثلا، فإنَّ الموضوع سينتقل إلى مجالٍ آخر، ويتحول الأشخاص، الذين لا يسمح لهم موقعهم بمخاطبة الماريشال الكبير ورئيس الجمهورية حول ذلك الموضوع أو التَّلميح إليه، إلى أعداء.

مصطفى كمال باشا وزوجته السَّيدة لطيفة، 1923 م

ومع الأسف لم تعرف "السَّيدة لطيفة" كيف تكون زوجة الماريشال ورئيس الجمهورية المؤسس في ظروف تركيا تلك، لذلك انتهى الزَّواج أو بالأحرى أُنهي من طرفٍ واحدٍ.

الحياة الخاصة والتَّاريخ

إنَّ محاولة فهم الشَّخصيات التَّاريخية ورسم صورتهم من خلال تفاصيل حياتهم طريقةٌ معروفةٌ وليست بالجديدة. وبالتَّأكيد فإنَّ أساليب التَّاريخ الجدية لا يسمح بخلق شيءٍ من العدم، وهذه الخاصية هي التي تميز التَّاريخ عن غيره من العلوم الأخرى. فاليقين والتقييم ومرحلة صياغة الفكرة باستخدام المواد المستعملة من قِبل المؤرخ، تحمل أسلوب الفنان. والتَّاريخ ليس علما فقط، بل هو بحسب تعبير "درويسي": "فوق العلم كثيرا".

وفي هذا الصَّدد نرى عدم وجود فرقٍ وتطورٍ وتغيرٍ بين الطرق المستعملة من قِبل "ثيوكيديداس" و"فيرناند برادويل". لأنَّه من غير المناسب حكما رسم صورة الشَّخصية التَّاريخية من خلال تصوير الصِّفات الشَّخصية. وقد وصل التَّاريخ التُّركي في هذا المجال إلى طريقٍ مسدودٍ، نتيجة عدم إدراكنا بأنَّ هذا العمل ليس بالعمل السهل. إذ أنَّ تقديم فكرةٍ عن أيِّ شخصيةٍ تاريخيةٍ لا يتم عبر القيل والقال والوقائع اليومية، بل يجب جمع الكثير من المعلومات والتَّحقق من البيئة الثَّقافية للفترة المراد فحصها.

يتحدث اليوم عن أتاتورك الكثير ممن لا يملكون المعرفة، وبالتَّأكيد فإنَّ هذه الأحاديث ليست تأريخا ولا نصوصا موثوقة، لأنَّ كلاً من اليمينيين واليساريين في بلدنا متحمسون لخلق "الحقائق" من دون القيام بالبحث. ولكنَّنا نريد أن تكون مواد وطرائق التَّصوير التَّاريخي في العصر الحالي أكثر دقة وتعتمد على المقارنة وكثرة المعلومات.

وقد قرأت كتاب "ألكسندر جيفاخوف" المعنون بـ "كمال أتاتورك"، أثناء الإعداد لهذا الكتاب الذي بين يديكم، وهو كتابٌ يصور الشَّخصية بدقةٍ ودون مبالغةٍ ومن خلال تعليقاتٍ مفصلةٍ. والجدير بالذِّكر أنَّ "جيفاخوف" فرنسيٌّ، ولكنه حفيد الأميرال الروسي "جيفاخوف". والواقع أنَّ المؤرخين الرُّوسي رسموا شخصية "أتاتورك" بصورة أكثر جديةٍ، وتقيدوا بالمواد والنص وهو ما يُعرف بـ "التَّعليق الموسع". وهذا الأمر صعب التَّطبيق عند تصوير الشَّخصيات العثمانية، لسببٍ بسيطٍ، وهو ندرة المواد.

الغازي مصطفى كمال باشا وزوجته السَّيدة لطيفة أثناء
خروجهما من دار الحكومة في أضنة، 16 آذار/مارس 1923م

يوجد نوعان ممن يرسم شخصية كاذبة وخاطئة لـ "أتاتورك" وهذان النوعان كتابٌ اتخذوا من هذا الموضوع مهنة، النَّوع الأول هو الذي يجلس ويدير النَّوع الثَّاني، وبالتَّأكيد يملك ذاك الذي يدير مهمة محددة ويتحدث باسم مجموعةٍ معينةٍ بينما يقوم أشخاص آخرون بنشر ما يقوله. وعبر هذه الطَّريقة تجري المحاولات لتشويه الشَّخصية التَّاريخية.

ولا يكمن وراء ذلك قلقٌ إيمانيٌّ أو أيديولوجيٌّ فقط، لأنَّ الدَّافع في الوقت ذاته هو محاولةٌ للتقسيم وخلق بيئة التَّخاصم. وبالطَّبع لا يمكن الوثوق بهؤلاء الكتاب، لأنَّهم ضعاف جدا من ناحية المعلومة. ونضيف إلى ما سبق وجود دور نشرٍ تقوم بتصوير الشَّخصيات ذات الميول العرقية بطريقةٍ مبالغٍ فيها، وذلك للوصول إلى غاياتٍ معينةٍ بالطَّبع. وهذه "القومية المدمرة" هي العنصر الذي لم يتخلوا عنه في أيِّ مكانٍ، فالمجموعات العرقية المعنية اتبعت هذا الأسلوب بعد أن طورت ثقافتها وأدبياتها القومية وأبحاثها التَّاريخية.

ومن المعروف أنَّه لا يتم التَّسامح مع الذي يشوه سمعة أبطال المجتمعات سواء في أوروبا أم في العالم، إذ يتعرض الفرد الذي ينكر ذاته في تلك الحالات إلى حكم المجتمع قبل حكم القاضي. وعلى سبيل المثال، اذا قال أحد الطلاب في مجتمع قوميٍّ أو دوليٍّ مثل هذه العبارات الإنكارية والتي تشوه السُّمعة، فإنَّه يُعتبر "مختلا عقليا" ولا يؤخذ على محمل الجد، ولا يحمل عمله أيَّ جدوى بنظر المجتمع. وهذه المواضيع لا يمكن التَّسامح معها في أوروبا الشَّرقية وأوروبا الوسطى وأوروبا الغربية.

كان يمكن لتركيا أن تكون مستقلة من دون أتاتورك، ولكن...

هل كان لتركيا أن تستقل لولا أتاتورك؟ ينبغي الجواب على هذا السُّؤال بنعم. كان يمكن لها أن تستقل في حدودٍ معينةٍ، لكن باستثناء إزمير والمناطق الواسعة المجاورة للميناء التي لن تكون من نصيبنا، بل كان اليونانيون سيستوطنون هناك.

ومن الواضح بالطَّبع أن اليونانيين المحليين والمجموعات غير المسلمة من مختلف الأعراق والبلدان الأوروبية التي استوطنت لغايات تجاريةٍ لن يكونوا على وفاقٍ مع حكومة فينيزيلوس بداية الاحتلال، ولكن لا بدَّ أن يتفقوا لاحقا، فقد كان هؤلاء تجارا. وكان السُّكان يستمرون في القدوم من اليونان البلد الأم، وبوتيرةٍ متسارعةٍ، وذلك لأن إزمير والمناطق المجاورة لها تعد أراضٍ خصبة للغاية، بل إنَّها بمثابة الجنة بنظر سكان الجُزر.

وبالتَّأكيد لم تكن تركيا بلدا صغيرا لينتهي أمر الشعب التُّركي فيها، حيث كان عدد السكان حينها 13 مليون نسمة، وكان ذلك رقما مهما. غير أنَّ إعادة تأهيل هذا الشَّعب المدمر وتعليمه كان من الأهمية بمكان، مع عدم وجود الإمكانيات للتطور الصِّناعي والاقتصادي.

هناك من يقول "كانت الديمقراطية ستأتي بكلِّ الأحوال". ولكنَّ الديمقراطية في الواقع لا تُستورد إلى قطرٍ ما استيرادا، والإشارة إلى تأسيس نقابةٍ، ووجود حزب شيوعيٍّ، وعرض بعض الأفلام السينمائية في إسطنبول في فترة الهدنة أمورٌ غير كافيةٍ. والديمقراطية لا تتشكل في مجتمع ما من خلال ذلك، بل ينبغي على السُّكان المحليين، أصحاب البلاد، أن يشعروا بالحاجة إلى الديمقراطية فيقوموا بتأسيسها بأنفسهم.

من الجيد أن يرغب شابٌ في العشرين من عمره بمشاهدة بعض الأفلام إن أراد، وهنا تظهر مسألة وجود رقابةٍ من عدمها. ولكنَّ إحضار تلك الأفلام وعرضها لم يكن ممكنا إن لم يكن لدى الشَّعب رغبةٌ في ذلك. ماذا يعني ذلك؟ الديمقراطية هي غليان التفكير المحلي وتطور المؤسسات المحلية، وهذا التطور لن يكون سهلا. دعونا نفترض ما يُقال: "لوكان كاظم كارا بكر باشا هو رئيس الدولة بدل أتاتورك"، وكاظم كارا بكر كما تعلمون هو ضابطٌ ذو مهارةٍ وعلمٍ، وقائدٌ شجاعٌ، ومؤمنٌ صدوقٌ مثل عصمت باشا، وكلاهما محافظان من حيث طريقة الحياة. إذ لم يكن نمط الحياة في بيت عصمت باشا ولا كاظم باشا نمط حياةٍ متحررةٍ.

كان كاظم كارا بكر شخصا محافظا، فقد رفض مثلا الحروف اللاتينية في المؤتمر الاقتصادي في إزمير وقال: "لا يمكن أبدا. إنَّ الآذريين يسخرون". كما لا يمكن القول بأن عصمت باشا كان متحمسا لتغيير الأحرف. ونضيف إليهم رؤوف أورباي الذي كان محافظا أيضا. وبالفعل كان الثَّلاثة متشابهين فيما بينهم، والشَّخص الذي لم يكن يشبههم هو الغازي مصطفى كمال باشا بذاته.

إنَّ الأشخاص هم الذين يصنعون التَّاريخ إلى حدٍّ كبيرٍ. وأتاتورك كان أولا عبقريا في التَّنظيم، يعرف كيف يضبط نفسه جيدا، ويتقن الكتمان جيدا. وكان يتقدم إلى الأمام متجاوزا الزمن، وهذا الميزة لا يتصف بها أغلب قادة القرن العشرين. وكان ثانيا، إلى جانب عبقريته في تقنية التوقيت، يتقن معرفة الأمور التي ينبغي معرفتها، ويتقن طريقة الاستفادة من تجاربه. ومن المؤكد أنَّه كان لدى فريق ضباطه تجربةٌ غير محدودةٍ ورؤيةٌ عالميةٌ، إلاَّ أنَّه كان هو الأفضل بين أولئك في معرفة استخدم هذا التدريب. والأمر الذي ينبغي التوقف عنده هو أن مصطفى كمال لم يستسلم قط لسلبية الزَّمان والمكان.

الأمر الأكثر أهمية هو أنَّه عندما بدأت حرب الاستقلال، ونظرا للأخطاء المرتكبة في الحرب العالمية الأولى، كان هناك من يقول: "يجب ألاَّ نخوض الحرب مرة أخرى". أعتقد أنَّ من

الخطأ اتهام أولئك جميعا بالخيانة، لأنَّهم لم يتمكنوا من رؤية المستقبل. كما كان هناك من يقول: "توقفوا هنا الآن، ولا تتقدموا أكثر من ذلك". وفي الواقع كان العديد من قادة حرب الاستقلال يعتقدون بعدم إمكانية تحرير غرب الأناضول بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

ولا شكَّ أنَّ المرء عندما يضع الهدف نصب عينيه، فتلك هي العبقرية، بل إنَّه العناد الغريب المقرون بالدَّهاء. والأمر مع أتاتورك كذلك من حيث السِّياسة: إنَّه عبقريٌّ.

أما عبقريته العسكرية فتكمن في أنَّه لم يحوِّل حرب التَّراجع إلى هزيمةٍ بل حوَّلها إلى سياسةٍ واستراتيجيةٍ عسكريةٍ. وكان يعرف جنوده تمام المعرفة ويحبهم ويثق بهم.

ومن المعروف أنَّ أولَّ مرةٍ في أدبنا السِّياسي تمت فيها مناقشة دور الفرد في التَّاريخ كانت اعتمادا على تانر تيمور وكارليل وتولستوي. وقد استند توماس كارليل إلى عيناتٍ من الأمثلة الرائعة، ويمكن اختصار رأيه بالقول: "التَّاريخ يصنعه الفرد". أما توليستوي فيقول: "الفرد يقلب الصخرة المتهالكة بأصبعه". وهكذا فإنَّنا نحتاج في خضم هذه الرؤى إلى سيلٍ من المداد لتحديد مكانة أتاتورك وإعطاءه قدره.

المعارضة القادمة من الداخل: الحزب التَّقدمي[63]

اجتمع الاتحاديون في الفريق التَّقدمي، وكان اليساريون حينها مجموعة صغيرة. وفيما بعد، انضم اليساريون إلى الفرقة الحرة. وعلى الرغم من وجود بقايا الاتحاديين فيها، إلا أن وجودهم في الفريق التَّقدمي كان الغالب إلى جانب أمثالهم من المجموعات الأخرى. ولذلك اعتبرت أنقرة الحزب مصدرا للخطر. فلم تكتف الجمهورية بالسُّلطان، بل اعتبرت الاتحاديين أيضا مصدر خطرٍ لها. ولدى النَّظر إلى التَّوقيفات والتَّحقيقات حول محاولة الاغتيال عام 1926م نجد أمورا مأساوية فيها.

المعارضة في العهد الكمالي

لدى الحديث عن المعارضة في عهد أتاتورك، لا يمكن حصر الموضوع في الأحزاب فقط. فالمعارضة الأساسية كانت تتشكل من الحزب الجمهوري التَّقدمي في عام 1924م، وحزب الجمهورية الحرة في عام 1930م، وكان عمر كليهما قصيرا، ولكنَّهما اشتركا في ترؤس أصدقاء أتاتورك المقربين لهما. فالفريق الأول كان مكونا من الباشا كاظم كارا بكر والباشا علي فؤاد، وكلاهما عارضا مصطفى كمال باشا واعتمدا فكرة "تركيا الفتاة" ذات الهيكلية الأكثر محافظة. وقد

التف حولهما الكثير من المؤيدين، ولم يرفضا من أراد الالتحاق بالحزب حتى لو كان بعيدا عن فكرتهما، بل رحبا به. والفريق الثَّاني هو الرئيس الذي تم جاء بالتَّعيين المباشر، حيث جمع العدد الأكبر من المؤيدين. وكان الحزب يضم الذين ندعوهم بالأصوليين وكذلك المجرمين. وبالمحصلة كان من الواضح أنَّ المعارضة لن يُكتب لها الاستمرار ببنيتها المختلطة هذه وردود أفعالها غير المنضبطة.

وعلى عكس المتوقع، انتشرت الفرقة الحرة سريعا وقامت بتنظيم نفسها. ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذِّهن أنَّ المعارضة مقتصرةٌ على عناصر كانوا قبل ست سنواتٍ فقط من أعضاء ومريدي الطرق الصُّوفية، بل انضم إلى هذه الحركة، إلى جانب هؤلاء، أشراف النواحي من خارج حزب الشعب الجمهوري أيضا. وبذلك اعتبرت المعارضة أنَّهم ضموا إلى صفوفهم أعضاء من حزب الشَّعب الجمهوري أيضا. وقد حقق الفريق الحر فوزا ساحقا حتى في الانتخابات البلدية التي أُجريت فجأة قبل الانتخابات النيابية. لكن ردَّ فعل الجماهير على نجاح الحزب في الانتخابات كان مخيفا، ولا سيما في إزمير، حيث بدت وكأنَّها دخلت في نفقٍ مأساويٍّ، فالمعارضة ضد الباش وكيل (رئيس الوزراء) عصمت باشا كانت كبيرة، كما أنَّ تدخُّل سلطات الولاية الفظ الغليظ لم يعمل إلاَّ على تحريك الجماهير. بينما كانت الاتهامات الموجهة في مجلس الأمة (والقائمة على اعتباراتٍ مزاجيةٍ وتحريكيةٍ) تستهدف "فتحي أوقيار بيك" الذي كان يميل إلى الابتعاد من مثل هذه الصراعات. وبعد هذا كله، تم حظر حزب المعارضة، وإيقاف الغالبية العظمى من رؤساء البلديات عن العمل. وبعد أسبوعٍ، دفع حادث انفجار مَنَمَن في يوم 23 كانون الأول/ديسمبر المؤيدين لإسكات المعارضة تقريبا، وإلى إشاعة بيئةٍ يقول: "ألم نقل لكم ذلك؟".

وكان الملتفون حول شخصٍ مثيرٍ للجدلٍ يدعى الدرويش محمد غيريتلي (والذي لا يمكن الجزم بانتمائه لأيٍّ من الطُّرق رغم المزاعم حول انتسابه إلى الطَّريقة النَّقشبندية) قد قاموا بالانتفاضة في مَنَمَن. وكانت هذه الانتفاضة استعراضا في ساحة للسوق، حيث قتلوا الضَّابط الاحتياط الملازم "مصطفى فهمي كوبيلاي" بطريقةٍ وحشيةٍ، عندما كان يحاول إيقافهم، فأردوه شهيدا. وكان ردِّ فعل الغازي باشا عنيفا خلافا لتردده السَّابق في إسكات المعارضة. ووفقا للرواية؛ ذكر الباشا أنَّه ينوي تهجير سكان النَّاحية بأكملها، لكنه اكتفى بالإجراءات الزَّاجرة والمحاكمات والإعدامات ثم استكان.

لقد أظهرت انتفاضة مَنَمَن مدى سهولة تقييم الظُّروف بطريقةٍ خاطئةٍ من قِبل الجهلة، مما يؤدي إلى عنفٍ لا نهاية له. ومع ذلك، لا يُعتبر هذا الحدث بداية لأعمال شغبٍ دينيةٍ واسعة النِّطاق في تركيا.

وقد دفعت الأمور التي رافقت ذلك أعضاء الفرقة الحرة بالذَّات إلى إغلاق ملف الحزب. وبالنَّظر إلى الظُّروف الدُّولية المحيطة به، تسبب هذا الحدث في تأخير تحديد التَّاريخ الموافق لتأسيس النِّظام الديمقراطي المتعدد الأحزاب في تركيا.

كان الحزب الشُّيوعي التُّركي (TKP) قائما في العهد الكمالي، وكان السكرتير العام للحزب هو فَدات نديم (تور) بيك، وأصله من برلين. حيث عاصر التَّطورات في حركة سبارتاكست[64] في ألمانيا. وقد كان هناك في الحزب الشُّيوعي من يتهم فَدات نديم، كما كان هناك المعجبون بقدراته الفكرية أيضا. ومن الجدير بالذِّكر أنَّه عُثر في ملفات الشُّيوعية الدُّولية على الوثيقة الوحيدة المتبقية من وثائق الحزب، وهي لائحةٌ مكتوبةٌ بالأحرف العربية قدمها فدات إلى المكتب السِّياسي (اللجنة المركزية)، ويتحدث فيها عن تنظيم البوابين والسَّائقين. وتلك مقاربةٌ صحيحةٌ، إذ ينبغي الاستفادة من أحدهما للحصول على المعلومات حول بنية الطبقات وتوزعها الجغرافي. ولا ننسى أن شكري كايا استخدم العناصر نفسها من أجل نظامه هو.

كان شوكت ثريا بيك عضوا في الحزب الشُّيوعي في الاتحاد السُّوفييتي، وعاش هو الآخر فترة وجيزة في السِّجن، إلا أن النِّظام تبناه. وكان واضحا بأنَّ موسكو لا تحبذ الدخول في صراعاتٍ مع النِّظام الكمالي. وقد عمل شوكت ثريا مع وزير التَّربية الوطنية مصطفى نجاتي، وأصبح لاحقا مدير الاقتصاد العام. وللإنصاف نقول إنَّه إذا كان هناك نوعٌ من الانتظام في مسألة توزيع الغذاء أثناء الحرب العالمية الثَّانية فإنَّ الفضل يعود إليه.

يرى الكماليون الشُّيوعيين أسرى للأحلام، ولكن حين تستقيم أمورهم ويقتربون من التكامل مع النِّظام، يتم إعطاؤهم الفرصة ولا يتم استبعادهم. وكان هذا الوضع ساريا خلال عهد أتاتورك بالنسبة للفئات اليمينية والعنصرية و"القفا طاسجيلر" (القوميون الذين يراهنون على شكل الرأس في اعتمادهم الشَّخصية التُّركية)، حيث لم يقم النِّظام الكمالي بإقصاء هؤلاء القوميين المتطرفين. والواقعة الأكثر إثارة للدهشة من بين تلك التي سنتحدث عنها فيما بعد، هي اجتماع الأسماء الثلاثة معا: حسين نهال أتسيز، أورخان شائق غوكاياي وبرتَف نائلي بوراتاف، وكان الثَّلاثة مساعدين

لمحمد فؤاد كوبرولي. وقد وجهوا برقية تأييدٍ إلى زكي وليدي (طوغان) بيك حين أقصاه رشيد غالب عن عمله بسبب سلوكه في مؤتمر التَّاريخ، فتم إنهاء حياتهم الأكاديمية في الجامعة على الفور، وتعيينهم في المدارس الثَّانوية. ولا شكَّ أن تدريسهم في المدارس الثَّانوية في الأناضول ترك أثرا. فتدريس عبد الباقي غولبنارلي في مدينة باليكِسير على سبيل المثال، أثمر شابا ذكيا نشيطا مثل خليل إنالجيك. والشَّيء ذاته ينطبق على مدينتي كاستاموني وقونية.

وقد أوذيت هاتان المجموعتان إيذاء شديدا في عهد عصمت إينونو أيضا، وانتشرت العداوات الشديدة بين مثقفي تركيا، حتى أن العداوة وقعت بين الأصدقاء الثَّلاثة الذين شاركوا في إرسال برقية التَّأييد قبل ذلك.

وتلقى مثقفو تركيا الضربة الأساسية في أحداث جامعة 47، ولاسيما مظفر بيك (شريف) الذي انضم في الفترة اللاحقة إلى اليمين الليبيرالي في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا شكَّ أنَّه ضاق ذرعا واغتاظ وأصيب بالإحباط نتيجة عملية التطهير الكبيرة التي تعرضت لها كليات اللغة والتَّاريخ والجغرافية، وكذلك نتيجة الحركة التي تلقاها من والي أنقرة، مما دفعه لمغادرة تركيا. وكان والي أنقرة نوزت طاندوغان نموذجا للوالي المنبوذ، ومن المفهوم إنَّه كان خارج سيطرة غازي باشا مع الأسف، وأن بعض أفعاله كانت موضع ترحيب من قبل رئيس الوزراء عصمت إينونو أولا. وقد أُهمل من قِبل النِّظام وحكومة عصمت باشا بعد عام 1946م، فتم جلبه موجودا إلى المحكمة كشاهدٍ في قضية حشمت أوروباي، وكان من الممكن أن يكون متهما، وقد انتحر يائسا فيما بعد. وهكذا كانت فظاظة الوالي المفرطة سببا في خسارة تركيا أحد أهم علماء النَّفس والاجتماع في العالم في هذا القرن لصالح الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي الحقيقة يوجد فرقٌ كبيرٌ بين المواقف الكريمة المتسامحة في العهد الكمالي وبين عهد حزب الشعب الجمهوري فيما بعد.

كاظم كارا بكر

كاظم كارا بكر باشا، هو ابن محمد أمين باشا، تلقى تعليمه في المدرسة الحربية والأركان بتفوقٍ. وهو من جيل مصطفى كمال باشا نفسه. وعلى الرغم من صداقته مع عصمت باشا منذ وقتٍ مبكرٍ، تعرف على مصطفى كمال باشا من بعيد، ولم يفصح له عن إعجابه وارتباطه به إلا في فترة الهدنة. واستمر في تأييده هذا، حتى كانت حرب الاستقلال أهمَّ وأفضل حدثٍ في تاريخنا.

من المعروف لدى الجميع أن الفريق كاظم كارا بكر باشا الذي توفي عندما كان رئيسا لمجلس الأمة التُّركي الكبير عام 1948 هو المساعد الرئيسي لمصطفى كمال باشا الذي أطلق شرارة حرب الاستقلال. وكانت تحت إمرته قوةٌ في المنطقة الشَّرقية، تتشكل من الفيلق الخامس عشر بكامل تجهيزاته وأسلحته الهامة وجنوده غير النِّظاميين. وقد تمكَّن كاظم كارا بكر باشا من تهدئة الأوضاع في الجبهة الشَّرقية من خلال انتصارات هذه القوة، كما عقد المعاهدات التي أمَّنت حدود البلاد.

وكان كارا بكر يخضع لأوامر مصطفى كمال باشا رغم الأوامر الصادرة من حكومة إسطنبول.

ويمكن اعتباره الضابط الأكثر ثقافة وإثارة للانتباه بين القادة الشَّباب في الجيش الذي تم تحديثه خلال الفترة الدُّستورية الثَّانية، وذلك نظرا اللغات التي يتقنها، ومعرفته بالتَّاريخ والجغرافية وتفوقه في الموسيقى.

ومن المهم هنا التَّذكير بواقعة ذهابه شخصيا إلى مصطفى كمال باشا (الذي صدر الأمر باعتقاله وأصبح عسكريا مطرودا قبل مؤتمر أرضروم)، حيث خاطبه قائلا: "سيدي الباشا، أنا وفَيلقي تحت أمرك"، فكانت تلك نقطة تحولٍ في التَّاريخ التُّركي، ومشهدا مؤثرا للغاية أيضا.

وإلى جانب قيادته اللامعة، لا ننسى العدد الكبير من قصائده التَّعليمية التي تركها للأطفال الأتراك، وكذلك أعماله في المسرح المدرسي وشعره وكتبه مثل: "معركة استقلالنا" و"حياتي"، التي تُعد من بين أهم الكتب في تراثنا الأدبي العسكري، وكتابه "الاتحاد والترقي وكيف دخلنا في الحرب العالمية الأولى" وهو من الكتب الهامة في تاريخنا السِّياسي. كما لا ننسى خدماته الجليلة، مثل قيامه برعاية أكثر من 6 آلاف طفلٍ يتَّمتهم الحرب الطويلة في المدارس، ومطالبته بالتَّعليم المتميز لهم خلال مرحلة الدِّراسة ما بعد المتوسطة.

ولأنَّه من الصعب أن تسير الثَّورات مع من قام بها، فقد تم عزل كاظم كارا بكر من الحياة السِّياسية بعد تجربة الحزب الجمهوري التَّقدمي القصيرة. بل وتم حظر أعماله جزئيا ووُضِع تحت الرقابة. كما تمت محاكمته في قضية اغتيال إزمير عام 1926م بتهمةٍ غير مبررةٍ من قِبل بعض الأشخاص الذين تذرعوا بوضعة في الحزب التَّقدمي. ولكنَّ الدعم له كان واضحا سواء من قبل

الأشخاص المرتبطين به ويحترمونه في الجيش أو من صديقه الحميم عصمت باشا، فتمت تبرئته في هذه القضية.

يظهر كل من الغازي مصطفى كمال باشا والسَّيدة لطيفة وكاظم كارا بكر باشا جنبا إلى جنب في منطقة أدرميت. شباط 1923

وفي العام 1939م، اختاره عصمت إينونو نائبا في البرلمان عن إسطنبول. وقد قرر عدم الانضمام إلى حركة الحزب الديمقراطي في الفترة بين 1946م – 1948م. وأخيرا تم اختياره مرشحا لرئاسة مجلس الأمة التُّركي الكبير من قبل كتلة حزب الشَّعب الجمهوري، وبقي في منصبه حتى وفاته يوم 27 كانون الأول/ديسمبر عام 1948م. فكان إلى حدٍّ ما خليفة لرفيق دربه في السلاح، الرئيس الأول لمجلس الأمة التُّركي الكبير مصطفى كمال أتاتورك. وبعد وفاة كاظم كارا بكر باشا تولى رئاسة مجلس الأمة القائد الآخر لحرب الاستقلال علي فؤاد جبَصوي لمدةٍ قصيرةٍ من الزمن.

رؤوف أرباي

حسين رؤوف أرباي، من جيل ثمانينات القرن التَّاسع عشر، أبوه المارشال محمد مظفر باشا. انضم رؤوف بيك إلى القوات البحرية برتبة ملازم في عام 1899، واستمر في مهامه متنقلا في السُّفن الحربية المختلفة حتى عام 1918. وقد اشتهر بلقب بطل الحميدية في فترة حروب البلقان. حيث أبدى أسطوله مقاومة منتظمة لإيطاليا واليونان صاحبة البارجة أفَروف. وكان هذا الأسطول، الذي أهمل في القرن العشرين، يخوض الحرب بوجود الضباط فقط دون الفنيين، وقد قام رؤوف

بيك بأكثر الأعمال جرأة، حين أبحر بسفينة الحميدية إلى البحر المتوسط مثل القرصان، وقصف الموانئ اليونانية، وكانت هذه المعركة البحرية مساهمة كبيرة في تاريخ حروب البلقان.

ودون شكٍّ كان العسكري الناجح المشهور رؤوف أرباي هو الأكثر ولاء للسلطنة من بين الآخرين، أما أمر كونه اتحاديا ومحافظا في آن معا فهو موضوعٌ مطروحٌ للبحثٌ. ومن المؤكد أنَّه كان يحمل الكراهية لحكومة كامل باشا، كما كان اتحاديا لدرجة ممارسة السِّياسة حتى في حروب البلقان.

شغل رؤوف بيك منصب رئيس أركان الحرب البحرية في الحرب العالمية الأولى، ووقف إلى جانب مصطفى كمال باشا منذ بداية النضال الوطني التُّركي، وبعد المؤتمرات شارك في اجتماع المجلس العثماني الأخير ممثلا عن الهيئة التَّمثيلية. وقد انتقد مصطفى كمال باشا مشاركته الفعلية في المجلس الأخير في إسطنبول، حتى أنَّه أطلق على مجموعة رؤوف بيك المدعوة "فلاَح الوطن" اسم "فلاَّح الوطن".

مصطفى كمال باشا وقد خلع زيّه العسكري، مع صديقه حسين رؤوف أرباي بيك أمام البناء الذي عقد فيه مؤتمر سواس، أيلول/سبتمبر1919

وفي تلك الأثناء اعتقله الإنكليز ونُفي إلى مالطا، ولدى عودته إلى الوطن بعد تحرره من مالطا شغل منصب وزير الأشغال العامة، ثم رئيس الوزراء ثم وكيلا لرئيس مجلس الأمة التُّركي الكبير. وكان هو الآخر مثل كاظم باشا من مؤسسي الحزب الجمهوري التَّقدمي، ونال الجزاء في قضية المحاولة المدبرة لاغتيال أتاتورك في إزمير. حيث كان حينئذٍ خارج البلاد، وعاد إلى تركيا عام 1935م.

وقد تم تعيينه سفيرا في لندن في عام 1942م، وبقي مدرسا في الجامعات حتى وفاته عام 1964م.

كان رؤوف بيك رجلا لا غبار عليه في وطنيته، ولكن علينا ألاَّ ننسى أنَّ اختلافات الرأي بين الأشخاص المستعدين للتَضحية من أجل المُثل العليا موجودة دوما.

قد يكون المثل الروسي "الفأس الذي يصنع البيت يُعلَّق في الخارج" معبرا في هذا المجال، لأنَّ واجبنا نحو الرُّواد الذين سطروا التَّاريخ هو أن نتذكرهم في عالمهم.

النُّطق (الخطاب)

قرأ القائد العظيم الغازي مصطفى كمال باشا على كتلته حزبه النِّيابية "الخطاب" الكبير دون انقطاعٍ بين 15 و20 تشرين الأول/أكتوبر عام 1927م، وجاءت قراءة "الخطاب" بعد إعلان الجمهورية، وإلغاء الخلافة، وقبول القانون التُّركي المدني، وقانون "تقرير السُّكون"، وحادثة اغتيال إزمير، وكان الغازي، الذي استبعد أيَّ تصورٍ للنِّظام المتعدد الأحزاب، يقيِّم السَّنوات السَّبع ويفسرها ويحللها اعتبارا من العام 1919م. وقد تجلت جمالية "الخطاب" في لغته، التي كانت مفهومة بسهولةٍ وثرية وموجهة لكتلةٍ واسعةٍ من الضُّباط الشَّباب أبناء الجيوش الحديثة في فترة القرنين التَّاسع عشر والعشرين. والواقع أنَّ استعمال اللغة كان من ضرورات تعليم الأركان، ومن الواضح أنَّ مؤسس الجمهورية التُّركية كان أكثر من يملك أسلوبا كهذا ولغة كهذه بين زملائه القادة

الشَّباب. ونلاحظ أيضا أنَّه استخدم لغة عثمانية سلسة وملائمة للبروتوكول خلال محادثاته ومراسلاته مع السُّلطان والسُّلطات العليا.

وعندما ندقق في أسلوب المراسلة والمقابلة في الملفات المستعرضة بالقسم الوثائقي "للخطاب" الشهير لأتاتورك نجد أنَّه من غير الصحيح تقييم ومقارنة لغة "أتاتورك" مع لغة ضباط الأركان واللغة المسمى "بعثمانية القرن العشرين".

خلال القرن التاسع عشر كان يتم عادة استخدام لغة بعيدةٍ عن اللغة اليومية في المقابلات والمراسلات مع مقام السُّلطة ومع "الصدر الأعظم" (الوزارة). وكان ذلك الأسلوب لا مفرَّ منه أبدا عند كتابة تلك المراسلات والتَّحدث خلال المقابلات. مع ذلك فإنَّ هذه اللغة السلسة، وحتى شرح الجمل والتعابير أحيانا في خطاب أتاتورك الشهير، تستوجب المحافظة على "الخطاب" الأصلي وأسلوب لغته. ومن بين النسخ المبسطة نجد نسخة "حفظي ولدت ولي ده ده أوغلو" هي الأنسب.

أما في النُّسخ المترجمة إلى لغاتٍ أجنبية من "الخطاب" فقد استُعملت أحياناُ من دون قصدٍ مقولاتٌ ليست ذات صلةٍ. لذلك نجد من الفائدة إعادة طبع التَّرجمات التي تحقق التَّوازن. كما ننصح الشَّباب بمتابعة "خطاب" أتاتورك من خلال النَّص المناسب والثَّري والأقرب لأسلوبهم.

ومن المؤكد أنَّ محاولة مسح صورة أتاتورك من أذهان المجتمع جهدٌ لا داعي له، كما أنَّ تقديم صورةٍ مشوهةٍ عنه عملٌ مضحكٌ حتى ولو قام به المؤرخون الهواة. لذلك يبدو العمل الأهم هو قراءة "الخطاب" وكذلك مقولات أتاتورك في كتلة حزب الشَّعب الجمهوري النِّيابية، والتي معظمها غير متوفرٍ مع الأسف. ذلك أنَّ تاريخ الجمهورية التُّركية لازال في مرحلة التَّحقق التَّاريخي وجمع الوثائق الأرشيفية.

توجد في الأدبيات السِّياسية العالمية خطاباتٌ خالدةٌ للزُّعماء الكبار، حيث يشرحون في تلك الخطابات ما فعلوه والسِّياسة التي اتبعوها. وكما ذكرت سابقا فإنَّ أهم هذه الخطابات وأكثرها بقاء هو خطاب الإمبراطور "أغسطس" الموجود على الجدار الداخلي لمعبد "أغسطس" في أنقرة، والمعروف باسم "تيستامينتوم أنكيرانوم"[65]، والذي يبدأ بالعبارة اللاتينية "ريس غيستا ديفي أوغستي"، ويُعتبر من الأمثلة اللامعة في الأدب السِّياسي. أما بالنِّسبة للتاريخ التُّركي القديم فإنَّ نقش "بيلكه خاقان"[66] يُعتبر مثالا جيدا.

يحتل "الخطاب" بلا شكٍّ مكانا استثنائيا بين المؤلفات التي تشرح فعاليات القادة السِّياسيين في القرن العشرين، فهو نقلٌ لأحداث انهيار الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى، وحرب المقاومة في الأناضول، ومجلس شعب تركيا الكبير، وفترة الانتقال إلى الجمهورية، من خلال إفادة القائد نفسه للنُّواب.

وعلى غرار الموقع الهام الذي اكتسبه "الخطاب" في تركيا منذ اليوم الذي طُبع ونُشر فيه، فإنَّه كان أساسيا في الأوساط العالمية التي تريد معرفة تركيا. وفي الواقع كانت بعض النُّسخ المترجمة منه إلى اللغات الأجنبية، مثل النُّسخة الرُّوسية التي قام بها "أ. ميللر"، أفضل وأوضح من النُّسخة التُّركية المبسطة.

والحديث حول "الخطاب" لا ينتهي، ولكنَّه بالتَّأكيد ليس النَّص التَّاريخي الوحيد للفترة ما بين 1919م و1926م، كما أنَّه ليس مثلما يدعي البعض وجهة النَّظر التَّاريخية الرَّسمية المفروضة من قبل النِّظام. بل كان عرضا تفصيليا لتلك الفترة، قدَّمه القائد العام والرئيس للمجلس، ويجب بالتَّالي قراءته وتقييمه من هذا المنطلق.

يقول البعض عن "الخطاب" إنَّه دفاع أتاتورك، ولكن هل هو مجرمٌ ليدافع أصلا؟! إنَّ من يخوض ميدان الدُّبلوماسية، وميدان القتال، ولا يتلقى هزيمة مطلقة ومؤكدة، هو القادر على معرفة الأحداث من وجهة نظره.

وهنا يجب الانتباه إلى الحقيقة بأبعادها، بدلا من البحث عن افتراءٍ يقلل من شأن الطرف الآخر، أو يعتم عليه.

وقد حصلت بعض الخلافات في تلك الفترة بين قادةٍ في حرب الاستقلال، وبالطَّبع ينبغي العودة إليهم لمعرفة سبب النِّقاشات والمشاحنات التي حصلت. فمؤلَّف "كاظم كارا بكر" المعنون بـ "حرب استقلالنا"، والذي بدأ يُطبع في الآونة الأخيرة، يوضع إلى جانب "الخطاب". وإذا كان هناك أحدٌ آخر قام بالكتابة أو ينوي الكتابة، فإنَّ مؤلَّفه يجب أن يظهر. إذ أنَّ الدبلوماسيون الذين كانوا يشاركون في تلك المؤتمرات، كان يتم بشكلٍ دائمٍ التَّعامل مع أفكارهم ومناقشاتهم.

الغازي مصطفى كمال باشا يقرأ خطابه الذي دام 36 ساعة و 33دقيقة من على كرسي المجلس في المؤتمر العام الثَّاني لحزب الشَّعب الجمهوري، 15 تشرين الأول/أكتوبر1927م

وبناء على كلِّ ما سبق أجد التَّقييمات الغائية حول "الخطاب" لا معنى لها. كما أريد التَّنويه إلى أنَّ التَّاريخ يُكتب أحيانا اعتمادا على المذكرات. رغم أنَّ المذكرات في تاريخ تركيا القريب هي النَّص الأضعف من أجل كتابة التَّاريخ، فهذه المذكرات ناقصةٌ ولا علاقة لها بالحقيقة ولا يمكن قياسها بـ "الخطاب". حيث إنَّ أولئك الذين كتبوا المذكرات، مثل "حسين جاهد"، لم يكن ما كتبوه من مقالاتٍ وكتاباتٍ متناسبا مع ما قالوه في الوقت الذي كانت تجري فيه الأحداث. لذلك فإنَّ كتابة التَّاريخ دون القيام بإجراء مقارنةٍ شاملةٍ هو خطأٌ فادحٌ.

هل أعطى وعدا للأكراد بالحكم الذاتي؟

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى كان هناك بين الأكراد مجموعاتٌ، على مستوى القمة والقاعدة، تفكر بالاستقلال وتتحمس له. وقد يُقال إنَّ رد فعل الأتراك على الجمهورية في العام 1925م كان لمعارضتها الشريعة في الأساس، ولكنَّ الأمر لم يكن تماما، إذ كان هناك ضمن تمرد "الشَّيخ سعيد" من يميل إلى القومية الكردية، وكان الدعم والأفكار تأتي من بعض أعضاء هذه المجموعة. ولكن في "حادثة ديرسم" (تونجلي حاليا) لم تكن "النزعة الكردية" هي الحاكمة بل كان تمردا محليا. كانت المسألة هناك هي عدم الإطاعة، ولا يمكن للجمهورية الشَّابة أن تظهر المسامحة في مسألةٍ تحولت من قضية تتعلق بالضرائب إلى مقاومةٍ.

من ناحيةٍ أخرى، يدَّعي بعض الأكراد أنَّه تم إعطائهم وعدا بالحكم الذاتي لكنَّ هذا الوعد لم يتم الوفاء به. وهنا يجب التَّوقف عند وعد الحكم الذاتي، فقد انتهى الحكم الذاتي في النِّظام "الفيدرالي" (الاتحادي) عام 1918م بانهيار الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية النمسا – المجر، كما انهار وانتهى ذلك النِّظام في روسيا أيضا بعد انهيار روسيا القيصرية، حيث تم تأسيس ما يسمى بالنِّظام الفيدرالي بالقوة وضمن نظام شيوعيٍّ شموليٍّ، وبالطَّبع لم تكن تلك فيدرالية، لأنَّ الفيدرالية السُّوفييتية كانت تعني النِّظام البوليسي والفكرة "الستالينية"، وكانت أداة حزبية أمام شعبٍ خانعٍ.

وهكذا لم يكن ممكنا لأيِّ سياسيٍّ واقعيٍّ أن يتحدث عن نظامٍ فيدراليٍّ بين العامين 1919م – 1923م. بينما كان الأرشيدوق رودولف، وولي العهد المقتول في بداية الحرب "فرانز فيرديناند" مؤيدين لفدراليةٍ أوسع. وفي هذا السِّياق نلاحظ أنَّ بعض رجال الحُكم تعلموا اللغات الموجودة داخل الإمبراطورية، فعلى سبيل المثال، كان "أوتو فون هابسبرغ" آخر ولاة العهد والصَّديق القريب من السُّلالة العثمانية، يعرف جيدا الألمانية والمجرية والكرواتية – الصربية والإيطالية، لأنَّه شبَّ على تلك الفكرة.

وبعد الحرب العالمية الثَّانية، حاول "تيتو" تطبيق الفدرالية اليوغسلافية، إلاَّ إنَّها لم تستمر وكانت نهايتها كارثية.

ونعود إلى موضوع الأكراد لنقول إنَّ مصطفى كمال وقادة الأركان مِن حوله في الأساس لا يمكن أن يعطوا وعدا جديا حول هذا الموضوع، وبالتَّأكيد لا يمكن قبول العبارات العامة على أنَّها وعودٌ جديةٌ. والأهم من ذلك أنَّه لا يوجد في فكر وعقيدة هؤلاء مكانٌ لفيدرالية كهذه.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كم يمكن للبحث في الواقع التَّاريخي والقانوني وفق الاعتبارات الذَّاتية أن يكون صحيحا ومقبولا؟

أستاذ التَّاريخ أتاتورك

ماذا رأينا من أتاتورك في مجال التَّاريخ؟ لقد رأينا مبادرة لتعليم التَّاريخ بشكلٍ مختلفٍ ولأهداف مختلفةٍ. حيث أراد أن يكون للأمة التُّركية اعتبارٌ في هذه الأرض بين الدول الكبرى، وأن يكون لها حقٌ في التَّواجد على المنبر مثل باقي الدول، وهو حقٌ عليها أن تحميه كما تحمي جميع حقوقها، وأولها نظام الحقوق في البلد. وهذا كله لأنَّ أتاتورك شخصٌ قوميٌّ.

دعونا نجيب عن السُّؤال حول مسألة وجود الأمة واعتبارها. فنقول إنَّه يجب على الأمة أن تتحكم بالمكان والزَّمان لكي تحمي اسمها ووجودها. وعلى شعب هذا البلد أن يبدأ من علم آثار بلاد ما بين النَّهرين إلى أن يصبح مختصا بالتَّاريخ العالمي. ونحن لا نقصد هنا أنَّنا نجهل هذه المواضيع ولكنَّنا نقصد أنَّه يجب تعليمها عن طريق المختصين وليس عن طريق الكتب المترجمة. كما أنَّ شعب هذا البلد ينبغي عليه – إذا أراد معرفة ما يجري في الدنيا – أن يتعلم جغرافيا العالم كله وليس جغرافيا بلده فقط.

ومن المؤكد أنَّ التَّعليم لا يقتصر على دراسة الهندسة والطِّب، بل يجب أن يتم تعليم التَّاريخ وعلم الآثار وعلوم اللغة والفنون الجميلة والموسيقى والأوركسترا والبالية، ويجب إرسال الطلاب إلى الخارج ليتعلموا الموسيقى الغربية، وتقديم المنح لهم.

كما يجب إنشاء دور الأوبرا، فالأوبرا كانت مسموعة في الإمبراطورية العثمانية، وحتى الإمبراطور كان يشاهد الأوبرا والفرق الموسيقية.

وكانت الأحزاب المعارضة تُدعى لحضور حفلات الأوبرا، وكانت منطقة "بي أوغلو" تضم عدة مسارح. ولكنَّ إنشاء مؤسسة للأوبرا التُّركية سيكون أمرا مهما، وقد وضع أتورك حجر الأساس لهذا عبر إنشاء المعاهد الموسيقية. وقبل ذلك تم تطوير مكتبة الموسيقى، ودعمت الدَّولة مؤسسات ومعاهد المسرح والفنون والموسيقى. كما كانت مسألة تطور البرامج الموسيقية في روسيا خلال القرن التَّاسع عشر موضوعا تتم دراسته في تركيا العثمانية.

وقد أحضر أتاتورك المسرحي كارل إيبرت[67] كي يؤسس مسرحا للأوبرا وسأله: "هل تستطيع أن تنهي المسرح في خمس سنوات؟" فأجابه: "سيكون ذلك صعبا" فشعر أتاتورك بالحزن، إلاَّ إنَّه استمر بدعمه وتقديم التسهيلات له، لكنَّ العمل لم ينتهِ إلاَّ بعد وفاة أتاتورك. وهكذا كان أتاتورك بالنسبة لتركيا هو كالذي أشعل النار وسط السُّهوب.

وعلى الصَّعيد الأكاديمي قام بإعادة تشكيل كلية الأدب الفرنسي وكلية الفلسفة الألمانية تحت اسم كلية اللغة والتَّاريخ والجغرافيا. وكان الأكاديميون الذين هربوا من ظلم هتلر يشكلون كوادر مفيدة للكلية في إسطنبول وأنقرة. وعندما لم تكن هذه الكلية تمتلك مبنى مستقلا، فتح لهم عام 1935م بيت الشَّعب (بيت الأتراك) والمسرح، كما أعطيت الدُّروس في بناء الأوقاف (اليوم في مكان المسرح الصغير). وفي الواقع كانت هذه الكلية هي نواة الجامعة التي تأسست لاحقا عام 1940م. أما البناء الجديد للكلية فكان من تصميم المعماري برونو تاوت[68].

ويجب هنا التَّأكيد على الأمر التالي: الحضارة التُّركية هي حضارةٌ قادرةٌ على تبديل نفسها ونقد ذاتها وقادرةٌ كذلك على التَّكيف، فقد تبدلت على امتداد رقعةٍ جغرافيةٍ واسعةٍ خلال فترةٍ قصيرةٍ واستطاعت أن تتكيف مع هذا التَّبدل بالتوازي مع تغير قواعد أساسيةٍ عديدةٍ. ولذلك يتم النَّظر إلى التَّاريخ التُّركي في القرن العشرين على أنَّه ما يزال يحافظ على زخم العصور القديمة.

في يوم 19 حزيران/يونيو عام 1934م كان لشاه إيران محطة توقفٍ طويلةٌ في أنقرة خلال جولته التُّركية. فقد كانت هناك أيديولوجيةٌ مشتركةٌ بين أتاتورك والشَّاه رضا البهلوي. وسبق أن كانت هناك منافسةٌ ممتدةٌ تاريخيا بين تركيا وإيران، لكنَّهما وقعا اتفاق سعد أباد[69]. وقد كان لدى القائدين طموحٌ في تطوير التَّعليم والموسيقى وخط سكة الحديد اقتداء بالغرب، حيث خطا الشَّعب الإيراني خطواتٍ مهمة في الشَّأن الثَّقافي خلال تلك السُّنوات، تمثلت في تدريس الموسيقى وإنشاء دور الأوبرا وتأسيس فرقٍ سيمفونيةٍ والاهتمام بالنَّحت والرَّسم. وبالمقابل قام أتاتورك بدعم دخول فن الأوبرا إلى الدَّولة، وافتتح بيوت الشَّعب التي أخرجت شخصياتٍ مثل منير خيري وعدنان ساي غون[70]، وشجع تلحين الأوبرا ذات الفصل الواحد، وأرسل الفنانين إلى الخارج مثل سميحة بيركسوي[71] التي أتمت تعلم الأوبرا في ألمانيا، ثم عادت لتعمل في بلدها.

ونذكر هنا خطاب أتاتورك الافتتاحي لمجلس الأمة عام 1934م حيث قال: "يجب التَّعامل مع القواعد العامة للموسيقى لكي تجمع المشاعر الوطنية، وبهذا الشكل فقط نستطيع أن نتقدم

بالموسيقى الوطنية التُّركية، ونستطيع أن نثبت موقعنا بموازاة الموسيقى العالمية". وقد دخلت تركيا بالفعل مرحلة تحولٍ كبيرة في فنون المسرح والأوبرا، وعن هذا التحول قال عالم الاجتماع الألماني رالف داهريندوف بعد 50 عاما، خلال برنامجٍ تلفزيونيٍّ عند سماعه ذكريات سميحة بيركسوي: "ماذا يظن جيسكار[72] وكول[73] أنفسهم؟ لقد حققت تركيا هذا التحول قبل زمنٍ طويلٍ".

وكان من الأمور المهمة في تلك السنوات لجوء بعض الأشخاص إلى تركيا هربا من ظلم هتلر. ونذكر هنا صديق ويلهام كيمبف الموسيقي الموهوب إدوارد زاكمخير الذي هرب من ألمانيا، فقط لأنَّه يهوديٌّ. وهو لم يعد إلى ألمانيا مطلقا، فقد أخذ الجنسية التُّركية وعاش ومات في غرفةٍ بالمعهد الموسيقي.

والأكثر غرابة قصة "باول هندمث" الذي لم يكن يهوديا، بل كان بحسب التعبير النَّازي "صديقا مقربا من النَّازية"، وكان من المثير للاستغراب أن يضطر للدفاع عن نفسه أمام النَّازية. حتى أنَّ رئيس أوركسترا هتلر "وليام فورتوانغير" دافع في مقالةٍ بالصَّفحة الأولى من صحيفةٍ ألمانيةٍ يوميةٍ عن هندمث بأنه ضد النَّازية. ولكنَّ هندمث لم يعد مرتاحا في ألمانيا النَّازية، فأتى إلى تركيا وأقام فيها. وقد لعب دورا كبيرا في تدريب الملحنين وإدخال 12 نغمة جديدة إلى تركيا. حيث كانت أنقرة هي المقام الأول الذي وفر له الهدوء، وغذته من النَّاحية المادية والمعنوية.

وفي الحقيقة فإنَّ الطلاب الذي نشأوا في المعاهد التعليمية التي أسسها الغازي قد أغنوا المسارح ودور الأوبرا لعقودٍ طويلةٍ. كما أنَّهم خلدوه في أعمالهم.

ومن المفارقات أنَّ الموسيقى الكلاسية التُّركية التقليدية عاشت عصرها الذَّهبي خلال ثلاثينيات القرن الماضي في إسطنبول والشَّرق الأوسط، بينما يقول البعض إنَّها الفترة التي مُنعت فيها الموسيقى. وفي الحقيقة كانت فترة استمع فيها الشعب إلى المغنين والمغنيات الأكثر تميزا في الملاهي والحدائق الكبيرة، وانحنوا باحترامٍ أمام الملحنين.

وكانت تشانكايا مكانا تُقام فيه حفلات الموسيقيين الغربيين الكلاسيكيين ومطربي الأوبرا، من أمثال سميحة بيركسوي ونور الله شوكت تاشكران وصفية ايلا وآخرين. ونقتطف هنا عبارة لمراد برداقجي يقول فيها إنَّه خرجت في ثلاثينيات القرن الماضي ثلاثة أصواتٍ نسائيةٍ قويةٍ في

حوض البحر المتوسط، وهنَّ أم كلثوم في مصر وأديث بياف في فرنسا وأماليا رودريغيش في البرتغال بالإضافة إلى صفية إيلا في تركيا. وكان الناس في كل مكانٍ يستمعون لهؤلاء الأربعة.

إنَّ الغرب لم يقترب من الشَّرق بالتَّأكيد، ولكنَّ الموسيقى الغربية دخلت إلى حياتنا.

إدراك التَّاريخ

على عكس اعتقاد البعض لم يستخدم الفكر القومي التُّركي التَّاريخ التُّركي كوسيلة تعلُّمٍ، رغم زعم البعض بأنَّ التَّعليم في مدارسنا تعليمٌ فاشستي وبأنَّ كتبنا التَّاريخية قادت الناس بشكلٍ أعمى نحو القومية. ولكن عندما نقرأ العناوين في كتبنا المدرسية الإعدادية والثَّانوية، نجد بأنَّ هذا المفهوم ضعيفٌ وغير منطقيٍّ.

وعلى عكس التَّعليم الرُّوسي والأوروبي فإنَّنا نلاحظ ضعف تعليم التَّاريخ في تركيا، وهذا التَّعليم يستند على أدبياتٍ ضعيفةٍ، وهو نمطٌ يتجاهل تاريخ العالم. والسُّؤال هنا كيف يمكن أن يكون للأتراك شعورٌ بالهوية الوطنية مع هذا النَّوع من تعليم التَّاريخ؟

لقد حدثت تغيرات كثيرةٌ على هذه الرقعة الجغرافية، وتكوَّن وطن الأتراك عبر الهجرات والحروب المهمة والانتصارات والانسحابات وخسارة الأراضي. وإذا كنا لا نعرف هذا التَّاريخ، فذلك لا يعني أنَّه غير حقيقيٍّ، فهو حقيقيٌّ، وهو الحياة التي جئنا منها وكبرنا معها كأمةٍ وثقافةٍ.

أتاتورك والجغرافيا

لدينا نحن الأتراك ضعفٌ عامٌّ في الجغرافيا وفي المعرفة بالخرائط، وهو أمرٌ ينسحب على المرحلة الجامعية، حيث لا يعرف بعض طلاب الجامعة الخريطة ولا يملكون القدرة للتعليق عليها. ولذلك نحن بعيدون عن التَّفكير الجغرافي، والمؤرخون لدينا يعملون بدون جغرافيا، ولا يتجاوز عملهم قراءة النُّصوص ونسخها وجمع الأوراق التي وجدوها. وبالتَّالي لا يمكن لعملهم حتى ولو كان أصليا أن يُشكِّل عملا تاريخيا مقبولا من أحد.

ومن المؤكد أنَّ الشخص الذي لا يعرف التَّاريخ هو أميٌّ بطريقةٍ ما، كما أنَّ المؤرخ لا يمكن أن يكون مؤرخا من دون الجغرافيا. فعلى سبيل المثال لن يخطر في باله السُّؤال التالي: بما أنَّ البيزنطيين هم خلفاء الإمبراطورية الرومانية في الشَّرق، فكيف تنازع البيزنطيون مع البيزنطيين على الأرض؟

يجب في علم الجغرافيا معرفة الشُّروط الفيزيائية، أي الأشكال على الأرض، ومعالم الأقاليم، قبل كلِّ شيءٍ. كما ينبغي أن يكون لدينا علمٌ كافٍ في الفروق بين الأقاليم كي نفهم التَّواصل بين الأقاليم. ولا يمكن لأي شخصٍ جاهلٍ بهذه الأمور أن يكون مؤرخا. ولكن القراءات التُّركية للعصور الماضية لا تمتلك مع الأسف هذا النَّوع من المعرفة ولا تلك الأساليب.

ومن هذا المنطلق فإنَّ أتاتورك، القائد الذي أراد أن يبني تركيا (تلك الدولة التي لا تمتلك معلوماتٍ عن التَّاريخ) قام بتنظيم جامعتي أنقرة وإسطنبول وأسس كلية اللغة والتَّاريخ والجغرافيا، لأنَّه استطاع أن يرى بشكل واضح عدم إمكانية كتابة تاريخٍ من دون لغةٍ ومن دون جغرافيا. وقد بدأ هذا العمل في ثلاثينيات القرن الماضي، أي أن هذه الكليات بدأت تستقبل الطلاب قبل أن يموت بفترةٍ قصيرةٍ، حيث كان العام 1935–1936م أول عامٍ دراسيٍّ. وكان من أوائل المجازين في التَّدريس خليل إينالجك ومعزز ألميه.

ولتفصيل الحديث عن جامعة أنقرة نبين أنَّها لم تبدأ على صورة جامعةٍ كاملةٍ، بل كان هناك مدرسة السِّياسة وقبلها معهد الزراعة، وفي العام 1925م وخلال فترة الثَّورة الحقوقية تم إنشاء مدرسة الحقوق، ولكنَّها لم تكن كلية حقوقٍ قادرة على إحداث ثورةٍ حقوقيةٍ، ثم بدأ تدريس الحقوق على يد اللاجئين الألمان. وفي العام 1940م جرى جمع كل هذه الكليات وتأسيس جامعة أنقرة، وكانت الكلية الأهم هي كلية اللغة والتَّاريخ والجغرافيا. وقد مُنحت مكتبة هذه المؤسسة مبلغا كبيرا من الخزينة، كما تم استحداث شُعبٍ للمواضيع التي لها علاقة باللغة والتَّاريخ والجغرافيا مثل علوم ما قبل التَّاريخ والجيولوجيا وعلم الآثار.

وبالطَّبع فإنَّ من يقوم بكل هذه الأمور، سوف يتسابق على المركز الأول بين الدُّول المتطورة في المجال العلمي. وقد يكون من الطبيعي للأمة أن لا تمتلك صناعة، وأن يقتصر نشاطها التِّجاري على تصدير التِّين والعنب والتَّبغ والحبوب فقط، ولكنَّ المهم أن تعرف تاريخا وجغرافيتها.

والجدير بالذِّكر أنَّه بالإضافة إلى الطلاب الذين أُرسلوا لدراسة الهندسة والإذابة والتعدين، كان يوجد طلابٌ يُرسلون لدراسة التَّاريخ البيزنطي. والواقع أنَّه يجب أيضا دراسة التَّاريخ الغربي والفلسفة الغربية، لأنَّه من دون هذه الأمور لا يمكن كتابة تاريخٍ صحيحٍ لتركيا. وكما ذكرنا بشكلٍ مفصلٍ سابقا، فإنَّ تركيا رغم كونها بلدا يعيش أهله في قرى مغلقةٍ، استطاعت أن تحقق النَّجاحات بعد الحرب العالمية الثَّانية.

ولكن من أين أتت عوامل هذا النجاح؟ كانت هناك مدارس باقيةٌ من الإمبراطورية، وأضافت الجمهورية كلية اللغات والتَّاريخ والجغرافيا ومعاهد الزِّراعة، وعبر ذلك كله ظهر مثقفون جدد.

أتاتورك، وعلم الآثار والمتاحف

يوضح عالَم القرن التَّاسع عشر المحيط الذي كبر فيه مصطفى كمال، فهو تعلم الفرنسية في المدرسة ولكنه استطاع أن يطور كتابته ومحادثته في الفرنسية بواسطة علاقته مع عمر لطفي وزوجته الفرنسية كورينه لطفي، وكانت لغته جيدة مثل جميع الملحقين العسكريين. وكان معتادا على سماع الفرق الموسيقية وحضور الحفلات الموسيقية والرقص في أماكن معينةٍ في إسطنبول. وإضافة إلى اطلاعه على عادات الثَّقافة الغربية خلال وجوده في إسطنبول وسلانيك، فإنَّه كان يراكم معارفة عبر زيارة المتاحف والأماكن الأثرية الموجودة.

ومن تلك الأماكن كنيسة أيا أريني التي كانت تابعة للجيش وتُستخدم مستودع أسلحةٍ، وقد قام "فتحي أحمد باشا" مدير "توب خان"(وهو جد الشَّخصية المعروفة سرمد مختار آلوس) ببناء أول متحف للآثار في ذلك المكان بالإضافة إلى بناء مكتبةٍ ووقفٍ. وكان متحف الآثار الذي بناه ألكساندر فالاوري عام 1894م ولا يزال يحتوي على مكتبة أبحاثٍ غنيةٍ جدا، والواقع أنَّ الذي دعم هذه المكتبة هو الصَّدر الأعظم أحمد جودت باشا، حيث تبرع بكتبٍ باللغات الأوروبية الأربعة. وقد كان قائدا متعلما، وعُين في عمر صغير كماريشالٍ وصدرٍ أعظم، وكانت لديه أبحاث في الرياضيات باللغة الفرنسية، وعرف الأدب في تلك المرحلة، كما قام بأبحاث جديدةٍ عن تاريخ الجيش العثماني. وبالمحصلة كان شخصا يملك الصِّفات المدنية والعسكرية، والملفت للانتباه أنَّه كان يفحص البقايا الأثرية في الأماكن التي يسافر إليها حول العالم.

كانت العمارة القديمة والأبنية التي بناها المعماريون مثل المعمار سنان تلفت انتباه أتاتورك وتلهمه. وانطلاقا من النَّهج الواعي الموجود في القرن التَّاسع عشر، بالإضافة إلى التَّراكمات المكتسبة من الوسط الذي نشأ فيه، كان لدى مصطفى كمال باشا، مؤسس جمهوريتنا، اهتمامٌ بعلم الآثار وخطواتٌ لترسيخه.

ولا بدَّ من الحديث هنا عن كيفية انتقال هذا الميراث لنا. ونبدأ من النُّقطة الأهم وهي تدريس علم الآثار في دار العلوم العثمانية، التي أصبحت عام 1900م جامعة إسطنبول، والتي كانت قبل ذلك في العام 1840م مدرسة للمعلمين والمعلمات، حيث كان تعليم علم الآثار يتم في متحف عثمان

حمدي بك وأخوه خليل أدهم. وقد نشأ أول علماء الآثار الأتراك وهم عزيز بك ورفاقه في هذا الوسط، بل إنَّ مدير متحف "توب كابي" تحسين بك نشأ كمساعدٍ في علم الآثار في هذا المتحف وفي المكتبة التي ذكرتها أعلاه.

أما الذي جعل الآثار علما في الجامعة فهي الجمهورية التُّركية وبتعليماتٍ من أتاتورك، فخلال إصلاحات الجامعة عام 1933م تمت إضافة هذا الفرع إلى كلية الأدبيات في جامعة إسطنبول وإلى كلية اللغة والتَّاريخ والجغرافيا في جامعة أنقرة. وكان علماء كثر قد تركوا ألمانيا ولجأوا إلى تركيا في تلك الأثناء خلال عهد هتلر لأنَّهم لم يكونوا قادرين على إيجاد عملٍ إلاَّ في تركيا، وقد أتم هؤلاء أهم فرع في علم الآثار وهو علم اللغة التَّاريخي، لأن العثمانيين كانوا ضعفاء بشكلٍ كبيرٍ في موضوع علم اللغة التَّاريخي، وهو نقصٌ تُرك للجمهورية كي تتمه.

أما شكل مبنى الكلية في إسطنبول، والذي بناه سدات حقي أدهم بيك فقد تغير بعد ذلك على يد المعماري الألماني برونو تاوت. ويُعتبر مبنى كلية اللغة والتَّاريخ والجغرافيا المزين بالعمارة البرلينيه من أكبر الأبنية. ونذكر هنا أنَّ هذا المعماري له أبنيةٌ في دوشنبه وإسطنبول وأنقرة، وتحمل أبنيته ميزات خاصة، حيث نرى أشياء مختلفة من كل زاوية. وسنقوم بتقييم برونو تاوت وآثاره في الأجزاء القادمة.

المعماري الألماني برونو تاوت، آخر عمل له هو نعش أتاتورك .وعند قيامه بهذا العمل أصيب بالمرض بسبب الهواء البارد جدا بأنقرة .وكان أول أجنبي يُدفن في مقبرة الشُّهداء بإسطنبول بمنطقة أدرنة كابي

توجد بعض الآثار المنشورة من زمن الجمهورية عن علم الآثار. وأول عمل هو من الذاكرة لجوشكون اوزغونيل وويندي م. ك. شاو، إضافة إلى مقالاتي ذات الشكل الأقرب إلى الشَّعبي.

لقد بدأ بناء المتاحف في تركيا منذ عامي 1922م و1923م. ولكن الآثار الكبيرة بدأت بعد عام 1924م. ففي أنقرة بني متحف الهتت للآثار، وبعد مدة بُني متحف الأنثروبولوجيا، كما تم لأول

مرةٍ إقامة متحفٍ للطرق وهو متحف قونيا. ومن المؤكد أنَّه لا يمكن تعداد المتاحف كلها.

وبالتَّرافق مع بناء هذه المتاحف بدأ التنقيب عن آثار الأتراك. وبالطَّبع فإنَّ القسم الأكبر من الآثار تم نقله إلى فيينا، ولكنَّ الأمر تبدل بالنسبة للتنقيب في إفس حيث تم الاحتفاظ بالآثار.

وأذكر هنا أنَّ أول مدير لمتحف الأنثروبولوجيا الوصفية كان "حميد زبير كوشاي"، وكان الثَّاني هو خير الله أورس. كما أنَّ المدير العام والمشرف الأعظم للمتاحف التُّركية عيَّن نفسه مديرا لمتحف "توب كابي"، بدلا من منصبه كمدير عامٍ للمتاحف. وهم جميعا نموذجٌ للعلماء الذين يقولون: "دعونا نعمل".

وقد لاقت هذه الأعمال عند البدء بها صدى كبيرا في الأوساط العلمية، وأضفت على تركيا مظهرا جديدا في هذا المجال. وهكذا وصلنا إلى ثلاث إنجازاتٍ وهي: أولا علم اللغة التَّاريخي، وثانيا بناء المتاحف، وثالثا بدأنا نقوم بالحفريات بشكلٍ مباشر.

ومع الوقت أصبح عدد مواقع التَّنقيب في الأناضول كبير جدا، فكنا نعطي الإذن أحيانا للهيئات الأجنبية على أن تعمل معنا بشكلٍ مشتركٍ، أو تحت إشرافنا. كما تركنا التنقيب في بواز كوي للألمان.

وبناء على كل ما ذكرناه نجد أنَّ علم الآثار في ثلاثينيات القرن الماضي كان مهما جدا. فالدَّولة التي كانت تعيش على الزِّراعة حينها أخذت تبتعث الطُّلاب إلى الخارج لدراسة علم الآثار وعلم اللغة التَّاريخي إلى جانب الطلاب المبتعثين لدراسة الهندسة والطِّب والزِّراعة والمعادن.

وقياسا على مستويات تلك الفترة نلاحظ أنَّ المبالغ المخصصة لذلك كانت كبيرة، بالإضافة إلى المبالغ المخصصة لأعمال الحفر وإنشاء مراكز التَّعليم العالي في أنقرة وإسطنبول، وتخصيص كادرٍ علميّ خاص للآثار وعلم اللغة التَّاريخي. وربما كان هذا أمرا غريبا في ذلك الوقت، لكنَّ فهم هذا الأمر أصبح اليوم أكثر سهولة.

الغازي مصطفى كمال باشا في إزمير في الشعب والفنانين1928

إنَّ النَّهب الذي قام به الجيش الأمريكي لمتاحف بغداد عند دخوله إلى بغداد، والسَّرقة التي حصلت لمتحف القاهرة خلال أحداث ميدان التحرير في مصر، والتَّهريب الذي يتم يمينا ويسارا، والتَّخريب الوقح للمعالم الأثرية، كلها أمورٌ تفسر ضرورة الاهتمام بعلم الآثار.

ونرى اليوم كيف يتم نصب ناطحات سحابٍ بشعة بجوار أهرامات القاهرة، رغم التَّخريب الذي تسببه للبيئة والطَّبيعة المحيطة بالمعالم الأثرية. وللأسف فإنَّ تركيا تسير الآن على الدَّرب ذاته.

إنَّ هذا يوضح كم كانت الكمالية محترمَة في مفهوم السِّياسة الثَّقافية، وكم كانت تُظهر غيرة على هذه الأمور.

أتاتورك والتَّغريب (الانحياز للغرب)

يسير التَّغير الثَّقافي في تركيا منذ قرنٍ مع مفهوم "الغرب". ولكن ماذا يعني الغرب؟ هل نستطيع القول بأنَّ التَّغير الثَّقافي للأتراك مأخوذٌ من الغرب المسيحي أم الغرب الأوروبي؟ لقد احتوى الغرب المسيحي منذ عصورٍ على عناصر معاديةٍ التطور الثَّقافي والحضاري. ومن الأمثلة على ذلك مغامرة الكنيسة في التَّاريخ، عندما ناصبت العداوة للعلم والثقافة، فهذه المؤسسة كانت بداية تأخذ دور الحامية، ثم منعت الفكر بطريقةٍ مهذبةٍ، وفي النِّهاية أخرجت العلم والثَّقافة تماما من الحياة. وهكذا تطورت حضارة الغرب رغما عن الغرب المسيحي، مع الاستناد إلى الأساسيات

المسيحية. ونوضح هنا أنَّ ما نقصده بالغرب هو الجذور الغربية، أي الحضارة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة والعبرانية مجتمعة مع الحضارة الإسلامية التي وجدت جميعها قبل الغرب الذي نعرفه اليوم.

إنَّ معنى علم الغرب هو الذهاب للمتون ومعرفة هذه الثَّقافات.

كيف كان يتم الحديث في تركيا عام 1930م على العالَم الذي يُدعى أساس وحضارة التَّاريخ التُّركي؟ في واقع الأمر لم يجرِ تشبيه مفهوم الغرب المسيحي مع مفهوم الغرب الأوروبي، بالذَّات في كلية اللغة والتَّاريخ والجغرافيا. وعندما نلقي نظرة على الأمر نجده ينحو باتجاهٍ عالميٍّ، فالعالمية بكل جوانبها هي في عمق التَّاريخ التُّركي والثَّقافة التُّركية، فهذا التَّاريخ وتلك الثَّقافة يمتلكان (على نحو ما يمتلكه الغرب والشَّرق) مفهوما واسعا لا يمكن حصره ضمن رقعةٍ جغرافيةٍ صغيرةٍ.

والواقع أنَّ الحضارة التُّركية يُنظر إليها على أنها منتشرةٌ في الأزمنة والأماكن ولا ترتبط بواحدٍ فقط من تلك الأزمنة والأماكن، كما أنَّ الثَّقافة التُّركية يُنظر إليها أيضا باعتبارها ممتدة عبر الأزمنة والأماكن.

وقد كان موقف تركيا في التَّغريب من الدِّيانة المسيحية موقفا إقصائيا. لأنَّ أول أمرٍ بمرحلة التَّغير الثَّقافي هو تناول الثَّقافة الغربية منفصلة عن الدِّين في الغرب، وقد كانوا محقين في ملاحظاتهم على هذا الموضوع.

لا بدَّ من التَّأكيد على أنَّ مجلس الأمة الذي جاء في عام 1923م لم يقصر عمله على التَّجديد، بل غيَّر النِّظام. فالسَّلطنة انتهت وحلت مكانها الجمهورية، والدَّولة لم تُلغَ بل استمرت، وجرى فقط تبديل النِّظام.

وبعد أن كان الآخرون يقولون لنا من قبل: "تركيا"، أصبحنا ولأول مرة نقول لأنفسنا: "تركيا".

ولكنَّ الذي حصل بعد عام 1923م مهمٌ جدا. فمصطفى كمال باشا جلب القانون المدني، وموضوع الانتقال إلى الحرف اللاتيني. وفي هذه الفترة تمت إصلاحاتٌ كبيرةٌ في الاقتصاد والتَّعليم والصحة. وبالطَّبع فإنَّه يجب القيام بالتَّجديد كل مجتمعٍ لأنَّه من دون تجديدٍ لا يمكن لأيِّ مؤسسةٍ أن

تعيش. وقد تبدل المجتمع التركي بالفعل مع الجمهورية التُّركية. حيث لم ندخل إلى الحرب العالمية الثَّانية، وحققنا خطواتٍ وإنجازاتٍ أسسنا من خلالها صناعة جديدة. وفي الواقع كان علينا منذ قرنين أن نتعلم تقنياتٍ وعلوما جديدة كي نستطيع الدُّخول في حربٍ بمواجهة الجيوش الأوروبية. ولذلك تعلمنا وطورنا أنفسنا، ولم نتغرب من أجل التَّغرب فقط، بل تبنينا نمط المؤسسات الغربية من أجل أن نقف على أقدامنا، وما زلنا مستمرين في ذلك. واليوم ينبغي العمل وفق قواعد محددةٍ لتجنب مشاكل الغرب والشَّرق، إذ يمكن لنا (على خطى الثَّقافة الغربية) أن نأخذ منحى الثَّقافة العالمية عن طريق دراسة المراجع والعمل على حركة مكثفةٍ من الترجمة والأبحاث على المدى الطَّويل.

وفي سبيل ذلك عمل أتاتورك على تشجيع الأتراك عام 1930م على الاهتمام بمواضيع مثل اللغة والتَّاريخ، ولكنَّ هذا الأمر لم يستمر بعده بنفس الكثافة والتَّطور. وفي الحقيقة يمكن القول بأنَّ تركيا توجهت منذ قرنين إلى العلوم الغربية مثل الطِّب والهندسة والرياضيات والفيزياء وغيرها، ولكن لا يمكن القول بأنَّها أخذت نفس التَّوجه بخصوص علومٍ مثل اللغات القديمة والتَّاريخ والحقوق.

ونؤكد أنَّه من أجل مجتمعٍ يصنع أفكاره، يجب أن ينصهر تاريخ الحقوق وتاريخ اللغات القديمة مع الحقوق بشكلٍ مستمرٍّ. ويجب أن يكون هناك نشاطٌ للمثقفين لتوجيه فهم الثَّقافة الوطنية والشُّعور التَّاريخي والتَّفكير المنهجي للشَّعب.

ثورات أتاتورك

كان أتاتورك يقول في خطاباته "دولةٌ جديدةٌ، مجتمعٌ جديدٌ"، وهذا المجتمع ليس بالمعنى الذي نستخدمه نحن اليوم، أي الجمعية أو المجتمع، بل هو استقطاباتٌ وفق نمط دوركايم وتونيز. فالاستقطاب بالتعبير السوسيولوجي هو الانتقال من الجماعة ومن القبيلة إلى حياة المجتمع المعاصر دون الصُّعود فوق مستوى القبيلة.

ويمكن القول بأنَّ هذين النمطين هما ضد بعضهم البعض بشكلٍ واضحٍ. فالمجتمع الجديد من خلال عقليته وحركته وطريقة تنظيمه والتَّطلعات المختلفة يقود إلى دولةٍ جديدةٍ.

والدَّولة لم تختفِ أصلا، ولم يُعلن ذلك بشكلٍ رسميٍّ وواضحٍ، لأنَّها استمرت بكل مؤسساتها. وأمر استمرار الدولة وعدم توقفها وقدرتها مهمٌ من النَّاحية الحقوقية.

ومن المؤكد أنَّ تركيا تبدلت، ولم يكن ذلك تحولا عاديا، بل تغييرا جذريا. لأن هذه الإمبراطورية والقسم الغربي منها كانت بحالة تراجعٍ منذ 200 عامٍ قبل ذلك التَّاريخ. وكانت هناك خسارةٌ للأرض ولكنها كانت في حقيقة الأمر تصفية للإمبراطورية. وفي الأساس كان يعيش في القسم الغربي من الإمبراطورية (الروميلي) شعبٌ تركيٌّ ويتحدث التُّركية، وكان المسلمون يعيشون في نفس المكان، وذلك المكان هو موطنهم الأصلي جميعا.

وقد كان خروج المنطقة من أيدينا بسرعةٍ في حروب البلقان بمثابة الانهيار لمجتمعنا، ما زلنا ندفع نتيجته إلى الآن. فمنطقة الروميلي منطقةٌ مباركةٌ، إذ يوجد فيها سهل الفاردار وهو موقعٌ زراعيٌّ مهم جدا، كما كان يوجد خطٌّ حديديٌّ قبل تغير المواصلات، ورغم أنَّها لم تمتلك صناعة كبيرة إلا أنَّه كانت توجد حركة للمعامل. ونعلم أنَّ الإمبراطورية العثمانية كان متأخرة عن إنكلترا وألمانيا وحتى عن النمسا وروسيا، ولكن في القرن التَّاسع عشر والقرن العشرين أصبحت بين الدول الصناعية. وكانت البداية أولا مع توجه الصِّناعة للجيش وكذلك إنشاء مصانع بدائيةٍ وصغيرةٍ، ومع الوقت بدأ التَّوجه إلى الغذاء، وأصبحت هناك آلاتٌ حديثةٌ وصناعةٌ ولكن بقيت الدولة بمعظمها زراعية.

والواقع أنَّ خسارتنا للمعامل التي أُنشأت في "الروميلي" عام 1912–1913م، تسببت لنا بنكسةٍ.

مصطفى كمال باشا، في غابة الغازي عام1929

وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، وخلال بضعة سنين فقدنا لبنان وسوريا، واللتين كانت فيهما مناطق غنيةٌ بشكلٍ مختلفٍ. حيث كانت أهم مدينتين خارج إسطنبول في الإمبراطورية

العثمانية هما بيروت وسيلانيك، وقد خرجت هاتان المدينتان المباركتان من أيدينا فجأة. إضافة إلى فقداننا مدينة مهمة مثل الإسكندرون. كما أنَّ بورصة وإزمير كانتا ستخرجان عن السيطرة أيضا.

لقد أسس القادة الشَّباب لحرب الاستقلال دولة على هذا الميراث الحزين، وكانت هناك حاجةٌ لتجديد الطَّريق، ليس من الجانب المادي فقط بل من الجانب المعنوي أيضا.

ثورة الحقوق

قامت عام 1926 الثَّورة الحقوقية المتمثلة في الانتقال إلى النِّظام الغربي، ومع قبول القانون المدني أُطلق على هذا العام اسم فترة الحقوق، وهو اسمٌ يحمل معاني التَّكلف.

وفي الواقع أُدخلت بعض مواد النِّظام الحقوقي الغربي اعتبارا من فترة التَّنظيمات في الدَّولة العثمانية، بينما اشتُقت موادٌ أخرى من بنود اتفاقية كارلوفتشا عام 1699م، عندما أصبح المعيار العام لنظام الحقوق في العالم هو المعيار الأوروبي، أي أنَّه اصبح مهما الانتقال إلى نظام هوغو غروتيوس. إذ لا يمكن الانتقال إلى نظام الحقوق كما كان عند روما في يومٍ واحدٍ.

وكان النِّظام الجزائي قد أُخذ من فرنسا في فترة التَّنظيمات، وتم تطبيق قسمٍ منه دعاوي الموظفين. أضف إلى ذلك أنَّه أصبح لا مفر من اعتماد قانون التِّجارة والتِّجارة البحرية. كما أنَّ عددا كبيرا من المواضيع بما فيها الحقوق الإدارية تمت ترجمتها ودخلت حيز التَّنفيذ. وتلك القوانين لا يمكن تطبيقها بأيِّ شكلٍ بالتَّقاطع مع القوانين الإسلامية اليوم، إذ تنبع المشكلة من تبني القانون المدني، ولكن سبق أن كانت هناك تجارب لتطبيق القانون المدني حتى في زمن الإمبراطورية. فقانون حقوق العائلة تم تنفيذه في مرحلة المشروطيات الثَّانية، ولكن إيقافه من قِبل المحافظين خلال الحرب العالمية الأولى. وكان أحد بنود هذا القانون على سبيل المثال ينص على وجوب إجراء عقدٍ بين الزَّوج والزَّوجة قبل الزَّواج.

وبرأينا فإنَّ أهم ثورة تمت هي ثورة الحقوق، وقبول القانون المدني، لأنَّ تركيا دخلت مع ثورة الحقوق طريقا جديدا لا عودة فيه. ويمكن القول بأنَّه تم من خلال هذه القوانين المحافظة على التَّقاليد.

وقد جرى تطبيق القانون المدني في العام 1926م بناء على الحاجة الضرورية إليه. فخلال فترة الإمبراطورية كان هناك نظام حقوقٍ شرعيٍّ ونظاميٍّ. وبعد فترة التَّنظيمات ومع مرور الوقت

ظهرت بعض التَّطبيقات مثل حقوق العائلة. ولكن البنية (القانونية) بدت وكأنها برأسين، وأصبح موضوع التقدم للمحكمة الشرعية أو النظامية يعود للشخص. وهذا النَّوع من التَّضارب غير مرحب فيه في المجتمعات المعاصرة. لأنّ إنشاء الشَّركات وتسجيل الولادة والوفاة ومثل هذه المواضيع المركزية، كان يجب أن يكون لها معيارٌ موحدٌ في الدَّولة الحديثة، أي أن تتم وفق معيارٍ واحدٍ للمواطنة وفي قانون واحدٍ هو (القانون المدني). وقد أصبحت هذه الأمور ممكنة بعد تطبيق القانون الغربي في العام 1926م وتطبيق القانون المدني.

ونشير هنا إلى التَّكيف الذي أبداه اليابانيون مع التَّغيير الجذري النَّاجم عن تطبيق القانون المدني الألماني في عام 1894، حيث لم تحدث مشكلةٌ كبيرةٌ لديهم، لأنَّ اليابان كان لديها أساس بسيطٌ للعلمانية، وكان لديها اطلاعٌ وتدقيقٌ جيدٌ على القانون الألماني.

وبالمقابل كان في تركيا خلال تلك الفترة وكيل عدليةٍ اسمه محمود أسد (بوزكورت) وكان هو رئيس اللجنة، وهو مَن قام بتعديل المتن الذي كتبه السويسري يوجين هوبر (1849–1923). وقد كان التَّعليق على القانون المدني السويسري أسهل لأنَّه مكتوبٌ بثلاث لغات وهي الإيطالية والألمانية والفرنسية.

أتاتورك وحقوق المرأة

في أيِّ نظامٍ جديدٍ ودولةٍ جديدةٍ، لا بدَّ أن يبرز إلى الواجهة موضوع حقوق المرأة، وهو موضوعٌ لا يمكن التَّهرب منه.

كان قد تم بعد فترة التَّنظيمات تغيير نظام الحقوق الخاص بالجنود والخاص بالمدرسين، كما تم افتتاح مدارس المعلمات من قِبل أحمد جودت باشا، فكانت تلك بداية دخول المرأة المعلمة إلى مجتمعنا. وهكذا فإنَّ واقع تصحيح ظروف المرأة في الشَّرق الأوسط كان وضعا عاما. وعندما نطالع كتابات القرن التَّاسع، مثل أعمال الكاتب الأذربيجاني أهوند زاده، وزجيف بك، وكذلك كتاب المسرح المعاصرين في تركيا مثل نامق كمال ورشاد نوري، نجد أنَّهم كانوا يتناولون مواضيع حقوق المرأة، ويعبرون عن قلق الرجال إزاء هذا الموضوع. وبعد ذلك بدأت النِّساء المثقفات حملة من أجل حقوق المرأة التي أصبحت مشكلة لا يمكن تخطيها.

وكان يوجد الكثير من القناعات المغلوطة في الأدب الأوروبي بأن المرأة التركية خرجت أخيرا من الأسر والحجاب وأصبحت حرة، مع أنَّ المرأة في تركيا لديها الحرية في العمل خلال القرن التَّاسع عشر، كما أنَّه تم قبول انتساب الطَّالبات إلى بعض الكليات في دار العلوم ما عدا كلية الطِّب. وبالإضافة إلى ذلك درست عدة طالباتٍ في الخارج وأصبحن طبيبات، وافتُتحت لهنَّ عيادةٌ للمعاينة في إسطنبول، دون أن يُنكر عليهن أحدٌ هذا الأمر. أما انتساب الطالبات إلى كلية الطِّب فبدأ عام 1923م (ومنهن البروفيسور الدكتورة مفيدة كولي)، وهذا التَّاريخ لا يُعتبر متأخرا كثيرا.

وهكذا فإنَّ تركيا، الدولة غير المتطورة والتي لم تصل إليها الرأسمالية، اكتسبت النِّساء فيها حقوقهن بطريقةٍ راديكالية. ورغم أنَّه تم منح هذه الحقوق للمرأة عبر المؤسسات الذكورية (لعدم وجود منظماتٍ تستطيع المطالبة بحقوق المرأة)، ورغم أنَّ القانون لم يكن ضامنا لهذه الحقوق، إلاَّ أنَّ دخول المرأة في تركيا إلى السِّياسة ونيلها حقوقها حصل في وقتٍ مبكرٍ. ولم يكن هذا خاصا بالحركات النِّسائية، بل يجب التفكير بأنَّه خلق معيارا عاما لكل المواطنين.

ونتيجة لضرورات بعض المهن التي اقتضت تشغيل المرأة، وكذلك نتيجة تاريخ التَّحرر الوطني في تركيا، نجد أنَّ تركيا لديها أكبر نسبةٍ من الطبيبات مقارنة بالكثير من المجتمعات. كما أنَّ نسبة النِّساء بين أساتذة الجامعات والقضاة تضع تركيا بمركزٍ متقدمٍ عالميا.

والواقع أنَّ جميع الدُّول المتحاربة في الحرب العالمية الأولى كانت بحاجةٍ للمرأة كي تعمل في المصانع والوظائف البسيطة. وكان الوضع مشابها في تركيا حيث دخلت النِّساء إلى هذه المهن خلال الحرب. كما أنَّ الحركات النِّسائية والمثقفات بدأن بالظُّهور مع بدايات الجمهورية. وقد نجحت الجمهورية في توجيه هذه الحركات وقوننتها ووضعها تحت في إطار النِّظام، فكانت هناك الكثير من الأمور التي سبقت فيها المرأة التُّركية نظيراتها في أوروبا، ولعل من أحد أهم الإنجازات في الجمهورية هو إعطاء حق الانتخاب والتَّرشح للمرأة. لأنَّ العلمانية لا تعني فقط فصل الدِّين عن الدَّولة، بل تعني أيضا المساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات.

ولنتوقف الآن عند موضوع الزَّواج، حيث يتم عادة عقد قرانٍ "دينيٍّ" بعد عقد القران "المدنيّ" الذي يجري في البلدية، وهذا النِّظام ينطبق على المسلم وغير المسلم. إذ لم أعرف مثلا أنَّ أيَّ شخصٍ يهوديٍّ قام بطقوس الزَّواج في الكنيس قبل أن يعقد زواجا مدنيا، كما أنَّ الزَّواج الكنسيَّ أيضا لا يتم إلاَّ بعد الزَّواج الرسمي. ولكنَّ بعض المسلمين في تركيا لا يلتزمون مع الأسف بهذا

الأمر، فهناك مَن يقول بأنَّ الزَّواج الدينيَّ هو قبل الزَّواج الرَّسمي عند الدولة. وهذه العادة عادةٌ قديمةٌ، ولذلك لا يمكننا توجيه النَّقد لأحدٍ بسبب التَّوازن بين المواطنين.

وخلاصة القول، لقد وصلنا في تركيا إلى مركزٍ حضاريٍّ متقدمٍ. حيث يتم في هذا المجتمع إلى الثَّقافة العلمانية وثقافة المواطَنة، كما أنَّ النِّظام الحقوقي يتطور بالرغم من كلِّ العقبات.

الصحة

لم تكن تركيا دولة بائسة لكنَّها كانت دولة فقيرة، وهذان الأمران مختلفان. ولعل من المفيد في دراسة موضوع الصحة حينها الرُّجوع إلى بعض الإحصاءات والمسوح، مثل التي قام بها الدكتور رفيق سايدام، وكذلك المسح الطبي الذي قام به الطَّبيب اللاجئ البروفيسور "ألبرت أكسيستين" في أنقرة (مصدر مهمٌ وتم نشره)، فهي تحتوي معطياتٍ هامة.

توجد في تركيا أمورٌ لافتة للانتباه، حيث وجدنا أنَّه قبل ظهور المنظمات المهتمة بالصحة، أي في أيام محمود الثَّاني وعبد الحميد الثَّاني، استطاع الجيش الطبي التُّركي أن يحل العديد من المشاكل الطِّبية، فقد أوجدوا علاجا للتخفيف من مرض السل، وعملوا على استئصال مشكلة مرض الملاريا من الأراضي التُّركية. وكان هذا المرض هو مرض العصر بين سكان المدن والرِّيف، حتى أنَّه أصاب موظفي الدَّولة.

وخلال فترة الحربين العالميتين كان هناك أيضا كفاحٌ وجيشٌ كبيرٌ للعمل من أجل الصحة. ومن المفيد لفهم الموضوع السابق بشكلٍ أكبر قراءة كتاب "السِّياسة الاقتصادية المعاصرة" تأليف "إيلهان تكيلي" و"سليم إيلكين"، وتحديدا القسم الثالث منه.

ولكنَّ الأكثر أهمية ليس مرض الملاريا، بل هو البلاء النَّاجم عن التَّحول الاقتصادي المعاصر والانتقال نحو التَّمدن (المجتمعات المدينية)، وهو مرض الزُّهري، الذي يأتي بشكلٍ موسميٍّ مع القوى العاملة الوافدة من العالم الخارجي، ثم يستقر وينتشر، إذ يُصاب به شخصٌ وينقله ضمن العائلة ليصبح بعدها مرضا مزمنا. وقد قاومت تركيا هذا الأمر، وبدأت السِّير في طريقٍ طويلٍ للقضاء عليه، ولكنَّ الخطوات لم تكن كافية، حيث كانت هناك حاجةٌ لإصلاحٍ جذريٍّ.

وهكذا اختار العسكر المؤسسون للجمهورية تخصيص قدرٍ من الميزانية لتحسين الصحة والتَّعليم المحلي أكثر من ميزانية المعدات العسكرية.

ولا ننسى أنَّ أتاتورك لم يكن الماريشال الوحيد في فترة ما بين الحربين العالميتين، بل كان هناك في بولندا القائد الماريشال يوزف بيوسودسكي، وفي فنلندا الملك كارل غوستاف إميل مانرهايم. وقد قام هذان الاثنان وخاصة بيوسودسكي بتخفيض نفقة الجيش، وقدما الدَّعم والاهتمام للصِّناعة والتَّعليم، مع أنَّ فنلندا كانت مجبرة على الاستمرار بالحرب في وجه ستالين. وبالتَّالي فإنَّ الموضوع لم يكن خاصا بالجمهورية التُّركية. ولكن بالنَّتيجة أدَّى تخفيض حصة الجيش من الميزانية إلى تخصيص الفائض في خدمة المعارف والصحة.

الطبيب الذي كان بجانبه من أيام سامسون

الدُّكتور رفيق (سايدام)

كانت الجمهورية التُّركية بعد انهيار الإمبراطورية وهدنة مودانيا أمام مشكلة صحيةٍ كبيرةٍ جدا. وبالطَّبع لا يمكننا إجراء مقارنةٍ بين النِّظام الصِّحي في تركيا والنِّظام الصِّحي في أيِّ مجتمعٍ في إفريقيا أو جنوب شرق آسيا.

وقد تعرّض المجتمع قبل الحرب إلى هزّةٍ في تكوينه الدِّيموغرافي، فالشَّباب المنتجين والأصحاء تمَّ سوقهم إلى الجبهات منذ حرب البلقان (حروب الضُّباط الاحتياط والعرفاء). ولمدَّة عشر سنواتٍ أنهى هذا الجيل الشّاب الذي يمتلك صحة جيدة هذه الفترة بين متعلمٍ وجاهلٍ. والجدير بالذِّكر هنا أن المجتمع التُّركي يُظهر عادة احتراما كبيرا للمعلمين، وقد تمَّ في فترة الجمهورية انتقاء المعلمين بشكلٍ جيدٍ، وكان المعلمون هم الأكثر تحصيلا علميا. وأذكر هنا أنني درست على يد أساتذةٍ قديرين جدا، وفي جامعات محترمةٍ جدا، ولكن لو سألتني من هو أفضل أستاذٍ لديك، كنت لأجيب بأنَّه أستاذ المرحلة المتوسطة في المدرسة، لأنَّه كان متخرجا من المعاهد التعليمية التي أسسها أتاتورك.

بعد إنشاء الجمهورية قام مصطفى كمال باشا بتخفيض نفقة الجيش، وركز على التَّعليم القومي. وكانت هذه الخطوة مهمة في مجتمع لا يعرف 90 بالمائة منه القراءة والكتابة.

ولم تكن أمراض الملاريا والسل هي المنتشرة فقط بل ظهرت أيضا الأمراض المزمنة المنتشرة في أوروبا الشَّرقية وسهوب روسيا. وكان المثقفون في حيرة من أمرهم أمام هذه الأمراض، حتى أنَّ "عبد الله جودت" قدم اقتراحا سيبدو مضحكا في يومنا هذا وهو "استيراد رجال فحول" وكان عرضا غريبا وزاد من التشاؤم. وبالإضافة لتلك الأمراض كان هناك مرض الجذام

المنتشر في كرواتيا، ومرض الرَّمد المنتشر في منطقة الجنوب الشَّرقيّ. ولكنَّ استخدام المكتشفات المعجزة كالبنسلين والسولفاميد كعلاج خفض كثيرا من الأمراض المزمنة، كما أنَّ الحملة ضد مرض الملاريا نجحت بشكلٍ كبيرٍ. وفي الواقع قام الأطباء والعاملون في مجال الصحة والمؤمنون بالنِّظام بتقديم تضحياتٍ وأعمالٍ كبيرةٍ جدا.

وكان الدكتور رفيق سايدام من هذا الجيل، وهو رجلٌ طبيٌّ من الطراز الأول، ومتميزٌ في حياته السِّياسية. وقد تلقّى التعليم العسكري في الثَّانوية العسكرية ثم درس في المدرسة الطبية العسكرية. وتعرف على الطِّب الألماني لاحقا من خلال الأكاديميات في برلين ودانزيغ. وانضم إلى الجيش خلال حرب البلقان، وكان طبيبا عسكريا منظما. كما أسَّس معهدا لعلم البكتيريا، وخلال الحرب العالمية الأولى أحضر جرثومة التيفوس ونقلها إلى المختبر. لأنّ الاهتمام الأوّل في الجيوش القديمة كان دعم إنتاج الأمصال ضد الإسهال الشَّديد والكزاز.

وقد ذهب رفيق مع مصطفى كمال باشا إلى سامسون وبقرارٍ من الباشا. وأصبح ومنذ عام 1920م عضوا في البرلمان التُّركي وأول وزيرٍ للصحة. وكان من إنجازاته بناء مشافي الدَّولة ومراكز التَّوليد ومعهد حفظ الصِّحة في أنقرة والعديد من المستوصفات في أرجاء الوطن، وكذلك حربه على السِّل.

وكان من السِّياسيين الصادقين مع عصمت إينونو باشا، وعندما عزل أتاتورك عصمت باشا لم يقبل دخول التَّشكيل الوزاري لحكومة جلال بايار.

تم تعيين رفيق سايدام رئيسا للوزراء بين عام 1939–1942م، وكانت العلاقة في تلك الفترة بين إدارات الدولة جيدة من الألف إلى الياء. وقد توفي في 8 تموز/يوليو 1942م خلال فترة رئاسته لمجلس الوزراء في غرفة متواضعة بفندقٍ في إسطنبول.

كان الدكتور رفيق سايدام يمتلك توجها مختلفا عن أيِّ طبيبٍ أو وزير صحةٍ. ومن الجدير بالذِّكر في هذا الصَّدد الحديث عن واقعةٍ تتعلق بطبيب الأطفال "ألبرت اكستن" وزوجته الدكتورة "إيرنا" اللذين وجدا في أنقرة ملجأ لهما بعد إبعادهما عن ألمانيا النازية في عام 1935م، حيث كان الوزير رفيق سايدام بانتظارهما في اليوم الثَّاني لوصولهما واستقبلهما في الوزارة، وعيَّن الطَّبيب الألماني في مستشفى نومونه، وكلَّفه بإعداد بيانات الموجودات والنَّواقص الصحية في البلد، وقد قبل

الطَّبيب الألماني الوظيفة بكل حماسةٍ. وخلال عمله الذي استمر لسنتين خرج بنتائج ملفتةٍ، من خلال العينات التي أخذها والمسح الكبير الذي أجراه لمئات القرى (يمكن الاطلاع على هذا الموضوع في كتاب "الهاربون من النازية والرؤية الأتاتوركية" تأليف "أرنولد ريزمان"). كما أنَّ هذا الطَّبيب الألماني أوجد خلال وجوده في تركيا علاجاتٍ لأمراض أطفال مثل مرض "فم الكنغر".

وأود تذكيركم بأنَّنا نتحدث هنا عن أمورٍ جرت في تركيا، ولا نتحدث عن دولة أوروبية، ولا عن دولةٍ تشبه العالم الثَّالث.

إنَّ رفيق سايدام لم يكن شخصا حالما ومعجبا بنفسه، بل كان شخصا لديه سياسةٌ منهجيةٌ لحل المشاكل الصحية في تركيا.

وبرأينا فإنَّ تركيا لم تشكر رجال الطِّب بشكل كافٍ، وباستثناء تصريحات وزير الصحة المعتادة فإنَّه لم تُتَّخذ إلى الآن التَّدابير الإدارية والعقوبات بوجه الهجمات التي تقع على الأطباء. وفي هذا الصَّدد نأمل أن نسمع بعض المؤسسات الصحية التي تنعي الدكتور رفيق سايدام، لأنَّه بالرغم من كلِّ شيءٍ استطاع جيش الصحة التُّركي أن يحفظ حياة الأطفال، وهو أمر يجب ألاّ ننساه. ولا شكّ أنّ إعطاء الضوء لشباب الجمهورية كان وراء نجاحنا في عدّة مجالاتٍ، والمجال الصِّحي مثال على ذلك لأنّه إلى جوار الرجل العظيم رفيق سايدام وزير الصِّحة كان هناك جيشٌ من رجال الطِّب الشَّباب الذين حقّقوا معه النَّجاح، والذين استطاعوا أن يكافحوا الأمراض الوبائية مثل الزُّهري والسل والملاريا قبل إيجاد البنسلين والسولفاميد.

ثورة الحرف

يجب علينا القول أولا بأنَّ إصلاح الحرف العربي أو استبداله كانا من المواضيع التي حدث خلافٌ كثيرٌ حولها في تاريخ تركيا سواءٌ في المؤسسات الإدارية الرَّسمية أو في مجالات التَّعليم حيث جرت محاولاتٌ لإصلاحه. والواقع أنَّ ذلك ليس خاصا بتركيا فقط، ففي العصور الحديثة بدأ استخدام الأبجدية اللاتينية والأبجدية الرُّوسية في إصلاحات حروف المجتمعات التي كانت في طور التَّحديث، وتم إجراء تعديلاتٍ على أبجديتها. لأنّه لم يكن هناك أيُّ معيارٍ للإملاء في اللغات الحية خلال العصور الوسطى بل اعتمدت الكتابة عند الكوادر الإدارية القديمة وعند طبقة المثقفين العريضة على الذاكرة والعادة. لدرجة أنَّه كان لكلِّ كاتبٍ طريقته في الإملاء وفق مزاجه الخاص، وبالتَّالي لم يكن هناك معيارٌ متعارفٌ عليه للإملاء والقراءة.

وبالعودة إلى نهاية القرن الثَّامن عشر نجد أنّ كتابة اللغة التُّركية بالأحرف اللاتينية عُرفت من خلال المراسلات بين السُّلطانة خديجة والرسام "ميلينغ". كما كانت هناك كتبٌ تركيةٌ مطبوعةٌ بالحرف اللاتيني لتعليم اللغة التركية. وفي الحقيقة كان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني يؤيّد بشكلٍ غير مباشر الأحرف اللاتينية. إذ قال: "السَّبب الرئيسي لجهل شعبنا هو الصُّعوبة في القراءة والكتابة. وسبب هذه الصُّعوبة هو حروفنا"، وأضاف: "من الممكن أن يُسهِّل قبول الأبجدية اللاتينية هذا الأمر". وبعكس السلطان عبد الحميد كان هناك أناسٌ يدافعون بقوةٍ عن بقاء الأحرف العربية. ونذكر هنا أنَّ حامل راية ولاية كورتشي ومعلِّم القرآن الكريم علي أفندي أُبعد من عمله لأنَّه كان من مؤيدي الحرف اللاتيني، ولكن والي المدينة علي منيف باشا أعاده إلى العمل في 17 تشرين الثَّاني/ نوفمبر 1911م. وبالرغم من ازدياد مؤيدي تطبيق الحروف اللاتينية إلاَّ أنَّ الخوف وقف في وجه تطبيقها. وكان بعض الرافضين للحرف العربي يريدون استبداله بالحرف الأويغوري (من الجدير بالذِّكر أنَّ السُّلطان بيازيد الثَّاني كان يستطيع قراءة حروف الأويغور ويعرف لهجة التشاغاتاي).

وفي النهاية تمَّ إصلاح الحرف العربي بعد مرحلة المشروطيات الثانية. وللمقارنة نبين أن الإيرانيين استطاعوا التَّكيف مع الحرف العربي منذ القرن الثَّامن والتَّاسع، إلا أنَّهم لم يستطيعوا أن يكونوا ماهرين مثل الأتراك. وبالمحصلة لم يكن هناك بدٌّ من مثل هذه التَّعديلات، فاللغة التُّركية لديها خاصية علم الصَّرف والانسجام الصَّوتي ومبنيةٌ على تحليل الإضافات.

وكان على رأس المصلحين في تلك الفترة، ميلاصل إسماعيل حقي، وإسماعيل حقي (باتجي أوغلو)، وجلال ساهر(إيروزان) ومحمد شينانسي.

وضمن هذا السِّياق قام "ساطع بيك"[74] عام 1910 بإملاءٍ[75] أساسيٍّ صحيحٍ ومتناسبٍ مع اللفظ التُّركي، وعلَّم الأطفال القراءة والكتابة بفترة قصيرة. وقبل ساطع بيك كان "إسماعيل غاسبير علي بيك" قد طبَّق نفس الأمر واستطاع أن يمارس التعليم من خلاله بشكل واسع. ويعود التأثّر بهذه الفكرة بين ذوي الأصول التركية المتواجدين في محيط روسيا في مجال التعليم ووسائل الإعلام إلى إنشاء "غاسبير علي" عام 1883 مركزا تعليميا اسمه "الأصول الجديدة" في "بهتشة سراي" في القرم. ونظرا لفعاليته في تعليم القراءة خلال 3 أشهر تمَّ إنشاء 5 آلاف مدرسة مماثلةٍ لها خلال 20 سنة في المحيط الروسي. وكان صحيفة "الترجمان" التي صدرت في ذلك الحين تضبط تركيتها وفق هذا الإملاء. وبالتأكيد فإنَّ "غاسبير علي" قام من أجل تطبيق هذه الطريقة في الإملاء بتبسيط

اللغة وإدخال كلماتٍ من لهجات أذربيجان وهي الأوغوز والكبتشاك – كوموك وكذلك لهجات القرم التاتار والقازان. ومن الواضح أن تعديلات غاسبير علي لفتت انتباه المفكرين العثمانيين في زمن التَّنظيمات.

ومن المفيد هنا التَّوضيح بأنَّ المراسلات في الحرب العالمية الأولى على جبهة غاليسيا كانت تتمُّ بالحرف اللاتيني بشكلٍ إجباريٍّ.

وكانت كل هذه الأمور ميراثا للدولة التُّركية الجديدة، ولكن هذا الميراث يُظهر بأنَّ الحرف العربي لن يُستخدم في الإدارات الرَّسمية المعاصرة ولن يساعد في انتشار التعليم. لذلك فإن قبول الأبجدية اللاتينية لاقى قبولا في تركيا وخارجها.

في عام 1926م وخلال مؤتمر علم الدِّراسات في اللغة التُّركية وآدابها المنعقد في بانكو، دافع كلٌّ من تشوبان زاده وحسان صبري إيفازوف وآغا مالي أوغلو عن الحرف اللاتيني ونصحوا بتطبيقه. وهذا يعني بأن تبديل الحرف إلى اللاتينية لم يكن أمرا مفاجئا أو عن عبثٍ، بل كانت هناك حاجةٌ له.

ويمكن فهم تجربة أذربيجان في استخدام الحرف اللاتيني من خلال دراسة حركة النَّشر. حيث قام ميرزا بالا مدير شعبة النَّشر في أذربيجان في ذلك الوقت بإعطاء بعض الأمثلة عن موضوع التَّنوير من خلال المطبوعات التُّركية في أذربيجان. وكان عدد المجلات في أذربيجان قبل مجيء السوفييت 12 مجلة. أما خلال سلطة السُّوفييت وعقب استخدام الحرف اللاتيني وصل العدد إلى 18 مجلة. وبسبب عدم تطور المطبوعات في هذه السنوات فإنَّه لم ينتشر. وقد انعكست تجربة أذربيجان الفاشلة في عشرينات القرن الماضي سلبا على التيار المؤيد للحرف اللاتيني.

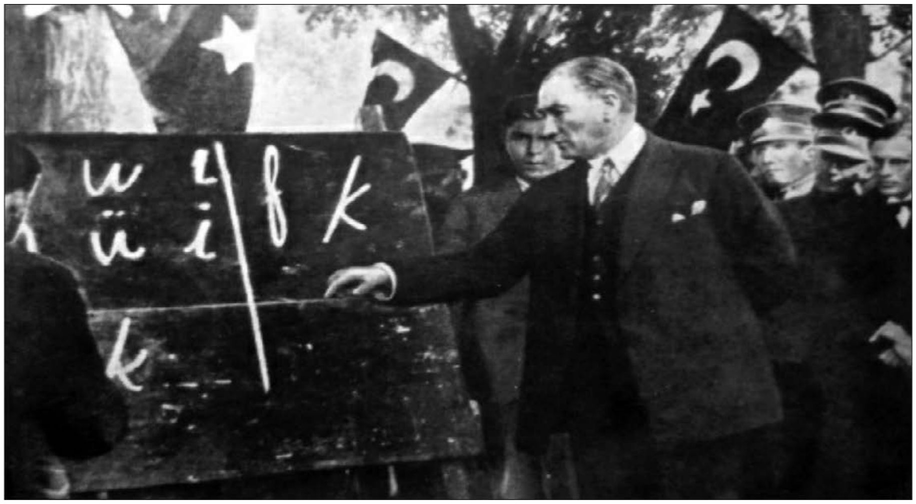

"المعلم الأكبر" مصطفى كمال باشا خلال أعمال ثورة الحرف التُّركية أمام اللوح، قيصري 1928

من الأحداث الجديرة بالذِّكر هنا قيام بعض الأصوات في مؤتمر إزمير الاقتصادي عام 1923م بالمطالبة باستخدام الحرف اللاتيني، حيث جرى نقاشٌ حول هذا الموضوع، ولكنَّ رئيس المؤتمر كاظم كارا بكر باشا رفض الأمر، لأن "استخدام الحرف اللاتيني سوف يوقعنا في الوضع السيئ الذي وقع فيه الأذريون".

والمعروف أنَّ الحرب اللاتيني استُخدم قبلنا في أذربيجان السوفييتية وكارتشاي – البلقار، وبالتَّالي يجب علينا أن نتناول انعكاسات هذا الأمر على تركيا. وبرأينا فإن هذه التَّجارب لم تكن دافعا لتركيا لتقوم بثورة الحرف، بل على العكس من ذلك فإن ثورة الحرف واستبداله جذريا في تركيا أثر على بعض المناطق في الاتحاد السُوفييتي.

ومن المؤكد أنَّ فكرة الانتقال إلى الحرف اللاتيني خلال ثلاثة أشهرٍ في العام 1928م، ومنع استخدام الحروف العربية إلى جوار الحروف اللاتينية كانا قرارا منفردا من أتاتورك، الذي استطاع بشجاعةٍ أن يقوم بهذا الأمر، رغم أنَّ الذين كانوا يؤيدون تلك الخطوة وينصحون بها تراجعوا عن دعمهم لهذا التَّحول الجذري.

وكان الكارتشاي البلقار المتواجدين في الاتحاد السُّوفييتي هم العرق الثَّاني الذي ينتقل إلى الحرف اللاتيني. وفي الواقع أنَّه لم يكن توجد مدارس ولا معلمين ولا كتب في هذه المناطق أيام

القيصر، كما أنَّ النِّظام السُّوفييتي لم يكن قادرا على تحقيق تقدمٍ كبيرٍ في المعارف والنَّشر خلال عشرينيات القرن الماضي. لذلك وبسبب تأخر الحياة الثَّقافية فإنَّه كان من الواضح بأنَّ الحرف اللاتيني لن يُستخدم بشكلٍ صحيحٍ وكاملٍ.

وقد بدأ الاتحاد السُّوفييتي بنشر الحرف اللاتيني بين الجماعات التُّركية في العام 1928م بعد ثورة الحرف في تركيا، حيث إنَّ استخدام تركيا لهذا الحرف اللاتيني بشكلٍ جيدٍ جدا وكذلك التَّغير الجذري الذي حصل نتيجة لذلك، خلقا أثرا لدى المثقفين في الجمهوريات السُّوفييتية وتحولوا نحو الحرف اللاتيني خلال فترةٍ قصيرةٍ. وهكذا تم في مؤتمر علم دراسات اللغة التُّركية وآدابها المنعقد في باكو عام 1926م اتخاذ قرارٍ بتبديل الأحرف إلى اللاتينية في اللغات التُّركية – التترية، كما تمَّ لاحقا تطبيق الحرف اللاتيني في نوغايلار عام 1928م وفي أوزبكستان عام 1928م وفي القرم عام 1929م وفي القوقاز بين قومية الكوموكلار عام 1930م. وكانت هناك بالطَّبع فروقٌ في الاستخدام نتيجة اختلاف اللغات واختلاف اللهجات المحلية.

أما الياكوتيين والتشوفاش الموجودين في الولايات الرُّوسية فكانوا قد تأثروا منذ العام 1871م بروسيا واستخدموا الأبجدية الروسية، ومع ذلك أراد الياكوتيون خلال مؤتمر باكو استخدام الحرف اللاتيني. وبالمقابل كان القازان رافضين لاستخدام الحرف اللاتيني منذ مؤتمر باكو، وفضَّلوا في حال الاستغناء عن الحرف العربي استبداله بالحروف الكيريلية.

وبالانتقال إلى القرم نجد اختلافا في الرَّأي، فقد كان هناك من جانبٍ مفكرٌ وعالم لغة تركيةٍ درس في بودابست خلال الإدارة الملكية هو "بكر تشوبان زاده"، وهو من المدافعين عن الحرف اللاتيني، وكان هناك من جانبٍ آخر البروفيسور في جامعة تافريداي بمدينة سيمفروبول "حسان صبري إيفازوف" على رأس جماعةٍ معارضةٍ للحرف اللاتيني. ولكن وبالرَّغم من الاعتراضات تم السَّير في موضوع الاستبدال، وأصبح الشَّعب يستخدم الحرف اللاتيني بالإضافة إلى استخدامه في النَّشرات والمطبوعات.

وفي حقيقة الأمر كانت مشاكل القراءة والكتابة من أكثر المشاكل التَّعليمية الموجودة في الجمهوريات السُّوفييتية، ولكن بعد استخدام هذه الحروف لتعلم القراءة والكتابة، ازدادت نسبة المتعلمين بشكلٍ أكبر.

إلاَّ أنَّه وبعد عشر سنواتٍ من انتشار الحرف اللاتيني بين المجموعات التُّركية في الاتحاد السُّوفييتي حصل تغيير آخر، وهو الانتقال إلى الحرف الكيريلي.

لا أستطيع قراءة الشَّاهدة الموجودة على قبر جدي

ليست لغة عثمانية، بل هي لغة دواوين إداريةٍ مشوهةٌ، وهي بالتأكيد لغةٌ مناسبةٌ فقط للاستخدام في الدَّوائر الرَّسمية. وهذا أمرٌ نجده في إدارات جميع الإمبراطوريات، حيث تكون اللغة مشوهة وتُقال وتُكتب في الأوساط الرَّسمية، بينما لا يعرف النَّاس العاديون قراءتها، وحتى إن قرأوها فإنَّهم لا يعرفون كتابتها.

إنَّ عبارة مثل: "لقد قمنا بثورة الحرف فقتلنا اللغة العثمانية" هي عبارةٌ بلا معنى، لأنَّ العثمانية كانت لغة مشوهة، لا يستطيع الشَّعب أن يعرفها أو أن يستخدمها، ولكنَّها بالمقابل أغنت ثقافتنا ولغتنا دون شكٍ. وهناك شيءٌ واحدٌ يمكن فعله من أجل إحيائها، وهو ترك التذمر، والعمل على تعلمها من قِبل المختصين والمهتمين بها على الأقل.

لقد انتقلنا إلى الأحرف اللاتينية من أجل إملاء اللغة التُّركية والتوافق الصَّوتي، وليس من أجل حرب حضارةٍ واستبدال حضارةٍ كما قال البعض. إذ لا توجد علاقةٌ بين الأبجدية والقومية، فهذه الأبجدية التي نستخدمها اليوم هي بالأساس عائدةٌ للرومان القدماء، وهم لم يعودوا موجودين الآن.

والحقيقة أنَّ ثورة الحرف تمت لأنَّ الحرف الذي كان موجودا كان يخلق مشاكل في الكتابة والقراءة. والمسألة ليست مسألة مراسلاتٍ شخصيةٍ، فهناك جنودٌ عليهم قراءة الرَّسائل القادمة بسرعةٍ، وفهمها بشكل صحيحٍ وإرسال الرُّدود من دون أخطاء إملائيةٍ. حيث إنَّ قراءة اسم مدينةٍ ما أو قريةٍ ما بشكل خاطئٍ يعني عدم القدرة على كتابة اسمها. لأنَّ اللغة التي يلفظ أصحابها ثمانية حروفٍ صوتيةٍ ولا يستطيعون كتابة سوى ثلاثة حروفٍ منها، لا يمكن فيها كتابة اسم القرية بشكلٍ صحيحٍ، ولا كتابة الاسم الذي لا نعرفه مسبقا بشكلٍ صحيحٍ.

وقد كان المثقفون في القرن العشرين عقلانيين في هذا الموضوع، وأدركوا أهمية عدم اندثار الميراث العثماني، فدعوا إلى تعلُّم العثمانية. والفكرة هي بأنَّ طلابنا يجب أن يكونوا مثل الطلاب

الأجانب الذين يتعلمون الحروف خلال أسبوعين ويطبقون تعلمهم عن طريق القراءة، فلغتنا بالنِّهاية ليست بصعوبة اللغة الصِّينية.

لقد كان الجميع في تلك الفترة يقولون بأن التُّركية لا يمكن أن تستمر من خلال الإملاء بالحرف العربي، وأنَّها سوف تبقى غير كاملةٍ. وتحدث الكثيرون بأنَّ الحل هو الانتقال إلى الحرف اللاتيني، ولكنَّ الشخص الوحيد الذين كانت لديه الجرأة وكان يملك المشروع هو أتاتورك.

وهكذا تم إلغاء الحرف العربي بقانونٍ صدر في شهر تشرين الثَّاني/نوفمبر من عام 1928م. ومع تطبيق هذا القانون تم الانتقال للحرف اللاتيني تدريجيا خلال ثلاثة أشهر. ولكنَّ النَّاس لم يتخلوا عن استخدام الحرف العربي فورا، بل استمروا يكتبون الملاحظات بالحرف العربي. وحتى الكتب لم تُطبع فورا بالحروف الجديدة على نطاقٍ واسعٍ، كما أنَّ الطلاب في مراكز التعليم ثابروا على الكتابة بالحرف القديم.

ومن المعلوم أنَّ عصمت إينونو باشا لم يكن ضد الأمر بشكلٍ قطعيٍّ، ولكن كان رأيه عدم الانتقال بهذه السرعة. وبالرغم من تردده إلاَّ أنَّه لم يبدِ اعتراضا على القرار، ولم يستخدم الحرف القديم بعد القرار.

وهناك موضوعٌ مهمٌ يجدر ذكره، وهو الحديث عن تغطية الكتابات القديمة المنتشرة يمينا وشمالا، وهذا الأمر تم فعلا، ولكنَّ الواقع هو أنّه لم يتم تخريبها. ومن الأمثلة على ذلك تغطية اللوحة الموجودة على جدار جامعة إسطنبول والتي كُتب عليها النَّظارة الحربية. كما كانت هناك تدابير كهذه في عدة أماكن، حيث جرى تخريب وإزالة بعض الآثار المكتوب عليها بالعربي على طريق تراكيا، وكذلك بعض سبل الماء، ولكن من المؤكد أنَّ هذه الأمور تمت دون علم أنقرة.

الغازي مصطفى كمال باشا، ورئيس البرلمان التُّركي كاظم باشا، ورئيس الوزراء عصمت باشا، في مؤتمر عن قراءة وكتابة الحرف الجديد في قصر "دولمة باهتشه"، آب/أغسطس عام 1928م

ومن الواضح أنَّ وراء ذلك بعض موظفي الدولة في القرى، والذين لم تتطور عقليتهم بعد. حيث يوجد دائماً خلال مثل هذه الثَّورات أناسٌ متشددون ومع الأسف، وبسبب انعدام التَّواصل في تركيا فإن تلك العقليات تتغذى على الذِّهنية الرَّجعية.

ونذكر هنا ما قاله أتاتورك للذين حوله عن النقوش ومعرفة قيمتها: "هذه النقوش يستطيع النمساوي باول ويتك بقراءتها، فهل يعرف قيمتها أفضل منكم؟". كما نذكر بالمقابل ما كتبه آيدن بويسان وابنه بوراك بويسان خلال فترة حكم الحزب الديمقراطي بأنَّه توجد آثار حقيرةٌ في كلِّ مكانٍ من إسطنبول فلماذا لا يتم هدمها؟

واليوم نجد أنَّ بعض الشخصيات قد أخذت هذا التبديل باتجاهٍ دراميٍّ، ونجد آخرين يتذمرون قائلين: "لقد أُلغيت وذهبت معها الثَّقافة". ولكنَّ الواقع أنَّ نظام الكتابة الذي أُلغي هو أبجديةٌ صوتيةٌ، ويمكن تعلُّمه بسهولةٍ، وهو أمرٌ يجب بالتَّأكيد القيام به.

مع زوال الإمبراطورية تأسست جمهوريةٌ للأتراك، وقد استخدم بعض المؤرخين العاديين الشِّعار التَّالي: "دولةٌ جديدةٌ، ووطنٌ جديدٌ، وأمةٌ جديدةٌ كليا". ولكنَّ هذا التَّقييم بعيدٌ تماما عن الصَّواب، فلا الوطن جديدٌ ولا الأمة جديدةٌ، والجديد هو الدَّولة فقط. وبالرغم من كلِّ شيءٍ فإنَّ هذه الدولة الجديدة لم ترفض الميراث القديم والتَّقاليد كلها، ولم تكن أصلا قادرة على ذلك. بل تم تقويم عمل المؤسسات والموظفين بشكلٍ عقلانيٍّ ومعتدلٍ، ورغم هذا فقد استخدم بعض علماء السِّياسة لوصف تلك الوقائع، ودون تفكيرٍ، مفاهيم مثل "بناء الأمة" الذي يُستخدم في الحديث عن المستعمرات. وهذا المفهوم أي "بناء الأمة" ينطبق على الذين لا يملكون وحدة لغةٍ أو وحدة دينٍ فيما بينهم، والذين يكونون عبارة عن مجتمعاتٍ مختلطةٍ ولديها نفس خطوات التَّطور، ويجتمعون تحت إطار دولةٍ، ويتم السعي نحو تكوينهم في إطار مجتمعٍ. إلاَّ أن مصطلح "بناء الأمة" ليس له معنى عند الكلام عن شعوب البلقان الذين تشكلوا عبر عصورٍ طويلةٍ تاريخيا ودينيا وثقافيا تحت حكم البيزنطيين والقيصرية الصربية والبلغارية والإمبراطورية العثمانية.

وقبل أن نذهب إلى المشكلة التَّاريخية ينبغي أن نقف هنا عند الظَّاهرة التي تسمى ثورة اللغة، وهو موضوعٌ تم الحديث عنه كثيرا، ولم يكن هذا الحديث إيجابيا على الدَّوام. كما أجريت تجارب حول هذا الموضوع، ونشأ تيارٌ خاصٌ به، ولكن لم يتم استخدام كلمةٍ جديدةٍ تنصُّ عليها القوانين والأحكام التي تتضمن حكم القوي. والحقيقة أنَّه تم قبول فكرة تطور اللغة في تركيا خلال ثلاثينيات القرن الماضي، فاللغة التي نطلق عليها اسم التُّركية العثمانية كانت كافية في القرن الخامس عشر والسَّادس عشر، ثم بدأت تبدو غير كافيةٍ في مجالات الفلسفة والأدب والعلم وتكنولوجيا التَّواصل والتطور الحاصل في العالم خلال القرن الثَّامن عشر والتَّاسع عشر. وكان لابدَّ أن تُضاف للغة التُّركية تعابير جديدة، وهذه التعابير سوف تكون لاحقا من التُّركية الأصلية. فاللغات بحاجةٍ للتَّطور والتَّوسع ولا توجد لغةٌ مستثناةٌ عن تلك القاعدة.

وقد أدت مطالبة بعض علماء اللغة بتنقية اللغة الرَّسمية ونقلها للشعب، وإلغاء اللهجات، كي تكون التُّركية بمعيارٍ واحدٍ (تركية التعليم)، إلى نشوء لغةٍ عثمانيةٍ جديدةٍ مع الأسف. ومقابل هذا التَّيار كان هناك المدافعون عن العثمانية القديمة. وبما إنَّه لا يتم العمل في بلادنا على قواعد اللغة والتَّاريخ وفقه اللغة وعلم اللفظ، فإنَّه تحدث معارك عمياء في هذا المجال. ويُعتبر هذا الأمر نتيجة سيئة بالتَّأكيد لوسطٍ لم تتطور فيه قواعد اللغة وتعليم اللغة ومعلوماتها.

وبرأينا فإنَّه يجب المحافظة على مؤسسةٍ علميةٍ بعيدةٍ عن السُّلطة للعمل على مجموعة تقنيات اللغة من قبل خبراء مستقلين، فالاستقلالية عن السُّلطة هي أول معيار لحل تلك المشكلة. وفي هذا المجال قامت جمعية تدقيق اللغة التُّركية (والتي تُسمى اليوم مؤسسة اللغة التُّركية) بالعودة إلى استخدام مصطلحات غير معروفةٍ عبر إجراء مسحٍ كبيرٍ على اللغة، وأصدرت قاموسا بعنوان "التَّصنيف والمسح"، وهو قاموسٌ تم إعداده بالعودة إلى التُّركية القديمة والى لهجات الأناضول التُّركية. وبدأ المعلمون بالعمل في هذه المؤسسة، بالإضافة إلى إنَّه لم يتم تأسيس أكاديمية للغة.

وكانت العناية منصبة خلال فترة أتاتورك على الأبحاث والتَّحليلات المتعلقة بتاريخ الأتراك. ويجب علينا أن نقول قبل تلخيص هذه الشُّروحات وقبل إجراء مسح وفهرسة التَّاريخ التُّركي بين عامي 1940–1927م. وقبل الانتقال إلى مسح لنظام المؤسسات البحثية والجامعية بأن بعض هذه المراجع التي تمت كتابتها خلال فترة أتاتورك كانت عن تاريخ العالم أيضا.

وكان التَّاريخ للأتراك في الفترة الكمالية يتم أكثر من التَّاريخ لتركيا، حيث جرى بشكلٍ غير منصفٍ تكرار المفاهيم القريبة من الجمهورية، أو الإدلاء بتصريحاتٍ أسطوريةٍ ممتدةٍ إلى سهول آسيا وفق نظرةٍ حالمةٍ عن التَّاريخ التُّركي. فقد كان كتَّاب التَّاريخ متأثرين بالمناخ القومي الذي كان منتشرا حينها، وبالفعل قام بعض الأشخاص بالكتابة عن هذا الأمر بشكلٍ متطرفٍ باعتباره تيارا سائدا. ولكنَّنا إذا نظرنا إلى المسار المتبع للتأريخ التُّركي الأكاديمي خلال نفس هذه الفترة، فمن غير الممكن أن نكون متفقين على تلك التَّفسيرات التي خرجوا بها. وقد نشأ التَّأريخ في الفترة الكمالية وسط بيئةٍ احتد فيها النِّقاش، حيث كانت مراحل التَّاريخ تمر بمنعطفٍ مهم جدا آنذاك.

وقد فتحت صعوبة الشُّروط الدولية الخارجية الطريق نحو تبني أطروحات التَّاريخ القومي المتطرف في الدول الأوروبية، وكان التوجه في العالم ينحو نفس المنحى أيضا. ومع هذا ينبغي القول إنَّ التَّاريخ على الأساس القومي في ثلاثينات القرن الماضي في تركيا لم يكن منتشرا وحدِّيا بالمقدار الذي كان عليه في أوروبا. فالأيديولوجيا الرَّسمية للنِّظام كانت بعيدة عن ممارسة السَّيطرة على كتابة التَّاريخ، وكان لهذا أسبابه، فأولا نلاحظ أنَّ الرؤية الرَّسمية للتَّاريخ لم تستطع أن تتجه أو على نحوٍ أدق لم تتجه نحو دعم تنظيم كتابة التَّاريخ بشكلٍ كافٍ، فقد كانت جمعية التَّدقيق في التَّاريخ التُّركي (والتي تُسمى اليوم التَّاريخ التُّركي) والتي تأسست في 12 نسيان/أبريل 1931م محدودة الأعضاء وتدعم الأبحاث والنَّشر الدَّاخلي فقط، ولم تكن هذه الجمعية مؤسسة مشرفة في الجامعات

على سبيل المثال، إذ لم يتم تأسيسها لتراقب مراكز البحث أو الأبحاث الفردية أو مؤسسات التَّعليم العالي مثل مؤسسات المعارف التي تنشر أفكارها لفترةٍ طويلةٍ عن طريق الأساتذة والكتب الدراسية ذات الموضوع الواحد والعناوين الثَّابتة. وفضلا عن ذلك فإنَّ المؤسسات التَّاريخية الرسمية لم يكن لديها حلولٌ قطعيةٌ أو إطاراتٌ للمشاكل التي تواجه المؤرخين، وينبغي التَّذكير هنا بأنَّها لم تنتج أو تدعم أيَّ أطروحةٍ تاريخيةٍ عامةٍ غير الأطروحات التي تتعلق بتاريخ الجمهورية ومشاكلها التي لم تكن خلافية بالأصل. وكان المؤرخون القريبون من أتاتورك بالذَّات ورجال الدَّولة المهتمين بالتَّاريخ على خلاف دائمٍ فيما بينهم، ويصرحون بأشياء مختلفةٍ. ولذلك كانت الأطروحات التَّاريخية خارج هذا الإطار قابلة للنقد، فعلى سبيل المثال عُرضت أول أطروحات للتاريخ التُّركي في مؤتمر التَّاريخ التُّركي بشكلٍ رسميٍّ، وقد وجَّه أحد أعضاء المؤتمر ذكي وليدي (توغان) نقدا شديدا لوجهة النَّظر الرَّسمية المقدمة من قبل وكيل المعارف وكاتب الجمعية العمومية لتدقيق التَّاريخ التُّركي رشيد غالب، وفي المؤتمر ذاته كان هنالك اعتراضٌ على عفت هانم من قِبل كوبرولو زاده.

وبينما كان المحيطون بأتاتورك يختلفون حول الموضوع التَّاريخي كانت هناك مجموعةٌ في دار المعارف بجامعة إسطنبول تكتب وتؤرخ بطريقةٍ مختلفةٍ. وقد استمر الجو القوميُّ في كتابة التَّاريخ إلى نهاية هذه الفترة القومية، حتى وصل الأمر إلى مرحلة قول حسين جاهد بأن اليابان تم الاستيلاء عليها من قبل كوبلاي خان (أي الأتراك)، فردَّ عليه يحيى كمال بسؤال: "ما هو لزوم حكايات الفتح العقيمة هذه؟ مادامت رائحة البارود من فيننا[76] وموهاتش لا تزال بأنوفنا".

ولكن من المؤكد إنَّه بعد الإصلاحات في الجامعات التُّركية عام 1933 وإنشاء كلية للغة والتَّاريخ والجغرافيا تقدمت تركيا بشكلٍ كبيرٍ في مجال التَّاريخ والآثار والمتاحف وعلم اللغة التَّاريخي. ورغم أنَّ بعض الإصلاحات جرت على المؤسسات العثمانية سابقا، ورغم التَّطور الملحوظ في هذه المؤسسات، إلاَّ إنَّها فشلت في عملها لوقتٍ طويلٍ. وبرأينا فإنَّ تدوين التَّاريخ الرسمي الذي تم الحديث عنه كانت له آثارٌ سلبيةٌ، وأحد هذه الجوانب هو التَّاريخ المحلي، فالأطروحات كانت عن طريق وكالة المعارف وأثَّرت على المعلمين في الرِّيف، الذين قاموا بالكتابة في التَّاريخ المحلي وقاموا بتأويلات خاطئةٍ وغريبةٍ، فزعموا مثلا أنَّ أتراك ترويا انحدروا من سهل تور. وقد بادرَت بيوت الشعب بتوضيح هذه الأمور والمنشورات، فعلى سبيل المثال قيل بأنَّ الفحم بمدينة زونغول داغ وجد من قِبل شخصٍ يدعى محمد الطَّويل، لكنَّ بيت الشَّعب في المنطقة أوضح إنَّها حكايةٌ لا أصل لها.

ويمكننا اختصار النتيجة بالقول إنَّ الفترة الكمالية قامت في سبيل التَّاريخ على نحوٍ علميٍّ بدعم التَّقنية اللازمة والأدوات الضَّرورية للحياة المعرفية وللفكر التُّركي قبل كل شيء، فأصبحَت المخصصات لهذا المجال أساسية في الموازنة التُّركية، وتم فتح الطَّريق لاحقا أمام النِّقاش الحر والجديد في الأبحاث التَّاريخية.

ارتداء الأزياء والقبعة

نتوقف الآن عند ثورة القبعة التي اعتبرها الكثير من النَّاس حتى فترةٍ قريبةٍ أمرا يدعو للتَّفاخر، وهي وإن كانت مجرد طقوسٍ إلاَّ إنَّها مهمةٌ جدا للمظهر. ولفهم الموضوع أجد من الضَّروري التَّذكير بالمؤتمرات الكبرى التي أثرت على تاريخ العالم في القرن التَّاسع عشر وعلى تقاسم أوروبا، وتوجد لوحات جميلة جدا ورسومات لهذه المؤتمرات. فشاهدنا حالة من التَّطور والنِّقاش الدبلوماسي في مؤتمر باريس وفي مؤتمر برلين بعد حرب القرم، وعلى سبيل المثال اجتمع في مؤتمر باريس سياسيون كبار ودبلوماسيون من كلٍّ من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى الرجل الذكي جدا النمساوي "هينرتش كارل" بارون فان هايمر وهو صديق الدراسة لالكسندر غورتشاكوف، كما كان بينهم محمد أمين علي باشا وفؤاد باشا. ولم يكن هذان الرجلان أدنى من البقية بل أعلى قيمة منهم. ونذكر أنَّ كتابات محمد أمين علي باشا بيعت بالمناقصات بعد وفاته. هذا الرجل كان يسافر وعلى رأسه الطربوش العثماني. أي إنَّه كان يتقبل الموضة العالمية والقيم العالمية عندما يكون موجودا في أوساط التجمعات، إذ لماذا يرتدي أحد أبناء بلدنا شيئا مختلفا عن الآخرين عندما يوجد في مكانٍ واحدٍ معهم ويضع على رأسه القلنسوة؟ ولتوضيح هذا الأمر أقول إنَّ المرء بإمكانه وضع هذه القلنسوة على رأسه في الشَّارع، ولكن إن كان يحب الأوبرا ويذهب ليجلس في القاعة وعلى رأسه القبعة العثمانية، والعيون تتابع المسرح من خلال القبعات، فإنَّ هذا قد لا يكون أمرا غريبا بنظر المشاهدين، وإن كان هنالك أناسٌ يعانون من التمييز في القرن 19 و20 من قبل مجموعةٍ من الأتراك.

تعالوا نتحدث عن أساس ثورة القبعة قبل أن نأتي إلى مميزات ثورة القبعة، لأنَّه تكمن في هذا الحدث مقاربةٌ للأساس الحديث للمجتمع. فالنَّاس كانوا يضعون القلنسوة في المجتمع القديم، وكانت كلُّ فئةٍ تتميز بقلنسوةٍ خاصةٍ بها، حيث لم يكن مقبولا أن يضع التُّجار القلنسوة المخصصة

لرجال السُّلطان عبد العزيز. وإذا عدنا إلى ما قبل عهد محمود الثَّاني فإنَّ مجرد ارتداء موظفٍ في الباب العالي قبعة محبوكة كان إشارة على انتماءه إلى صف القلم.

ويمكننا أن نلاحظ التغيير في تقاليد الثَّورة داخل المجتمع بتركيا، حيث كان للسُّلطان محمود الثَّاني له سابقةٌ بهذا الأمر، فقد جعل للجنود والإداريين ملابس رسمية خاصة بهم ومرتبطة بالعقيدة الرَّسمية، وأراد من خلال ذلك فصل الزُّمرة الحاكمة وفق اعتباراتٍ خاصةٍ كنوع الحياة والمظهر الخارجي وغيرها.

وكان هذا الأمر، أي العيش وسط التَّفرقة المذهبية والاجتماعية والفئوية، هو الأكثر إزعاجا للمجتمع العثماني، كما كان أمرا خطيرا بنظر الإدارة في الجمهورية، لأنَّ الجمهورية كانت تريد دولة من نوعٍ مختلفٍ وتريد مجتمعا صادقا.

وهكذا لم يتم إلغاء المجالس والطُّرق فقط بل تم أيضا إلغاء الملابس والقلنسوة المرتبطين بتلك المجالس والطُّرق. ونتذكر هنا أنَّ الطربوش وصل للعثمانيين من تونس، ولكنَّه مرَّ قبل وصوله باليونان وألبانيا، وبالتَّالي ينبغي على المفكرين العثمانيين إذا كانوا منفتحين أن يتجولوا عبر أوروبا من دون الطربوش وأن يعتمروا قبعة وهم يشعرون بالامتنان.

إنَّ التفكير بهذه الثَّورة يجب أن يكون من خلال الأوضاع في ذلك اليوم، فثورة القبعة قوبلت بردة فعلٍ صامتةٍ في الأقاليم، حيث لم تتغير ردة الفعل على إعلان ثورة القبعة في مدينة كاستامونو تحديدا، والجرأة التي تم الإعلان فيها لم تقلل ولم ترفع من درجة ردود الفعل. كما أنَّ القرويين أخذوا مع مرور الزمن يرتدون مكانها الكاسكيت أو القبعة الضَّيقة التي تنتجها يوغسلافيا، وكان الموظف الوحيد الذي يعتمر القبعة في القرية هو المختار.

وقد أراد أتاتورك من ذلك أن تختفي الفوارق بين النَّاس في الشَّارع، وبالتَّالي لم تكن "ثورة القبعة" ثورة شكلٍ، لأنَّ النَّاس عرفوا القبعات في وسط القرية فجأة. والقبعات مجرد ملابس وليست من العناصر الأساسية للإنسان، ولكنها من العناصر التي تشغل عقله.

وقد كانت هناك معارضةٌ كبيرةٌ للقبعة، فعلى سبيل المثال إذا طلب شابٌ يد فتاةٍ وتبين لأهلها عند السُّؤال عنه بأنَّه شخصٌ يعتمر قبعة، كانوا يفسرون الأمر على إنَّه شخصٌ نسي دينه وإيمانَّه واحترامه. أما اليوم فلا يوجد أحدٌ يعتمر القبعة ولا يُشكِّل هذا أيَّ أثرٍ أو فرقٍ.

نجح تجار أنقرة بإثبات أنفسهم عندما وصل الخط الحديدي إلى المدينة، وقد تسألون: "ما هو الرابط بين حرب الاستقلال وخط الحديد؟"، وأقول يوجد رابطٌ واضحٌ جدا.

فقد كان السُّلطان عبد العزيز يتوقع أنَّ الخط الحديدي سوف ينقذ الإمبراطورية، ولكنَّ حلمه أصيب بالخيبة لأنَّه خلال سنتين لم يستطع سوى أن يصل إسطنبول بإزمير. وكان السُّلطان عبد العزيز مصرا على موضوعين بشكل كبير جدا، وهما الخط الحديدي وسلاح البحرية.

ولكنَّه لم يكن موفقا بالقوة بالبحرية كي ينازع روسيا ويسترجع السَّيطرة على البحر الأسود ويعيد فتح القرم. ورغم أنَّ القوة البحرية كبرت نتيجة الإنفاق الكبير عليها، ورغم أنَّنا أصبحنا في مصاف الدُّول القوية من ناحية العدد، إلاَّ إنَّه لم يتم تجهيز ضباط وصف ضباط للبحرية، كما أنَّ الترسانة لم تكن معاصرة.

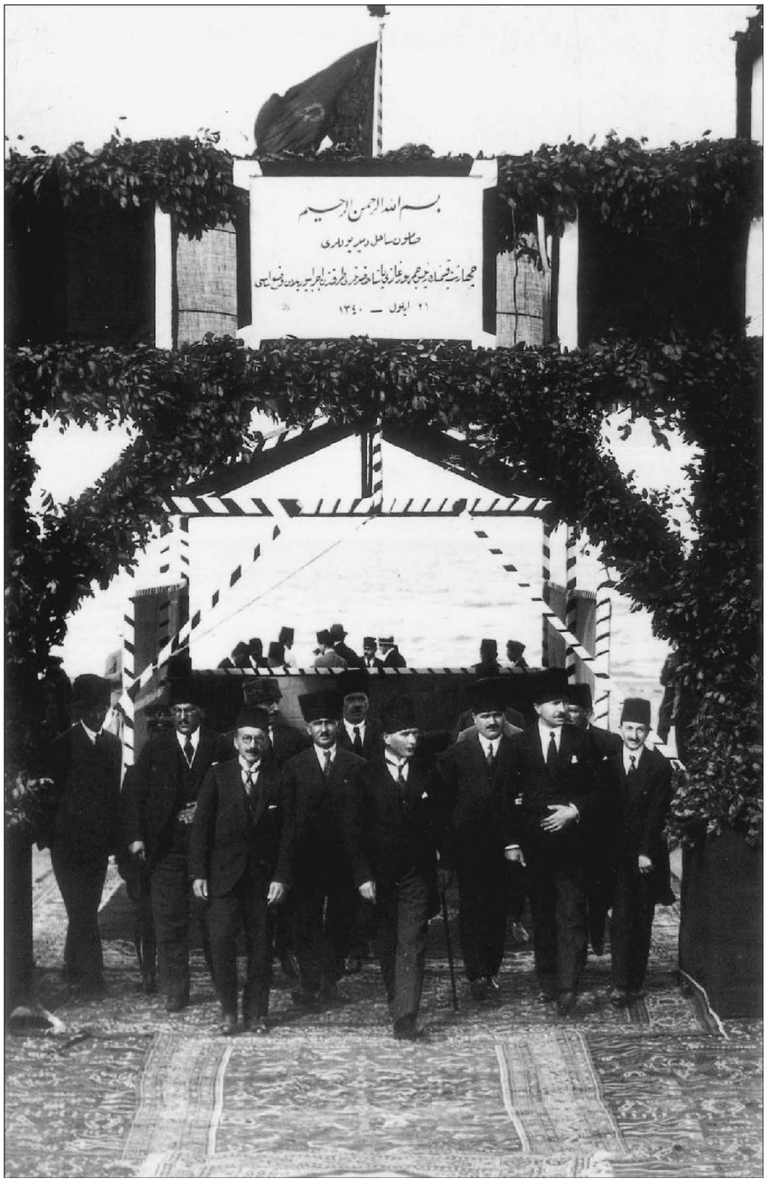

الغازي مصطفى كمال باشا في احتفال إنشاء خط الحديد
بين تشارشمبا وسامسون، أيلول/سبتمبر 1924

وفي عصر السُّلطان عبد الحميد الثَّاني لم تُهمل القوة البحرية تماما، ولكن كان هنالك نقصُ في النُّمو، وافتقارٌ إلى ميزانيةٍ تغطي هذه النَّفقات الكبيرة.

وهكذا فإنَّ السُّلطان عبد العزيز أولى أهمية كبيرة للخط الحديدي، ولكنَّه لم يصل إلى مبتغاه. وقد تم لاحقا مد الخط الحديدي عبر رقعةٍ مهمةٍ من الإمبراطورية لا يوجد فيها أيُّ خطٍ حديديٍّ وهي

البوسنة والهرسك، ووصل إلى السَّاحل الأدرياتيكي. وفي الأناضول تم إنشاء خط إزمير آيدن بامتياز إنكليزيٍّ، وخط إزمير باندرما بامتياز فرنسيٍّ، كما تم إنجاز خط الأناضول الذي أراد السُّلطان عبد العزيز مده لتعزيز الوحدة بين الأمة في الأناضول عند إزميت.

وقد أخذ الألمان امتياز الخط الحديدي الذين أرادوا من خلاله استكشاف وتقييم ثروة الأناضول وبلاد الرَّافدين، وكان هذا استثمارا كبيرا تم في عهد عبد الحميد الثَّاني. ورغم أنَّ تكلفة هذه السِّكك الحديدية كانت كبيرة جدا على المالية العثمانية وحمَّلتها ديونا كبيرة، إلاَّ أنَّ تقنية الألمان في تركيب السكك الحديدية كانت سريعة ولا تقارن مع الإنكليز والفرنسيين. كما أنَّ رأس المال الألماني الذي أسس شركة الخط الحديدي العثماني في الأناضول بتاريخ 4 آذار/مارس 1889م كان يوجد خلفه البنك الألماني، وهو مصرفٌ فاعلٌ ولديه طاقمٌ من الإداريين أفضل مما لدى البنوك الفرنسية والإنكليزية.

وفي 2 حزيران/يونيو 1890 تم الانتهاء من مد 40 كيلو مترا من خط أدا بازار. وكان الهدف هو الوصول نهاية عام 1892م إلى مد خطٍ إلى أنقرة بطول 180 كيلو متر، يعبر التلال، ويُحفر خلاله 16 نفقا. وبالفعل تم خلال ثلاث سنواتٍ تنفيذ 500 كيلو مترٍ من السِّكك الحديدية. وكان شعب أنقرة ينتظر هذا منذ زمنٍ طويلٍ. فكتبوا الطَّلبات، بل وأرادوا تنظيم حملاتٍ للتبرع لهذا الخط. أما تجار قيصري وصناعييها الذين كانوا ينتظرون الخط الحديدي فلم يروه، لذلك جهزوا قوافل ضخمة لنقل البضائع عبر أنقرة إلى الغرب، وتعاقدوا مع شركةٍ لنقل بضاعتهم. وفي الحقيقة لم يكن هنالك عائقٌ يمكنه الوقوف أمام تجار قيصري.

ومن الجدير بالتَّوضيح أنَّ مصطفى كمال، الذي وصل إلى أنقرة بتاريخ 27 كانون الأول/ ديسمبر 1919م، لم يكن دافعه الوحيد لاختيارها كمركزٍ له هو التَّرحيب والدعم الذي لقيه من أهلها فقط، بل لأنَّ هذه النقطة التي يصل إليها الخط الحديدي سيكون بمقدورها تحقيق المقاومة، كما يمكن الدِّفاع عنها بشكلٍ أسهل في المستقبل.

وكانت الخطوط الحديدية وسيلة لنقل الحبوب والصُّوف من الأناضول (الغنية بهما) إلى أوروبا، وبذلك تم في العام 1897م خلال حرب اليونان تغذية الجيش بالقمح القادم من الأناضول لأول مرةٍ.

وفي 27 كانون الأول/ديسمبر 1919 سوف تكون مدينة أنقرة مركز النَّصر في حرب الاستقلال من خلال الخط الحديدي.

كانت الخطوط الحديدية في تركيا زمن الإمبراطورية تنتهي في أنقرة شرقا، وكان هناك خطٌ حديديٌّ قصيرٌ من أنقرة إلى شمالها إلى لالاهان. وخلال حرب الاستقلال وقع حادثٌ مدونٌ إلى اليوم بأرشيف البحرية فقد استخدم الجنرال في الجيش الأحمر "فرونز"[77] العديد من الوسائل بعد نزوله في مدينة إينبولو على البحر الأسود ومنها السِّكك الحديدة الضَّيقة.

كان الخط الحديدي ينعطف بعد مدينة بيلاجيك إلى الجنوب، وكانت شركة الخط الحديدي الواصل بين إسكي شهير وكوتاهيا وأفيون بيد رأس المال الألماني. ولكنَّ خط آيدن دنيزلي الذي يصل إلى أفيون كان مرتبطا بمحطةٍ أخرى تحت سيطرة الإنكليز، وكان يصل بعد أفيون إلى أرغيلي في قونيا. وهكذا كان يوجد محطتان في أفيون: الأولى بيد الشركة الألمانية، والثَّانية تابعة كما أسلفنا للخط القادم من دنيزلي وهي بيد الإنكليز. ولم يكن هذا الخطان متصلين ببعضهم البعض.

وقد تم الانتهاء من خط الميزوبوتاميا بعد الحرب العالمية الأولى، فامتدت شبكة الخط الحديدي لتركيا الجديدة بعد سواس إلى سامسون وأرغيلي وإلى الشَّرق نحو ملاطيا، ومن تتفان إلى كورتالان. أما خط الجنوب الشَّرقي فكان يمتد من كاركامش إلى عنتاب ونصيبين. وفي النهاية وصل الخط الحديدي إلى أرضروم.

وهكذا اكتسبت الأيديولوجيا قوة أخرى، فالخطوط الحديدية وصلت الوطن بجهاته الأربعة، ولعبت دورا كبيرا في تاريخ الجمهورية والعثمانيين. فالأناضول كانت مكانا كبيرا وجافا وبحاجةٍ للعديد من وسائل النَّقل، أضف إلى ذلك أنَّنا لم نكن قادرين على التَّواصل مع العالم بشكل كافٍ عن طريق البحر الأسود، ولهذا تم وصل الخطوط الحديدية إلى البحر المتوسط.

والجدير بالذِّكر أنَّ العمل بالخطوط الحديدية استمر إلى ما بعد الحرب العالمية الثَّانية. ولكن ما زال من الضَّروري أن نوسع نظام النَّقل هذا أيضا.

الحياة الاقتصادية بعد حرب الاستقلال

عندما دخلت البلاد مرحلة السَّلام بعد عام 1922م، أظهر المحصول الزراعي في تركيا ارتفاعا على النقيض من الدُّول الكبيرة المتقاتلة. أما من النَّاحية الصِّناعية فكانت الإمبراطورية في

حالة انهيارٍ مع حلول عام 1912م. حيث خرجت أراضي الإمبراطورية الواقعة في القسم الأوروبي من أيدينا، كما أنَّ المعامل التي كانت في سوريا ولبنان لم تعد تابعة لنا أيضا. بالإضافة إلى ذلك فإنَّ نصف الطَّبقة التي نقول عنها عاملة كانت تعمل خلال العشرينات في ورشٍ صغيرةٍ. أما المعامل الكبيرة مثل معامل التَّصنيع الحربي فكانت شروط العمل فيها بتركيا صعبة على العمال، ولكن بالمقابل كان الوعي بالجوانب المعيشية في النَّقابات والأحزاب مختلفا عن الغرب، إذ كانت الحياة مستمرة ضمن القوالب المحافظة، وكان نظام العائلة يساعد على هذا الانغلاق، وبالتَّالي كان معظم الشَّعب محافظا، ولم يكن يهتم بمواضيع مثل الأحزاب والنَّقابات.

وقد أظهرت المحصولات الزِّراعية في عام 1925م زيادة مقدارها 51 بالمائة مقارنة بإنتاج ما قبل الحرب، وكان المهم في الموضوع هو التَّالي: ما زال الوقت مبكرا على انتقال تركيا إلى الصِّناعة الثَّقيلة، ولكنَّها كانت تراكم الناتج الزِّراعي. وكان إلغاء بعض الضَّرائب في عام 1925م قد ساعد القرويين على التقاط أنفسهم، ولكن ينبغي هنا توضيح هذه النُّقطة لأنَّه وعلى النَّقيض من ضرائب الفلاحين، كانت ضريبة الطُّرق لا تزال مطبقة بعد عام 1950م، وهذا الموضوع سيكون سببا في معارضتهم للحكومة والحزب الحاكم خلال الحرب العالمية الثَّانية. ولا شكَّ بأنَّ فهم فترتي الحكم لحزب الشَّعب الجمهوري مهم جدا لمعرفة عصرنا الحديث وتغير النِّظام الاقتصادي. ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّه لم يتم تحصيل الضَّرائب من الشَّرق الذي يُعتبر ضمن القسم الفقير من البلد. وبالمحصلة لم تجرِ سوى بعض الاستثمارات الصَّغيرة والتي كانت مخصصة فقط للخط الحديدي، كما لم تكن هناك حتى طرقاتٌ، أي أنَّه لم يكن يوجد شيءٌ يُقدَّم مقابل الضرائب. ولعل أفضل تحليلٍ اقتصاديٍّ لتلك الفترة هو الذي قام به كوركوت بوراتاف.

وينبغي هنا التَّوقف عند نقطةٍ مهمةٍ، وهي أنَّ المؤسسات الصِّناعية والإنتاجية لم ترتفع لسنواتٍ طويلةٍ أي بعد تأسيس الجمهورية والفترة التي أعقبتها، بل إنَّ تركيا تستورد المواد المهمة التي تستخدمها من الخارج. ولكنَّنا شهدنا تغييرا في كميات المحاصيل التي نستهلكها، إذ استُخدمت الآلة في بعض المنتجات.

لم تكن تركيا ترغب بالمبادلة السكانية التي اقتُرحت عام 1924، والتي أصرت عليها حكومة فينيزيلوس، وفرض الكبار في أوروبا على تركيا قبولها. فتأمين شروط الحياة ل 500 ألف شخصٍ وإدخالهم بسرعة إلى عجلة الإنتاج كان له تأثيرٌ واضحٌ، وعلى منطقتي ايجه وتراكيا بالذات.

وكان العالَم الذي لم يستطع أن يلم نفسه بعد الحرب العالمية الأولى، ولم يستطع أن يجد لنفسه نظاماُ ماليا، ويعاني من الهبوط المزمن في العطالة، قد بدأ رغم كل هذه المساوئ مرحلة الانتقال.

وكانت بأوروبا قبل الحرب من أجمل الأماكن على الإطلاق. ولكنَّ الاقتصاد البخاري في عام 1929 لم يؤثر على وول ستريت فقط، بل امتد تأثير انفجاره إلينا. وقد كتبت أقلام كثيرةٌ دفاعا عن الاقتصاد البخاري، فقالوا بأنَّنا جلبنا التِّقنية الفنية بسعرٍ رخيصٍ من المعامل التي أُغلقت. ولكن بالمقابل جرت نقاشات كثيرةٌ حول الأسئلة عن "إلى أين سوف تأتي هذه التِّقنية، وأيُّ فئة عمالٍ وفنيين سوف يشغلونها".

ونذكر هنا أنَّ السُّلطان عبد العزيز، لم يتمكن مع الضباط المؤهلين الموجودين لديه من تشكيل وقيادة أكبر جيشٍ بحريٍّ، وذلك بسبب عدم امتلاكه فنيين وضباط صغار بالعدد الكافي.

وعلى كل حال فإنَّ تركيا في العام 1929م وبعده لم تكن متمسكة بالتَّحول إلى الصِّناعة. بينما كانت مناطق في روسيا مثل أوكرانيا (وفي أكثر الأوقات بركة وخصوبة) قد بدأت بالتَّبدل والتَّحول إلى الصِّناعة بذريعة الجفاف والخشية من الموت جوعا. وكان من الواضح أن كلاًّ من الصُّعوبات المالية والاجتماعية للتَّصنيع لا يمكنها تحمل هذه الآليات التلقائية.

لذلك فإنَّ شعار التَّأميم الذي وضعناه في العام 1930م، كان هدفه توجه الدَّولة نحو التَّصنيع لإنتاج موادٍ مثل السُّكر والرز، على أن يكون هذا التَّصنيع من طرف الدَّولة فقط. كما أنَّ المشروبات الكحولية كانت محتكرة من الدولة. وقد استطاعت زراعة التبغ أن تنهض في عصر الجمهورية، بينما كانت زمن الإمبراطورية تحتاج إلى دعمٍ من قِبل المزارعين. وإدارة هذه الأمور يعني احتكار الدولة، وبسبب الاحتياجات المالية الضرورية عملت الدولة على الوقوف على أقدامها عبر تحصيل الضرائب.

كانت تركيا تعيش بفترة استقرارٍ، حيث لا توجد بها هجراتٌ داخليةٌ كبيرةٌ، وكان هنالك ركود في الحياة الداخلية، واليوم ننعي بشوقٍ تلك السَّنوات التي حافظ عليها الموظفون الحكوميون وطبقة التُّجار الصغيرة التي كانت في المدن (والتي لا يمكن القول عنها بورجوازية). ولكنَّ المحافظة على نفس النِّظام لم يعد ممكنا خاصة بعد الحرب وخلال الحرب الاقتصادية. ومع ذلك

يجب القول إنَّ تركيا التي سبقت الكثير من الدول بعد الحرب العالمية الثَّانية بسبب عدم مشاركتها بالحرب، وبسبب التَّراكمات المعلوماتية والفنية التي حصلت عليها من الإمبراطورية، كان أساس نجاحها في كل هذا يعود بشكلٍ مباشرٍ إلى تلك الحقبة.

ويمكننا ملاحظة أنَّ سياسات الحماية في تركيا ساعدت على تطوير أنواعٍ من الصِّناعات وورشات الحرف، ولكن بالمقابل نشأت طبقةٌ متشبثةٌ بالعيش كعاطلين عن العمل، كم أنَّ البضاعة الرَّديئة التي أنتجتها سياسات الحماية أغرقت الأسواق الداخلية بالبضاعة الرَّديئة وساعدت على استمرار نظام الاستيراد. وأثر هذا على صعيدين: الأول، أنَّ الشَّعب أصبح ينظر إلى الصِّناعة الوطنية بازدراءٍ، والثَّاني، أنَّ الحرف المحلية لم تستطع أن تنافس هذا النوع من النُّمو الفاحش، لأن الإنتاج المحلي إذا أريد له أن يكون بجودة الإنتاج الخارجي فإنَّه سوف يكلف أكثر من إنتاج تلك الدول، وسوف يحتاج إلى جهدٍ أكبر، ولن يستطيع الوصول إلى السُّوق. وقد استمرت هذه المعضلة إلى السِّتينات، حيث كانت اتجاهات التَّنمية الصِّناعية في تركيا لا تزال مثل الدُّول الاشتراكية. وهو وضعٌ امتد إلى يومنا، إذ رغم ازدياد الإنتاج المحلي فإنَّه غير قادرٍ على منافسة الأسماء التِّجارية العالمية التي بنفس الجودة (باستثناء بعض الأنواع طبعا).

وبالرغم من كل شيءٍ فإنَّ الدولة التُّركية غير قادرةٍ على مواجهة الاحتياجات الصِّناعية، كما أنَّ ثمن الإنتاج الكبير غير مطروحٍ بعد.

وبالعودة إلى زمن الطَّاقة البخارية نلاحظ أنَّ الطَّلب على المنتجات الزِّراعية من قبل شريحة كبيرة كان منخفضا، وبالتَّالي كانت القدرة الشِّرائية لدى القرويين منخفضة. ولهذه الأسباب لم تكن تركيا الجديدة قبل عام 1939م جاهزة لحربٍ اقتصاديةٍ. وبالمحصلة أدَّى بطء النُّمو إلى منافسةٍ من الاقتصاد العالمي، أضف إلى ذلك أنَّ مشاكل الحرب العالمية الثَّانية أثرت على كل المواطنين وحدَّت من رفع مستوى حياتهم.

ورغم أنَّ حكومة رفيق سايدم وضع يدها على المنتجات الزِّراعية وقررت بيعها بسعرٍ منخفضٍ، لكنَّ المشكلة لم تُحل، لأن القرويين كانوا مساكين وكان ذلك غير عادلٍ بالنِّسبة لهم، ولهذا ازدادت حالات ذهاب الفلاحين إلى السُّوق السَّوداء للتعامل مع تلك التَّدابير الحكومية.

وقد عرفت تركيا خلال وبعد الحرب العالمية الثَّانية الزُّمرة التي نسميها "الحجي آغا"، وكانت هذه الزمرة سببا لمشاكل أخلاقيةٍ ومشاكل في الحياة الثَّقافية.

من دون شك فإنَّه يمكن توضيح نشوء ضريبة الثروة، ولكن هنا تظهر لنا مشكلةٌ وهي أنَّه بعد الثلاثينيات قامت جميع الحكومات التُّركية بتطبيق أحكام قاسيةٍ على الأقليات بموضوع الضريبة وهذا أمرٌ مستهجنٌ. والحقيقة هي أنَّ الهيكل التَّقليدي للدولة الذي كان موجودا قبل الحرب العالمية الأولى تبدل خلال الحرب العالمية الأولى قليلا، وكذلك تبدل بعد الحرب العالمية الثَّانية ولكن ليس بنفس المستوى القديم. وقد قامت الحكومات المتعاقبة بوضع يدها على أموال المجموعات المتحكمة برأس المال من غير المسلمين.

لقد كان تبدُّل هذه السِّياسة ممكنا بعد العام 1950م، ولكن بسبب بعض الإشكالات، وبعض العادات البيروقراطية، سوف يستغرق الأمر وقتا. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك هو النِّظام الذي وضعته اتفاقية لوزان لمدارس غير المسلمين والذي تم تطبيقه بشكلٍ مناسبٍ، فقد حمل فائدة شملت حياة المعارف كلها وليس الجمعيات غير المسلمة فقط، وأدَّى إلى نوعٍ من الليبرالية والانفتاح، وسمح للكثيرين بالاستفادة من هذه المدارس الجيدة.

وفي مجال الصِّناعة اكتسب تعليم طبقة المدراء أهمية أكبر بعد الستينيات، ولكنَّ هذه الطبقة لم تستطع مع الأسف أن تضع يدها على الصِّناعة، لأنَّ شروط الاقتصاد العائلي لا تأتي فقط من امتلاك العائلة للشركة، بل تنبع من جُبن رأس المال وسيطرة المسنين. وبالتَّالي لم يكن ممكنا تنفيذ الخطط التي جاء بها الإداريون الشَّباب، وخاصة في مجال الاستثمارات الكبيرة.

وبعبارةٍ أخرى فإنَّ تركيا أعطت أهمية للتَّعليم الفني، ولكن بعد العشرينيات أفلس التَّخطيط التعليمي والمؤسسات التَّعليمية في تركيا. ومن الأمثلة على ذلك: معهد غازي التَّعليمي، ومعهد تشابا التَّعليمي، ومدارس مهمةٌ أخرى أصبح وضعها سيئا بسبب السِّياسات الضَّيقة في السَّبعينيات. وإضافة إلى هذا، فإنَّ برامج إعداد المعلم الفنية التي أخذت أهمية كبيرة في فترة الجمهورية الأولى تعرضت لانتكاسةٍ، ويمكننا رؤية ذلك من خلال عدم امتلاك الصناعة التُّركية طاقما تقنيا مساعدا. والواقع أنَّ تلك البرامج التي بدأت في العشرينيات كان يجب أن تستمر لترفع قدرة الصِّناعة على التبدُّل والتَّطور والتَّجدد. ولكن بسبب التَّنمية الثُّنائية أصبح نظام التَّعليم الوطني في تركيا خلال

الثلاثينات متأخرا، وكان هذا هو السَّبب في تبدُّل النُّخبة وبروز نخبةٍ غير مؤهلةٍ، وفي عدم قدرة اليد العاملة في المجال الاقتصادي على دعم التَّطور.

أتاتورك والدِّين

هذا الفصل ليس موجها إلى الذين يرغبون بمعرفة علاقة أتاتورك الدَّاخلية بالدِّين، فهو أصلا شخصٌ غير متدين، ولكن من المضحك القول إن أتاتورك معادٍ للدِّين وبأنَّه سوف يطبق الفلسفة الوضعية. هل كنا نعتقد بأنَّه لو كان شخصا أكثر تدينا لقام بافتتاح التَّكايا وبناء جامعٍ كلَّ يومٍ؟! من المؤكد أنَّ الوضع ليس على هذه الشَّاكلة في كلتا الحالتين.

وفي الواقع كان هناك عددٌ من رجال الدِّين حول أتاتورك خلال مرحلة النِّضال الوطني، وبعض هؤلاء تعرفت إليهم في السَّنوات المبكرة من عمري، وهم رجال دينٍ وأصحاب معرفةٍ، وبعضهم يفهمون الأدب الشَّرقي ومتبصرون بعلم اللاهوت، بل إنَّ بعضهم كانوا يعرفون الفارسية والبهلوية. وهم كانوا حفاظا وملمين بالتَّفسير، ولكنَّهم كانوا يعرفون إلى جانب العلوم الإسلامية الثقافة الشَّرقية أيضا. إلاَّ أنَّنا لا نستطيع التَّأكد من مقدار قرب أتاتورك من هذه البيئة.

وفي موضوع تتريك الأذان كان فقط يقول للأتراك: "افهموا الأذان"، وتلك كانت فكرة ضياء غوكالب. وفي الحقيقة كان الأذان في المناطق الريفية يُرفع باللغة التُّركية ولكن بعد نزول المؤذن من المئذنة يعاود رفعه باللغة العربية، وكان هذا الأمر منتشرا جدا. والجدير بالذِّكر أنَّ القانون المتعلق بالأذان باللغة التُّركية ما زال موجودا، ولكنَّ القرار الذي يمنع الأذان باللغة العربية تم تحريره.

في الحرب العالمية الأولى حصل موقفٌ بين الجنود والعرفاء وليس بين القادة. فما هو هذا الموقف؟ كانت هناك حالةٌ من الكراهية للعرب قد أخذت تتشكل بسبب الأمور التي حصلت على جبهة سوريا وفلسطين والحجاز، ورغم أنَّهم لم يصلوا بهذا العداء إلى النبي محمد[78]، إلاَّ أنَّ الدرع الإسلامي خُدش قليلا مع الذين ذهبوا إلى الحرب، وكان هذا واضحا عليهم.

ومن الأقوال الشَّائعة أنَّ امتلاك القرآن كان ذنبا ذلك الوقت، وهو أمرٌ تم تلفيقه علينا بشكلٍ واضحٍ، وكان موجودا في الاتحاد السُّوفييتي، ولكن للأسف كانت هناك بعض الأمور التي كان يفعلها ستالين في روسيا، ثم يُزعم أنَّنا نحن من قمنا بها. والسُّؤال الذي يطرح نفسه هو أين سوف يخبئ الجميع المصاحف؟ مع أنَّنا بشكلٍ عامٍّ نضع المصحف بمكانٍ عالٍ احتراما له وللحفاظ عليه. وقد زعم البعض أيضا أنَّ تجريم امتلاك القرآن كان تنفيذا للقانون 430 الصَّادر بتاريخ 3 آذار/ مارس 1924م والذي منع الكتب المكتوبة بالحروف العربية. وهو زعمٌ غير صحيحٍ حيث كنا

نستخدم الحروف العربية في عام 1924م، ولكنَّ البعض يتحدثون عن هذا القانون وهم لا يعرفونه جيدا لأنَّهم اعتادوا الكذب والبهتان. وبالطَّبع يستطيع المرء أن يتبنى الفكر الذي يريده، وأن يكون ملتزما أو رجعيا ورافضا للتجديد، وهؤلاء موجودون في روسيا اليوم، وكانوا موجودين في تاريخها البارحة ولم يتقبلوا بطرس الأكبر. وأنا أعرف اليوم مؤرخين روس كبار لا يحبون بطرس الأكبر ولكنَّهم يملكون فكرا ومحتوى علميا يضيف للعالم شيئا نافعا.

نظرةٌ إلى العلمانية

كانت الدولة العثمانية دولة متسامحة، واتخذت في مجال الحياة العامة والحقوق الخاصة خطوات هامة، وطبقت حقوقا من خارج الدِّين الإسلامي، ولكنَّها كانت دولة تدار بالشَّريعة، بينما كان الفصل الدِّيني للمجتمعات أساسا في إدارة الأمة. ونلاحظ أنَّه حين بدأت الدَّولة بفقدان أراضيها فإنَّ السَّلاطين العثمانيين أخذوا يتمسكون أكثر بالخلافة.

كانت الجامعة الإسلامية هي الفكرة الأساسية في القرن التَّاسع عشر، وعندما بدأت الدولة في الإصلاحات فإنَّها عن قصدٍ أو غير قصدٍ دخلت في النِّظام العلماني. ولكنَّ المشاكل التي خلقتها في الحياة الإدارية والاجتماعية عانى منها آخر نسلٍ من العثمانيين، فجرى اقتراح وصفاتٍ علاجية خلال فترة المشروطية الثَّانية كحلٍ لتهدئة هذه المعاناة، إلاَّ أنَّ الطَّاقم السِّياسي والإداري أغلق السِّتارة من دون تسكين الآلام.

في عام 1924م تم إلغاء الخلافة ونفيت العائلة الحاكمة إلى خارج تركيا، ولو كانت الخلافة ما زالت قائمة اليوم، فإنَّها سوف تكون مكبلة، حتى وإن لم تتحول لموقعٍ سياسيٍّ. ولذلك اتخذت تركيا الجديدة والثَّورة موقفا حدِّيا عند وضع أساس المؤسسات العلمانية في مجال الحقوق وتوحيد التَّعليم، وتخلصت نهائيا من الثُّنائية التي كانت موجودة في نهاية العصر العثماني. وهكذا تم الدُّخول في عصر العلمانية وتعديل الدُّستور عام 1928م.

إنَّ الأساليب العلمانية، وعملية إزالة الفوضى التي حصلت بين المؤسسات المعاصرة التي أُنشئت في نهاية الدولة العثمانية وبين المؤسسات القديمة، والنَّظرة العلمانية للعالم، وضعت كلها الأساس لإنشاء الدولة المعاصرة، وجعلت من الممكن امتلاك نظامٍ حقوقيٍّ وإداريٍّ كاملٍ. وهو نظام أراد من خلاله الشَّعب الذي يتحدث نفس اللغة ويمتلك نفس الميراث الثَّقافي أن ينهي الانقسامات الطَّائفية والنِّزاعات التي في داخله.

إنَّ أساس كلمة العلمانية لاتينيٌّ. ولكن يبرز تاريخيا أثر التَّنوير الفرنسي في تشكل مصطلح الشَّخصية أي الحياة خارج الرُّوحانيات، وهو خطوةٌ مهمة في الطريق إلى العلمانية. وكانت الكنيسة قبل ذلك متحكمة في الأغلب بكلِّ شيءٍ ابتداء من الحياة العلمية والتَّحكم بالنَّشر (بشكل استبداديٍّ)، ولكنَّ هذه القوة تحولت إلى ضعفٍ، فالفئات الجديدة والتي تحمل الفكر الحر أصبحت قوية. وكان المثقفون منذ القرن السَّابع عشر في فلورنسا ومنذ أيام بوكاتشيو يتنبؤون بأفول عصر الكنيسة والرهبان.

ولكن السؤال، ما هي قدرة مفهومٍ كهذا على الدُّخول إلى العالم الإسلامي؟

إنَّ هذا الأمر يشابه إضافة الحليب فوق الطحين، فهو يختلط به تماما. ما هو المعنى؟ المعنى أنَّ العالم الإسلامي والذي لا يملك مؤسساتٍ، أو بالأحرى يتم رفض المؤسسات فيه من قِبل رجال الدين وزعماء الطُّرق، ليس قادرا على حل المشاكل أو إنهائها.

هل يمكن فصل الدين عن الدَّولة في الإسلام واليهودية؟

نظريا لا. فهتان الديانتان لا تدخلان إلى الدولة وإلى العلاقة معها فقط، بل تنظمان قواعد الطَّعام والشَّراب والحياة الشَّخصية أيضا. لذلك فإنَّ مبدأ وجود دينٍ وحياةٍ خارج الدِّين والتوفيق بينهما، يعني وجود تجاذباتٍ في كلتا الدِّيانتين، وهذه التَّجاذبات تتغير على الدوام.

ففي ثمانينيات القرن الماضي كان ينشب شجارٌ في القدس ليلة الجمعة من أجل عرض أو عدم عرض السينما. وحتى اليوم خارج توجد أسوار بلدية القدس مشاكل حول موضوع افتتاح الأسواق أيام السبت.

وفي القرن التَّاسع عشر كان الفرق بين التَّعريف الشَّرعي والأصولي لبعض الأمور في حركتي القاضي زاده وحركة الاستئنافي محمد فندي وحركات الأصوليين كبيرا إلى درجةٍ كبيرةٍ.

ويجب أن أضيف أيضا بأنَّ الإسلام المعاصر ومنذ القرن التَّاسع عشر تحدث عن التَّعليم المؤسساتي وعن ضرورة استفادة الجنسين منه، وبالرغم من المقاومة إلاَّ أنَّ الطَّرح لاقى القبول. ولكن ما زلنا نرى حتى الآن معارضَة ومقاومَة لهذه الأفكار بين المسلمين.

وتلك الاختلافات في الرأي تنسحب أيضا على مفاهيم أخرى، مثل الجهاد الذي له تفسيرٌ عند الجمهورية الإيرانية مختلفٌ عن تفسير جماعاتٍ مثل القاعدة الأفغانية. بينما نعرف أنَّ الجهاد يأتي معناه من التَّفسير الإسلامي للحياة، وكذلك فإنَّ الاجتهاد يستمد معناه من الأصل ذاته.

بدأت الإمبراطورية التُّركية والخديوية التابعة لها في مصر خلال القرن التاسع عشر بتطبيق التَّعليم العلماني، والأخذ بنماذج المؤسسات الغربية، فافتتحت مصر أول دار أوبرا في العالم الإسلامي.

وكان نواب البرلمان العثماني يعتقدون بأنَّ النِّظام الإداري والحقوق الإسلامية متناسبان، وأنَّ الدُّستور المكتوب والحقوق الإسلامية متناسبان أيضا. ومن المعروف أنَّ الإسلام كان هو دين الدولة في الدُّستور العثماني، وكذلك في دستور 1921م ودستور 1924م. ولكن أهم تعديل تم في عام 1928م على الدُّستور هو حذف مادة أن الإسلام هو دين الدولة، والاستعاضة عنها بالعلمانية.

كما أن إلغاء باب المشيخة واستبداله بوزارة الشؤون الدينية، أدى إلى تخفيض درجته البروتوكولية وقدرته على الفتوى، لأنَّه لم يعد طاقما يأتي بعد رئيس الوزراء، بل مجرد موظفين متصلين به. وأصبحت الشؤون الدينية تأخذ حصتها من الميزانية وتعطي معاشات بحسب القانون. وهنا أقول لأولئك الذين يدَّعون عدم وجود شيءٍ من هذا في هيكل العلمانية، إنَّ الذين أسسوا الجمهورية لم تكن لديهم طريقةٌ أخرى للتعامل مع الدِّين. فتركيا دولةٌ مسلمةٌ، مع عدم نسيان وجود جماعاتٍ لديها توجهاتٌ مختلفةٌ في الإسلام.

ومن جهةٍ أخرى لا يمكن وضع وصفٍ تفصيليٍّ للعلمانية في الدُّستور، لأن متن الدُّستور ليس متسعا لدرجة كتابة العلمانية كلها فيه. وفي الواقع تبدو العلمانية في العالم الإسلامي واليهودي كنظامٍ قائمٍ من خلال الممارسة ومن خلال التَّوافق الاجتماعي مع تطبيقه.

وإذا نظرنا في دساتير العالم اليوم سواءً تلك التي ورد فيها ذكر العلمانية أو تلك التي لم يرد فيها، نجد أنَّها جميعا تسير في طريق التَّعديل والذهاب نحو العلمانية. ولنأخذ مثلا فرنسا التي لم تتبع العلمانية بشكلٍ حديٍّ في العام 1789م وحتى في العام 1889م، أما إيطاليا فإن تأثير المذهب الكاثوليكي عليها في القرن التَّاسع عشر والعشرين لم يكن شديدا لدرجة أن يكون مؤثر على الحياة

الاجتماعية، ولا ننسى البروتستانت الأصوليين في هذا العالم الذين يختلف التأثير لديهم من يومٍ لآخر بين المجموعات المنفتحة والمنغلقة.

وبالطَّبع لا يجب أن نتوقع بأنَّ الجدل حول كلمةٍ ما من الممكن أن يجلب حلا، فالعلمانية يجب أن تبقى في متن الدُّستور، ويجب تدعيم نظام العلمانية الذي يعطي الحرية للشخص باختيار شكل حياته واختيار التَّعليم الذي يريده.

الموضوع الخلافي: الأذان باللغة التُّركية

يقال بأن مندريس هو الذي قام بإلغاء الأذان باللغة التُّركية، ولكنَّ الواقع أنَّ فكرة عدم الأذان باللغة التُّركية أتت أولا من حزب الشَّعب، وبعد ذلك دعم حزب الشَّعب الجمهوري عودة الأذان إلى وضعه القديم. وفي واقع الأمر لم يتم إلغاء الأذان باللغة التُّركية، بل تمت إزالة الغرامة الموضوعة على الأذان باللغة العربية.

ومن المعروف أنَّ ذلك الأمر بدأ به حزب الشَّعب في مدارس الأئمة والخطباء وكليات الشَّريعة، وكان الوكيل العام شمس الدين غونالتاي يجمع الطلاب الجمهوريين والعلمانيين في كلية الشَّريعة. وبالطَّبع فإنَّ مثل هذا التغيير الذي حدث لا يمكن حدوثه دون موافقة حزب الشَّعب الجمهوري.

الفرقة الحرة

أصبح وجود الفرقة الحرة، والتي أُنشأت بطلبٍ من أتاتورك بالذَّات، أمرا غير منطقيٍّ في تلك الأيام، لأنَّ اليساريين دخلوا إلى هذه الفرقة. ولم يكن ذلك هو السَّبب المخيف فقط، إذ يُقال بأنَّ قوة رجعية دخلت إليها أيضا. وأمام هذا الوضع لم يستطع حزب الشَّعب الجمهوري أن يحتمل الأمر، فرفع من وتيرة هجومه وأغلق الحزب.

كانت تجربة الفرقة الحرة موجودة في بلدٍ يعاني من أزمةٍ اقتصاديةٍ، حيث كانت تركيا دولة زراعية و85 بالمائة من سكانها قرويون، وكانت الكثير من القرى غير مفتوحةٍ على السُّوق، بل تعيش في اكتفاءٍ ذاتيٍّ. وباختصار كانت الدَّولة دولة متعَبة.

أما البلقان فكانت منطقة عصفت بها الحرب العالمية الأولى، وتعرضت بعدها للاحتلال، فسقط قرويوها شهداء بغاز النابالم وهم يحملون بأيديهم أدوات الحفر والحرث، كما عانت من مشكلةٍ

في عدد سكانها. أضف إلى ذلك أنَّ الدَّولة التُّركية، التي كانت في مرحلة تبدلٍ وتحولٍ حضاريٍّ، لم تستطيع حل مشكلة الأمراض الوبائية. وترافق كل ذلك مع عدم امتلاك الدولة كادرا قادرا على إحداث تغييرٍ اقتصاديٍّ. ولهذا كان المجتمع القروي الفقير مستاء من النِّظام المتبع، وكان على استعدادٍ لاستبدال كلِّ هذه الفئات الحاكمة. وبالمحصلة، لم يكن اليمين مرتاحا لذلك الوضع ولا اليسار، وكان الجميع يقولون بأنَّ هناك مجموعة من التُّجار لا تعطيهم فرصة لعمل شيءٍ.

كانت حركة الفرقة الحرة مكونة من أشخاصٍ إسلاميين وشيوعيين (وفق تسمياتنا الحالية) يريدون الانتقال إلى الليبرالية، وكان يوجد بينهم أصحاب أعمالٍ وتجارٌ. وكان من الواضح بأنَّ حركة كهذه لا يمكن أن يديرها شخصٌ مثل فتحي أوكيار. والملاحظ أنَّ كبار الحزب كانوا يخافون من قوة التيار الرجعي ونذكر هنا ما قيل عن أخت مصطفى كمال باشا حول أنَّها تقوم بدعايةٍ دينيةٍ في قرى يالاوا. ورغم هذا فإنَّه لم يدخل رجال أذكياء إلى حكم الولايات.

ويُعتبر عدنان بك مندريس، الذي سبق وتحدثنا عن انتقاله من حزب الشَّعب إلى الفرقة الحرة، من تلك الوجوه الجديدة. وقد قام مصطفى كمال أتاتورك لاحقا بتأنيب عدنان مندريس وسأله عن غايته. ولكنَّه قبِل النَّظر في دفاع عدنان مندريس، الذي كان شابا حسن الصِّيت، وكان ضابط احتياط، وشارك في حرب الاستقلال، وبقي في الانتخابات المتعاقبة من منسوبي حزب الشَّعب. وفي الواقع كان في هذا الحزب أناس يشهدون بالحق.

وقد كبرت الحركة كثيرا مع مرور الوقت، وتمركزت إلى جانب حزب الشَّعب في مدينة إزمير حاضنة المعارضة. وكانت إزمير حينها هي المدينة الثَّانية في تركيا لأنَّ أنقرة لم تكن بالمقدمة بعد، كما كانت منطقة غنية ومركزا لمنطقة إيجة. وعندما جرت الانتخابات البلدية حصلت الفرقة الحرة على أصوات عاليةٍ، مما زاد من خشية حزب الشَّعب من خطر الأفكار التي ربما تدخل إلى النِّظام، وبالأخص خطر الأفكار الرجعية، فأُغلقت الفرقة الحرة من قِبل مجموعةٍ معروفةٍ داخل الحزب. وقد مرت تلك القضية دون أيِّ اهتمامٍ، لأنَّ العالم كان في عطلةٍ ديمقراطيةٍ، وهي العطلة التي باتت أبدية.

ولكنَّ الديمقراطية عادت بعد 16 عاما إلى الواجهة مرة أخرى. وهي مدةٌ ليست قصيرة، إلاَّ أنَّ تركيا دولةٌ لا تُدار من قِبل حاكمٍ مستبدٍ لفترةٍ طويلةٍ، ولم تتم إدارتها على هذه الصُّورة بالفعل.

ونظرا لمعرفتي بأنَّ المفكرين الأتراك لا يحبون التَّاريخ والتَدوين الزَّمني، أقول إنَّ المقارنة التي قمت بها هي مقارنةٌ عامةٌ، فالانتخابات الديمقراطية لم يتم تجاوزها لفترةٍ طويلةٍ، ورغم أنَّ تركيا تأخرت بتأسيس الأحزاب مقارنة مع أوروبا، إلاّ أنَّ الحياة الحزبية أصبحت أساسية في البلد.

وبناء على موضوع البلقان فإنَّ فكر الاتحاديين ومنظمتهم ومهمتهم هي شعاراتٌ أصيلةٌ جدا. وهنا يمكنني الاستعانة بمقولةٍ شخصٍ كان يعمل في سابقا في السفارة السودانية في أنقرة، خلال حلقة بحثٍ في ليبيا بمدينة طرابلس الغرب عام 1982م، حيث قال: "إنَّ أي قرويٍّ في أقصى الأناضول يملك قوة في التَّفكير وثقافة أكثر من مخيلتكم".

الخلاف الذي لا ينتهي: محاكم الاستقلال

لم تخرج محاكم الاستقلال عن الإطار المعروف لمحاكم الثَّورات، إذ تبدأ ضد الذين ناهضوا الثَّورة ولكنَّها تتعداهم إلى غيرهم وبشكل أكثر قسوةٍ. وقد وصل الأمر إلى دجة محاكمة "كاظم كارا بكر باشا" وبالمطالبة بوضع في الحبس، ولكنَّ عصمت باشا أنقذه بسبب العلاقة القديمة التي كانت تربطهما، والمحبة التي كانت تجمعهما (وبالطَّبع أتم كاظم كارا بكر باشا حياته كرئيسٍ لمجلس الأمة ومات وهو في هذا المنصب).

وفي واقع الأمر تمت عبر هذه المحاكم محاكمة الأشخاص المناهضين للثَّورة أو للإصلاحات وبغض النَّظر عن تسميتهم. وقد بدأت مع الجنود الهاربين، وكان يتم التَّعامل معهم بقسوةٍ شديدةٍ، خاصة أولئك الذين هربوا أثناء فترة الدِّفاع عن البلد، فتمت إدانتهم واستصدار أحكام قاسيةٍ جدا ضدهم.

ونذكر هنا على سبيل المثال ناظر المالية "محمد جودت باشا"، الذي قيل بأنَّه بريءٌ ولم يشارك في محاولة الاغتيال، فهو شخصٌ اقتصاديٌّ من الدَّرجة الأولى، وابن تركيا وابن هذه الأرض، وشغل منصب مدير الدُّيون العامة، وكان يتقاضى مرتبا جيدا جدا. إلاَّ أنَّه لم يستطيع أن يكون وكيل المالية خلال فترة الجمهورية لعدة أسباب:

مصطفى كمال أتاتورك يستمع إلى محاضرة في أصول حقوق المحاكمات
مع طلاب السنة الثَّالثة حقوق في كلية الحقوق في جامعة إسطنبول) دار المعارف) عام1930 م.

أولها كونه سياسيا لا يقدر أن يصمت ويمسك لسانه، وثانيها أنَّه كان يتكلم ضد الحكومة وضد أنقرة وضد مصطفى باشا حتى عندما يكون على متن السفينة التي تعبر بين ضفتي إسطنبول. وهكذا أصبح شخصا منبوذا لا يريده أحد، والكل في الحزب يعتبره إنسانا متعجرفا. ولكنَّه كان بالمقابل شخصا متعلما وله كتابات في الاقتصاد، إذ كتب مع أحمد شعيب كتاب "مجموعة العلوم الاقتصادية والاجتماعية" والذي يحوي مضامين وملاحظاتٍ وتقييماتٍ مهمة، وهو كتابٌ لم يصدر مثله لسنواتٍ طويلةٍ بعد ذلك. أما فكريا فكان باعترافه من داعمي فكرة الاغتيال، ولكن لم يكن له علاقة بهذا الاغتيال حسب ما قال.

من الواضح جدا بأنَّ الثَّورة التُّركية لم تأتِ بتصويت الشّعب، ولا فوق السُّجاد الأحمر، فهي ثورةٌ جاءت بعد حربٍ طويلةٍ ومقاومةٍ. ولكن من المؤكد أنَّه لا يمكن مقارنتها بالثَّورة الفرنسية أو الثَّورة الروسية.

ومن المؤكد أنَّه حدثت مشكلةٌ في التَّوازن بعد فترةٍ معينةٍ، لأنَّ على النِّظام عندما تتوطد أركانه التَّوقف عن إنزال العقاب. وأورد في هذا السِّياق أمثلة من أماكن مختلفةٍ: فقد كان

ميهايلوفيتش مثلا واحدا من أنصار تيتو وكان ملكيا وصربيا، وعندما امتلك تيتو القوة بمرور الوقت وأصبح حاكما أوقف المحاكمات لاحقا، وصرف معاشا لمؤيدي ميهايلوفيتش الذين قاتلوا الألمان. وكذلك أوقف فرانكو المحاكمات أيضا بعد فترةٍ من الزمن.

وهذا هو المنطقي لأن النَّاس يصبحون خائفين بعد مدةٍ، وعندها لا يمكن معرفة ماذا سيحصل نتيجة خوفهم. ونحن أعلنَّا الجمهورية، وقمنا بالثَّورات، ولكنَّنا لا يمكن أن نذهب بموضوع المحاكمات إلى الأبد، لأنَّ تدوين التَّاريخ يُذكر الناس على الدَّوام.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ الكثير من الأشخاص يخرجون علينا بالقول: "لقد أُعدم جدي في محاكم الاستقلال"، وهو أمرٌ يجب البحث فيه جيدا، لأنَّه من الواضح وجود بعض الأقلام التي بالغت في الأعداد.

7

رئيس الجمهورية

الرجل الواحد

ذكرنا سابقا أنَّ الأمة التُّركية تحب الملوك بالرغم من أنَّها لم تشهد في تاريخها أيَّ ملكٍ. وكما كانت الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية الأتراك، فإنَّ هذه الجمهورية هي جمهورية الأتراك أيضا. وهنا لا ينبغي أن ننسى الملوك والماريشالات وزعماء القبائل الذين أسّسوها، وفي حال نسينا سيقوم آخرون بالعبث بشخصيات هذا التَّاريخ سلبيا أو إيجابيا. لذلك يجب ألاَّ يغيب عن بالنا القادة مؤسّسي هذه الجمهورية. وبالتَّأكيد فإنَّ قبول هذه الحالة يؤدي بالمرء إلى تسهيل عملية تفسير التَّاريخ وإظهار مستقبل سياسته على أحسن وجه.

إنَّ نظرية الديكتاتورية لم يتم صنعها مع تأسيس الجمهورية، إذ لم تكن هناك نظريةٌ تنصُّ على إدارة الشَّخص الواحد. بل على العكس، اشتكى مؤسسو الجمهورية من "أنور باشا" كثيرا، ومن "تريومفيرليك"[79] الاتحاد والترقي، وحتى من المركز العام داخل الاتحاد والتَّرقي. وهذا ما نسميه "ديكتاتورية المركز العام"؛ لأنه ينبغي عدم التَّعامل بقسوة مع الهيكل الدَّاخلي للاتحاد والترقي. ومن المعلوم أنَّه توجد في الأحزاب الشمولية "بوليت بيرو" بحيث تمرُّ آراء الأعضاء كما لو كانت متساوية، ولكنَّ واقع الأمر ليس كذلك؛ فهناك يمرُّ رأي شخصٍ واحدٍ.

وتطلق الأحزاب الفاشية على هذه الحالة اسم "دوتشي" و"فوهرر"، بينما يملك الاتحاد والترقي ديكتاتورية المركز العام، وبالتَّالي تمرُّ آراء ثلاثة أشخاص أو حتى خمسة أشخاص بشكلٍ عادلٍ.

لم يتبنى مصطفى كمال نظرية الدكتاتورية التي وُضعت مقابل نظرية الديمقراطية المزعومة، فجرب التَّعددية الحزبية مرتين، وكانت هذه الأحزاب هي الأحزاب التي أرادها بالطَّبع. (حدثت التَّعددية الحزبية التي أرادها أتاتورك بين 1950–1960 وفي زمن هذه التعددية كانت

الأحزاب تتبع مساراتٍ محددة، ولم يكن هناك الكثير من أحزاب أقصى اليسار، وكانت أحزاب أقصى اليمين ممنوعة). ولكن اتضح لاحقا أنَّ حدوث ذلك لم يكن واردا، لأنَّ حزب الاتحاد والتَّرقي أصبح على رأس الحكم خلال التَّجربة الأولى. كما دخلت طائفة من الأفراد الذين يسمون بالرجعيين في حزب فرقة الترقي بيرفير. وفي المرة الثَّانية دخل اليساريون فعليا، ولكن في تجربة حزب الفرقة الحرة، كانت أصوات الفرق الأخرى أكثر من أصوات اليساريين. وبالنَّتيجة لم يدرك حتى صديقه المقرب الذي كُلف بتأسيس الحزب ما الذي ستؤول إليه الأمور.

ونذكر هنا مثلا أنَّ أخته السَّيدة مقبولة انضمت منذ البداية وبإذنٍ منه إلى الجهة الأخرى، ولشدة انغماسها كانت تقوم بدعاياتٍ ضد العلمانية، فانطلقَت أصواتٌ تقول: "يجب أن نكون أكثر تسامحا مع الحزب الذي أسّسناه". وقامت شخصياتٌ مثل: كيليتش علي وعلي تشاتين كايا بمهاجمة أحد أصدقائهم في الحزب علنا متناسين المبادئ والتفاهمات التي جرت بينهم بحكم الوظيفة المناطة إليهم. وقاموا أيضا باتهام علي فتحي باي بالخيانة، وكان لهذا الأمر فائدةٌ كبيرةٌ.

كان أتاتورك زعيم إدارة الحزب الواحد، وبطبيعة الحال لا يمكن أن نطلق على ذلك تعبير "الديمقراطية"، كما لم تكن هناك أحزابٌ ناشطةٌ أخرى. ولكنَّه جرَّب تغيير الوضع في عام 1924م وعام 1930م، وفي كلتا المرتين واجه بكلِّ جديةٍ أحزاب المعارضة التي لم تكن كما أرادها، إذ رغب أتاتورك أن يكون هناك نوعٌ من التَّصالح في مستوى محددٍ وفي نقاطٍ معينةٍ.

وقد قامت المعارضة التُّركية بهذا النُّقاط في ديمقراطية 1946. ومن جديدٍ وفي نفس القالب؛ مجموعة تركت حزب الشَّعب ومجموعة تمثل المعارضة في توافق مع الحزب الحاكم حسب المبادئ الأساسية والخطوط المبدئية لنظام الحكم. ولهذا السبب، تعامل الحزبان (حزب الشعب الجمهوري والحزب الديمقراطي) بكل قسوة مع الأحزاب اليسارية الجديدة. ويمكن فهم هذا القاسم المشترك الأصغر، فالآخرون لم يكونوا جاهزين أيضا، ولم يعلموا ماذا كانوا يقولون وماذا كانوا يفعلون، ولم يتقبلوا الذين سموهم رجعيين. وبالتَّالي هناك كان هبوطٌ ناعمٌ وليس عنيفا.

وكان الحال شبيها بحال روسيا في عهد ستالين، فلا أحد يذكر الظُّلم الذي تعرض له موظفو الكنائس الفقراء، والذي تعرض له الدراويش.

وكان لكل التَّدابير والأحداث سلسلة. فما هي؟ كانوا يُعزلون، وبعد مدة يتم التَّوصل إلى تفاهم، والنُّقاط التي يتفقون حولها واضحةٌ؛ الجمهورية والعلمانية. ولكن بعد التفاهم يقع الخلاف حول درجتهم. وهذا ما كان عليه الحال داخل حزب الشعب. حيث لم يتوصل أيُّ طرفين في تركيا، بين عامي 1924 و1930م خلال تجربة الفرقة الحرة، إلى تفاهمٍ في موضوعٍ واحدٍ. ولهذا سبب تم إغلاق حزب المعارضة، وانتهت تجربة التَّعددية الحزبية، وحُكم على الديمقراطيات بالموت فالمناخ كان مناسبا لذلك.

ونذكر هنا أنَّ أتاتورك كثيرا ما أعرب أثناء وجوده في شانكايا، عن انزعاجه من التَّطبيقات بعد عام 1929م، حتى أنَّه استعمل عباراتٍ متعلقة بالديكتاتورية، فقال مثلا: "أنا لست مسرورا بخصوص هذا الوضع، أنا أيضا إنسان فانٍ ونحن لم نؤسّس الجمهورية لأنفسنا. ولكنَّ الصُّورة تبين نوعا من الديكتاتورية. بل إنَّها أصبحت هكذا بالفعل".

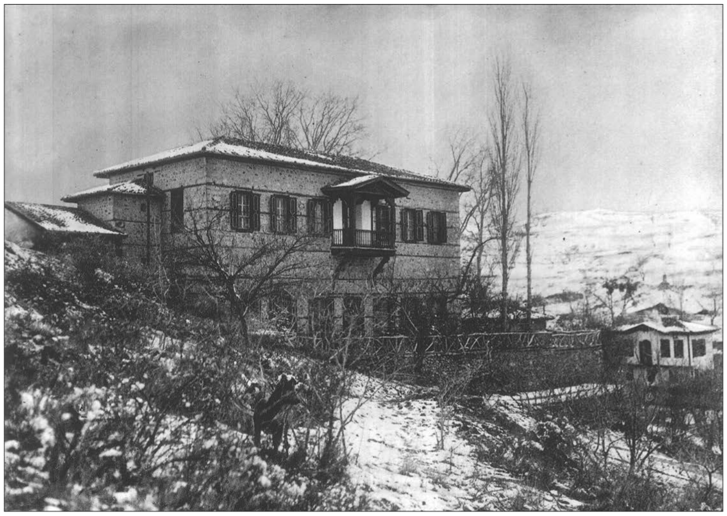

السَّنوات الأولى لقصر تشانكايا

ونذكر أيضا أنَّه لما رأى أتاتورك التَّقرير الذي أعده عصمت إينونو عن رجب باكر، ردّ بطريقةٍ قاسيةٍ قائلا: "هذه فعلا فاشية إيطاليا". وكانت تركيا، كما أوضح الدوتشي، حذرة وعدوة للفاشية الإيطالية بسبب الطُّموحات التُّركية.

كان النِّظام الذي طبقه أتاتورك في فترته هو توحيد القوة ومسؤوليات الدولة بمركزٍ واحدٍ، وكان كرئيسٍ للجمهورية يتدخل في كل شيءٍ، بحكم كونه رجلا قويا، ولكنَّ هذه التَّدخلات لم تكن مصرحا لها بسهولةٍ عند رئيس عصمت باشا الذي كان يحب القيام بالعمل بمفرده، وقد تعود على ذلك.

الحزب الواحد

لماذا كان نظام الحكم نظاما ذا حزبٍ واحدٍ؟ لنلقِ نظرة على عالم سنوات الثَّلاثينات؛ أين كانت وكيف كانت ديمقراطيات التَّعددية الحزبية؟ في مؤتمر الديمقراطية في فيينا بالنّمسا، أطلق برنارد لويس[80] عبارته المستهزئة كأنها طلقة رصاصٍ ولم يرد عليه المستمعون الأوروبيون بشيءٍ، حيث قال لويس: "الديمقراطية هي نظام الدُّول الناطقة بالإنكليزية".

وإذا تمعنَّا في هذا الحكم سنجده صحيحا، فمتى أصبحت دول أوروبا الغربية دولا ديمقراطية؟ ولأي درجةٍ؟ لقد أصبحت جميعا كذلك بعد الحرب العالمية الثَّانية. وعلى سبيل المثال كانت البنية الديمقراطية موجودة في فرنسا ولكن عُطِّلت أكثر من مرة وبشكلٍ قاسٍ. وبالتَّالي قيَّم لويس هذا الموضوع كونه يعيش وسط هذا العالم.

لقد كانت هناك عدة ادِّعاءاتٍ حول المحاولات التي قام بها أتاتورك للعبور إلى التَّعددية الحزبية، فالبعض يقولا مثلا إنَّه فعل هذا لكي يعرف مَن هو إلى جانبه ومَن هو ضده، ومن ثم يصفي الذين هم ضده. وذلك الادعاء ليس مصيبا بالتَّأكيد لأنَّ هذه الأمور ليست ألعاب أطفال؛ كقولنا: "ليخرج مَن هو معي ومن هو ضدي كي يبين نفسه".

يوجد اليوم في إسطنبول وحدها 30 ألف شرطيٍّ، ومع هذا نجد العدد قليلا. ولكن هل تعلمون كم كان تعداد الشرطة في تركيا ذاك الزمن؟ كان عدد السُّكان 17 مليون وعدد الشُّرطة حوالي 9 آلاف شرطيٍّ. وقد قام هؤلاء الناس بتنظيم الأمور بشكلٍ جيدٍ. وعلينا هنا أنَّ نضع في الاعتبار عدم صوابية التَّعامل بمزاحٍ مع هذه التَّجارب، وأنَّ أيَّ ادعاءٍ حولها لا يتعدى كونه كلام مقاهٍ، وفي حال كانت بعض الادعاءات صحيحة فيجب التَّحقق منها بطرقٍ أخرى.

في الحقيقة أراد أتاتورك أن يظهر في صفوف الديمقراطيات الغربية، ولكن ما هو المحيط الذي نقصده من قولنا الديمقراطية الغربية في العام 1924؟ إنَّ القارة كلها، أي في جغرافية الدول

التي تمثل اليوم الاتحاد الأوروبي، لم يكن فيها ديمقراطيةٌ. بل يمكننا حتى الحديث عن عصر الديكتاتوريات في العالم مثل: هتلر وستالين وموسوليني.

وفي النِّهاية، مثل هذا النظام اسمه استبدادي وليس شموليا. ونورد هنا ملاحظة، وهي أنَّ "فدات نديم تور" الذي دخل بصفته شيوعيا، أصبح فيما بعد المدير العام لذاك النِّظام. وهو الرجل الوحيد من تركيا الذي توجد إحدى لوائحه ضمن وثائق الشُّيوعية الدُّولية، باعتباره الأمين العام للحزب الشُّيوعي التُّركي.

وأتحدث عن ذلك بالتَّفصيل، فقد ذهبتُ عام 1089م إلى روسيا كضابط محفوظاتٍ في رئاسة الوزراء، في إطار اتفاقٍ بين أرشيف رئاسة الوزراء وأرشيف الاتحاد السُّوفييتي. ودخلنا إلى أرشيف الحزب الشُّيوعي (اليوم هو أرشيف العلوم السِّياسية)، حيث كان الموظفون لطفاء لأقصى درجة، وأطلعونا على الملف التُّركي في أرشيف "بوليت بيرو"[81].

وللتوضيح: تنص القاعدة على أن يقوم كل حزبٍ شيوعيٍّ قوميٍّ بعرض مقترحاته الاستراتيجية السَّنوية على "الشُّيوعية الدُّولية" ثم على لجنة صنع السياسة العامة. ويتم تصنيف التَّقارير، حيث يُحتفظ بالتقارير التي يرون أنها مهمةٌ، أما التي ليس لها قيمةٌ فيجري مسحها بكل سريةٍ.

وقد وجدتُ ملف الحزب الشُّيوعي التركي فارغا، إلاَّ من ورقتين مكتوبٌ فيهما ملاحظات بأحرف عربيةٍ، كان السَّيد فدات نديم قد كتبها.

ويبدو التقرير مهما لأنَّه يشير إلى نشاط الطَّبقات، فهو يقترح على عمال النَّظافة والبوابين والسَّائقين وغيرهم من العمال جمع المعلومات عن الأحياء التي يسكنها البرجوازيون. وهذه الطريقة مهمة ومفيدة جدا بالنسبة لحزبٍ شيوعيٍّ فتيٍّ لمعرفة محيطه.

كان السَّيد نديم قد تلقى في ألمانيا تعليما على نهج ماركس، ثم تقلد منصب الأمين العام إلى غاية طرده من الحزب.

وبعيدا عن تلك الوثيقة الهامة نتبين أنَّه لم يكن هناك أيُّ تقريرٍ أو نشاطٍ مهمٍ للحزب الشُّيوعي التركي. وبالطَّبع فإنَّ هذه الوثيقة يجب أن تكون في أرشيف رئاسة الوزراء في قسم تاريخ

الجمهورية، حيث تم لاحقا تسليم نسخةٍ عنها.

كان نموذج الدَّولة جبروتيا وفي نفس الوقت ذكوريا، مما ترك أثرا على الثَّقافة أيضا. وبالرغم من اختلاف القوانين والمواطنين والأنظمة إلاَّ أنَّ الحالة كانت هكذا في كل القارة. ومن المعروف أنَّ النظام الديمقراطي هو إنغلوساكسونيٌّ في الأصل، لذلك نرى أحيانا ظهور خللٍ في أوروبا. فعندما يتم الحديث عن استحضار تطبيقاتٍ ديمقراطيةٍ، يتضح أنَّ ذلك بالنِّسبة لجماعاتٍ أخرى ليس إلاَّ بيئة قمعية جديدة.

الثَّورة الأكثر تأييدا: قانون الأسماء الأخيرة

يوجد من بين مبادئ الثَّورة لتكوين "مواطن" قانون "الأسماء الأخيرة"، فمثلا عندما استولى نابوليون على أوروبا وطلب من القرويين في مناطق هولندا وألمانيا اتخاذ ألقابٍ، قاموا باتخاذ أسماء مستوحاة من الحياة الريفية. وفي تركيا أيضا اتخذ الناس ألقابا تعبِّر عن حالتهم في ذلك الوقت، فالمجتمع التركي تغيب عنه المعايير الأرستقراطية. وينطبق هذا أيضا على الدُّول الأخرى التي عاشت تحت الحكم العثماني مثل بلغاريا ومقدونيا، ولكن بقيت بعض السُّلالات الحاكمة في دول البلقان والدول العربية.

يُعتبر الباشا في المجتمع العثماني شخصا مُجندا، حتى ولو كان نجل السُّلطان. وإن لم يعرف تسيير الأمور فإنَّ أولاده يقومون بذلك، وكان هذا يكلفهم كلَّ ثرواتهم ومناصبهم. أما في روسيا مثلا فالأمر ليس كذلك، إذ يمكن له أن يواصل حياته الأرستقراطية بفضل لقبه الذي يأخذه من العائلة، ويكون محميا من طرف الدولة إلى حدٍّ معين.

وبالمقابل كانت السُّلطة في الإمبراطورية العثمانية تعتمد على النخبوية ولم يكن لها هيكل أرستقراطي، ولذلك لم تواجه عملية العبور إلى المواطنة أيَّ اعتراضٍ. أي أنَّ "المواطنة" لم تُصنع لكي تعاكس الأرستقراطية.

وتُعتبر تركيا البلد الأقل استعمالا للألقاب (مقارنة بطريقة تسمية الملوك والفراعنة وغيرهم) ولذلك كان قانون الأسماء الأخيرة هو التغير الأكثر قبولا. وبعد سنة 1970م تم إضافة كلمة "ساين" بمعنى عزيز التي أصبحت تُتداول في الأوساط الإدارية والرَّسمية.

وقد نال الضُّباط في المدن حصتهم من التَّعب فيما يخص قانون الأسماء الأخيرة، حيث كانوا يلقنون الناس الأسماء الأخيرة، وقد لا تعجبهم الأسماء التي يختارونها لهم أو قد يقولون إنَّها موجودةٌ سابقا. ولم تكن لدى السُّكان القدرة على قراءة هذا القانون وكل ما يتعلق به، حتى أنَّ بعضهم كتبوا أسماءهم الأخيرة بشكلٍ خاطئٍ مما أدى إلى قيام دعاوى قضائية لاحقا.

وهكذا خلق انتقال الديمقراطية إلى الريف شيئا من المشاكل، بينما أصبح شرفاء المدن يختارون الأسماء التي يريدونها ويغيرونها في أي وقت مما جعل منها نكتة أدبية.

وقد أعطى أتاتورك ألقابا لأصدقائه، وكانت معظم تلك الأسماء مستوحاة من المعارك والحروب التي انتصروا فيها كعسكريين. فأعطى مثلا اسم بريهان أرابورنو لنجله وقبِلَه هذا الأخير، وبقي اسم الشَّهيد بطل أرابورنو لكل العائلة. وكذلك اختار لقب إينونو والآخرين، ولكنَّهم اتفقوا أن يكون الاسم الأخير "أتاتورك" له وحده فقط ولا أحد غيره، وألاَّ يعطى لأقربائه ولا حتى لأخته.

عندما كان برتبة رائد ثم مقدم ثم كولونيل وحتى بعد الانتصار في شَناق قلعة أي عندما أصبح برتبة عميد جنرال، كان اسمه مصطفى كمال باي، ثم بعدها مصطفى كمال باشا. وبعد الانتصار في سَكاريا، أضاف مجلس الأمة الكبير لاسمه لقب غازي، وأصبح الغازي مصطفى كمال باشا. وهكذا بقي اسمه إلى غاية قانون الأسماء الأخيرة، حيث كان أتاتورك بعد لقبه هو اسمه المدني. وهكذا فإنَّ كلَّ من يريد أن يتحدث عنه يستعمل لقب أتاتورك لأنَّه سهلٌ خاصة عند الكلام. ولكنَّني اعتدتُ استعمال "الغازي مصطفى كمال باشا" بسبب كوني مؤرخا. وبالطَّبع فإنَّ لقب باشا هو اسمٌ تقليديٌّ، ورغم أنَّه أراد أن يُخاطب باسم "جنرال"، ولكنَّه لم يعارض أن يناديه أحدٌ "باشا".

اتفاقية البلقان واتفاقية سعد أباد

لم تكن معاهدة البلقان أمرا جديدا في تاريخ تركيا، إذ سعى عبد الحميد الثاني بعد عام 1878م إلى التَّقرب من كل دولة من دول البلقان على حدة، ليمنع إلى حدٍّ ما أيَّ محاولةٍ لقيام اتحادٍ في البلقان. ولم تكن تلك اتفاقية في حقيقة الأمر بل إجراءٌ للحد من تقوية حكم الإمبراطورية التُّركية في بلدان البلقان ولمنع الاتفاق معها.

ونجد هنا أنَّ العلاقات مع اليونان وبلغاريا وصربيا هي من الحركات والعلاقات التي يجب أن تُدرس أساسا، ولعل العلاقة الأكثر إثارة للانتباه هي العلاقة التي كانت تسير في اتجاهٍ جيدٍ نتيجة حُسن تسيير الشؤون الخارجية الرومانية على يد نيكولاي تيتولاسكو، قبل انقلاب أنتونيسكو على الأقل.

وفي ما يخص اليونان، فقد نجحت محاولات السَّلام مع فانيزيلوس واستمرت أيضا خلال حكم ميتاكساس. ولكن بسبب زيارة فانيزيلوس لروما، في وقتٍ كانت فيه العلاقات التُّركية الإيطالية غير جيدةٍ، اتخذت مبادرات السَّلام مجرى آخر.

كما تُعتبر حالة بلغاريا مهمة من بين دول البلقان الأخرى، لأنَ مشاكل مقدونيا بين بلغاريا وصربيا، ومسألة رومانيا ودوبروجا وكذلك الصِّراع الأبدي مع اليونان منعت كلها بلغاريا من الحضور بشكلٍ نشيطٍ في اتفاق البلقان.

وفيما يتعلق بألبانيا فإنَّ أتاتورك عندما كان رئيس الجمهورية أقام علاقاتٍ جيدة مع أحمد زوغ[82]، إلى أعلن هذا نفسه ملكا، فرأى أتاتورك أنَّها إهانةٌ لقيم الجمهورية. ولكنَّ الأهم من ذلك أنَّ ألبانيا كانت تراودها باستمرارٍ شبهاتٌ حول جيرانها في البلقان ولم تدخل في أيِّ اتفاق، وعاشت أسوأ علاقاتها خلال حكم فانيزيلوس. ولكن بمرور الوقت دخلت ألبانيا تحت النُّفوذ الإيطالي، وأدى هذا الوضع إلى خسارة أحمد زوغ لعرشه.

وعلى كلِّ حالٍ كان هناك لاتفاق البلقان جانبٌ رومنسيٌّ فقط، فنواب البرلمان في اليونان كانوا تماما مثل النُّواب في تركيا يسافرون دون أن يدفعوا أجرا، ويهتمون بالأعياد الوطنية، وكانت الأقليات في كلٍّ من الدولتين تتمتع من وجهة نظرهم بالحرية والانسجام. ورغم أنَّ مسألة البطريركية الأرثوذكسية التركية[83] المستقلة كانت قد انتهت، إلاَّ أن هناك أمرا كان غير مفهوم وهو خروج حسين جهيد يالتشين ضد حكم البابا أفتيم للبطريركية. كع التَّوضيح هنا أنَّه في العام 1930م كانت البطريركية على شكلها التَّقلدي، أي أصبحت تشبه المفهوم الحالي للكنيسة.

في تلك السَّنة، 1930م، ألقى فانيزيلوس خطابه: "أولئك الذين يتهمونني ويقولون إنَّني ذهبت في زيارة لأنقرة يتناسون وقوع الجيش اليوناني هنا كضحيةٍ. إنَّ هضبة أناتوليا، حيث أقف الآن،

كانت ميدان حربٍ لازالت تحمل آثارها إلى اليوم. لماذا يتوجب علينا أن ننسى هذا؟ هل لأن الأتراك نسوه ويريدون أن نعمل معا الآن؟".

وقد أعلن عن الاتفاق رسميا في المجلس بتاريخ 1 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1930م. وخلال زيارة ماكسيموس لروما في 13 كانون الثَّاني/يناير عام 1934م أوضح لموسوليني أنَّ الاتفاق ليس ضده. بينما قال الضيوف الأتراك الذين زاروا الملك ألكسندر في بلغراد إنَّ الملك يشعر بالقلق إزاء سياسة اليونان.

أتاتورك يشاهد الطائرات خلال مناورة للطيران تنظمها الأكاديمية الحربية، عام1936 م

في ظل هذه التَّطورات ينبغي وبدون شكٍّ التَّفكير في اتفاق سعد أباد بالتَّوازي مع اتفاق البلقان. حيث كانت تلك الفترة من أهم الفترات التي شهدت فيها العلاقات التُّركية الإيرانية تقاربا أدى إلى ظهور نتائج واضحةٍ، وكانت تلك النَّتائج ثقافية.

ولم تكن اتفاقات هذه الفترة موجهة ضد روسيا السُّوفييتية، وبكل تأكيدٍ لم يكن يُراد في العام 1933م إزعاج ألمانيا. كما أنَّ التَّقارب مع فرنسا وإنكلترا سيتواصل. أما بالنِّسبة يوغوسلافيا فإنَّ العامل الوحيد المشترك بينها وبين تركيا هو كراهية إيطاليا موسوليني، ولكن بالمقابل لم يعترض أحدٌ على التَّقارب بيت فانيزيلوس وإيطاليا. وكان هذا غالبا أحسن حلٍ إداريٍّ وديبلوماسيٍّ بعد الحرب العالمية الثَّانية لدولةِ اقتصادها ضعيف وجيشها يقبع في مستويات منخفضةٍ من التسليح.

وبالمحصلة أعارت تركيا اهتماما كبيرا للدبلوماسية، على النَّقيض مما هو سائدٌ في تلك الفترة، وقد كانت ناجحة في ذلك.

لقد عرفت السِّياسة الدَّاخلية وتنظيم حياة المجتمع نوعا من الاستبداد في تركيا الكمالية، خلال المرحلة التي عُرفت بانتشار الشمولية، عقب فشل تجربة "الفرقة الحرة"، بالرغم من أنَّه سيتوجب التَّوجه إلى التعددية الحزبية بعد فترةٍ. أما عن السِّياسة الخارجية التُّركية، فقد حاولت بقدر الإمكان الهروب من التَّبعية لإيطاليا الفاشية وألمانيا النَّازية، كما اهتمت بإنشاء علاقاتٍ مع دول البلقان والشَّرق الأوسط بديلا عن الدُّخول في اتفاقاتٍ مع الدول الكبيرة.

في تشرين الأول وتشرين الثاني/أكتوبر ونوفمبر عام 1933م قام ممثلو حكومات دول البلقان بزيارة تركيا بشكل مكثف. وفي النِّهاية قامت كلٌّ من اليونان ورومانيا ويوغوسلافيا بتوقيع اتفاقية البلقان مع تركيا يوم 9 شباط/فبراير 1934م. ولم تقم تركيا بإقحام بلغاريا وألبانيا بسبب الخلافات المعقدة على مقدونيا ودوبروجا[84] وغيرها، حيث بقي هذان البلدان بقي خارج الاتفاقية نتيجة مطالبتهما بالأراضي، ودخولهما تحت نفوذ الفاشية الإيطالية والنَّازية الألمانية الذي اشتد يوما بعد يوم.

وفي نفس الوقت كانت علاقات الصداقة التُّركية السوفييتية على أحسن وجه، حيث أبرزت حكومة أنقرة اهتماما بارزا لزيارة فوروشيلوف لتركيا، فتحولت زيارة الصَّداقة، التي ترافقت مع الاحتفالات بمرور عشر سنواتٍ على تأسيس الجمهورية، إلى استعراضٍ كبيرٍ، إذ رقص أتاتورك وفوروشيلوف، أثناء الحفلة الموسيقية التي نُظمت بأنقرة، بعض الرَّقصات الشَّعبية. ونورد هنا واقعة رواها بعض الضباط السابقين من الجيش الروسي؛ فخلال الحفلة الموسيقية قامت سيدةٌ بدعوة فوروشيلوف للرَّقص ولكنَّه لم يكن يعرف كيف يرقص فرفض بخجلٍ، وعند عودته إلى روسيا أعطى الأوامر لضُّباطه بتعلم الرَّقص. وربما يمكن العثور على تفاصيل هذه الواقعة في أرشيف التاريخ العسكري الموجود في حي ناماتسكايا سلوبودا. ويبين هذا بوضوحٍ أنَّ الجيش الأحمر وجيش الجمهورية لم يحملا كراهية للحضارة المعاصرة وثقافة الحفلات الموسيقية.

ولكنَّ تلك الأمور لا تعني تقرب نظام الحكم التُّركي من الاتحاد السُّوفييتي، إذ لم يكن التَّفكير في نشاطات المنظمات اليسارية واردا في هذه الفترة.

وبالإضافة إلى اتفاقية البلقان، تم أيضا عقد اتفاقات الصَّداقة مع دول الشَّرق الأوسط، وهكذا تم السَّير في اتفاقاتٍ على نطاقٍ واسعِ النطاق، وهذه الاتفاقات ضد الدول العظمى كانت من نجاحات السِّياسة الخارجية لتركيا الكمالية. وقد فتح هذا الطريق مجالا كبيرا أمام زعماء مثل تيتو ونهرو (اللذين كانا قد خرجا من حربين كبيرتين) حيث قامت أغلبية الدول التي أخذت استقلالها من الاستعمار بصياغة كتلةٍ عالميةٍ ثالثةٍ.

وفي الواقع كانت تركيا تسعى إلى تكوين قوةٍ بعيدا عن فرنسا وإنكلترا الاستعماريتين، وبعيدا عن ممثلي العدوان والفاشية ألمانيا وإيطاليا، وكذلك بعيدا عن دول البلقان التي لم تكن تحب الاتحاد السوفييتي كثيرا.

ثلاثينيات القرن الماضي،
أنظمة الحكم في البلقان وتركيا الكمالية

كان تأثير معاهدة نويي[85] بالنَّسبة لبلغاريا يماثل تأثير معاهدة سيفر بالنِّسبة لتركيا، إذ تم تسريح الجيش وجمع الأسلحة أيضا. ولم تكن بلغاريا لتدخل في أي معاهدة ضد دول الحلف، ولكن رغم هذا قام الكسندر تامبولسكي[86] بدعم مصطفى كمال في النِّضال الوطني بشكل غير رسميّ. وعندما تعرَّض الجيش التركي لخسائر في تراقيا قام الجيش البلغاري بإرسال الأسلحة إلى تركيا. وفي اليوم الذي جرى فيه إبطال معاهدة سيفر، طالب ستامبولسكي بإبطال معاهدة نويلي أيضا.

كان النِّظام القائم في بلغاريا داعما للقرويين الذين لا يملكون الأراضي ولعمال المزارع، ولكن في نهاية عام 1923 قام البروفيسور تسانكوف، وزير الحرب ومجموعةٌ من الجيش بانقلابٍ عسكريٍّ واغتيال ستامبولسكي، كما تعرض الحزب الشُّيوعي لنفس العاقبة، (كان يمثله 20 نائبا في مجلس الشَّعب إلى غاية ذلك التَّاريخ). وهكذا بدا من الواضح أنَّ النِّظام القائم هو نظامٌ فاشيستي، ولكن رغم هذا كانت لديه نقاط ضعفٍ أيضا. وقد انتشرت في تلك السَّنوات حركات اليساريين عبر الجرائد، كما توسعت دائرة احتجاجات الطلاب في بلغاريا. إلاَّ أنَّ أنظمة الحكم في دول أوروبا الشرقية والبلقان لم تكن تضاهي قسوة وصلابة أنظمة حكم الألمان، حيث كانت هناك تحركاتٌ لليساريين في الأوساط الاجتماعية بمقدار معينٍ وإن بشكلٍ سريٍّ، ويمكن الحديث حتى عن احتجاجاتٍ ومظاهراتٍ ولقاءاتٍ لليساريين.

وفي رومانيا تمت الإطاحة بحكومة المزارع ليورغا سنة 1930م من قِبل الضباط الفاشيين الذين يُطلق عليهم اسم "ليجونار" بقيادة أنتونيسكو. وفي كل من بلغاريا ورومانيا لم يتم الاعتراض على الانقلابات العسكرية ضد القيصر والملك. ومع الوقت دخلت رومانيا تحت نفوذ النَّازية الألمانية لأنها كانت الجبهة الأقرب لها، وقد قام هورتي[87] بالتَّقرب من الألمان والاتفاق معهم كي يضمن عدم خسارة ترانسيلفانيا من رومانيا، وكذلك الأمر بالنِّسبة لإقليم دبروجة في بلغاريا. أما العلاقات التُّركية الألبانية الجيدة فشهدت برودة في العام 1924 بعد أن أعلن أحمد زوغ عن نفسه ملكا عندما كان رئيسا للجمهورية، فجرى سحب السُّفراء بين الطَّرفين مؤقتا، حتى قام أتاتورك باستئناف العلاقات من جديدٍ، ولكن تم إرسال السَّفير الألباني روشان أشرف هذه المرة مع تعليماتٍ تنص على عدم التَّصريح أو القيام بأمورٍ تدل على تقربٍ أو تعاطفٍ مع الفاشية الإيطالية لأن ألبانيا كانت في تلك السَّنوات تحت النُّفوذ الكامل للفاشية الإيطالية.

وفي اليونان وبعد أن قام فنزيلوس بالتَّخلص من الملكية والإعلان عن الجمهورية، تم القضاء على هذا النِّظام من طرف الجنرال الانقلابي "ميتاكاساس" واستدعاء الملك من جديد. في هذه الفترة كان هنالك صيدة شيوعية غير مرئية في اليونان والبلقان. وكانت تلك المرحلة مرحلة دولةٍ إرهابيةٍ كبيرةٍ. ويُذكر أنَّ ميول ميتاكساس كانت نحو ألمانيا وإيطاليا، ولكنَّ بنية الحرب العالمية الثَّانية تغيرت، فلم تكن اليونان في صف دول المحور بل في صف دول التَّحالف.

أما عن يوغوسلافيا فقد كان اسمها حينذاك مملكة الصرب/السولفان/كروات، وتغير اسمها إلى مملكة يوغوسلافيا في عشرينات القرن العشرين. وقد حدث تحركٌ من الوطنيين وعصيان ضد الفيدرالية، فقام في تلك الأثناء "راتشيتش" من الجبل الأسود بإطلاق النار في مجلس الشَّعب على النائب الوطني الكرواتي "راديتش". لكنَّ الملك قام في سبيل تهدئة الأوضاع ومنع أيِّ صراعٍ متبادلٍ بين الطَّرفين بتكليف الجيش ليأخذ بزمام الأمور الإدارية، وبهذا الشَّكل تم حل الموضوع.

وبصورةٍ عامةٍ بدأت فترة زوال الديمقراطيات في البلقان تدريجيا، ودخلت المنطقة تحت نفوذ الدُّول الكبرى، وتحت حكم الحزب الواحد والقائد الواحد، بينما جرت في تركيا بالوقت ذاته تجربة العبور إلى التَّعددية الحزبية مرتين. ولا بدَّ من الانتباه هنا ومن وجهة نظرٍ تاريخيةٍ إلى الأهمية التي يكتسبها قيام تركيا بالتَّخطيط للعبور إلى الديمقراطية، واختيارها كأسلوبِ حياةٍ (نرى

ذلك في دستور 1924م)، وتقديم الديمقراطية على أنَّها هدف التَّطوير والتَّنظيم الاجتماعي، رغم أنَّ هذه الخطوات أتت وسط عالمٍ أفلست فيه الديمقراطية والعقلية الليبرالية بين حربين كبيرتين.

وبالتَّالي فإنَّ تاريخ تركيا بين الحربين، هو فترة افتخارٍ لكل تاريخ تركيا. وأجد من المفيد تقديم بعض الشَّرح لاستيعاب المرحلة التي عاشتها تركيا بعد سنوات 1920م. فبعد خسارة ألمانيا الحرب، تم تأسيس جمهورية فايمر في 1919م من طرف الديمقراطيين الاشتراكيين بقيادة فريكريش ايبيرت كنظامٍ دستوريٍّ، ولكنَّ تطبيق نظام الإمبراطورية الألمانية على الجمهورية أدّى إلى استمرار الاستبداد. وكانت ألمانيا، التي دمرتها البطالة والتضخم، غارقة تحت ضغط الدول المنتصرة، والتَّعويضات التي طالبوا بها، وكذلك الاحتلال وضم الأراضي. كما كان الشُّيوعيون والديمقراطيون الاجتماعيون والنَّازيون في صراع في أواخر العشرينيات من القرن الماضي. وقد أظهر الحزب النَّازي، الذي كان ضعيفا في عشرينيات القرن الماضي، دفعة مفاجئة في ثلاثينيات القرن العشرين. ورغم أنَّ الحزب الشُّيوعي الألماني كان أقوى حزبٍ شيوعيٍّ في أوروبا بين الحربين، إلاَّ أنَّ مجموعة قيادية لا تتمتع بشخصيةٍ تاريخيةٍ (وبتكتيكاتٍ خاطئةٍ قدَّمتها الشُّيوعية الدُّولية) قامت بإبعاد الجماهير عن الحزب وأبقته معزولا أمام استبداد النَّازية وبروسيا. وكان الديمقراطيون الاجتماعيون، بموقفهم العنيد وغير المتهاون، مسؤولين سلبا عن عدم بناء جبهةٍ ديمقراطيةٍ مع الشُّيوعيين الألمان.

ولكن بسبب التَّعامل اللين للنازيين مع الأحزاب المحافظة فقد تمكنوا من تشكيل تحالفٍ. وفي النِّهاية وصل الحزب النَّازي إلى السُّلطة عام 1033م.

وعلى عكس فرنسا وإنكلترا وحتى إيطاليا، كانت البروليتاريا الألمانية كبيرة العدد، وغير محصورةٍ في المدن الكبرى فقط. ولم تكن الحركة النَّقابية تستند إلى تقاليد متطرفةٍ وصعبةٍ، كما هو الحال في بلادٍ أخرى في أوروبا الغربية. لذلك بدأت الطَّبقة العاملة الألمانية تذوب في دعايات وتنظيمات الحزب النَّازي. حيث تعززت قوة النَّازيين عن طريق الدعايات والتَّنظيمات والشِّعارات والتَّرهيب والوعود التي كانت موجهة لمختلف الطبقات الاجتماعية. ومن المعلوم أنَّه في الفترات الانتقالية التاريخية، تكون مثل هذه الآليات هي التي تقرر مصير البلاد، وليس القواعد العامة للتَّاريخ. وهكذا يمكننا من خلال فهم واقع السُّلوك الطائفي للحزب الشُّيوعي وللديمقراطيين الاجتماعيين، وكذلك من خلال حقيقة أنَّ أحزاب الوسط والليبراليين كانوا مهيئين للنَّازية

والاستبدادية (خلافا للمحافظين الليبراليين البريطانيين) أن نفهم الاتجاه الذي كانت تسير فيه ألمانيا خلال ثلاثينيات القرن العشرين.

كانت النَّازية الألمانية عنصرية وستُتهم لاحقا بجريمة الإبادة الجماعية، وقد ظهرت في مجتمعٍ شديد التَّنظيم، وأصبحت رأس مجتمعٍ منظمٍ، وصاحبة آليةٍ تسمح لها بالتَّحكم في النَّاس على مدار السَّاعة. ولهذه الأسباب، يجب اعتبار الفاشية الإيطالية خطأً بشريا مقارنة مع النَّازية.

قام موسوليني بمسيرةٍ فاشيةٍ إلى روما واستلم السُّلطة إثر الانقلاب، وقد تم تحقيق بعض النجاح في مجالات الزِّراعة والصِّناعية والنَّقل، بالاستفادة من تراكم السُّلطة في الماضي. وتمكن عبر هذه النَّجاحات من كسب كتلةٍ واسعةٍ إلى جانبه، إلاَّ أنَّ درجة التأثير في إيطاليا لم تكن قوية ودائمة بالمقارنة مع النَّازية.

وفي الحقيقة عملت الفاشية والنَّازية جنبا إلى جنبٍ بعد بداية الحرب، بينما كانا نظامين متنافسين قبل الحرب (كما حدث خلال الانقلاب الذي وقع في النِّمسا حيث اتحد الدولفوسيون مع موسوليني ضد النَّازية). وخلال هذه الفترة، اعتُبر موسوليني الأكثر إنسانية في وسط أوروبا. وقد تم الاتحاد في العام 1940م. وفي هذه الأثناء، قامت روسيا السُّوفييتية والدول الديمقراطية بمساندة الجمهوريين، في حين كانت إيطاليا وألمانيا تساند فرانكو. أما موقف تركيا فكان غير واضحٍ. كان هناك اتحادٌ طوعيٌّ يقاتل مع الجمهوريين، كان هناك من يتاجرون بالأسلحة مع الجمهوريين. وأرسلوا مجموعاتٍ رسمية وغير رسميةٍ ووفودا إلى فرانكو.

هل كان الغازي باشا غاضبا من إسطنبول؟

كانت إسطنبول مركز الثَّقافة والمعارضة، وبالرغم من العدد القليل في النِّسخ المطبوعة (بضعة آلاف) كان هناك عددٌ معتبرٌ من الجرائد والقراء، إلاَّ أنَّ الأتراك كانوا في ذلك الوقت يفضلون الاستماع إلى قرَّاء الجرائد أكثر من القيام بقراءتها. ومع ذلك فإنَّ إسطنبول خلال ثورتنا الصَّعبة والحالمة، أي خلال زمن حكومة الجمعية في الأناضول، لم تكن المحيط الذي سيعجب جماعة أنقرة فيما بعد. هناك أيضا بيئات لا نعرفها بقدر ما نعرف معارضتنا في إسطنبول. لذلك لا يُعجب كثيرا بالغازي وأصدقائه، وهذا لا ينفي أنه عاشق إسطنبول ولا يمكن الاستغناء عن إسطنبول.

عودة الغازي مصطفى كمال باشا إلى إسطنبول
بعد سنواتٍ، والاستقبال الحار له عام 1927م

لم يزر أتاتورك إسطنبول لمدةٍ طويلةٍ، ومن غير الواضح متى جاء إلى إسطنبول؟ في الواقع كان حتى ذلك الوقت يقوم برحلاتٍ بالباخرة، ولكنَّه لم يكن يزور الشواطئ، حيث يخرج من سامسون، ويمر عبر مضيق البوسفور ليلا متجها إلى تشَناق قلعة، دون أن يتوقف في المدينة. ربما ينظر إليها من بعيد، وربما يمر ويذهب تحت ضوء القمر. ولكنَّه يتصالح فيما بعد مع إسطنبول، إذا صحَّ التعبير. ففي الأول من شهر تموز/يوليو عام 1927م عاد الغازي مصطفى كمال باشا إلى إسطنبول، وأقيمت له حفلة استقبالٍ مدهشةٌ في حيدر باشا، كانت مشاركة النَّاس فيها تلعب دورا أكبر من التَّرتيبات الحكومة. حيث احتشدت الجماهير وخاصة النساء بثيابها العصرية، وتدافعت نحو الصفوف الأولى لتحيته، (التذكار المتبقي حتى يومنا هو شارع هالاسكر غازي الذي يمتد في حي شيشلي من طرفٍ إلى آخر). وكان أتاتورك قد غادر المدينة في 15 أيار/مايو 1919م إثر تعيينه كمفتش جيشٍ في منطقة البحر الأسود، واعتبارا من هذا اليوم لم يعد إلى المدينة التي تركها، حتى تاريخ 1 تموز/يوليو 1927م. إذ اختار الغازي مصطفى كمال باشا ألاَّ يكون ظهوره الأول في هذه المدينة، فالمكان الأمثل للاحتفال بالنَّصر، من وجهة نظره، هو إزمير.

كانت هناك أطرافٌ تسبب الاستياء للمنقذ أتاتورك، وكانت المعارضة تعمل جنبا إلى جنب مع الصحافة، أو تدخل في تحالفٍ مؤقتٍ معها، وقد استمرت هذه الأساليب إلى غاية قانون تقرير

السُّكون[88]. وفي حقيقة الأمر كانت كلُّ الصُّحف عبارة عن عالمٍ مستقلٍ بأيدي أصحابها، ومن الواضح أنَّ الصَّحافة كانت أبعد مايكون عن الإعلام الذي يدخل بشكلٍ طوعيٍّ تحت الرَّقابة.

ونذكر هنا أنَّ بعضا من المعارضين الذين أزعجوا مصطفى كمال باشا كثيرا كانوا أعضاء في الاتحاد والتَّرقي، ومنهم مثلا حسين جاهد يالتشين الذي كان يخرج ضد أنور وطلعت من وقتٍ لآخر، وكان هناك من بينهم من ينتقده أيضا. كما كان هناك بعض أعضاء الاتحاد في محاكم الاستقلال. وقد عمل الغازي باشا في مجموعته وحزبه الجديد بجهدٍ للبحث عن العنصر الاتحادي بين الجميع.

قال جلال بايار، على سبيل المثال، إنَّه من أعضاء الاتحاد في آخر حياته. وعبَّر عن ذلك بوضوحٍ: "حزبي هو الحزب الديمقراطي ولكنني اتحاديٌّ". وكان يتحدث عن طلعت باشا بعبارة "قائدي". ولكنَّ ولاءه كان للغازي باشا، حيث كانت كلماته هي: "يجب أن يكون حب أتاتورك عبادة لكلِّ تركيٍّ محبٍ لوطنه".

جاءت إدارةٌ جديدةٌ إلى إسطنبول، وتم تحويل مبنى وزارة الخارجية ورئاسة الوزراء في زمن الدَّولة العثمانية إلى ولاية إسطنبول. وكان الوالي الأول يتولى مهام رئاسة البلدية في الوقت ذاته.

بعد عام 1925م، كانت أوسكُدار[89] تُعد بمثابة ولايةٍ منفصلةٍ لعدة سنواتٍ، وبالطبع لم يكن هذا عمليا. وفي الواقع كانت الولايات العثمانية تابعة للمجلس الإداري منذ العام 1864م، ويبدو أن هذه البنية دخلت إلى إسطنبول منذ 16 كانون الأول/ديسمبر لكنَّها لم تنجح.

داخل المدينة، تم الاستيلاء على البطريركية على يد اليونانيين المحليين إثر هزيمتهم للبابا أفتام غيلار. وفي هذا السِّياق، لعب هجوم حسين جاهد يالتشن على البابا أفتام، عبر جريدته تانين، دورا كبيرا.

ولم يكن قانون "تقرير السكون" قد صدر بعد، فشاهدنا مثلا أنَّه تم تشبيه والي المدينة ورئيس البلدية بالحمار، في جريدة "الوقت" الصَّادرة في 13 حزيران/يونيو 1924م. والحقيقة أنَّه كانت تلك هي تصرفات وأساليب

رحلة مصطفى كمال باشا عبر مضيق البوسفور عام1928

المعارضة الخارجة عن الأدب. مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ الوالي الأول ورئيس البلدية كان الدكتور أمين باي، الذي كانت أنشطته لا تقل عن أنشطة الأتراك الشَّباب أو حتى أنشطة رئيس البلدية تبوزلو جميل باشا في فترة الهدنة. ولا ننسى انتشار حمامات البحر والمقاهي والمطاعم والابتكارات التي جلبها اللاجئون الذين فروا من روسيا إلى المدينة، واستمرا جولات السِّياح الذين كانت تشدهم الحياة الجذابة في إسطنبول.

لم يكن هناك دارٌ للعلوم في أنقرة. بينما كانت المؤسسة الوحيدة التي فيها دارٌ للعلوم هي جامعة إسطنبول، إلى جانب مدرسة الهندسة التي تُعتبر بداية الجامعة التِّقنية. ومع ثورة دور الفنون في 1933م أصبح هناك أستاذةٌ ألمان، وكانت تلك ضربة غريبة للقدر إذ تم إرسال عناصر إلى الجامعات التُّركية الجديدة من ألمانيا هتلر. وكان هؤلاء الأساتذة الألمان يقيمون في حي واقعٍ في منطقة موهوردار في كاديكوي، وكانوا يستقلون الباخرة عند السَّاعة 08:00 صباحا، حتى سُميت "الباخرة الألمانية".

ومع مرور الوقت، وفي ثلاثينيات القرن الماضي، بدأ التَّوجه نحو أنقرة، حيث شهدت الحياة الأكاديمية منافسة وحراكا واضحَين. وفي هذا السِّياق فإنَّنا إذا قرأنا مذكرات سعادة ألب، أحد رواد

علم الهيتت[90]، نرى صراعا لطيفا مع البروفيسور هانز غوستاف غوتبوك.

في 7 نيسان/أبريل 1924م، أغلق وزير التعليم 30 مدرسة فرنسية وإيطالية، وهو بلا شكٍّ رقمٌ كبيرٌ بالنِّسبة لمدينة يبلغ عدد المسلمين والأتراك فيه أكثر من نصف عدد سكانها بقليلٍ. وكان من الواضح أنَّ شعب إسطنبول يتلقى راضيا التَّعليم في المدارس الفرنسية والإيطالية بصرف النَّظر عن لغة التَّعليم.

ولا بدَّ من الإشارة إلى نقطةٍ أخرى، فهذه المدينة كانت لا تزال تحتفظ بالطَّابع الكوزموبوليتاني العريق، وهو أمرُ سيستمر حتى السِّتينيات، ولكن مع الانفجار السُّكاني في السِّتينيات، سيشكل سكانٌ من شرق تركيا ومن البحر الأسود جزءا مهما من سكان إسطنبول، وسيبدأ التغيير.

كانت قاعات الأوبرا والمسارح قائمة في إسطنبول، أما في أنقرة فبدأت بالظُّهور أواخر الثلاثينيات أو بداية الأربعينيات. ولكن بعد تأسيس مسرح الدولة التُّركية والأوبرا والباليه في العاصمة، واستمرار نموه، أصبحت إسطنبول في المرتبة الثَّانية بهذا المجال.

وفي الشَّأن الموسيقي، نبين أنَّ تركيا لم تبدأ بالتَّعرف على الموسيقى الغربية خلال الثلاثينيات، فقد كان لدى السَّلاطين والضُّباط وبعض الموظفين مؤلفون على طريقة الغرب. وعلى سبيل المثال خرج الخليفة الأخير عبد المجيد أفندي إلى عالم الموسيقى بـ "إيليجي"، وكان والده عبد العزيز قد شهد حفلات موسيقى الفالس والأناشيد والباليه في جولته الأوروبية. بينما كان من ضمن نشاطات الجمهورية الكمالية إنشاء المعاهد الموسيقية ودور الأوبرا وفرق الأوركسترا، ومن نتائج ذلك أنَّنا نرى اليوم الفنانين الأتراك يقدمون عروض الأوبرا في جميع أنحاء العالم، ويعزفون في الأوركسترا، ويبدعون حتى في الموسيقى الإلكترونية مثل الفنان بولنتان آرال. كما كان المسرح واسع الانتشار، ووصلت عروضه إلى الجمهور على نطاقٍ واسعٍ. أما بخصوص الأوركسترا الموسيقية فإنَّ إسطنبول لم يكن لديها أوركسترا لمدةٍ طويلةٍ من الزمن، وهو أمرٌ عرفته أنقرة قبل إسطنبول مع أوركسترا رئيس الجمهورية.

كانت في إسطنبول عدة مدارس متنوعةٌ، فإلى جانب المدارس التُّركية كانت هناك مدارس أمريكيّة وإنكليزية وفرنسية ونمساوية وإيطالية، وحتى مدرسة إيرانية ومدرسة بلغارية ومدارس

التَّحالف اليهودية، وبالطَّبع كانت هناك مدارس يونانية وأرمينية. لكنَّ هذه المدارس بدأت بالخروج من حياة إسطنبول تدريجيا في الستينيات.

وقد أصبحت إسطنبول عاصمة الصَّيف في تركيا بعد عودة الغازي مصطفى باشا إلى المدينة في 1927م. كما استكمل قصر "دولما باهتشة" وظائفه الرئاسية، وفي الواقع تم أيضا إضافة وظيفةٍ للقصر وهي استضافة اجتماعات بعض المؤسسات الأكاديمية مثل جمعية اللغة التُّركية والجمعية التاريخية التُّركية.

وقبل مجيئه إلى إسطنبول، قام الرئيس بالسَّفر إلى جميع أنحاء البلاد، فوصل إلى كلِّ مكانٍ وصلت إليه السِّكة الحديدية، وعبرَ من كل السَّواحل. وكانت إزمير هي مدينته المفضلة خلال هذه الفترة، فزار حتى مراكزها الأثرية. كما كان لافتتاح المصانع والمدارس مكانٌ في برنامجه أيضا.

وبلغت زياراته في الأناضول عددا لم يبلغه حتى وزراء الفترة اللاحقة. فكانت هذه الرِّحلات من أهم الأشياء في مسيرة رجلٍ لديه فضولٌ حول التَّغيير في البلاد، لأنَّه لم يكن من المعروف في تلك الفترة مدى فعالية استخدام علم الإحصاء والعلوم الأخرى المماثلة.

موائد تشانكايا للباشا الغازي ومشكلته الصِّحية

لا أهتم بالقراءات عن موضوع موائد تشانكايا[91]، لأنَّ فترة رئاسة الجمهورية امتدت خمسة عشر عاما، ولا يوجد أحدٌ يستطيع أن يعلم عدد المرات التي اجتمعوا أو أكلوا أو شربوا فيها. لكنَّ الأكل الذي كان يتناوله كان متواضعا بل فقيرا، وبالطَّبع كانت هنالك لائحةٌ للأطعمة إلاّ أنَّ القليل منها كان يناسبه وكان يتناوله.

وكانت أكبر مشكله لدى رئيس جمهوريتنا هي أنَّه ومنذ شبابه لا يحب الأطباء. ولكن كان يوجد ضمن حاشيته طبيبٌ يثق به، وهو رفيق سايدام الذي كان بنفس الوقت عسكريا وعضوا في المقر.

ومن المعروف أنَّ الجيوش كانت تمضي أغلب أوقاتها خارج قطعها العسكرية منذ الحرب العالمية الأولى، وكان معظم أفرادها يعانون من أمراضٍ مزمنةٍ. وكان أكثر الأمراض انتشارا هو مرض الكلى، ولم يكن العلاج في ذلك الوقت متوفرا بل كان محدودا، وحتى الأدوية مثل البنسلين لم تكن منتشرة كثيرا. كما أنَّ المستشفيات بالمعنى الدَّقيق للكلمة لم تكن موجودة، وكان معظم الأطباء

الموجودين بالجيش هم أطباءٌ اكتسبوا الطب بالممارسة. فأيٌّ ضابطٍ في كارلسباد كان بحاجةٍ للذهاب إلى مركزٍ طبيٍ لن يتوقع أن يكون بصحةٍ جيدةٍ عندما يتقدم به العمر. بالإضافة إلى انتشار أسوأ عادةٍ وهي الإدمان على التدخين الذي ضاعف ضرره من الأمراض.

أتاتورك والمثقفين

يتم انتقاد علاقة أتاتورك مع المثقفين بشكلٍ مبالغٍ فيه، حتى أنَّ تلك الانتقادات أصبحت موجودة ضمن بعض الأبحاث الجديدة في علم دراسات اللغة التُّركية وآدابها. ولعل أبرز المواضيع هو الرَّبط بين فترة الاتحاديين والفترة الكمالية، لذلك يجب علينا تحديد درجة الرَّبط بين نظام القمع القاسي لدى الاتحاديين والنظام السُّلطوي الذي طبقته الكمالية. فقد كان النظام السُّلطوي الكمالي قبل الحرب العالمية الثانية قالبا مناسبا ومشتركا مع أوروبا، وبالذات مع شرق ووسط أوروبا. ولكن من غير الصَّحيح أن نضعه بنفس الكفة مع موسوليني في إيطاليا وهتلر في ألمانيا وميكلوش هورتي في المجر، لأنَّنا بذلك نتبع الطَّريق الخاطئ في فهم الدَّولة والمرحلة. فالكمالية اهتمت في مجال الدَّراسة مثلا بتعليم الأتراك الأغنياء والأتراك الفقراء، والمواطنين والمهاجرين، وقدمت لهم الكثير من الإمكانات. وهو أمرٌ لم نكن نراه موجودا حتى في وسط أوروبا.

ومن جهةٍ ثانية كان الجو في تركيا هو صراع المثقفين بين أنصار اليساريين وبين أنصار الإسلاميين المتعصبين. ولكن من الواضح أن النِّظام كان يتعامل مع المنظمات الإسلامية بحساسية كبيرة، بينما يمكن القول إنَّه لم يظهر الحساسية ذاتها بوجه التَّنظيمات الشُّيوعية، والتي لم تبلغ أصلا مرحلة المنظمات الحقيقة والمتجذرة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت نظرة ستالين (حتى صعوده إلى القمة في الاتحاد السوفييتي) نظرة استحسانٍ لتركيا ولتركيا الكمالية.

وبالحديث عن وضع بعض اليساريين والإسلاميين في تركيا، نجد بأنَّه ومنذ فترة التنظيمات كانت البيروقراطية التي شكلها المتعلمون العثمانيون ميالة إلى السَّيطرة، ولكنَّ الصِّراعات التي كانت تبرز بين الفترة والأخرى تم التَّحكم بها من قِبل الباب العالي منذ زمن السُّلطان عبد المجيد. ولم يكن صراع السُّلطان عبد الحميد مع البيروقراطية إلا ردة فعل على هذا الأمر. إلاَّ أنَّه قام مع ذلك بتصحيح الفجوة مع المتعلمين ولم يتردد بإعادة الاعتبار إلى موقعهم وسمعتهم. وقد انتقل ميراث هذا الموقف إلى الجمهورية.

وبالعودة إلى علاقة أتاتورك مع المثقفين نذكر المواقف التي اتخذها بوجه محيطه المثقف بعد دعوى الاغتيال في إزمير عام 1926. والجدير بالذِّكر أنّ انتساب الاتحاديين أمثال: جلال بايار وممدوح شوكت أسندل إلى الأناضول منذ حرب الاستقلال كان قد لاقى قبولا حسنا. بينما كان في مقدمة الذين يواجههم في محيطه هم أولئك المؤيدون لأيديولوجية الخلافة. وكان هذا اختلافا على السلطة، وسبب احتكاكاتٍ بين قادة حرب الاستقلال.

أما بخصوص المنتسبين إلى الحزب الشُّيوعي التُّركي فلم يصروا على مواقفهم، واتخذوا أحيانا آراء متوافقة مع الحكومة.

وفي الواقع كان الموقف تجاه المتعلمين خلال فترة الكمالية يشبه موقف الأب من ولده، ولكنَّ الكارثة بالنِّسبة للمتعلمين بدأت بعد عام 1938. فالأفكار التي كانت مقبولةً قبل تلك الفترة أصبحت تُجرم، وعند نقطة الانعطاف خلال الحرب العالمية الثانية كان هؤلاء يُعاملون على أنَّهم كبش فداءٍ ويوضعون بالحبس ويُعذبون. أضف إلى ذلك أنَّ أولئك الذين كان أصدقاء قبل هذا التاريخ (مثل العلمانيين والقوميين الأتراك) وقعوا ضمن معسكرات بمواجهة بعضهم البعض. ونذكر هنا على سبيل المثال أنَّ ثلاثة أساتذة مساعدين في الجامعة أعيد تعيينهم في مدرسةٍ ثانويةٍ، بواسطةٍ من فؤاد كوبرولو إثر طردهم من الجامعة بسبب قيامهم بمظاهرةٍ اعتراضا على فصل زكي وليدي توغان من قِبل وكيل المعارف رشيد غالب.

كانت كلية الجغرافيا والتاريخ بجامعة أنقرة حتى العام 1938 مكانا يضم اليمينين المعروفين إلى جانب اليساريين، ولكن بعد توترات 1938 نشبت مشاكل كثيرةٌ فيما بينهم، ووصل الأمر إلى حدِّ المشاجرات من النَّوع الذي ينشب عادة في السجون.

وكانت الَّتفرقة التي حصلت بين المثقفين الأتراك حسب انتماءهم للمعسكرات، والتي امتدت حتى تاريخ 12 آذار/مارس 1971م مرتبطة بهذه الأحداث. كما أنَّ هزاتٍ عنيفة حدثت الجامعات بعد عام 1947م، بالتَّرافق مع أحداث التان[92]. وكانت نقطة البدء في موضوع تأسيس الاشتباك اليميني اليساري.

ودون شكٍّ، كانت هذه الفترة هي فترة حزب الشَّعب الجمهوري، وفترة الحزب الواحد، لكن يجب الفصل والتَّحليل بين الفترة الكمالية وفترة إينونو.

كان مصطفى كمال أتاتورك شابا ذكيا جدا وعلى معرفةٍ تامةٍ بالجزء الأوروبي من الدولة العثمانية والبلقان وشمال افريقيا. وكان خلال الحرب من قادة الصَّف الأول ويعرف شبه جزيرة غاليبولي جيدا. ويمكنكم التأكد من ذلك عبر مشاهدة فيديو يعود تاريخه لعام 1970م في قناة تلفزيونية يونانية. حيث يقوم المذيع فريدي جيرمانوز بمقابلةٍ مع عسكريٍّ يونانيٍّ سابقٍ، وهو من ضمن الذين وقعوا في الأسر خلال حملات آسيا الصغرى، وكان قد عمل نجارا في القصر خلال الفترة التي كان فيها مصطفى باشا متزوجا من السَّيدة لطفية وكان الباشا يجتمع معهم أحيانا. وبالتَّأكيد لم يكن من الممكن في هذا الوضع أن يكون لدى القائد الأعلى أفكارٌ حول الدِّفاع مختلفةٌ عن أي ضابطٍ أو قائدٍ. فالكلام الذي كان سيقال أمام سميون بوديوني وقسطنطين روكوسوفيسكي وجورجي زهوكوف والجنرال غاولي هو نفس الكلام الذي قيل للأسرى الألمان في الحرب العالمية الثَّانية، وهو باختصار: "نحن ندافع عن أرضنا، ولكن أنت عن ماذا تبحث هنا؟".

وفي تلك المقابلة كان هذا العسكري اليوناني يستذكر كلام أتاتورك وينقله، فقال إنَّ أتاتورك سأله عن أسماء قادة حرب الاستقلال اليونانية اسما اسما، من أمثال دياكوس وكارايسكاكيس وبالتأكيد عن كولوكوترونيس. والأكثر غرابة أنَّه سأله عن مسرح ابرغيس في بيلا فيستا، حيث كان أبطال اليونان أمثال دياكوس وكارايسكاكيس وكولوكوتروتيس[93] حاضرين دائما في هذا المسرح، وقال بأنَّ أتاتورك كان يعرف هذه المسرحيات. وعند سؤاله: وأنت من كنت تعرف من جنودهم، قال إنَّه لا يعرف أحدا. وهذا هو الغريب فالقادة اليونان لم يكونوا يعرفون قادتنا، ما عدا متاكساس، وكان من المستحيل أن يعرفوا رجال الفكر والمؤرخين الأتراك. وعند سؤاله هل كانت كلُّ هذه المعلومات معروفة لمصطفى كمال أتاتورك، أجاب بنعم. فماريشال تركيا كانت لديه معلومات وافرةٌ عن البلقان، لأنَّه كان يملك دقة ملاحظةٍ أثناء وجوده في الجيش. وهو الذي منع وضع العلم اليوناني على الأرض في إزمير وأظهر احتراما له. وكانت علاقته ممتازة مع أقرانه عندما كان ملحقا عسكريا في صوفيا. ويُذكر هنا بأنه أظهر احتراما للهدوء الذي يتمتع به الجيش البلغاري.

كيف تغير الوسط السِّياسي
بعد 10 تشرين الثاني/أكتوبر 1938؟

كان هنالك أناسٌ يريدون تنصيب شكري كايا[94] رئيسا للجمهورية، ولكن الكفَّة كانت مالت نحو عصمت إينونو وفوزي باشا. لأن الفترة التي تمر بها تركيا كانت بحاجةٍ للاستقرار. ودون شكٍّ

فإن شكري كايا كان شخصا لديه مواهب كثيرةٌ، وقد تولى منصب وكيل الدَّاخلية وعمل بشكل حيويٍّ وجيدٍ. ولكن كانت هناك مشاحنات فيما بينهم بالتَّأكيد. وكان بعض النَّاس خائفين ويقولون عند موت أتاتورك: "ماذا سوف يحصل لنا؟". إلاَّ أنَّ الحياة لابدَّ أن تستمر في إطار قوانينها وأنظمتها كالمعتاد، وهذا ما حصل بالفعل.

وقد كان الماريشال فوزي باشا من الأشخاص المحترمين جدا، ولكن لم يكن له حظٌّ أبدا في السياسة، ولم يفضِّل حتى الدخول إلى المجلس، لذلك لم يخلع زيه الرسمي. وحتى عندما طلب أتاتورك من أصدقاءه المقربين الدخول إلى المجلس فإنَّه أبقى فوزي باشا في مكانه.

الأيام الأخيرة لأتاتورك

كان مصطفى كمال أتاتورك مريضا لفترةٍ طويلةٍ ولكنَّ المرض ازداد عليه في آخر سنةٍ، فهو لم يكن مريضا خلال السَّنوات الأخيرة من عمره فقط بل كان مريضا لسنواتٍ طويلةٍ. وكان مرضه يتفاقم دون أن يكون دواءٌ، ويُقال إنَّه كان داء الكبد أو السَّرطان ولكن لا أحد يعرف ما هو المرض بالضَّبط الآن.

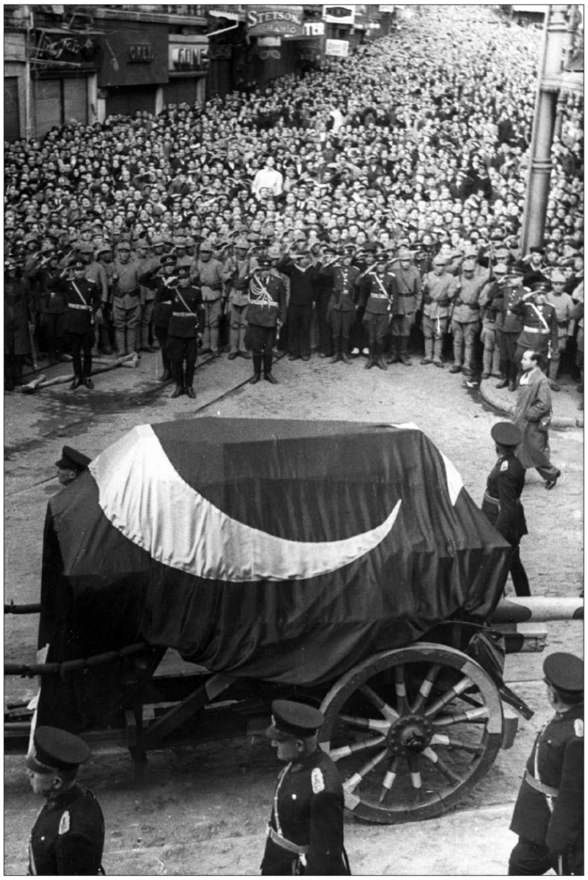

جنازة الشَّخص الذي أحبه الشَّعب ولن ينساه، أتاتورك

كان لدى أتاتورك في تلك الأثناء عادةٌ ضارةٌ كثيرا وهي التدخين، وهذا التَّدخين يفاقم المرض بشكلٍ عامٍّ. بالإضافة إلى أنَّه كان شخصا عصبيا، ولا يحب الأطباء سواء كانوا أوروبيين أو أتراك. كما أنَّ وضعه السيء لم يمنعه من العمل فمسألة هاتاي وسفره إلى الجنوب زادت حالته سوءا، وفي آخر أيامه كان يرغب كثيرا بأن يكون في أنقرة ولكنه لم يستطع.

وهكذا مات ابن مدينة سيلانيك ولم يبلغ السَّابعة والخمسين من عمره، وبينما بدأ حياته ابنا لعلي رضا وباسم مصطفى، فقد أنهى حياته بكونه الغازي مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الدولة التُّركية. وترك خلفه مأتما حقيقيا للأمة، فتجاوزت الصَّدمة والحزن اللذين سادا المجتمع حدود المراسم الرَّسمية عند موت أيِّ شخصيةٍ.

كان برونو تاوت من المعماريين الكبار ومن الذين تعرضوا للظلم على يد هتلر فلجأ إلى تركيا، لأنَّه لم يكن لديه مكانٌ آخر ليلتجئ إليه. وعندما ودع الأتراك أباهم في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر بقصر "دولما باهتشة"، وانتقلت مراسم جنازته إلى أنقرة، ليتم وضع نعشه أمام المتحف القومي الذي بناه عارف حكمت كويون أوغلو، جرى تكليف برونو تاوت بإتمام المنصة الأخيرة للتابوت والتي ستكون آخر أعمال تاوت. وفي هذه الفوضى تعرضت أنقرة لرياحٍ قويةٍ وأصاب تاوت التهابٌ رئويٌّ تسبب بموته، لكنَّه تمكن من إظهار عرفانه للبلد التي لجأ إليها. وكان تاوت أول أجنبي يُدفن في مقبرة الشهداء بمنطقة أدرنة كابي، ونام نومته الأبدية عند سور إسطنبول الخالد.

إنَّ الرِّجال العظماء قلائل، ولكنَّ الأقل منهم هم الذين نشتاق لهم بعد موتهم.

مثل الذين نشتاق لهم....

8

الرجل العظيم: أتاتورك

الصِّفات الشَّخصية لأتاتورك

انتشر في الآونة الأخيرة مصطلح "الكاريزمية" في اللغة التُّركية بشكل كبيرٍ وخاطئ أحياناً. فكلمة كاريزمية ذات الأصل اليوناني والتي استخدمها "ويبر" والمأخوذة من الأدب الكنسي كلمةٌ تعني اصطلاحا كلمة "موثوق". ومرادفها في اللغة العثمانية هو "صاحب القِرن". وهذه الكلمة تُستخدم للقادة أمثال مصطفى كمال أتاتورك، أي للقادة الذين لا يتركون أي احتمالٍ للهزيمة، والذين يحملون صفات القائد منذ ولادتهم. فقدرته على رؤية الأمور التي لا يراها الآخرون، وقدرته على رؤية المستقبل جعلته شخصية توصف بالكاريزمية.

وسأقدِّم مثالين على كاريزميته: فخلال حرب الاستقلال كان هنالك ثلاثة قادة من المؤسسين والذين يحملون صفات غير عاديةٍ أبدا وهم مصطفى كمال أتاتورك وكاظم كارا بكر وعلي فؤاد[95]، وكان أتاتورك من بينهم هو الذي يشير إلى الأمور التي لا يستطيع أحدٌ أن يدركها، بينما كان خطوات الآخَرين حذرة. وفي الواقع لم يكن بالإمكان أن تتمَّ الأمور بغير طريقة أتاتورك، لأن الأحداث في البلد خلال الحرب العالمية الأولى كانت تستلزم جسارة كبيرة نحو الغايات الكبرى. بينما ارتُكبَت فيما بعد أخطاء جسيمةٌ أدَّت إلى نعي الإمبراطورية وإلى خسارات بشريةٍ عظيمةٍ. فتمَّ سحب الطُّلاب الذين يدرسون في دور التعليم ليخدموا كضباط احتياط ولكنَّهم لم يعودوا. وحُرمت الحقول الغنَّاء من الفلاحين والمدن من الحرفيين. وبهذا الوضع، فتح الطريق للمدنين والعسكريين بالإضافة للقادة للتفكير بكيفية النجاة. وكانت الفكرة المسيطرة على التفكير هي: "نعم، علينا أن ننجو، ولكن كيف؟ وكم يمكننا أن ننجو؟".

وكان أتاتورك يمتلك دهاء كبيرا وروحا جسورة للغاية، فالتَّخطيط واتخاذ القرارات والتَّأثير على المجتمع لم تكن أمورا بسيطة. ورغم أنَّ الجميع كان يحبون الوطن ويريدون أن ينقذوه فإنَّ

الأصوات كانت متفرقة. وكان السُّؤال كيف يمكن جمع وإقناع المجموعات المختلفة؟

ومن أهم عوامل نجاح أتاتورك إرادته الصَّلبة، إذ كان يمتلك عناد الروملِيين أي سكان المنطقة الأوروبية في الدولة العثمانية. وعندما كان يقول "يجب أن" فذلك بالتَّأكيد لا يمكن تأويله "من الممكن أن". وعندما يقول "يجب أن" فهذا يعني أنَّ الأمر سوف يحصل بالتأكيد أو أنَّه سوف يحققه. وتلك ميزةٌ ضروريةٌ لأي شخصٍ سواء للفنانين أو العلماء أو رجال الأعمال، كما أنَّها من أهم الأمور بالنِّسبة للسياسيين والقادة.

ورغم أنَّ أتاتورك كان قوميا وقوميته تركية، إلاَّ أنَّه بالإضافة لذلك كان عالميا. وكان مسالما ويفهم السلم بقدر فهمه للحرب. فهو القائل" عندما لا تكون مجبرا فالحرب جريمةٌ". وثمَّة واقعةٌ مهمة هنا، فعند دخوله إلى المبنى الحكومي بإزمير بعد تحريرها من اليونان سمع من يقول بأنَّ اليونانيين كانوا يرمون العلم التركي على الأرض في الأماكن التي احتلوها، لكنَّه أمرهم ألاَّ يفعلوا ذلك بالعلم اليوناني وأن يرفعوه من الأرض، وقال "العَلم هو شرف الأمة ولا يجب وضعه تحت الأقدام"... نعم كان فارسا لهذا الحد. وهو مفكرٌ حقيقيٌّ.

ومن جانبٍ آخر كان أتاتورك يحب ارتداء الملابس الجميلة ويبحث عنها ويهتم بها. كما كان يحب التَّصوير ويتقنه، ويمكن من خلال صوره معرفة العديد من المواقف. ورغم أنَّه كان يظهر طويلا في الصُّور، لكنَّ طوله كان في الواقع 168 سم، مثل رائد الفضاء "يوري غاغارين"[96] الذي كان طوله 158 سم فقط. وكان هو الذي يختار وقفاته عند التقاط الصُّور، فقد كان أتاتورك يستخدم الأبعاد والنِّسب في الصُّور للتَّواصل مع الجماهير.

ومن الأمور الهامة أيضا مناصرته للعلم والعقل، وهي ناحيةٌ نلحظ فيها التَّأثير الفرنسي ليس عليه فقط بل على كلِّ ذلك الجيل. ولا ننسى بالتَّأكيد أن نذكر نزعته الثَّورية والإصلاحية، في ظل حاجة البلد الضَّرورية إلى الإصلاح.

ونعلم من خلال الأشخاص الذين كانوا حوله مثل السَّائق والنَّادل والطَّباخ بأنَّ الغازي كان متواضعا ومهذبا ولطيفا. ومن الواضح بأنَّه لم يكن مسرفا بل كان يتصرف بتدبرٍ.

وقد يكون من الوارد في الشَّرق وفي البلقان وجود قائدٍ متواضعٍ على غرار أتاتورك، إلاَّ أنَّ مثل هذا القائد يترك عادة خلفه زمرة من عائلته وأقربائه أغنياء. بينما ترك أتاتورك الدنيا بنفس

الحالة التي جاء بها إلى السُّلطة، وأوصى بأمواله وأملاكه للشَّعب، وحتى دخلُ ابنتيه اللتين تبناهما كان مقتصرا على المعاش المخصص لهما. أضف إلى ذلك أنَّه عاش حياته في تشَنكايا كرئيسٍ للجمهورية بطريقةٍ متواضعةٍ.

وفي موضوعٍ آخر، لم تبلغ علاقته مع الكحول مرحلة متقدمة، ولم يكن يمضي وقته وهو سكران، ولكنه كان مدخنا ومدمنا للقهوة، التي كان يحبها مثل أهل البلقان. ولم تكن لديه شهيةٌ كبيرةٌ للطعام، بل كان لا يرغب بتناول الطَّعام. أما أكثر ما كان يحبه من الطعام فهو الفاصولياء المجففة والبيض المقلي مع الجبنة واللبن العيران، وكان يفضل الأطعمة التُّركية على الطَّعام الغربي.

وكان شخصا لا ينام كثيرا ولا يأكل كثيرا. ولم يكن بذيئا أبدا، فعندما يُستفز كثيرا كان أقصى ما يقوله: "بغلٌ عنيدٌ"، رغم أنَّه كان يتعرض لعدد غير محدودٍ من السُّخريات والهجاء القاسي.

وكان يمارس السِّباحة وركوب الخيل، ولكنه لم يكن يقوم بالرياضة بشكل كبيرٍ يوميا.

ولم يكن يهتم عندما يجامل النساء، حتى أنَّه كان يجامل النساء غير الجديرات بالمجاملة، فكان كريما بمجاملته، لأن المجاملة هي عطفٌ.

وكان يرقص بشكل جيدٍ، فكان يعرف الرقص الشَّعبي، ويرقص "الهورون" مع الهيئات القادمة من البلقان. وكان هذا يجذب الجميع.

وبالرغم من صعوبة تكيف العسكري مع اللباس المدني، إلا أن لباس أتاتورك كان جميلا، ومع أنَّه ليس من سلالةٍ أرستقراطيةٍ معتادةٍ على هذا النوع من اللباس، ومع أنَّه عاش حياة صعبة مثل حياة كلِّ الضُّباط، إلاَّ أنَّ هندامه كان جيدا. ونذكر هنا أنَّ شاه إيران بدا بمظهر البابافاري عند لقائه مع أتاتورك الذي بدا بجانبه كرجلٍ أفنديٍّ، وهذا ليس استخفافا بالشاه أبدا، فهو بكل الأحوال كان رجلا غير متعلمٍ ولم تتجاوز رتبته رتبة رقيبٍ، وبالمقابل كان أتاتورك ذا تربيةٍ عسكريةٍ من الدرجة الأولى، ولو تم وضعه في أيِّ جيشٍ فإنه سيكون جنرالا.

ولم يكن أتاتورك متقربا من العلماء كثيرا، وقد أخبرني بذلك أشخاصٌ أعرفهم من الذين عاشوا في تلك الفترة. وأذكر أنَّ عبد القادر إنان[97] قال بأنَّه لم يرَ شخصا بهذه القوة وهذا العلو.

وكان ردة فعل أتاتورك قاسية أحيانا إذا أزعجه أحدٌ، ومِن ذلك أنّه تكلم بحدةٍ مع "صدري مقصودي"، كما أنَّه وبخ اللجان اللغوية ذات يومٍ.

الغازي مصطفى كمال باشا وشاه إيران رضا بهلوي في
طريقهما لحضور المراسم الرسمية في أنقرة عام 1934

ورغم أنَّه لم يكن ممن يمارسون العبادة ولكن كان لديه حرمة للعبادة، فكان حوله الكثير من الأشخاص الذين يداومون على الصَّلاة مثل الباشا فوزي تشاكماك. وكان يقول لهم "صلوا، واصنعوا صورة"، لأنَّه كان بالمقابل ينصح دائما بعدم التخلي عن الحياة الدنيا. ووفقا لما تقوله أخته فقد كان صارما جدا فيما يتعلق بالمناسبات الخاصة مثل رمضان والليالي الفضيلة، وكان يذهب إلى بيت أخته في بعض الأحيان كي يفطر. وعند قدوم شهر رمضان كان يمنع فريق الآلات الموسيقية من دخول القصر ويمنع وضع المشروبات الكحولية على المائدة. كما كان يفعل كل شيءٍ ليسهل على ضيوفه الصائمين والمصلين.

وكان في كل عام يقرأ القرآن لشهداء تشناق قلعة بذكرى استشهادهم، بالإضافة إلى أنَّه كان يقرأ القرآن لأمه، ويقرأ القرآن لنفسه أيضا.

وكان شخصا يولي أهمية كبيرة للعلم وعدوا للجهل، ويهتم بالتعليم لدرجة أنه منع عدم انعقاد المؤتمر التعليمي خلال مرحلة الكفاح الوطني. ورغم أنَّ البلد كان يعاني من صعوبةٍ في تصدير منتجاته، إلاَّ أنَّه وبإمكاناته البسيطة كان يرسل الطلبة إلى الخارج للدراسة.

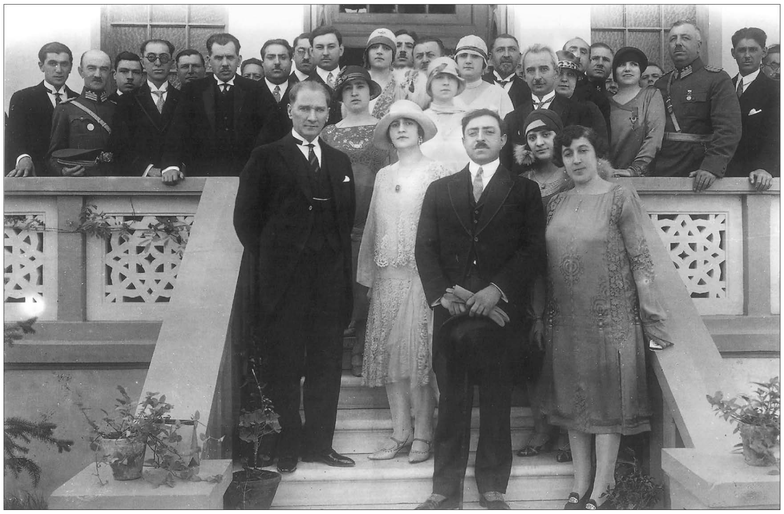

الغازي مصطفى كمال باشا والملك الأفغاني أمان الله والملكة ثريا في أنقرة عام 1928

ولم يكن يرسل الطلاب لدراسة العلوم التقنية فقط، بل كان يرسلهم أيضا لدراسة علوم الفلسفة والآثار وحتى من أجل الأبحاث البيزنطية. ونذكر هنا "اركم اكورغال" الذي كان واحدا من الذين ابتُعثوا لدراسة علوم الآثار، و"سيدات ألب" الذي أُرسل لدراسة العلوم الهيتيتية ويعد من أساطين هذا العلم. أما الشَّباب الأربعة الذين ابتُعثوا لدراسة العلوم البيزنطية فلم يكملوا دراستهم، لذلك لم يتطور هذا الفرع كثيرا.

كما أعطى أتاتورك اهتماما للغات أيضا، فكان يتحدث اللغة الفرنسية بطلاقةٍ، ويكتب ويتحدث ويترجم من الفرنسية، ويعرف اللغة الألمانية بدرجةٍ جيدةٍ. وبالتأكيد فإنَّه كان يفهم الرومية والبلغارية مثل كل شباب القسم الأوروبي.

وكان مدمنا على القراءة لدرجة أنه كان يقرأ أثناء وجوده على الجبهة، وقد قرأ آلاف الكتب، وعلى رأس قائمة الكتب التي قرأها تأتي كتب رشيد نوري. وكان يحب الشّعر مثل كل أبناء جيله، ولكنَّه كان يحب الشعر النَّثري أكثر.

ومن المعروف أنَّه قرأ كتاب "أصل التفاوت بين الناس" للكاتب الفرنسي جان جاك روسو بالفرنسية، إلى جانب الكتب التي ما زالت موجودة في قصر تشانكاياه. أضف إلى ذلك أنَّه ترك ملاحظاتٍ على هوامش الكتب التي قرأها، وهي ملاحظاتٌ مثيرةٌ للاهتمام جدا.

وأخيرا نذكر أنَّ أتاتورك كان يستخدم التُّركية بشكل سليمٍ، وأنَّه يعتبر خطيبا من الطِّراز الرفيع.

تركيا أتاتورك وأوروبا خلال الحربين العالميتين

خلال الحربين العالميتين كانت معرفة أحوال أوروبا يعني معرفة أحوال العالم، وهذا الأمر ليس كلاما فارغاَ، لأنه عندما نرصد تاريخ العالم في مكانٍ معينٍ ونرى تبدلا وتغيرا، فإنَّنا نعلم بأنَّ منطقة حضارة البحر المتوسط شهدت تبدلا وتغيرا.

وكان سكان منطقة البحر المتوسط بدياناتهم الثَّلاثة عاملا في تطوِّر العالم. ونحن نعلم كيف حدثت التَّطورات في هذه المنطقة، ولا أعتقد بأن هنالك حاجة لتكرار هذا الأمر، فالحضارة اليونانية القديمة هي استمرارٌ للحضارة المشرقية القديمة، والحضارة الإسلامية القديمة هي استمرارٌ للحضارة اليونانية القديمة، والنَّهضة الإيطالية هي استمرارٌ للحضارة الإسلامية، والحضارة الأوروبية هي نهاية تلك السِّلسلة.

وللأسف يضع البعض الحضارة الأوروبية في غير موضعها عندما يصفونها بأنَّها حضارةٌ مسيحيةٌ، بل ويقولون بأنَّها حضارة هيلين المسيحية. مع أنَّه من الممكن استبدال هيلين المسيحية بهيلين الإسلام. ولكن من المعروف ومنذ ظهور المسيحية بأنَّ التَّيار الذي نقول عنه سيدوسي، تم تطوير مفهومه في حضارة هيلين اليهود في فلسطين.

قبل الحرب العالمية الأولى، كانت أوروبا قارة سريعة التحضر. حيث كان نصف سكان بعض البلاد مثل ألمانيا وإنكلترا وفرنسا يسكنون المدن (دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية و55 بالمائة من سكانها في القرى). ونلاحظ ذلك في إنكلترا على وجه الخصوص، فالتَّحول الصناعي بالإضافة لوجود الكثير من المدن الرئيسية، أدى

الغازي مصطفى كمال باشا وشاه إيران رضا وعصمت إينونو
وعزالدين باشا وفخر الدين باشا عام1934 م

إلى انتقالها من بلدٍ غالبية سكانه يعيشون في القرى إلى بلدٍ غالبية سكانه يعيشون في المدن، وإلى خسارة القرويين قراهم وتحولهم لمزارعين. وتتشابه ألمانيا مع إنكلترا في ذلك. أما في فرنسا فكانت نسبة القرويين لاتزال أكثر من نسبة سكان المدن.

ولكن عند النَّظر إلى الطَّرف الآخر قبل الحرب العالمية الأولى فإنَّنا نجد مشهدا مختلفا تماما. فعلى سبيل المثال، إذا توجهنا نحو البلقان نجد أنَّ نسبة سكان المدن في رومانيا 15 بالمائة، وفي بلغاريا 12 بالمائة، وفي صربيا 13–14 بالمائة، وفي روسيا 12–13 بالمائة، بينما لا تتجاوز في إيطاليا 21 بالمائة. أما المناطق التي تضم صناعة المنسوجات في روسيا الأوروبية أي بولندا وليتوانيا (كان قسمٌ كبيرٌ من بولندا وليتوانيا تابعا لروسيا) فكانت نسبة سكان المدينة تصل إلى 22 بالمائة، ولكنَّها تنخفض في وسط روسيا إلى 12 بالمئة.

وإذا انتقلنا إلى تركيا نجد وضعا مختلفا، حيث بلغت نسبة التمدن في تركيا الأوروبية 25 بالمائة، وكانت آخذة بالتَّزايد. وفي الحقيقة يوجد لدينا فرقٌ بين سكان الأناضول وبين سكان تركيا الأوروبية/روميلي/، وهذا الأمر لم يهبط فجأة من السماء. فهو يعود إلى أنَّ أهالي تركيا الأوروبية/ روميلي/تمدنوا قبل سكان الأناضول، وقد ظهر هذا الأمر جليا عندما اجتمعوا سوية إثر هزيمة البلقان. وبشكلٍ عام فإنَّ سكان القارة الآسيوية التابعين للدولة العثمانية لم تكن نسبة سكنهم بالمدينة

تتجاوز 6–7 بالمائة، وباستثناء دمشق وحلب وطرابلس الشَّام وبيروت في سوريا كان معظم الناس يسكنون الرِّيف، ونضيف إليهم بدو المشرق العربي.

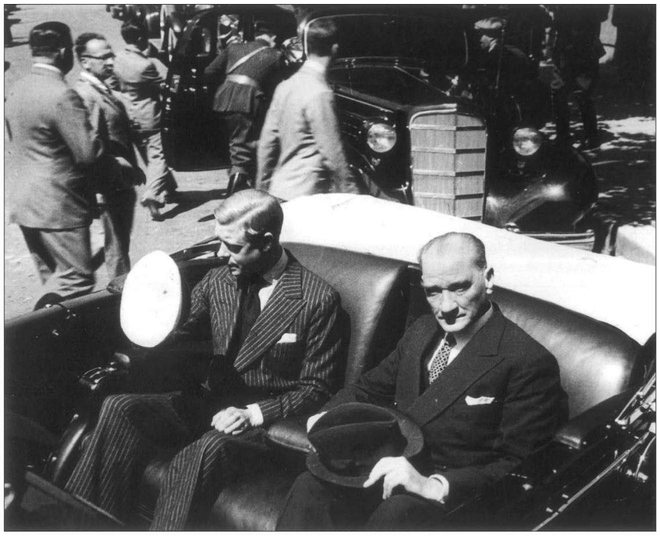

العربة التي تقل مصطفى كمال باشا وملك إنكلترا إدوارد الثَّامن وهي تمر من أمام ثانوية غلطة سراي ومتجهة إلى السَّفارة الإنكليزية، عام1936 م

لذلك نلاحظ أنَّ العمال الإنكليز عندما شاركوا بالحرب العالمية الأولى كانوا أكثر راحة وثقة بالغد مقارنة مع باقي الدول، لأنَّ الإمبراطورية كانت غنية ومن الطَّبيعي وجود مجموعةٍ مستفيدةٍ فيها.

وكانت هناك ألمانيا أيضا، فهي دولةٌ محافظةٌ جدا ومتماسكةٌ وعسكريةٌ أسست نظاما عسكريا شموليا وفق مفهوم بسمارك، وكان لديها قانونٌ اجتماعيٌّ لحماية فئة العمال والمناطق الزِّراعية. فكان وضع العمال الألمان ودخلهم في بداية 1914 نموذجا على الإصلاح الاجتماعي، يطالب بمثله العمال الحكومات المحافظة في بولندا والمجر والنمسا.

وبالانتقال إلى النَّمسا نجد في ذلك الوقت شيئا مختلفا، فمعظم العاملين في الصِّناعة والمعادن كان وضعهم سيئا جدا، وكانوا يطلقون على هؤلاء العمال لقب عمال الليل، إذ كانوا لا يكتفون بتشارك غرفهم ليلا، بل كانوا أيضا يتناوبون على العمل ليل نهار، ويتشاركون الفقر سويا. وبسبب قلة المنازل كانت البيوت تؤجر بعض غرفها للآخرين في الشِّتاء. وكان الشعب يمضي أوقاته

بالشَّوارع والحانات الرخيصة. أما عندما ننظر إلى المجر فإن الوضع أسوأ بكثير. وبالمختصر فقد كان هؤلاء العمال يتحملون تبعات التَّطور الصِناعي السَّريع.

بينما ازدادت المزارع الكبيرة في رومانيا وبلغاريا وأصبح القرويون من دون أراضٍ ويعملون بالأجرة كعمالٍ. وبالإجمال كانت تلك التطورات هي التي تحدث خارج تركيا العثمانية.

ومن المفيد هنا أن نلقي نظرة على الإمبراطورية المجرية والنّمساوية، ولكن ينبغي العودة إلى تاريخ ما قبل الحرب بفترةٍ طويلةٍ. حيث كان الحكم في النّمسا بداية العام 1500 لدوقية هابسبورغ[98]، وبعد فترة أصبح لإمبراطورية ألمانيا، ولكنَّ القوة الأساسية كانت لدوقية هابسبورغ الكبرى.

ورغم أنَّ هناك عبارةٌ سائدةٌ عندنا تقول: "الألمان هم أصدقاؤنا بشكلٍ دائمٍ"، إلاَّ أنَّ هذه العبارة غير صحيحةٍ، فنحن لسنا أصدقاء مع الألمان، ولدينا مشاكل مع الإمبراطورية الألمانية.

وقد قامت دوقية هابسبورغ الكبرى والمجر بالتَّبادل في الملوك، فجرى عقد الزِّيجات بين كلٍّ من الملكيَن وأخت الملك الآخر، وتم التَّوقيع على مصالحةٍ نصَّت على أنَّ العرش يؤول لأحد الطَّرفين بعد موت الطَّرف الثَّاني. فإذا مات فرديناندو الأول تصبح الأرض لمملكة المجر، وإذا مات لايوش فإن الأرض ستذهب للطرف الآخر. وقد مات لايوش بمعركة موهاتش[99]. فماذا حصل حينها؟ كان يجب أن ترتبط كامل أراضي المجر بالنّمسا، ولكن أين سوف ترتبط؟ فقد جاء الأتراك واستقروا هناك. وإلى متى استمر هذا الشِّجار؟ إلى حروب 1683–1689.. وبعد ذلك أصبحت المجر تابعة للتاج النّمساوي.

كانت المجر والنّمسا من الممالك القديمة، وكان التَّاج مرتبطا بالمجر وبعد ذلك أصبح قسمٌ منه مرتبطا بيوغسلافيا وقسم مرتبطا بكرواتيا، وكان تاج سلوفينيا مرتبطا بالنّمساويين. وضمت المملكتان بلدين هما بوهيميا ومورافيا (وهما التّشيك وسلوفاكيا حاليا)، وكانت المنطقة السّلوفاكية تعود ملكيتها إلى المجر، بينما كانت منطقة بوهيميا مرتبطة مع النّمسا. وكانت منطقة الأردل (التي تُسمى اليوم ترانسلفانيا)، والتي كانت تقع قبل الحرب في الأراضي الرومانية والمجرية، مرتبطة بالتَّاج المجري.

سلبتنا المجر والنمسا بعد مؤتمر برلين 1878 البوسنة والهرسك، ولكنَّ هذه المناطق لم ترتبط لاحقا بالنمسا ولا بغيرها. ورغم التَّصريح بأنَّها تكون منطقة إدارة مشتركة، إلاَّ أنَّ المشاحنات وقعت على الدَّوام بين الموظفين من كلا الطرفين، وحتى خلال تبادل الزِّيارات الرسمية كانوا يدخلون في سجالاتٍ كبيرةٍ مع بعضهم البعض ويقولون ألفاظا مثل: "اسكت، اجلس..". وكان هنالك فرقٌ كبيرٌ بين الشَّعب والإدارة. حيث كانت المجر تميل للمسلمين أما الطَّرف الآخر فكان يميل للمسيحيين.

وقد أوضح وزير الخارجية الكونت أهرينتال بأنَّ الدَّولتين هما دولةٌ مشتركةٌ، إمبراطوريةٌ ومملكةٌ.

وفي سياقٍ متصلٍ، لم يكن ولي العهد فرديناند مصيبا بزيارته لسراييفو عام 1914، لأنَّ التَّوتر كان واضحا، والحادثة التي ستقع له كانت متوقعة الحدوث.

وفي واقع الأمر كانت هناك في القرن العشرين إمبراطورياتٌ أخرى خارج أوروبا وروسيا والإمبراطورية العثمانية (كانت النمسا والمجر التي تحدثنا عنها أعلاه كونفدرالية ملكية، ولذلك سُميت "التُّونا الملكية").

وكانت هنالك بالتأكيد تطوراتٌ كبيرةٌ خارج أوروبا في أمريكا واليابان، ولن أتناول اليابان بل الولايات المتحدة الأمريكية فقط لأنَّها كانت امتدادا لأوروبا، وجذبت فئات الشَّعب الفقيرة وغير المستقرة، إضافة إلى طبقة البروليتاريا ومحبي المغامرة والمثقفين.

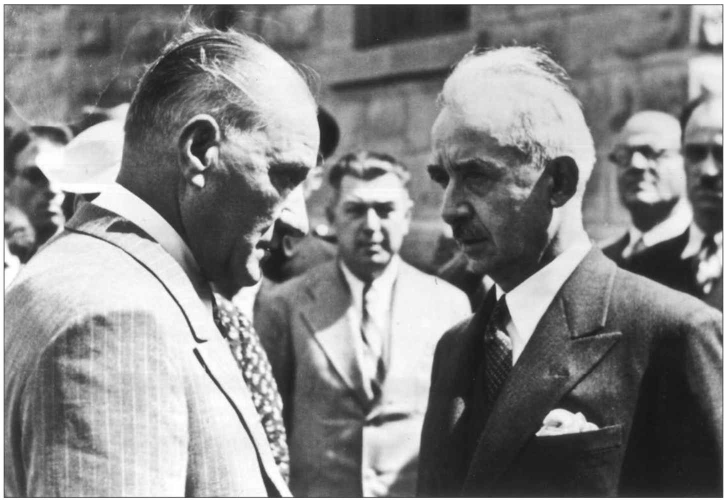

أتاتورك وعصمت إينونو يتناقشان بموضوعٍ ما، وعلى يمين الصورة رئيس حزب الشعب الجمهوري في منطقة إسطنبول جودت كريم اينجيه داي .عام1936 م

وتلك هي أنماط الهجرة حتى يومنا هذا، فالمرتبط بقريته والذي يملك السكينة والراحة في القرية لا يتركها. ولكن عندما يترك الإنسان قريته ويذهب إلى المدينة فإنه يفقد الكثير من قيمه ويصبح شخصا ضارا. والذين تركوا أوروبا وذهبوا إلى أمريكا كانوا من طبقة العامة أو من القرويين والعمال والمتشردين، وهذه الأوصاف هم الذين يطلقونها على بعضهم البعض. وأمريكا بالحقيقة هي قارةٌ تشكلت من النَّاس الضَّارين وغير المستقرين وأصحاب الأحلام والآمال، والنَّاس الذين يريدون الخلاص من رقابة المجتمع. أما بعد الحرب العالمية الثانية فأصبحت الهجرة إلى أمريكا هي بنسبةٍ كبيرةٍ لأصحاب العقول في أوروبا وآسيا ومنطقة البحر المتوسط. وأصبح من غير الممكن تجنب طفرة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن عندما ننظر إليها على الخريطة من ناحية الطبيعة فهي بالفعل جنةٌ، خلقها الرَّب بأحسن صورةٍ مثلما خلق أرض الكنعانيين. وهي غنيةٌ بشكل كبيرٍ بجميع أنواع المعادن، واستخراج المعادن فيها ليس صعبا أو مكلفا بالمرة، لأنَّه على سطح الأرض. كما أنَّ عطاء الأراضي فيها كبيرٌ جدا، فعلى سبيل المثال يساوي محصول مقاطعة إلينوي وحده محصول ثلاث دولٍ أوروبيةٍ كبيرةٍ، وذلك دون إدخال محصول إلينوي للحبوب في الحساب.

في الحرب العالمية الأولى والثانية ساد عدم الرضى تجاه الشُّعوب الأوروبية بوضوحٍ. وكانت فكرة عدم الرغبة بالتَّوسع في أوروبا واضحة جدا بسبب التَّأثيرات الأيديولوجية، وإرث الإمبراطوريات المنهارة، والحقائق التَّاريخية، وأيضا نتيجة أسباب اجتماعيةٍ واقتصاديةٍ.

لقد أصبح "عامل الوقت" أهم مشكلةٍ في الحرب العالمية الأولى، إذ لم يستوعب القادة والجنرالات تقنيات الجيوش، والقدرات الفنية، واعتقدوا أنَّهم سينهون الحرب بسرعة. لأنَّهم لم يكونوا قبل الحرب يتوقعون بأنَّها سوف تمتد إلى هذه الحد، وبأنَّ خصمهم سوف يظهر صمودا كبيرا، كما لم يتوقعوا التكلفة التي سوف يتكبدونها. أما الذين توقعوا قالوا بأنَّ الحرب سوف تمتد طويلا فكان عددهم قليلا. بالإضافة إلى ذلك لم يكن هناك أحدٌ يعتقد بأنَّ هذه الحرب سوف تسبب موت الأبرياء والمدنيين والأطفال، وسوف تهدم المدن وتسبب المجاعات، لأنَّ أوروبا لم تشهد قبل

الحرب العالمية الأولى حربا بهذا الشكل، فحروبهم كانت عادة بين الجيوش ويموت فيها قادةٌ وجنودٌ، وتجري عبر أماكن وسهولٍ مفتوحةٍ. وباختصارٍ لم تكن لديهم فكرةٌ عن احتمالية إقحام المدنيين في الحروب.

كانت حروب البلقان أكبر كارثةٍ في تاريخنا الممتد ل 2000عامٍ. لذلك كان بإمكاننا أن نتوقع هذا الدَّمار للمدنيين، ولكنَّنا لم نتوقع أنَّ الحرب سوف تستمر بهذا القدر. ولن نتحدث هنا عن خراب بطرسبرغ هنا.

وفي الحقيقة بدَّلت الحرب العالمية الأولى الكثير من الأشياء في أوروبا وفجرت قنابل في المجتمع. فلم تعد أوروبا مثل الماضي وانتهت مقولة "نحن متوازنون جدا"، حيث لم يكن بإمكان أحدٍ بين عامي 1916–1920م أن يتحدث بهذا الشَّكل في جميع العواصم الأوروبية ابتداء ببرلين وبودابست وفيينا وانتهاء بباريس ولندن. بل كان كلُّ مّن يقول بتوازن المجتمع الأوروبي يُعتبر معتوها. إضافة إلى ذلك كانت مواضيع التفرقة وإصلاح البنية الاجتماعية نشيطة في أوساط الجماهير، فالجميع كان يرى الوضع مغلقا تماما وكان يحاول اقتراح حلولٍ جديدةٍ للمجتمع.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتدفق الأفكار بدأ موضوع الأحزاب، وهو أمرٌ ينطبق فقط على الدُّول المنتصرة، أي دول الحلفاء، أما دول المحور أي الإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية النمسا والمجر وألمانيا وبلغاريا فقد خسرت قسما من أراضيها، وأضحت تحت تهديداتٍ كبيرةٍ ومشاكل عديدةٍ. لذلك عندما نلقي نظرة على نهاية الحرب، فإنَّ أول ما نراه هو اندلاع ثورةٍ عسكريةٍ.

لم تبقَ الإمبراطوريات بعد الحرب كما كانت قبلها، فالإمبراطورية العثمانية والنّمسا والمجر والإمبراطورية البريطانية لم يعد يُنظر إليها على أنَّها مؤسساتٌ لا تُهدم ولا تُلمس. وقد كانت نظرتنا إلى العالم خلال القرن التاسع عشر كانت محصورة في النّمسا وألمانيا وإنكلترا. وكان أجدادنا وآباؤنا لا يفكرون بغير الطَّاعة للسَّلطنة، بينما كان الذين أسقطوا القيصرية الرُّوسية هم المثقفون الديمقراطيون الاجتماعيون (أي الشُّيوعيين) وبعض مثقفي الشعب.

وبالمقابل نعلم بأنَّ أول من عارض أتاتورك بموضوع الخلافة والسَّلطنة كانوا أصدقاءه مثل رؤوف بيك ورأفت بيك، إذ كانوا يقولون: "نحن لدينا قسَمٌ لهذا الرجل، وأكلنا من طعامه" (أي

السُّلطان). لأنَّ المجتمع لم يكن قادرا على التفكير بأنَّه من الممكن عدم وجود مؤسسة الخلافة. وكان ذلك ينطبق على النّمسا وروسيا وإنكلترا.

أما عند الألمان فلم يكن الأمر قائما، ولم تكن الإمبراطورية تعبر عن قوميتهم، لأنَّ الإمبراطورية الألمانية كانت جديدة ومؤسسة غير تقليديةٍ. كما أنَّه لم يكن يوجد في ألمانيا خلال الحربين العالميتين طبقة عمالٍ مسحوقةٌ أو رأسماليةٌ كبيرةٌ، ولم تُحضر طبقةٌ صغيرةٌ من البورجوازيين هتلر إلى السُّلطة. وبالرغم من أنَّ هذه الفترة (أي بين الحربين) كانت مهمه جدا لألمانيا، إلاَّ أنها كانت أيضا سببا في تغير خريطة العالم وتبديل رؤية الجيل. ورغم نشوء النَّازية خلال تلك الفترة، فإنَّ التفكير الذي أوجدته تلك الفترة يمكن اعتباره نابعا من الثَّقافة الألمانية. ولكن بعد الحرب العالمية ظهر قطبا اليمين واليسار، وأصبحت هذه الفترة فترة ألمانيا.

وكان أكبر حدثٍ وقع بعد الحرب العالمية الأولى هو الاشتراكية دون شكٍ، ولم ينحصر تأثير هذا الحدث على روسيا فقط، فالحركات البروليتارية الاجتماعية كبرت وأصبحت قوية في العالم بشكلٍ عامٍ، بل إنَّها في بعض المدن الألمانية أصبحت على غرار المجر تابعة للجمهورية السُّوفييتية. وأساس هذه الحركات وإن كان ضعيفا إلا أنَّه كان ديمقراطيا، ومع ذلك أبدت أكثر البلدان ردة فعلٍ كي لا تخسر الطَّبقة البرجوازية. وكانت إسبانيا أهم هذه الدول، حيث وصلت الأمور فيها إلى الحرب الأهلية.

ووسط كل هذه التَّجاذبات اتخذت حكومة لينين قرارا تكتيكيا وجديدا وهو: إيقاف الحرب فورا، من منطلق أنَّ شعارهم كان بالأصل "الخبز والسَّلام". وبالتَّالي أوقفوا الحرب مع ألمانيا فورا.

وفي 25 كانون الأول/ديسمبر اجتمع وفدٌ من الإمبراطورية العثمانية على رأسه طلعت باشا ووفدٌ من ألمانيا والنّمسا والمجر مع وفدٍ جديدٍ من روسيا على رأسه تروتسكي، ووقعوا اتفاقية بريست ليتوفسك. وعلى الفور تركت روسيا لنا منطقة القوقاز، وكنا قد خسرنا هذه المنطقة سابقا بسبب الأخطاء الاستراتيجية والتكتيكية الكبيرة عند أنور باشا، حيث دُمِّر خطنا الرئيسي عند ساركامش، مما أدى إلى سيطرة روسيا على هذه المنطقة.

إلا أنَّ الاتفاقية أعادت لنا هذه الجبهة، ووصل جيشنا إلى مشارف إيران وأذربيجان وسيطر تماما على كلِّ الجبهة الجنوبية في القوقاز. كما استرجعنا عبر الاتفاقية ارداهان وكارس وبيازيد

التي خسرناها في اتفاقية برلين 1878م.

ولكن يجب علينا التوقف عند نقطةٍ هامةٍ، وهي أنَّ ستالين أصبح عام 9192م يتحكم بالاتحاد السُّوفييتي تماما. وأصبحت القيادة مركزية، وكلُّ الأمور الحياتية والاقتصادية تسير بتوجيهاتٍ محددةٍ.

ورغم أنَّ كلمة ديمقراطية هي كلمةٌ يونانيةٌ بالأصل، ورغم اعتبار ديمقراطية اليونان شعارا للحضارة الغربية، إلاَّ أنَّنا عندما نلقي نظرة واقعية نلاحظ فرقا كبيرا بين ديمقراطية الغرب الحالية والديمقراطية اليونانية. فالعلاقة من حيث النِّظام بين أم الديمقراطيات الغربية إنكلترا وبين الديمقراطية اليونانية قليلةٌ جدا.

وقد منحت الديمقراطية الغربية المواطنة لكل الشَّعب، وعملت على تحقيق منظومةٍ صلبةٍ، مع أنَّ أسس الديمقراطية لم تكن ثابتة بعد. وبعبارة أخرى فإنَّ الديمقراطية ستتشمل المجتمع بشكلٍ تدريجيٍّ، وأنَّه تم تطويرها بوصفها مؤسسة يجب التوفيق بين مصالحها.

أتاتورك في المسابقة البحرية التي نظمها بمناسبة عيد البحارة مع
وكيل الاقتصاد جلال بايار وكلتش علي وجودت عباس غورر عام 1935م

ولكنَّ الغريب هو أنَّ أوروبا الغربية، التي تُعتبر وطن الديمقراطية، ظهرت فيها بين الحربين النماذج الشُّمولية والاستبدادية التي لم تكن موجودة في بلاد مثل الصِّين والهند والشَّرق

الأوسط. وهكذا عندما أفلست النَّظرية الديمقراطية بين الحربين، سقطت فكرة الديمقراطية البشرية، فأصبح المجتمع بلا طبقاتٍ، وأصبح الجميع مرتبطين بالحكام المؤلَّهين والأحزاب القوية. وبالتَّالي بات الفرد موجودا من أجل الدَّولة والشَّعب، وهذا التَّكامل هو ما نسميه "القومية".

كانت أوروبا بين الحربين ترفض التَّقاليد التي شكلت التَّاريخ، والتي لم تكن موغلة في القِدم، وذلك عبر نضالٍ استمر 200 عامٍ لهدم الملكيات الفردية الشُّمولية، ولكن مع الأسف بدأت فترة الديكتاتورية. والجدير بالذِّكر هنا أنَّ الجمهورية التُّركية الكمالية خلال وجودها في محيط كهذا، ورغم سياسة الحزب الواحد، لم يدخل فكر الاستبداد إلى مؤسساتها ولم يترسخ في البلد. فعلى سبيل المثال كانت الأحاديث تدور داخل الجمعيات عن أفكار متنوعةٍ، وكان بالإمكان مناقشة مختلف الأفكار عن البلد صباحا في نفس المجلس الذي كان يجتمع به نواب حزب الشَّعب الجمهوري بعد الظُّهر.

ومع أنَّ النِّظام البوليسي كان سائدا في ذلك الوقت، إلاَّ أنَّ الدِّين كان متاحا في البلد ولكن من دون أن يتجاوز النُّقاط الحساسة بالمفهوم الكمالي. وفي الواقع لا يوجد بين أيدينا بحثٌ أو تقريرٌ عن المدارس الدِّينية التي تم افتتاحها في شرق الأناضول خلال تلك الفترة، ولكن بحسب كتاب "قُلتين" للكاتب توران دوسون فإنَّ هذا النَّوع من المدارس الدينية كان موجودا. وخلال ثورة الجمهورية وجدنا أشخاصا من خريجي هذه الأماكن في المراتب العليا بالدَّولة. وبكلِّ الأحوال بقي تعليم القرآن مستمرا على الدَّوام سواءٌ بشكلٍ مخفيٍّ أو مكشوفٍ. كما واصل أدب وطقوس الطُّرق الدينية الانتقال من الأب إلى ابنه ومن العم إلى ابن أخيه.

ومن باب المقارنة نجد أنَّ الإسلام في الاتحاد السُّوفييتي عاش مثل المسيحية دون الحاجة إلى مؤسسة الكنيسة والرهبان، بينما كان لدى الأديان في تركيا فرصةٌ أكبر للحياة. وقد أثبت ذلك ظهور الحركات الرجعية والأصولية بعد العام 1950م، ولذلك أُجبر عدنان مندريس وجلال بيار على إقرار قانونٍ يحمي مبادئ أتاتورك، وكانت تلك خطوة مهمة قام بها النِّظام الحاكم عام 1950م. أضف إلى ذلك الدَّعوات إلى التَّفكير بإزالة صورة عصمت إينونو عن النُّقود والطوابع. وينبغي أن أذكر هنا بأنَّ القوى الرجعية تقوم بعد كل ثورةٍ بحركاتٍ متقلبةٍ كما وصفها "تانير تيمور".

ويمكننا قبل المتابعة تلخيص الرأي كما يلي: قامت الأنظمة الاستبدادية والفاشية في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا بعد انتظارٍ دمويٍّ بالقفز إلى البلقان، وانتظرت دول البلقان الألمان بطريقةٍ ما، وقد

قبلت اليونان ورومانيا وبلغاريا وكرواتيا هذا الوضع.

وعندما نتكلم عن فترة ما بين الحربين، نجد من المفهوم بأنَّ أوروبا فقدت آنذاك دورها القديم، وأعطت دورها لطرفٍ آخر، وبدلت غطاءها. فهل هذا انهيارٌ وخسارةٌ؟ لا... فأوروبا بالرغم من كلِّ شيءٍ تركت بصمتها، وستترك بصمتها أيضا في العصور القادمة. وعلى الرَّغم من أنَّ أمريكا ربَّما تحصل على القوة الاقتصادية، إلاَّ أنَّ أوروبا تبقى بالمحصلة هي الأصل، أما دور أمريكا فيقوى مقارنة بالمقياس الأوروبي فقط.

إضافة إلى ذلك فإنَّ أوروبا دخلت مرحلة تغيرات كبيرةٍ على مستوى الشَّكل، وقد برزت هذه التغيرات في المؤسسات والتَّصريحات. ولذلك أخذت أوروبا دورا قياديا من جديدٍ، وهي اليوم برأينا قارةٌ صادقةٌ في مجال حقوق الإنسان بالفعل، لأنَّ الأوروبيين تبنوا هذا الموضوع بعيدا عن السياسة.

ولا شكَّ أنَّ مسألة الديمقراطية مرت بمراحل صعبةٍ جدا في قارة أوروبا، إذ رأينا أنَّ بعض المؤسسات لم تأتِ مع البشر تاريخيا ولم تأتِ من الرَّب، بل شكلَّها المجتمع بشكلٍ واعٍ من خلال الحياة التي عاشها. وقد دفع المجتمع الأوروبي عصورا طويلة مقابل تلك المؤسسات، كما دفع أثمانا كبيرة أخرى. ولكن لا ننسى بالمقابل أنَّ هذه الرؤية الجديدة استُخدمت من أجل التَّمدد في النُّفوذ على الدول الأخرى.

كانت هذه القارة تمر بتغيراتٍ مهمةٍ خلال الحربين العالميتين. وهذا أمر مهم جدا، لأن التبديل لا يكون بالحرب تماما، بل يبدأ مع الحرب. ولكن لا يمكن التَّأكيد بأنَّ التبديل عندما يحدث سيكون أبديا.

أتاتورك في العالم

لست مقتنعا بأنَّه توجد بحوث كافيةٌ حول هذا الموضوع والعنوان، فعلى سبيل المثال نجد أقوال ديفيد لويد جورج ومن بعده تشرشل موثقة وموجودة إلى يومنا هذا، ومنها عبارة تشرشل: "حتى بعد 100 عام، من أين لي أن أعرف بأنَّنا سوف ننسحب من آسيا الصغرى؟". وما زالت وثائق اجتماعات هذه الاسمين موجودة، والبحث عنها ليس بالأمر الصَّعب. وعلاوة على ذلك فإنَّ تشرشل سياسيٌّ محترمٌ في العالم، وكان قائدا عالميا، ويملك احتراما إلى يومنا هذا بسبب الكلام الذي نُقل عنه وبسبب نجاحاته. وكان بعيدا عن المحافظين الإنكليز والليبراليين والمثاليين الديمقراطيين.

وكما تحدثنا في السَّابق عن الأمر بشكلٍ أكثر تفصيلا، فقد عرضت وسائل الإعلام عام 1936 صورة هتلر ولويد جورج في مقر إقامة هتلر في بيرتشسغادن خلال زيارة لويد جورج، وكان لويد جورج يقول مادحا هتلر: "ذكيٌّ وصاحب مواهب، وأكثر رجلٌ إثارة للاهتمام بين رجال الدَّولة".

منذ عام 1914 و1920 اصطدمت الجيوش في معاركها من أجل الأوطان مع القيم، ومع الأسف كان طابع الجيوش في عام 1914 طابعا أيديولوجيا، وحتى القادة أصبحوا كذلك بعد عام 1920. ورغم أنَّ مساعدات السِّلاح كانت قليلة، ورغم أنَّ سياستنا كانت قد بدأت بالتَّقارب مع تشرشل، وتنحو إلى اختيار العيش بسلامٍ في ظل الحرب العالمية، لكنَّ ردنا على طلب الحلفاء منا الانضمام لهم كان قرارا حكيما، واختيار عدم الحرب كان تصرفا عاقلا وبمكانه.

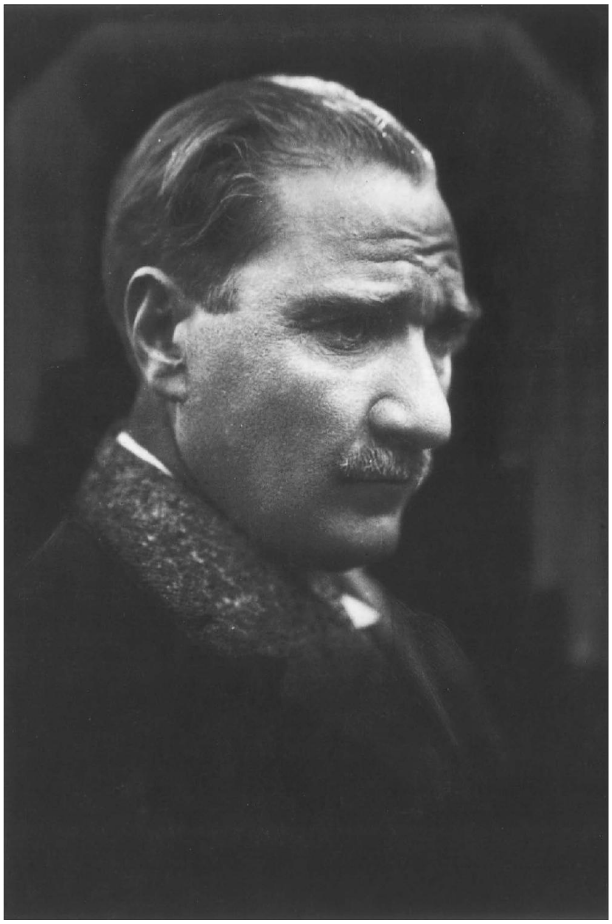

صورة الغازي مصطفى كمال باشا على غلاف مجلةTime
إصدار 1 شباط/فبراير1927 م

لا يمكن نسيان الرِّجال العظماء في تاريخ الأمم وفي تاريخ الأمة التُّركية بسهولةٍ، وإن كان من الممكن أن تبرز مشكلةٌ هنا وثغرةٌ هناك، حيث عانى بعض مؤرخي الفترة الكمالية من التَّقصير أحيانا، نتيجة التعليقات المعاكسة أو غير الصحيحة من الكتَّاب. ففي بعض الأوقات تم تضخيم الأحداث وفي أوقاتٍ أخرى تم تلفيق الأخبار تماما. وعلى سبيل المثال فقد تم تفسير مفهوم العلمانية على أنه الممارسة الإلحادية التي يقوم بها ستالين في الاتحاد السوفييتي. وتم تشويه هذا المفهوم بشكلٍ منحرفٍ وخاطئٍ.

وكانت تركيا دولة في وضعٍ صعبٍ جدا، إذ انهدم العنصر الإنساني فيها قبل كل شيء، وتمزقت الإمبراطورية الكبيرة بعد أن فقدت عنصرها الأساسي. وبالمقارنة مع تركيا لم تتعرض دول البلقان أو دول الشَّرق الأوسط لخسارةٍ في المجتمع إلى هذا الحد. فكان هنالك نقصٌ في العمال والحرفيين والفلاحين، وعدد لا يُصدَّق من الأمراض.

من الواضح أنَّه كان هناك مخطط لتخريب آسيا الصغرى مع الأسف، ولذلك اختلقوا تغييرات في المجتمع وفي الجغرافيا. وانتشرت أمراض السِّل والملاريا، إضافة إلى مرض الزهري الذي عرفَته المجتمعات التَّقليدية المنفتحة.

لقد كانت هناك مشاكلٌ ينبغي حلها، فالمناطق الصِّناعية التي تتركز فيها الصِناعة كشمال سوريا والبلقان وتشوكوروفا بقي بعضها بأيدينا، ولكن ضاعت من أيدينا المناطق المنتِجة إذ خرجت سوريا وفلسطين فجأة عن سيطرتنا. وهذا الانهدام لم تعشه الدَّولة من قبل، وهو أمرٌ ساهم فيه انفصال البلقان أيضا. فقسمٌ من شبكتنا الحديدية كان بجوار السَّاحل، وفي نهاية القرن التاسع عشر امتدَّت الشَّبكة إلى وسط الأناضول، ولكنَّ القسم الموجود في سوريا من هذه الشَّبكة خرج لاحقا من أيدينا. لذلك أصبح هنالك انقطاع في الشَّبكة. وتحولت مدنٌ عامرةٌ مثل عنتاب وكلِّس فجأة إلى مدنٍ حدوديةٍ، وكانت المدن الحدودية في ذلك الوقت محرومة وممنوعة من التِّجارة والصِّناعة. ومنذ العام 1950 كان محكوما عليها بالفقر والتَّخلف بصرف النَّظر عن موقعها، ولم تتطور فيها المهن والتَّعليم، وحتى مراكز المهن والتَّعليم القائمة كان يتم إيقاف العمل بها. وعلى سبيل المثال كانت مدن مثل ساربروكن في ألمانيا والألزاس واللورين في حوض فرنسا قبل الحرب مدنا مسدودة الأفق،

والتَّطور فيها بطيء جدا. وفي الطَّرف المقابل عادت إلينا مدينة كارس فجأة بعد أن خضعت أربعين عاما لحكم القيصرية الرُّوسية، ولم نتمكن من الاستفادة من تقنية الخطوط الحديدية التي في المدينة والتي طورها الرُّوس لأنَّ كارس أصبحت مدينة حدودية.

إنَّ وصل البلاد بجهاتها الأربع من البحر الأسود إلى البحر المتوسط ومن أدرنة إلى أرض الروم هو ثورة الجمهورية من دون شكٍّ، عبر إضافة 2815 كيلو متر. وهذا الخط لم يكن يملك بالتَّأكيد التكنولوجيا الأوروبية المتطورة ولكنه كان يفي بالغرض. ولم يكن الوضع في تلك المرحلة يساعد على تلبية متطلبات النَّقل الكثيف. أو بالأحرى لم يكن من الممكن التَّفكير بشبكة مواصلات عريضةٍ وكثيفةٍ ومُحكمةٍ لدولةٍ ذات خمسة عشر مليون نسمة. ولم تكن تركيا قادرة على تحمُّل مصاريف هذا الأمر. ومنذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا لم تستطيع الدَّولة تأمين شبكة سككٍ حديديةٍ كافية. وبالمناسبة فإنَّ أفضل من أدار مديرية الخطوط الحديدية بشكلٍ جيدٍ كان العقيد بهتشي الذي تولى المنصب خلال حرب الاستقلال (كما شغل منصب سفير تركيا إلى بودابست وفرنسا الفيشية)، أما الذين أتوا بعده فلا يستحقون الثناء كثيرا.

وقد بدأت بعد العام 1950م رحلاتٌ بريةٌ غير محدودةٍ، بينما كانت هذه الشَّبكة محكومٌ عليها بالمحدودية، لذلك يجب إكمالها لتكون شبكة خطوطٍ حديديةٍ كافية (وقد تم بالفعل بين عامي 1950 و2003م إنشاء 943 كيلو مترا من الخطوط الحديدية ولكن مقارنة بالخطوط البرية فإنَّه لن يكون كافيا مهما تم إنجازه).

لقد كُتب الكثير عن حقبة أتاتورك في التاريخ، وتم طرح الكثير من الآراء حولها. "الجميع يقول بأن كل ما حصل حصل بعد عام 1950.." في الواقع لا يمكن إنكار فترة ما بعد 1950م ولا فترة ديميريل (من ناحية الصِّناعة والبنية التَّحتية) ولكن يجب أن يتم تقييم فترة 1930م أيضا.

ولا يمكن إنكار أنَّ هناك الكثير من أصحاب الضمير الحي، وأنَّ الذين يحبون أتاتورك ويفهمونه هم الأكثر تعليما. وأجزم بأنَّ أبناء الأجيال القادمة سيفهمون الغازي أكثر وسيكونون من أنصاره.

أتاتورك قائدٌ مهمٌ جدا في تاريخ الأتراك، وهذا الأمر ليس فقط من وجهة نظرٍ تركيةٍ، فهو كذلك بالنسبة إلى تاريخ كل الجمهوريات التُّركية. وكان اسمه يحظى بالاحترام في تلك الفترة من

قبل الأحزاب الشيوعية. ورغم وجود المؤيدين للأتاتوركية وكذلك المعارضين لها عندنا، إلاَّ أنها تمتلك هناك صورة جامعة.

وفي الحقيقة لا يوجد في كل بلدٍ بالضَّرورة قائدٌ يغير التاريخ ويضع بصمته ويتعرض للخطر بشكلٍ كبيرٍ، وبالتَّالي فإنَّ عدد هؤلاء القادة قليلٌ في تركيا أيضا. ورغم أنَّ الأتراك كان لديهم قادةٌ ورجال دولةٍ عظام في كلِّ عصرٍ، إلاَّ أنَّ من النادر وجود قائدٍ شاملٍ وداهيةٍ مثل أتاتورك.

وليس عبثا حبه ونعيه بكلِّ شوقٍ إلى يومنا هذا...

أتاتورك في القرن العشرين

أفلست دول الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية المرتبطة بها في أوروبا الشَّرقية بغمضة عينٍ. وأخذ الألمان الشَّرقيون يعبرون بجوازاتهم كأفراد ومن ثم كجماعات عبر تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا إلى ألمانيا الغربية مرورا بالنمسا إلى برلين الغربية. وكان الشَّعب يمر بمرحلةٍ انتقاليةٍ وصولا إلى مرحلة هدم جدار برلين. وخلال ذلك أعطى الاتحاد السوفييتي موافقته الضِّمنية، فلم تقم ثورةٌ في ألمانيا الشرقية. وعندما ننظر اليوم إلى ما حصل فإننا نرى التالي: روسيا السُّوفيتيه تخلت عن الإشتراكية، وفضلت الخيار الأصعب والأكثر ألماً وهو الانتقال إلى الرأسمالية. وكانت الرأسمالية القادمة عديمة الرَّحمة: إذ أدَّت إلى هزات كبيرةٍ في حياة الشَّعب وضمن الفئة العاملة.

وبالعودة إلى الوراء فقد تسلم السُّوفييت السُّلطة نهاية عام 1917م وروسيا عبارةٌ عن خرابةٍ كبيرةٍ. وكان تسعون بالمائة من الشَّعب لا يعرفون القراءة والكتابة، والظلم منتشرٌ. وبالرغم من النَّهضة الصِّناعية التي شهدتها روسيا في نهاية القرن التاسع عشر إلا أنها كانت متخلفة عن أوروبا بمراحل. وربما كانت السِّكة الحديدية هي الشَّيء الوحيد الذي بمتناول الرُّوس والذي يمكن استخدامه.

وما من شكٍّ فقد أوصلت سياسة "الاقتصاد الجديد"، التي انتهجها لينين، الاقتصاد إلى سويةٍ جيدةٍ، وكانت بادرة خاصة به ولكنَّها انتهت مع رحيله عام 1926م وبدء حقبة ستالين، والتي كانت حقبة الحفاظ على استقلالية الاتحاد السوفييتي. لأن روسيا كانت حينها هي القوة التي منعت انتشار وتعاظم قوة النَّازية في الغرب، وأنهت تلك المرحلة تماما. فقامت بعدها بتحضير شروط الجمعيات الصناعية الشَّعبية، وطورت التَّعليم ونشرته (وإن لم يكن عالي الجودة). كما أدخل السُّوفييت الطَّاقة

النَّووية إلى روسيا، وطوروا تكنولوجيا الفضاء. وأخيرا وجد الاتحاد السُّوفييتي في ثورة خروتشوف ضالته للحصول على حياةٍ تماثل حياة الطَّبقة البورجوازية الإيطالية الصَّغيرة. ولكن من الواضح جدا بأن المغامرة في أفغانستان والتمدد من أجل النفوذ في أفريقيا هي التي دمرت الاقتصاد، لأنَّ الاشتراكية لا يمكنها تحمل النفقات في مجال التَّسلح. ولذلك لم يُنظر بعد زوال الاشتراكية إلى الدَّمار والإرث الباقي من تلك الفترة الممتدة لسبعين عاما بعيونٍ رومنسيةٍ.

وبالتَّزامن مع انهيار الشُّيوعية السُّوفييتية دخلت الصِّين مرحلة انتكاسةٍ خاصةٍ وتحولت بسرعةٍ إلى الرأسمالية. ولم تعد الإدارة الصِّينية الديكتاتورية تشغل العمال كالعبيد فقط بل أصبح النِّظام الشُّيوعي يؤجر النَّاس بأسعار رخيصةٍ كعبيد لرأس المال الأجنبي. حتى وصل الأمر عند البعض من طبقة العمال إلى مرحلة الانتحار بسبب كثرة العمل وانخفاض الأجور وانتشار البؤس في المعامل المغلقة. ولم يكن هذا هو البؤس الوحيد في التَّاريخ الصِّيني ولكنَّه كان الأقسى.

وبعد انهيار النِّظام الشُّيوعي بهذا الشَّكل في روسيا السُّوفييتية والصِّين لم يبقَ من الحلم الاشتراكي إلاَّ كوبا. ولكن ليس من الواضح ماذا سيحل بها أو بكوريا الشَّمالية. وننتظر الآن قادمات الأحداث ومآلات هذه التَّجارب عبر التَّاريخ.

وهذا لا يعني بأنَّ فكر الاشتراكية انتهى في العالم، فشروط نهضة الاشتراكية لم تنتهِ بعد. لأنَّ ثمانين بالمائة من ثروة العالم هي بأيدي واحد بالمائة من عدد سكان العالم. وبالرغم من الأحلام الوردية التي برزت عام 1960م إلاَّ أنَّ مسألة الغذاء لم تحل بعد، والجوع يزداد في الكرة الأرضية، وكذلك التَّمييز بين الشُّعوب وطبقات المجتمع. كما أنَّ التَّلوث البيئي الذي وصل إلى حد الموت أصبح واضحا جدا، مما جعل بعض الفيزيائيين والجيولوجيين يستعملون كلاما قاسيا بهذا الخصوص، فقالوا إن الأرض سوف تصبح قريبا مثل كوكب الزهرة، وبأنَّ طبقة الأوزون المثقوبة ستؤدي إلى تشكيل غيومٍ حمضيةٍ، مما يجعل الحياة أمرا من الماضي حيث ستهطل أمطارٌ حمضيةٌ تدمر كلَّ شيءٍ ولا تترك مخلوقا على وجه الأرض.

أتاتورك يستمع لأحد المواطنين

وبالعودة إلى الاقتصاد نجد أنَّ بلدا مثل السويد صاحب التَّجربة العريقة في الديمقراطية الاجتماعية تدير ثروتها ثماني عائلات كبيرةٍ. أما النّمسا التي عاشت ثمانين عاما من الماركسية النّمساوية فما زالت بعض المؤسسات والجامعات فيها تُؤسَّس إلى الآن وفق الصِّيغة الأرستقراطية التي كانت موجودة في عهد الإمبراطور فرانتس يوزف.

والأكثر غرابة من ذلك هو قيام العالم اليوم بفعلٍ مخزٍ يتمثل في استعباد البشر من بلادٍ مثل سوريا والشَّرق الأوسط وإفريقيا واستخدامهم في التِّجارة، واستغلالهم من قبل مافيات الأعضاء.

وبالمقابل يبدو من الواضح جدا في هذا السِّياق أنَّ الاشتراكية لم تستطيع الوفاء بوعودها بالوظائف خلال القرن العشرين. كما أن أوروبا بهذا الموضوع أخذت منحى آخر. وانتشرت التروتسكية في أوساط الشُّيوعيين القدامى.

لقد أفلست صور كل قادة القرن العشرين، وسقطت جميع نظرياتهم وعدنا إلى الصُّور التاريخية. ولكن بقي رجل دولةٍ واحدٌ لا تزال صورته قائمة ولا يزال يشكل حالة اجتماعية، ورمزا حيا للنَّاس المطالبين بالعدالة والديمقراطية، وثائرا لا يدير الدولة مثل تشي غيفارا وهو مصطفى كمال (أتاتورك).

ولكنَّ الكمالية دخلت دون شكٍّ حربا اقتصادية بعد عام 1940، ولم تستطع البيروقراطية الموجودة حينها أن تقوم بأي استثمارٍ أو أن تقوم بإدارة الاستثمار، كما أنَّ تدابير الإصلاح القهرية والمخدرة التي حاولوا من خلالها إدامة الحياة في تركيا، بدأت بالذَّوبان بداخلها. أما الجامعات التي أسستها الكمالية فتلقت صفعة كبيرة عام 1947 بسبب سوء إدارة حزب الشَّعب الجمهوري. وحتى المؤسسات العلمانية التي جاءت بها الكمالية والمؤسسات القديمة فقد تغير اتجاهها نتيجة الأخطاء الروتينية الحاصلة.

وهنا توجد حقيقةٌ يجب إيضاحها وهي أنَّه خلال كل أزمةٍ تمر فيها تركيا يتم النَّظر إلى الكمالية على أنَّها طوق النَّجاة من قِبل كل الأعمار والفئات المجتمعية. وعندما يفقد المفهوم التَّاريخي طابعه، فإن الشَّباب الأتراك وإن تركوا المفهوم الكمالي خلال فترةٍ من الفترات فإنَّهم ينظرون إلى العالم اليوم وهم تواقون إلى السِّياسة الكمالية.

ولا يغيب عن بالنا أنَّ أتاتورك نظر باهتمامٍ إلى السِّياسة التَّعليمية والثَّقافية خلال فترة الثَّلاثينات. وكانت جامعاته وجيشه وتصنيعه والحياة الأكاديمية التي أوجدها تتجاوز تلك الحقبة الزَّمنية بالتَّأكيد. ولكنَّ التَّعليم الوطني تراجع، والمؤسسات الأساسية فقدت نفسها، ولكنَّ الأهم هو تراجع الحياة الثَّقافية والأيديولوجية في تركيا. وقد دخلت تركيا في توترٍ ومأزقٍ عرقي يصعب الخروج منه. وفي ظل هذه التطورات فإنَّ النِّظام الكمالي هو ضرورةٌ. ودون شكٍّ فإن تقييم التاريخ والقادة يتم خارج هذه المخاوف. والمحيط الجغرافي الخاص الموجودة فيه تركيا يوفر لها حماية وفهم تبدل وتطور الهوية.

ملاحظة هامة: فضلنا حذف الهوامش الموجودة بالنسخة التركية لأنّها إما إحالات إلى مراجع تركية وإما إشارات إلى حوادث تفصيلية غير مهمة للقارئ العربي، وقمنا عوضا عنها بإضافة هوامش خاصة جميعها بالنسخة العربية.

نبذةٌ عن حياة المؤلف

ولد إلبر أورتايلي في عام 1947، وتلقى علومه المدرسية في مدينتي إسطنبول وأنقرة، وتخرج من مدرسة أتاتورك الثَّانوية في أنقرة عام 1965. ثم تخرج من قسم التَّاريخ في كلية التِّاريخ والجغرافيا والعلوم السِّياسة في جامعة أنقرة عام 1969، ودرس في جامعة فيينا في قسم الدِّراسات السّلافية والمشرقية. وأكمل دراسته العليا بجامعة شيكاغو الأمريكية تحت إشراف البروفيسور خليل إينالجك. وحصل على شهادة الدكتوراه عن أطروحته حول الإدارة المحلية في فترة التَّنظيمات. ثم حصل على رتبة أستاذ في عام 1979 عن بحثه حول "النفوذ الألماني في الإمبراطورية العثمانية".

استقال من منصبه كأستاذ عام 1983 ليعمل كأستاذٍ زائرٍ، حيث ألقى المحاضرات ونظَّم المؤتمرات في جامعات برلين وموسكو وأوكسفورد والقدس وكامبردج وفيينا.

قام بكتابة العديد من المقالات في الجرائد العلمية المحلية التُّركية والعالمية عن التَّاريخ العثماني والرُّوسي بين القرن السَّادس عشر والقرن التَّاسع عشر.

تم تعيينه عام 1989 أستاذا للتَّاريخ ورئيسا لقسم التَّاريخ الإداري بكلية العلوم السِّياسية بجامعة أنقرة. وشغل بين عامي 2005–2012 منصب رئيس متحف قصر توب كابي.

وبين عامي 2002–2014 قام أورتايلي بتدريس مادة تاريخ الحقوق في كلية الحقوق بجامعة غالاطة سراي، وما زال يعمل إلى الآن كأستاذٍ زائرٍ في هذه الجامعة.

يُعرف عن أورتايلي إتقانه للعديد من اللغات، بالإضافة للغة التُّركية، وهي الألمانية والرُّوسية والفرنسية والإنكليزية والفارسية، كما أنه عضوٌ في جمعياتٍ ومنظماتٍ تركيةٍ وروسيةٍ وأوروبيةٍ.

Notes

[1←]

فريدريك نيتشه 1844–1900 فيلسوف وشاعر ولغوي وملحن ألماني، تركت أعماله تأثيرا عميقا على الفلسفة الغربية.

[2←]

إدوارد ماري هيريو 1872–1957م سياسي فرنسي شغل منصب رئيس الوزراء ثلاث مرات، ورئيس مجلس النواب لعدة سنوات.

[3←]

لودفيغ فان بيتهوفن 1770–1827م مؤلف موسيقي ألماني، من أهم الموسيقيين على مدار التاريخ. كتب تسع سيمفونيات والعديد من المقطوعات الموسيقية الرائعة.

[4←]

أنطوان دينيكين 1872–1947 ضابط برتبة فريق في الجيش الإمبراطوري الروسي، وأحد جنرالات الحركة البيضاء في الحرب الأهلية الروسية>

[5←]

بيتر رانغل 1878–1928م ضابط في الجيش الإمبراطوري الروسي، والقائد العام للجيش الأبيض المناهض للبلشفية في جنوب روسيا.

[6←]

ألكسندر كيرينسكي 1881–1970 سياسي روسي بارز ورئيس الوزراء في الحكومة المؤقتة إبان ثورة فبراير عام 1917.

[7←]

تعني كلمة "غازي" في اللغة التُركية المجاهد أو القائد المحارب العظيم، لكننا آثرنا الإبقاء على كلمة الغازي في الترجمة العربية.

[8←]

جمعيةٌ سريةٌ أسسها في عام 1906 تضم ضباط إصلاحيين مناهضين لحكم عبد الحميد واستمرت لمدة عامٍ.

[9←]

عدنان مندريس 1899–1961: سياسي ودبلوماسي تركي شغل منصب رئيس الوزراء بين عام 1950 و1960. وأزيح عن منصبه إثر انقلاب عسكري. وأُعدم في العام 1961.

[10←]

شوكت ثريا آيدمير 1897–1976: كاتب واقتصادي ومؤرخ تركي، له العديد من المؤلفات أبرزها مجلدات الرجل الواحد التي تبحث في فترة إينونو وأتاتورك.

[11←]

عصمت إينونو 1884–1973: ثاني رئيس جمهورية في تركيا، وكان المفاوض في مؤتمر لوزان بعد الحرب العالمية الأولى من الجانب التركي، كما شغل منصب رئيس الوزراء لعدة فترات خلال حكم أتاتورك وبعد حكمه. وتولى زعامة حزب الشَّعب الجمهوري بعد وفاة أتاتورك إلى عام 1972م.

[12←]

جلال بايار 1883–1986: سياسي تركي ورجل دولة كان الرئيس الثالث للجمهورية التركية بين عامي 1950–1960. حكم عليه بالإعدام في انقلاب عام 1960 ولكن تم تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة. وأطلق سراحه في العام 1964 لظروفه الصِّحية.

[13←]

البلاد الرومية: يُطلق هذا الاسم على الأراضي العثمانية الواقعة في القارة الأوروبية.

[14←]

المشروطية الأولى: شكَّل السُّلطان عبد الحميد الثَّاني لجنة باسم المجلس الخاص لتحضير وكتابة الدستور الأول للدولة، والذي بموجبه يتم التحول إلى الملكية الدستورية، ويأخذ مجلس المبعوثين صلاحيات واسعة، وتم ذلك في العام 1876م. ولكن السُّلطان عبد الحميد قام عام 1877م بإحالة المجلس إلى فترة المشروطيات الثانية في العام 1908م.

[15←]

سباتاي سيفي 1626–1675م: يهودي إسباني الأصل، تركي المولد والنشأة، أعلن عام 1648م أنه مسيح بني إسرائيل ومخلصهم الموعود. وبعد أن استفحل خطره اعتقلته السلطات العثمانية، وعندما عرف أنه تقرر قتله أظهر رغبته في الإسلام، وتسمى باسم محمد أفندي، وطلب من الدولة السماح له بالدعوة في صفوف اليهود فسمحت له بذلك، ولكن اتضح للحكومة بعد أكثر من 10 سنوات أن إسلام سباتاي كان خدعة فنفته إلى ألبانيا حيث مات هناك.

[16←]

إسماعيل مشتاق ماياكون 1882–1938: سياسي وكاتب وصحفي تركي عمل كاتبا في قصر يلدز عام 1902.

[17←]

لويوش كوشوت 1802–1894: محام وصحفي ورئيس المجر خلال الثورة بين عامي 1848–1849.

[18←]

الجنرال يوسف بم 1794–1850: جنرال وبطل قومي في بولندا والمجر وكان من باشاوات الدولة العثمانية.

[19←]

كونستانتي بورزيغكي 1826–1876: ولد بهذا الاسم وأصبح اسمه مصطفى جلال الدين وهو باشا عثماني من أصول بولندية.

[20←]

أنور باشا 1881–1922: قائد عسكري عثماني قاد الجيوش العثمانية في جبهات عديدة، وقتل خلال حرب مع الروس تركستان.

[21←]

ألكسي بروسيلوف 1853–1929: جنرال روسي كبير، قاد فرق الجيش الروسي في العديد من الحروب.

[22←]

عمر ناجي 1878–1916: أحد قادة حزب الاتحاد والترقي وكان صديق ومعلم مصطفى كمال أتاتورك.

[23←]

كريانيتش 1618–1683: غوراي كريانيتش أحد المشاركين في النهضة السلافية وعمل على ربط السلافية بالكنيسة الروسية الأرثوذوكسية.

[24←]

إيفان غوندولتش 1589–1638: شاعر كرواتي وله الكثير من الأعمال وهو أحد الإصلاحيين في المجال الكنسي والقومي.

[25←]

نيكولو ميكافيللي 1469–1527: فيلسوف ومفكر وسياسي إيطالي إبان عصر النهضة وهو المؤسس للتنظير السياسي الواقعي.

[26←]

ستيفان ستامبولوف 1854–1895: سياسي وصحفي شغل منصب رئيس الوزراء في بلغاريا بين عامي 1887–1894.

[27←]

الجمعية القحطانية السرية: تأسست في إسطنبول عام 1909 بعد اتضاح نيات الاتحاديين الأتراك نحو العرب. وخلال السنوات اللاحقة انبثقت عنها جمعيات أخرى كالعهد وحزب اللامركزية. وكانت مطالب هذه الجمعيات تتأرجح بين الحكم اللامركزي للعرب والاستقلال التام.

[28←]

شمس الدين سامي 1850–1904: كاتب وفيلسوف ومسرحي وصحفي عثماني، كان يعرف سبع لغات.

[29←]

فتح علي أهونزاده 1812–1878: كاتب وعالم لغة عثماني. ولد في مدينة تبريز ميرزا.

[30←]

حسين ناظم باشا 1848–1913: رئيس أركان جيش الإمبراطورية العثمانية خلال حرب البلقان الأولى.

[31←]

خلاص كار 1912: هي مجموعة مكونة من ضباط في الجيش ومعارضة لحزب الاتحاد والترقي.

[32←]

حركة البسمجي 1916–1934: اسم أطلق على الانتفاضة القومية المطالبة باستقلال الدول التركية في روسيا.

[33←]

"فتاة إيطالية في الجزائر" أوبرا للمؤلف الموسيقي الإيطالي جواكينو روسيني 1792–1868.

[34←]

خليل منتشه: أحد قادة حزب الاتحاد والترقي. وشغل منصب وزير الخارجية في الدولة العثمانية ورئيس مجلس المبعوثين العثمانيين. كما أنه عين كنائب مستقل في البرلمان عن مدينة إزمير خلال فترة الجمهورية.

[35←]

البارون فون وينغهيم 1859–1915: سياسي ألماني شغل عدة مناصب منها سفير ألمانيا في المكسيك ووزير ألمانيا في أثينا، كما شغل منصب سفير ألمانيا في الدولة العثمانية بين عامي 1912–1915.

[36←]

غاليسا: جبهة في شرق أوروبا وقعت فيها معركة شرسة خلال الحرب العالمية الأولى.

[37←]

محمد ابن الخليفة عبد المجيد ويلقب بمحمد رشاد (1844–1918م): هو الخلفية العثماني 35 وحكم بين عامي 1909–1918م.

[38←]

محمد السادس الملقب بالسلطان وحيد الدين 1861–1926: السلطان العثماني الأخير واستمر حكمه من عام 1918 إلى عام 1922 ودفن بمدينة دمشق.

[39←]

تعميم أماسيا 1919: هو أهم تعميم وضعته شخصيات تركية، بهدف تحويل التحرك ضد المحتل من فردي إلى وطني، وتم تناول مصطلح الهيمنة الوطنية لأول مرة في هذه الوثيقة.

[40←]

تشوكوروفا: اسم هضبة تقع في جنوب تركيا بين محافظات أضنة ومرسين والعثمانية وهاتاي.

[41←]

حوزة: منطقةٌ تقع في جنوب محافظة سامسون المطلة على البحر الأسود.

[42←]

أسماء مدن تركية في إقليم مرمرة.

[43←]

ناظم حكمت 1902–1963: شاعر تركي من مؤيدي حركة التتريك ومؤيد لحركة أتاتورك في بدايتها، ولكنه عارضها بعد ذلك وسجن من عام 1925م إلى عام 1950م بسبب ذلك.

[44←]

أوزر أرغينج: باحث ومؤرخ وأكاديمي تركي من مواليد عام 1945 وله العديد من المؤلفات في تاريخ الدولة العثمانية.

[45←]

موهاتش: مدينة في بلغاريا جرت بها معركة بين الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان ومملكة المجر عام 1526م وانتصر فيها العثمانيون.

[46←]

فكرة ميغالي: إحدى مفاهيم القومية اليونانية التي تهدف لإقامة دولةٍ يونانيةٍ تشمل جميع اليونانيون وكانت في القرن التاسع عشر تشمل الأراضي العثمانية التي يعيش عليها يونانيين ومنها غرب تركيا الآن.

[47←]

نيقولا الثاني (1868–1918): هو نيكولاي ألكسندر فيتش رومانوف، آخر أباطرة روسيا ويرتبط اسمه بالحرب العالمية الأولى لأنه كان أحد أطراف هذه الحرب. أعدمه البلاشفة هو وأسرته عام 1918م.

[48←]

فرانز جوزيف الأول (1830–1916): إمبراطور النمسا – المجر ولد في قصر شونبرن في فيينا كأكبر أبناء الأرشدوق فرانز كارل. تولى مقاليد الحكم عام 1848م وتوفي بعد اشتعال الحرب العالمية في العام 1916م.

[49←]

سيد بيك (1873–1925): سياسي وكاتب تركي. عُين بمنصب النَّائب عن المجلس العثماني لمدينة إزمير.

[50←]

اتفاقية كوتشوك كاينارجي 1774: اتفاقية سلام عقدت بين الدولة العثمانية وروسيا في قرية كوتشوك كاينارجي. وبموجب هذه الاتفاقية فُصلت شبه جزيرة القرم عن الدولة العثمانية وأصبحت دولة مستقلة.

[51←]

مورادغي دوسون (1740–1807): مستشرق أرمني، ومؤرخ ودبلوماسي عمل في خدمة مملكة السويد.

[52←]

سلالة هوهنزوليرن: من أهم البيوت الحاكمة في ألمانيا، وتنتمي إليها العديد من الأسر التي حكمت في مناطق عدة بألمانيا. ويعود أصل السلالة إلى منطقة شفاب.

[53←]

عائلة رومانوف: كانت الأسرة المالكة الثانية بعد أسرة روريك والأخيرة في حكم روسيا. وكان آخر الحكام من هذه العائلة هو نيقولا الثاني قيصر روسيا الذي أطاحت به ثورة تشرين الأول/أكتوبر 1917م.

[54←]

هي إدارة مستقلة أسست عام 1881 واستمرت إلى عام 1939 وكانت إدارة الدين العام وظيفتها تنظيم تسديد ديون الدولة العثمانية، وقد وضع في تصرفها قسمٌ مهمٌ من موارد الدولة العثمانية، كما مُنحت صلاحيات واسعة.

[55←]

primus inter pares: المقصود أنَّ البطريرك المسكوني للأرثوذكسية الشرقية يحمل مكانة أعلى وصلاحيات إضافية مختلفة، في حين يبقى على قدم المساواة مع أقرانه بالمعنى العام.

[56←]

الأمير ملينتس فينول مترنيش (1773–1859): سياسي ورجل دولة نمساوي ومن أهم شخصيات القرن التاسع عشر. وينسب إليه الكثير من قواعد العمل السياسي.

[57←]

شارل مريس تاليران (1754–1838): سياسي ودبلوماسي وقائد عسكري فرنسي وكان له رتبة عالية في حكم لويس السادس عشر.

[58←]

كان لويس السادس عشر من هذه السلالة، سلالة بوربون: عائلة ملكية أوروبية مهمة، وقد أعيدوا للحكم بعد أن أطاحت بهم الثورة الفرنسية عام 1815 في شخص لويس الثامن عشر شقيق لويس السادس عشر.

[59←]

ماكسميليان روبسبير (1758–1794): سياسي ومحامي وصحفي وثوري فرنسي، كان من مناصري الثورة الفرنسية وهو الذي ألح على إعدام الملك لويس. وانتخب بعد الثورة أول مندوب لباريس في المؤتمر القومي. أعدم بالمقصلة مع مائة من أتباعه من قبل بعض الثوار الذي تخوفوا من شعبيته.

[60←]

حق الإثبات: هو قانون ينص على أنَّ الصحفي عندما يكتب عن أي شخص ولديه وثيقةٌ تدين هذا الشخص، فإنَّه لا يحق لأحدٍ أن يحاكمه، وتقوم المحكمة بتبرأته بحال وجود وثيقةٍ.

[61←]

التَّشكيلات الأساسية: هي المواد الأساسية الموجودة في دستور 1921م.

[62←]

حركة 27 أيار/مايو: أو كما يعرف بانقلاب 1960 ويعتبر الانقلاب العسكري الأول في تركيا، والذي وُضع بعد دستورٌ يعتبره السياسيون الأتراك أفضل دستورٍ بمجال الحريات.

[63←]

الحزب التَّقدمي الجمهوري: هو أول حزبٍ تركي معارض، تأسس عام 1924 وأُغلق عام 1925م.

[64←]

حركة سبارتاكست: هي حركة أُسست خلال الحرب العالمية الأولى من قِبل النازيين في ألمانيا وبعد زمنٍ تحولت إلى الحزب الشيوعي الألماني.

[65←]

وصية أنقرة.

[66←]

من أهم النقوش القديمة للغة التركية ودونت من قِبل الغوك تورك.

[67←]

كارل إيبرت 1887–1980م: مخرج مسرحي وممثل ألماني.

[68←]

برونو تاوت 1880–1938م: مهندس معماري ومخطط مدن ألماني.

[69←]

اتفاقية سعد أباد 1937م: اتفاقية وقعت بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان في قصر سعد أباد بمدينة طهران تهدف لعدم الاعتداء بين هذه الدول.

[70←]

أحمد عدنان ساي غون (1907–1991): ملحن وعازف موسيقي تركي، ألف خمس سيمفونيات، وكتب أول أوبرا تركية بعنوان أوزسوي تتحدث عن العلاقات التَّاريخية بين تركيا وإيران.

[71←]

سميحة بيركسوي (1910–2004): مغنية أوبرا ورسامة تركية.

[72←]

فاليري جيسكار ديستان رئيس الجمهورية الفرنسية 1974–1981: ولد في ألمانيا عام 1926، أسس الحزب الجمهوري المستقل عام 1962.

[73←]

هيلموت كول (1930–2017): مستشار ألمانيا 1982–1998، كان العقل المدبر الذي خطط لتوحيد ألمانيا الغربية والشَّرقية عام 1990.

[74←]
(1879–1968): أو ساطع الحصري وهو ساطع بيك.

مفكر سوري وأحد مؤسسي الفكر القومي العربي. ولد في صنعاء في زمن الدولة العثمانية وعُين واليا في العديد من ولايات البلقان، وكان لديه نزعه طورانية تركية، كما عمل مع جمعية الاتحاد والترقي ونشر عدة مقالات تدعو إلى التتريك. ثم انقلب إلى رائدٍ من رواد القومية العربية ورحل إلى دمشق بعدها ليعين وزيرا للتربية.

[75←]
بالحروف اللاتينية.

[76←]
معركة فيينا: دارت بين جيش الدَّولة العثمانية بقيادة قرة مصطفى والقوات البولندية – الألمانية – النمساوية بقيادة ملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي في 12 أيلول/سبتمبر 1683 وانتهت بهزيمةٍ فاصلةٍ للقوات العثمانية.

[77←]
ميخائيل فرونز (1885–1925): سياسي وعسكري روسي شغل منصب قائد الجيش الأحمر بين عام 1924 و1925م.

[78←]
أي أن كراهية الجنود الأتراك للعرب لم تتجاوزهم وصولاً إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

[79←]
تريومفيرليك: مصلح أصله يوناني يطلق على القيادة المكونة من ثلاثة أشخاص، وقد أطلقت على قيادة الاتحاد والترقي الثلاثية بعد عام 1913.

[80←]
برنارد لويس 1916–2018: هو أستاذ فخري بريطاني – أمريكي لدراسات الشرق الأوسط. متخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب، ولديه الكثير من الأعمال حول تاريخ الدولة العثمانية.

[81←]
بوليت بيرو: يُقصد به هنا لجنة صنع السياسة العامة للحزب الشيوعي.

[82←]
أحمد زوغ 1895–1961: ملك ألبانيا بين عامي 1928–1939، كما شغل منصب رئيس الوزراء الألباني لدورتي 1922–1924 و1925–1928.

[83←]

البطريركية الأرثوذكسية التركية المستقلة: هي كنيسة أُنشأت في تركيا خلال الحرب التركية اليونانية في عام 1919–1922، وأتباع الكنيسة هم بشكل خاص المسيحيون الأرثوذكس من العرق التركي ومن دعاة القومية التركية، وهي كنيسة أرثوذكسية شرقية غير معترفٍ بها.

[84←]

دبروجا: إقليم تاريخي يقع جنوب شرق رومانيا وشمال بلغاريا ويتبع الإقليم اليوم لرومانيا.

[85←]

معاهدة نويي: معاهدة وقعتها بلغاريا مع دول الحلفاء في عام 1919 مع دول الحلفاء، فقدت بموجبها 10 بالمائة من مساحتها وسُبع سكانها، وسُلمت هذه الأراضي لليونان ويوغوسلافيا.

[86←]

ألكسندر ستامبولسكي 1879–1923: رئيس وزراء بلغاريا بين عامي 1919 و1923م.

[87←]

ميكلوش هورتي 1868–1957: ضابطٌ ووصي عرش المملكة المجرية بين عامي 1920 و1944م.

[88←]

تقرير السكون: هو قانون تمت المصادقة عليه من البرلمان في عام 1925م، وينص على منح سلطات أكبر للحكومة التي يرأسها عصمت إينونو لتستطيع السيطرة على أول احتجاجٍ مسلح في جنوب وجنوب شرق تركيا، وكان يقوده الشيخ سعيد.

[89←]

تقع منطقة أُسكودار في الطَّرف الأوروبي من إسطنبول.

[90←]

علم الهيتت: هو العلم الذي يبحث في أصل وتاريخ ولغة العرق الهيتيتي.

[91←]

تشانكايا: هي منطقة في أنقرة تُعتبر المركز الاقتصادي والثقافي للمدينة، وتضم الإدارات الحكومية وأهمها مجلس الأمة التركي الكبير.

[92←]

أحداث التان 1945: هاجمت مجموعة من الطلاب اليساريين جريدة التان المحلية التركية لأنها تدافع عن الاتحاد السوفييتي وعن تطوير العلاقات معه، بالرغم من طلب الاتحاد السوفييتي أن يكون له دورٌ في إدارة مضيق البوسفور.

[93←]
الثلاثة من قادة حرب استقلال اليونان.

[94←]
شكري كايا 1883–1959: سياسي تركي تقلد منصب وزير الداخلية ومنصب وزير الشؤون الخارجية في عدة وزارات.

[95←]
علي فؤاد باشا (1882–1968): سياسي ودبلوماسي تركي وأحد أهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ومن الأصدقاء المقربين لمصطفى كمال أتاتورك في الكلية الحربية.

[96←]
يوري غاغارين 1934–1968: أول رائد فضاء سوفييتي، توفي في حادث طيران.

[97←]
عبد القادر إنان (1889–1976): من أحد قادة شعوب الباشقورد التركية، وباحث في الدين والثقافة التركية القديمة.

[98←]
آل هابسبورغ: إحدى أهم العائلات المالكة في أوروبا، وتشتهر بكونها مصدر الأباطرة المنتخبين رسميا لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين 1438–1740، وكذلك حكام الإمبراطوريات النمساوية والإسبانية والعديد من البلدان الأخرى.

[99←]
معركة موهاتش 1526: معركة جرت بين الدولة العثمانية من جهة ومملكة المجر وكرواتيا وبوهيميا وبولندا والإمبراطورية الرومانية والدولة البابوية وبافاريا من جهةٍ أخرى. انتصر العثمانيين بهذه المعركة وفتحوا المجر والعاصمة بودابست.